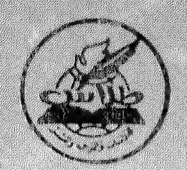
ألبير شاندور

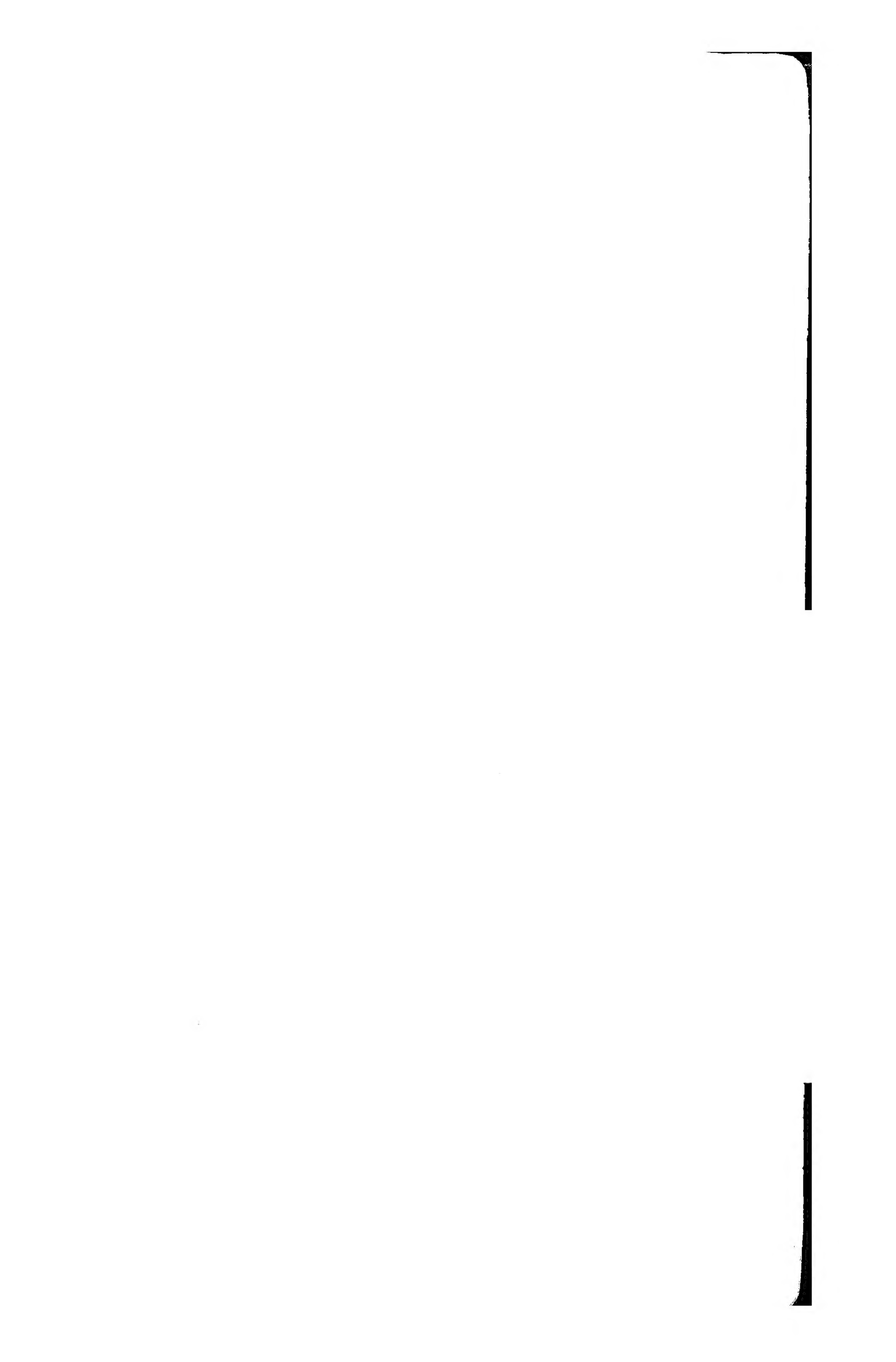


صلاح الدين الأيوبي

البطل الأنقى في الإسلام

ترجمة عن الفرنسية
... حسن

مراجعة وتحقيق
نديم مرعشلي





دمشق ــ أوتوستراد المزة
هاتف
٢٤٤١٢٦ ــ ٢٤٣٩٥١ ــ ٢١٣٨٢١
تلكس: ٤١٢٠٥٠
ص.ب: ١٦٠٣٥
العنوان البرقي
طلاسدار
TLASDAR

ريع الدار مخصص
لصالح مدارس ابناء الشهداء في القطر العربي السوري

صلاح الدين الأيوبي

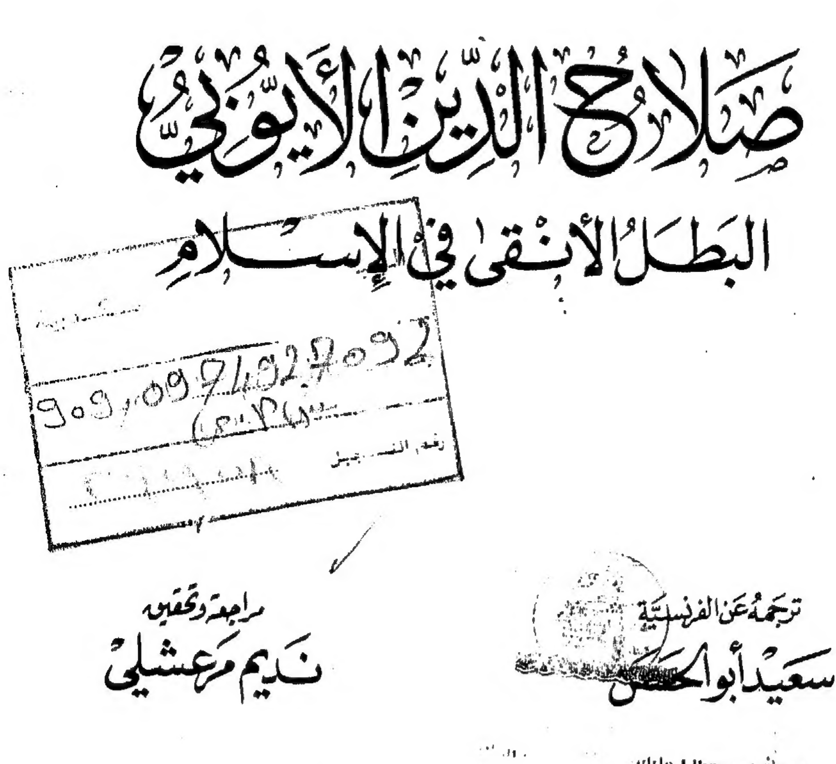
البطل الأنقى في الإسلام

طبعة ثانية
١٩٩٣

البير شاندور

صلاح الدين الأيوبي

البطل الأنقى في الإسلام

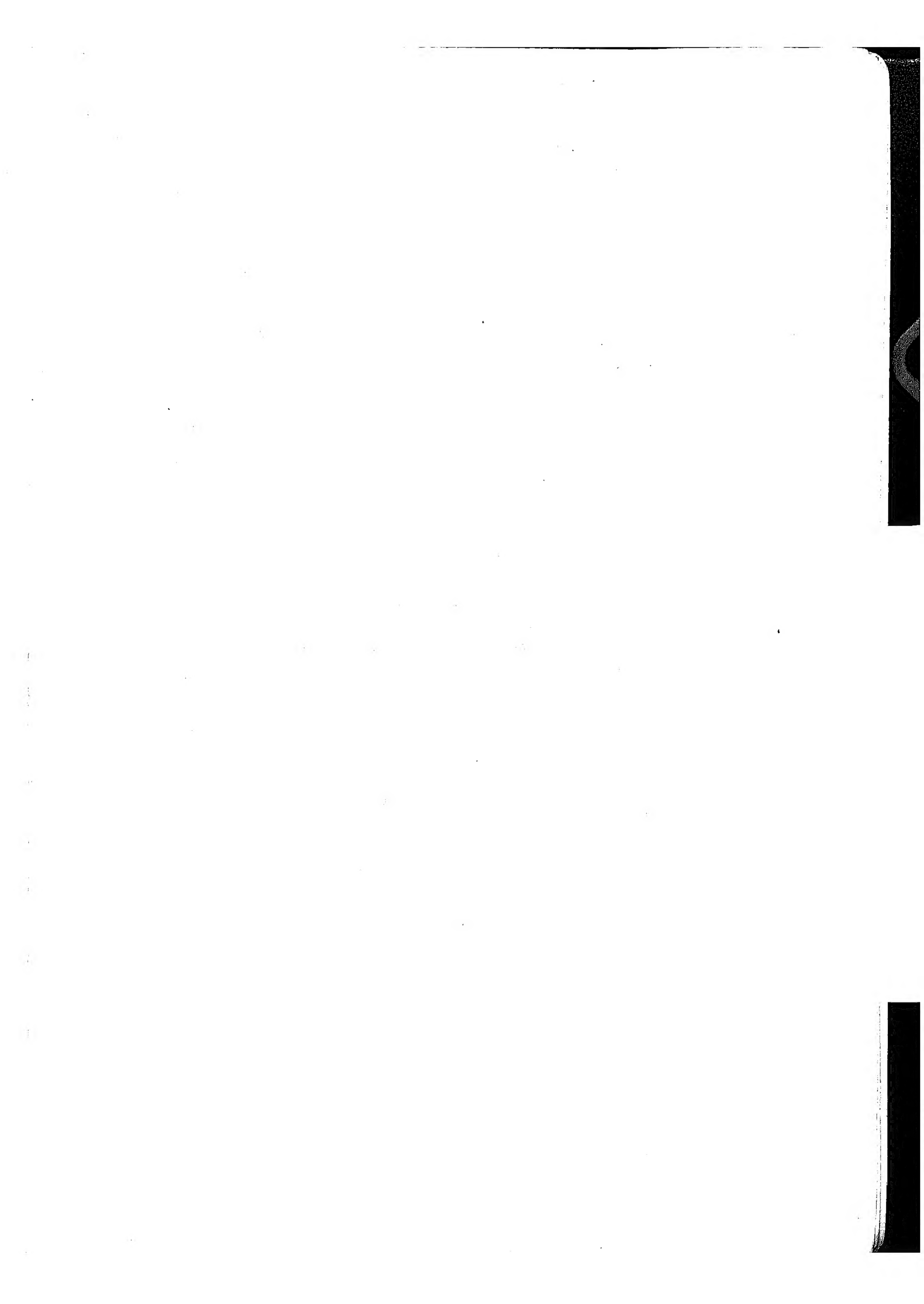


ترجمة عن الفرنسية
سعيد أبو الحسن

مراجعة وتحقيق
نديم مرعشلي

قدم له
العماد مصطفى طلاس

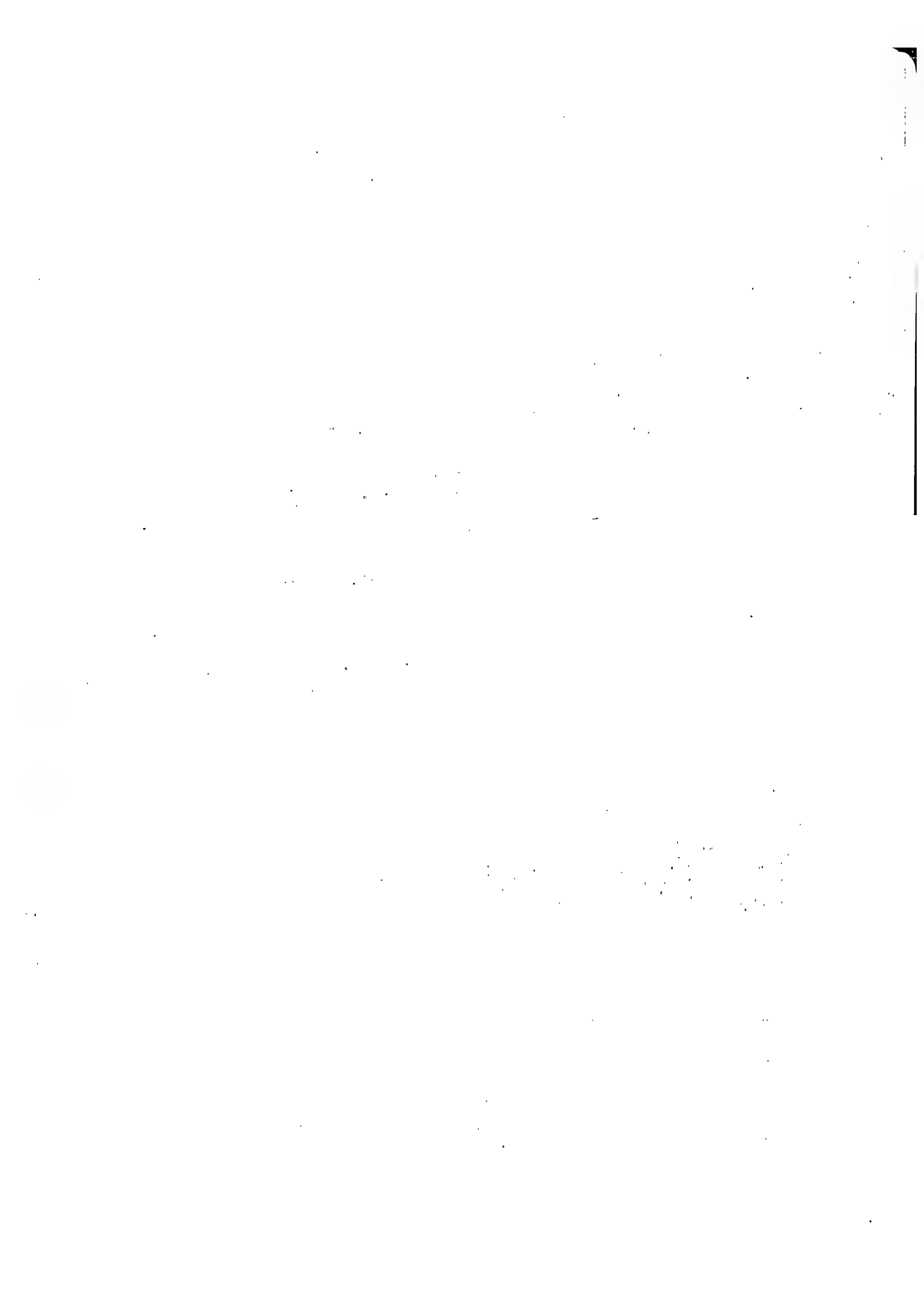
بسم الله الرحمن الرحيم



الإهداء

إلى الجندي العربي الباسل، الواقف على خط النار في مواجهة العدو الصهيوني.. نقدم كتابنا هذا فى ذكرى مرور ثمانية قرون على معركة حطين وتحرير القدس، واثقين أن للعروبة ـ أقَصُرَ الأمد أم طال ـ حطين ثانية، وتحريراً أخيراً لبيت المقدس. ولن تُخمِدَ قوى الطغيان شعلة الإيمان.

سعيد، نديم



رأيت صلاح الدين أمة وحده

دانتي
الكومديا الإآلهية



تـقـديـم

بقلم العماد مصطفى طلاس

ما زالت قصة الصراع بين الشرق والغرب إبان الحروب الصليبية[1] المصدر التاريخي الثرّ لكثير من البحوث والدراسات التي ما برحت ترفد المكتبة العالمية بنتاج القرائح وثمرات الأفكار من شتى أصقاع المعمورة.

ذلك لأن تلك الحروب تركت بصماتها على المسيرة التاريخية، بل ما انفكت آثارها تظهر بهذه الصورة أو تلك في العلاقة ما بين الشرق والغرب ولاتصالها المباشر بملحمة صراعهما العقائدي والسياسي والاجتماعي والاقتصادي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر، لتأخذ الآن دورها، ولو بشكل غير مباشر، ممثلاً بمختلف ضروب النزاع الدائر في عالمنا المعاصر.

ولا أدري إذا كان ذاك على قدر أم محض مصادفة أن يضع بين يدي الأخوان العزيزان الأستاذان سعيد أبو الحسن ونديم مرعشلي مخطوطة هذا الكتاب «**صلاح الدين.. البطل الأنقى في الإسلام**» لمؤلفه المستشرق

(١) الجدير بالذكر أن المؤرخين العرب أطلقوا على تلك الحروب اسم (حروب الفرنجة) في حين أطلق عليها المؤرخون الأوربيون اسم (الحروب الصليبية) ثم نقلت هذه التسمية في القرن الحالي بعد السيطرة السياسية والثقافية الغربية.

الفرنسي «البير شاندور» كي أقدم له.. في وقت كانت دمشق العروبة تحيي بندوتها العامرة ذكرى مرور ٨٠٠ عام على معركة حطين الخالدة، وتحرير بيت المقدس، وتتنفس بملء رئتيها عبق هذا الحدث التاريخي الهام.. لأن حطين هي ـ بلا ريب ـ إحدى كبريات معاركنا التحريرية.. ونقطة انعطاف في مسيرة الصراع العربي ـ الأوروبي.. وواحدة من أنصع صفحات تاريخنا تألقاً ضد غزو الاستعمار الاستيطاني الذي شهدته القرون الوسطى، ممثلاً بالممالك الفرنجية وليدة الحملات الصليبية في الشرق الأوسط.. وكان بطل أبطالها وعلم أعلامها «صلاح الدين».

وبديهي والوطن العربي اليوم يعاني ما يعانيه من واقع مر مرده تمزق وحدة الصف، أن تحمل لنا هذه الذكرى شذى طيب الماضي، وعبق تاريخنا التليد، وأن تشدنا لتقليب صفحات ماغبر من أيامها، فيما نحن نتلمس سبيل المستقبل، ونرى بشائره تومض في سماء دمشق العروبة.

لقد تعرض وطننا العربي ـ نتيجة تمزقه ـ لكثير من غزوات الاحتلال وأعاصير الاجتياح، فالغزو الصليبي، والإعصار المغولي، ثم الاستعمار الاستيطاني ممثلاً بالكيان الصهيوني الذي غرسته حراب الإمبريالية العالمية في فلسطيننا الحبيبة.

مما يجعل حطين اليوم تتجلى لنا ليس فقط في منارة أمل، بل كذلك مجترح عمل، فالكيانات المصطنعة مصيرها الزوال سواء أقصر الزمن أم طال.. ما دامت شعلة التحرير تعمر قلوبنا، وإرادة القتال متوهجة في أعماقنا تؤجج فينا جذوة الإيمان بالنصر والتحرير، وتكتب صفحة الأحداث التي لا بد أن تكون على موعد مع أمين الأمة وقائد المرحلة التاريخية وبطلها أسد الشام الذي سيجمع متفرق الكلمة تحت راية الشهادة أو النصر.. كما اضطلع صلاح الدين برسالة لم الشمل، وتوحيد الكلمة فصدم الصليبيين بقوة العرب

والمسلمين مجتمعين داحرا إياهم في حطين بطاقة ثلاث عواصم هي دمشق وحلب والقاهرة، ترفدها حشود الأمة من جميع أقطارها.

ألبير شاندور... والشرق

وألبير شاندور، المستشرق الفرنسي المنصف والباحث الرصين، الذي اهتم بآثار الشرق وقضاياه وعشق جماله الأسطوري وحضاراته المتعاقبة، ووضع عدة مؤلفات تترجم نوازع اهتماماته منها «بلاد سورية وآلهتها»، «تدمر خرائب وأطلال»، «هياكل بعلبك»، «نينوى»، «مصر الفراعنة»، «طيبة ذات المئة باب».

والذي كتب بصفته باحثاً في علم الجمال عن «امتلاك الجمال» وعن الجميل في آثار الشرق وقدم دراسات جادة، أثرت المكتبة العالمية وكرس شخصيات تاريخية كانت لسان عهدها الذي اتسم بها، مثال «قورش» العظيم ملك فارس القديمة وباني عظمة الأسرة الأخمينية، و «تيمورلنك» الفاتح المغولي الرهيب، وأخيراً وليس آخراً هذا الكتاب، الذي يجلو للعالم صورة بطلنا الأشهر في تاريخ الأمة العربية في القرون الوسطى «صلاح الدين البطل الأنقى في الإسلام»، والذي صور فيه شخصية هذا العلم والقائد الإنسان بإطار مرحلته التاريخية الهامة وكفاحه البطولي ضد الكيانات الفرنجية في الشرق بأسلوب علمي رصين وأداء مشرق، وبسط لنا صفحات حياته الحافلة بالأحداث وما تحلى به من رفيع السجايا، ودماثة الخلق، رغم مضاء حسامه وشدة ذراعه، كل ذلك برصانة العالم، وتحليل الباحث ونفاذ بصيرة المفكر وألمعية المؤرخ الناقد، وبشغف يحدوه هاجس تملّي روائع بلاد الشرق، بذكرها وبذكر حصونها وقلاعها، ورسم كل ذلك بريشة فنان فذ، وشاعرية عاشق يهوى البطولة، ويقدّر الجمال فاستطاع أن يصور لنا بكلمات قليلة ــ لكنها نابضة بحس شاعري مرهف ــ نشوء مدن الشرق وآثارها الفريدة ولحظاتها البطولية.

ولنسمعه يتحدث عن دمشق الجميلة الخالدة البيضاء النقية إبان الحملة الصليبية الثانية، وكيف أصيب الفرنجة بالدهشة لمرأى سحرها الأخاذ يقول:

«أي تأثر استحوذ على الصليبيين حينما اكتشفوا دمشق العظيمة الصامتة البيضاء، التي كانت مآذنها تشمخ في انطلاقة واحدة من الحجر وسط امتداد رحب المدى من البساتين، وأي فرح لعيونهم المرهقة بالاشعاعات القاسية عندما رأوا هذا الفردوس المنسي على الأرض ينتصب أمامهم، فهذه المدينة الشهيرة كانت تبدو لمن يرنو إليها من التلال المجاورة سابحة في النور المنبثق من ذاتها غامضة عظيمة شبقة.

ودمشق كانت رمز الشرق وجماله وسحره، بل كل عظمته الأسطورية التي لم تتعب منها مخيلاتهم». (الفصل الثالث).

ويتحدث عن القاهرة المدينة الملكية، مجد الإسلام وسيفه: «القاهرة... هذا الاسم المهيب الذي يجنح وقعه جميل ذكرياتنا، هذه المدينة المقدسة التي ـ شأنها شأن دمشق الصامتة البيضاء الكبرى ـ والتي كانت تعبر أمس كما تعبر على الدوام بشاعرية قصورها وترف أسواقها عن مجد الإسلام وسيفه، هذه المدينة الملكية حقاً، والمشهورة، موضع احترام جميع المسلمين في سائر أنحاء العالم» (الفصل السادس).

ويحدثنا في معرض دراسته عن مدينة حلب، حين عسكرت قوات صلاح الدين أمام أسوارها بتلك اللقطات التي يأخذ فيها التاريخ بيد الجغرافية يمشيان جنباً إلى جنب، تفيأ كلاهما ظلال الحضارة المنبسطة من الماضي البعيد، مندمجة براهن الأيام:

«حلب أقدم مدينة في العالم، ما تزال قائمة في أيامنا مسكونة مزدهرة، بعد أن شهدت تحت أسوارها أوسع هجرات الشعوب...» وهو بعد أن يستعرض ما شهدته من ازدهار وعمران، وما أثرته بعميق طابعها المميز على

مختلف شعوب المشرق لتظل رغم ما اعتورها من أحداث قائمة راسخة شامخة على صدر المعمورة، بينما انهارت من حولها عواصم كثيرة أمثال نينوى وبابل وغيرهما يقول :

« وهكذا فإن مركز حلب، الواقعة على ملتقى تقاطع وحدات جغرافية واسعة، وتجمعات بشرية كبيرة، كان وراء حسن حظها أو سوء طالعها، وذلك محصلة مفترق طرق المواصلات، وكانت الأعجوبة تكمن في قدرتها على البقاء عبر هذه الإمبراطوريات العديدة.. وأن تزدهر رغم غزوات الشعوب التي عتت ـــ في كل مكان آخر ـــ على حضارات كاملة، أية آلهة إذاً حمت حلب عبر هذه السلسلة الطويلة من القرون؟ هذه المدينة التي رأت الكثير من الأرباب وظلت حية متجددة الشباب، بينما انهارت نينوى في اللهب، وامحت بابل في الصحراء، ولم تعد مدن شهيرة غيرها لتخطر بذاكرة البشر». (الفصل الثامن).

وهكذا يأخذ بيدنا هذا المؤرخ معرجاً على معظم مدن بلاد الشام ذاكراً تاريخ نشوئها، أوابدها وأحداثها في استطرادات تاريخية ممتعة، فيما هو ماض بدراسته «صلاح الدين.. البطل الأنقى في الإسلام» وما كابده مع الغرب الفرنجي باحثاً بدراسة منهجية ما وراء الأحداث من بواعث بدءاً من أولى الحملات الصليبية التي أسست الممالك الفرنجية، وظهور الروح الكفاحية، انطلاقاً من بقاع الشام وقيام عهد صلاح الدين محققاً الانجازات العظيمة، التي زعزعت الكيانات الصليبية، ومهدت عملياً لتصفيتها نهائياً. في ثنايا قصة حياة بطل، كم يتمنى القارىء أن تطول وتطول.

واقع العالم الإسلامي عشية الحروب الصليبية

والآن لنرى كيف يبدأ المؤلف دراسته واقع الصراع الذي شجر ما بين الشرق والغرب؟ هل تراه شرع من الغرب مَكْمَن هذه الحروب الصليبية؟ أم من الشرق، مسرح أحداثها، ومشهد دامي معاركها التي استمرت قرابة قرنين

بدءاً من الحروب الصليبية الأولى (١٠٩٥ — ١٠٩٩) حتى سقوط عكا آخر معقل صليبي في الأرض المقدسة (١٢٩١)؟

لقد اختار مؤرخنا الشرق منطلقاً لدراسته، حين بحث في الفصل الأول من كتابه «التمخضات الكبرى في العالم الإسلامي عشية الحروب الصليبية» وعرض واقع الانقسام في الصف العربي والإسلامي وضعف السلطة المركزية، وتسلط المرتزقة على الحكم وعلى الخلافة العباسية، وقيام الدويلات والإمارات وهزيل الممالك، بعد أن كانت للعالم الإسلامي وحدته المعتقدية والزمنية الراسخة، وهو يرى أن بوادر الانقسام والتفكك هذه، قد أدت إلى تمزق العالم الإسلامي الذي دخلت أطرافه مرحلة النزاع فيما بينها حتى لم يبق للخلافة العباسية سوى ظلها الديني، وللخليفة غير العيش في شاهق قصره.. يحيا على الرفاه لكن دون أن يمسك بمقاليد الحكم.

ويزيد في فصول المأساة أن يكون للخلافة مركز ثان هو القاهرة. حيث يتربع الخليفة الفاطمي الذي امتد سلطانه على فلسطين حيث دمرت كنيسة القيامة على يد الحاكم بأمر الله، وحدثت بعض التجاوزات على الحجاج الفرنجة التي ضخمت كثيراً في ربوع الغرب فتحركت الكنيسة تؤجج نيران العداوة ضد عالمي العروبة والإسلام، مخفية وراء ذلك كما نعلم علم اليقين حوافز اقتصادية استثمارية استعمارية كما يتضح في ثنايا الكتاب والكثير من صفحاته.

وكانت معركة ملاذكرد (هنزيكريت) عام ١٠٧١ التي أباد فيها السلاجقة جيشاً بيزنطياً قوامه مئة ألف مقاتل، الفتيلَ الذي زاد في ضرام الأحداث وتسارعها، وخرج مجمع كليرمون عام ١٠٩٥ بقرار امتشاق السلاح، وزحف أولى الحملات الصليبية نحو الشرق في الظروف التي بسطنا بعض جوانبها من انقسامه وتمزقه.

وتلقت سورية وحدها الصدمة الأولى، يقول الكاتب المؤرخ:

«وهذا الحدث الذي انتاب سورية كان بالنسبة إلى الصليبيين حدثاً

سماوياً ، فالوحدة الإسلامية المحققة بقبضة حديدية لم تقم قطعاً تجاه هذه المحنة الجديدة التي حلت بالإسلام السوري ، أما ورثة السلجوقيين فانقلبوا اقطاعيين همهم المحافظة على مناطقهم من غارات جيرانهم ، وبهذا انفصمت روابط الوحدة مرة أخرى ، بوقت كانت فيه وحدة العرق والدين ضرورية لمواجهة التهديد الذي أخذ يتضح في الغرب » . (الفصل الأول) .

الدول اللاتينية في المشرق وعوامل قوتها ووضعها

وكان من النتائج المباشرة للحملة الصليبية الأولى ، أن حقق الفرنجة نصرهم العسكري في الشرق فسقط الساحل السوري بيدهم ، من انطاكية حتى إيلات ، واحتلوا مدينة القدس (١٠٩٩) ، وظهرت الدول اللاتينية في بلاد الشام ، وتأسست مملكة القدس وإلى جانبها قامت دول وإمارات وكونتيات ومشيخات صليبية .

ويمكن القول إن الصليبيين حملوا معهم بذور قوتهم وضعفهم معاً ، حين مارسوا أساليب العلاقات السياسية والاقتصادية والعسكرية للنظام الإقطاعي الأوربي في إطار سياسة استعمارية استيطانية ، ولكن مع تطوير ليبرالي لهذا النظام ، يقول المؤلف : « لقد مارس الصليبيون في سورية عفواً ودون شعور منهم سياسة استعمارية بارعة من الغبن عدم الاعتراف باستلهاماتها الليبرالية » . (الفصل الثاني) .

تلك الليبرالية التي كم حزّت انعكاساتها في نفس الرحالة ابن جبير ، إذ عاد كثير من النازحين العرب المسلمين إلى بيوتهم وأراضيهم ، مؤثرين العيش في كنف الفرنجة المستعمرين ، على الحياة في ظل الحكام المسلمين ، لأنهم اختاروا النير الأخف وطأة .. وحبذا لو وعى بعض حكامنا اليوم هذا المثل .

وفي ظل النظام الاقطاعي ومنهجية الاستعمار الاستيطاني ، انتشرت القلاع والحصون الصليبية في المشرق على ساحل سورية ، والتي ما برحت آثارها

ظاهرة حتى اليوم، تذكرنا بذلك الماضي البعيد القريب الذي ما زلنا نحياه ونقلب صفحاته ونقرأ واقعنا الراهن فيه.

هذا، ودرس الكاتب طبيعة النظام القائم وحلل أسس العلاقات الاقتصادية ـــ التجارية السائدة، والواقع الاجتماعي للمسلمين الذين يعيشون في ظل النظام الصليبي مستنداً إلى مصادر الدراسات التاريخية العربية منها والأجنبية، التي كانت شاهد عيان لما جرى على الأرض، فهو ينقل عن كتب الرحالة العرب كابن جبير والمؤرخين المعاصرين كابن الأثير في كتابه: الكامل في التاريخ، والعماد الأصفهاني، وتاريخ وليم الصوري، وذيله.. هذه المصادر التي تعد وثائق تاريخية هامة، لتلك المرحلة الخطيرة في علاقات الشرق

واستناداً إلى الوثائق الفرنجية، أكد المؤلف أن فرنجة المشرق لم يعودوا أوربيين بل غدوا شرقيين يقول: «ولم تلبث أن دوت كلمة رئيس الكنيسة بودوان الأول: «لقد أصبحنا شرقيين كاملين، فالروماني أو الفرنجي تحول في بنائه الجديد إلى جليلي أو فلسطيني، والمولود في رنس أو شارتر انقلب إلى واحد من أهالي صور أو انطاكية».

يقظة الإسلام السوري

ولكن الوجود الصليبي في الشرق لم يمر دون ردة فعل قدحت شرارتها أول ما قدحت على الصعيد الشعبي، فسقوط المدن الساحلية السورية ومن ثم احتلال القدس، وارتكاب المجزرة الشنيعة التي ذهب ضحيتها سبعون ألف مسلم في المسجد الأقصى وحده، هذه جميعها أحدثت هزة عنيفة في ديار الإسلام.

وما عتم أن تبدت آثارها الأولى وبالتالي أوار لهبها كيقظة ـــ بعد غفلة ـــ في سورية النضال. فكانت الدعوة إلى الجهاد تتعالى في بلاد الشام، وتتردد

أصداؤها في سائر الأصقاع الإسلامية، يقول شاندور: «لم تلبث الدلائل الأولى لرد الفعل الإسلامي أن ظهرت في دمشق أولاً، ثم في حلب وديار بكر والموصل.. واستيقظ الإسلام السوري بعد أن وعى مصائبه، للجهاد، ومن أقاصي المغرب إلى أعماق المشرق دوّت صرخة التوحيد الرهيبة على كل ما عداها من صرخات ثانوية.. الجهاد في كل مكان».

نور الدين زنكي بطل الإسلام والمناضل بلا هوادة ضد الفرنجة

وكان أن تشكلت آمال عريضة لدى العرب المسلمين بالنصر على الفرنجة مع فشل الحملة الصليبية الثانية أمام دمشق وارتداد الصليبيين عن أسوارها عام ١١٤٨ وغدت هذه الآمال حقيقة مع بزوغ نجم نور الدين زنكي البطل القومي نيراً ساطعاً، يتابع شاندور: «وتحققت هذه الآمال، إذ دخل تاريخ الإسلام السوري شخص جديد ــ يمكن اعتبار ملكه بهذا الشكل أو غيره المقدمة لملك صلاح الدين ــ لقد سبق أن أشرنا إليه آنفاً حين قلنا إن منطقة حلب آلت إلى يد نور الدين، الذي كان تجسيداً للإيمان المناضل.

كان حاكماً صوفياً عنيفاً، وبطلاً قومياً حقيقياً، مؤمناً بعظمة الرسالة السماوية. هذا الجندي الباسل الذي غدا بفضل سلسلة من المناورات تدعمها التظاهرات العسكرية سيد سورية، والذي سيكرس حياته لمقارعة الفرنجة ومنازلتهم، بينما كانت الممالك اللاتينية في الغرب تصاب بردة الفعل المزعجة في أعقاب فشل الحملة الصليبية الثانية». (الفصل الثالث).

واستفاد الإسلام المناضل من انقسام صف فرنجة المشرق، وحقق ــ على يد نور الدين زنكي ــ وحدة بلاد الشام، هذا البطل القومي الذي وضع نصب عينيه هدفاً وحيداً لا يحيد عنه: الكفاح ضد الجسم الغريب، وطرد الصليبيين الأجانب خارج سورية وفلسطين.

وأهمية نور الدين زنكي بالنسبة لتاريخ الحروب الصليبية ولعهد صلاح

الدين تكمن في أنه أرسى قواعد النضال ضد فرنجة المشرق، وأقام الأسس الراسخة التي شاد عليها صلاح الدين شامخ مجده النضالي، مستفيداً من ضعف النظام الاقطاعي الصليبي، يقول شاندور:

«وسبق لبعض المؤرخين أن كتبوا قائلين: إن ضعف دول الفرنجة بسورية ناجم في جوهره عن كون الصليبيين جلبوا معهم النظام الاقطاعي، ولم تكن سلطة كبار البارونات لتتعدى اقطاعاتهم المحصنة. وغدت القدس بيزنطة ثانية. وكانت هذه الأسباب من عوامل الضعف التي ما كان لها إلا أن تحظى بمباركة زعيم مسلم من مستوى نور الدين الذي انفرد بمهمة استغلال هذا الوضع مرسياً الأسس التي سيشيد عليها صلاح الدين بناءً راسخاً.. فخلال الثماني والعشرين سنة التي أمسك فيها بمقاليد الحكم (١١٤٦ــ ١١٧٤) أنهك الصليبيين هادماً حصونهم.. وفي أقل من سنتين احتل تقريباً جميع مواقع الفرنجة في سورية الشمالية، غير تارك لأعدائه لحظة راحة، داحراً إياهم في جرأة اهتزت لها القدس». (الفصل الثالث).

الصراع على وادي النيل وبروز نجم صلاح الدين

لقد حدد الصراع على وادي النيل بين الفرنجة والمسلمين، بدايات هذا «البطل الأنقى في الإسلام: صلاح الدين» إذ سعى الصليبيون لبسط نفوذهم على أرض الكنانة، للاستئثار بخيراتها من جهة، وخشية قيام وحدة سورية مصرية، تقرب نهايتهم في المشرق.. من جهة ثانية. ودفعت الحملة الصليبية على مصر، وما نجم عنها من ارتكاب الفظائع والمجازر في بلبيس، الخليفة الفاطمي للاستنجاد بـ نور الدين حين أرسل له شعور نسائه مستغيثاً به..

وكان هذا حدثاً بالغ الأهمية في سياق الحركة التاريخية لمنطقة الشرق الأوسط، إذ ترتبت عليه جملة من الأحداث، منها: تألق نجم صلاح الدين الأيوبي الذي رافق عمه البطل الأسطورة أسد الدين شيركوه على رأس الجيش السوري الذي أنفذه نور الدين إلى مصر، لدرء الخطر الصليبي عنها، فاستقبل

في ٨ كانون الثاني كمحرر للبلاد. وكان صلاح الدين ساعد عمه الأيمن في القضاء على مؤامرات رجالات البلاط الفاطمي، واستتباب الأمن في أرض الكنانة، وخلفه بعد قصير زمن على سدة وزارة مصر، فغدا سيدها المطلق الذي وضع نهاية الخلافة الفاطمية في القاهرة، مؤسساً على أنقاضها الدولة الأيوبية، ومتابعاً خطة مقارعة الفرنجة، متمماً بذلك رسالة نور الدين، يقول شاندور:

«أقض مضجع الصليبيين أن يروا قبضة صلاح الدين تحكم السيطرة على مصر المشتهاة، وكان على الممالك اللاتينية في المشرق التي تهددها حلب من الشمال ودمشق من الشرق، أن تأخذ من الآن فصاعداً جانب الحذر من الجنوب حيث غدت مملكة القدس تتهددها مصر التي أصبحت ثانية ــ تحت حكم صلاح الدين ــ بؤرة الإسلام المناضل». (الفصل الخامس).

وما لبث ملك القدس أن سارع إلى الدعوة لحرب صليبية جديدة لكنها لم تسفر عن أية نتيجة، رغم قيام حلف ما بين بيزنطة ومملكة القدس هدفه الاستيلاء على مصر، والعمل على فصم وحدة وادي النيل وبلاد الشام، فنهد صلاح الدين لمقارعة قوى التحالف هذه، وتمكن من دحرها في دمياط عام ١١٦٩. وليس هذا فحسب، بل انتقل من الدفاع إلى الهجوم ليمنع الصليبيين من التسلل ثانية إلى مصر، وخاض ضدهم عمليات عسكرية ظافرة، فدخل مدينة غزة وحرر إيلات الواقعة على البحر الأحمر، وبذا تمكن من إبعاد شبح خطرهم عنه، وتأمين سلامة أرض الكنانة.

وبرز صلاح الدين رجلاً سياسياً بارعاً، وعسكرياً لا يشق له غبار، وشكل خطراً داهماً على الممالك اللاتينية، وخاصة بعد أن أنهى الخلافة الفاطمية، وسارع لاصلاح نظام الحكم في ربوع وادي النيل، وحقق نهضة سياسية، وازدهاراً اقتصادياً. وتقدماً عمرانياً.

وفي هذه المرحلة التاريخية، ظهرت الانقسامات داخل صفوف الفرنجة

ولا سيما بعد وفاة آموري ملك القدس والخلافات الناشبة حول الوصاية ، كما ذر قرن الفتنة في الدولة الزنكية أعقابَ وفاة نور الدين وقيام المنازعات بين الأمراء على اقتسام السلطة بوجود ابن نور الدين القاصر.

وتوجهت أنظار الشخصيات النافذة في دمشق إلى البطل صلاح الدين ، فسارعت لاستدعائه لانقاذ بلاد الشام من الأخطار المحدقة بها داخلياً وخارجياً ، طالبة منه أن يكون له دوره الحاسم في مستقبل البلاد ، وأن يحقق بالتالي المشروع الطموح الذي بدأه نور الدين : طرد الفرنجة وتحرير الديار من رجس الدخلاء.

وفي العام ١١٧٤ استقبل سكان دمشق بأهازيج الابتهاج صلاح الدين كرمز للبطل المنقذ ، وسرعان ما انضوت تحت ظل قيادته المدن السورية الأخرى حين حقق نصره الحاسم على القوات الزنكية التي قادها أمراء ما بين النهرين ، قرب حماة ، وبذا غدا سيد القطرين سورية ومصر ، مطوقاً بهما الوجود الصليبي من حلب إلى القاهرة.

ويقول شاندور : « وهكذا بعد نجاحات متنوعة كانت سلطة مؤسس السلالة الأيوبية تترسخ ويعترف بها من حلب إلى القاهرة. وكتب غيوم الصوري يقول : لقد انتشرت تلك الأنباء في أراضي الفرنجة الذين انتابهم من جرائها الذعر لأنها كانت دائماً موضع تخوفهم ، لإدراكهم تماماً أنهم سيطوقون من جميع الجهات ، إذا استولى صلاح الدين على حلب » . (الفصل الثامن) .

وتابع صلاح الدين سيرته الكفاحية ضد الوجود الصليبي في الشرق بعد أن رأى أن الفرنجة ما زالت تنزع بهم الأحلام للسيطرة على وادي النيل وأن محاولاتهم العسكرية الرامية حسب قول شاندور : « إلى إقامة دولة فرنجية تكون امتداداً طبيعياً لمملكة القدس في وادي النيل الخصيب ينبوع الغلات ، ومصدر الواردات » . (الفصل التاسع) خاصة وأن هذه المحاولات لم تبرح تأخذ هذا الشكل أو ذاك.

إلا أن طموحاتهم تبخرت أمام صمود السلطة الأيوبية أولاً، وبسبب خلافاتهم الداخلية، ومصالحهم الإقطاعية الأنانية ثانياً.

السيرة النضالية المستمرة ضد فرنجة الشرق

لقد كانت سيرة صلاح الدين بمجملها سيرة كفاح متواصل، إذ نقل مركز سلطته إلى دمشق ليكون قريباً من أعداء العروبة والإسلام. وليتابع مشروعه التحرري النضالي الطموح الهادف إلى تصفية الكيانات الصليبية لاستمرار انتهاكاتهم، في المشرق.. لا سيما وأن الصليبيين لم يكفوا البتة عن النزوع العدواني، وشنيع أفعال سيد الكرك رينو دي شاتيون، الذي عجل بطيشه وحماقاته، ومشروعه الخطير للاستيلاء على المدينتين الإسلاميتين المقدستين مكة والمدينة، فضلاً عن تجاوزاته المتكررة وخرق اتفاقيات السلم ونهب قوافل الحجيج المسلمين، مما عجل بدفع عجلة الأحداث إلى النقطة الحاسمة في سياق الحروب الصليبية، ونشوب معركة حطين، حين دعا صلاح الدين يؤيده خليفة بغداد «إلى الجهاد المقدس في جميع الديار الإسلامية واعتبرت بذلك أراضي الفرنجة دار حرب». (الفصل الثالث عشر).

حطين.. النصر الأعظم للعرب والمسلمين على الفرنجة

وأعطت الدعوة إلى الجهاد المقدس ثمارها، إذ استنفرت سائر القوى والقبائل العربية في مصر والمشرق العربي، وزجت طاقاتها في معركة التحرير، فعجت التلال والهضاب بفرسان الرحمن.. يقول شاندور واصفاً حشود المسلمين:

«فامتلأت تخوم الجليل بسحب من القوافل شبيهة بزمن التجمعات العربية عشية فتح الشرق البيزنطي والساساني».

وأخذ صلاح الدين يعد العدة لحرب عسكرية طويلة الأمد، ولخوض معركة مصيرية حاسمة، سرعان ما بلغت أصداؤها مسامع الفرنجة، فسارعوا إلى

نبذ خلافاتهم ورأب الصدع في صفوفهم، وتنادوا لتحقيق «وحدتهم المقدسة» لأنهم غدوا على يقين من أن المعركة المقبلة مع المسلمين تختلف عما عداها من معارك خاضوها في الشرق، فهي معركة مصير، يتوقف عليها وجود أو زوال الكيانات اللاتينية في المشرق العربي، ولهذا حشدوا لها سائر الرجال القادرين على حمل السلاح، يقول شاندور:

«وكان بوسع ملك القدس ــ غي دي لوزينيان ــ أن يزعم أنه حشد في صفورية أحد أهم الجيوش في جميع الحروب الصليبية». (الفصل الرابع عشر).

وأجبر صلاح الدين الفرنجة ــ بمحاصرته قلعة طبرية ــ على التخلي عن صفورية الغنية بالينابيع والمراعي، ليقودهم في حركة تكتيكية بارعة إلى الموقع الذي اختاره بنفسه للقتال، بعيداً عن مصادر المياه؛ فوقعوا في الشرك، حين أطبقت عليهم القوات الإسلامية وحاصرتهم محاصرة تامة مضيقة عليهم الخناق، دون أن يزج صلاح الدين بكامل جيشه، إذ احتفظ بقوات احتياطية للعملية العسكرية الشاملة وشرع في إنهاك الفرنجة المحاصرين، المرهقين ظمأ وحراً وجوعاً، والذين اندفعوا على غير هدى يتسلقون تل حطين، الذي شهد رقدتهم على نار جراح القتل، والتي كانت أبدية لا يقظة بعدها.

ويصف شاندور النهاية المأساوية لجيش الفرنجة: «وأخيراً أطل اليوم الرابع من تموز (يوليو) ١١٨٧ اليوم الشديد الشؤم على النصرانية».

ففي هذا اليوم الأغر من تاريخ العروبة استطاع الجيش الإسلامي ــ حين أصدر صلاح الدين أمره ــ بشن الهجوم الصاعق، وزج قواته في المعركة الحاسمة أن يبيد الفرنجة المحاصرين عن بكرة أبيهم...

ويتابع شاندور محللاً نتائج المعركة، بقوله:

«وقطعاً، لم تحدث هزيمة أكمل ولا أفدح خسائر، فعشية المعركة كان

ثلاثون ألف فرنجي يرقدون فوق الرماد الذي ما برح حاراً في هذه الأرض المعادية .. وتؤيد رواية أحد الحجاج وكان قد حضر هذه المعركة الخالدة ما قلناه آنفاً عن يوم حطين، هذا اليوم الذي كان أعظم نصر لصلاح الدين». (الفصل الرابع عشر).

وعملياً، فإن معركة حطين التي كانت الضربة القاضية على القوة الأساسية للفرنجة، قد هيأت النتائج لصلاح الدين، الذي لم يتباطأ في قطف ثمرات النصر فحرر كامل الساحل الفلسطيني وقسماً من الساحل اللبناني، وسرعان ما تهاوت مدن الفرنجة، وتساقطت قلاعهم وحصونهم المنيعة يقول شاندور:

«وهكذا، مثلما جعلت معركة حماة صلاح الدين سيد سورية، فإن معركة حطين قد جعلته سيد فلسطين».

فتح بيت المقدس

إلا أن أعظم الثمرات التي جناها صلاح الدين أو كانت من النتائج المباشرة لمعركة حطين، هي تحريره بيت المقدس، يقول شاندور:

«وفي السادس عشر من شهر رجب ٥٨٥ هجرية الموافق ٢ أيلول (سبتمبر) ١١٨٧ م أي بعد معركة حطين بشهرين ونصف الشهر، ظهر صلاح الدين أمام أسوار القدس، ولم تلبث المدينة أن سقطت وكان هذا تاريخاً لا ينسى في العالم الإسلامي» (الفصل الخامس عشر).

صلاح الدين ومشروع تصفية الوجود الصليبي في الشرق

وبعد أن حرر صلاح الدين فلسطين، وضع نصب عينيه تصفية الوجود الصليبي في المشرق تصفية تامة، ودعا إلى جهاد جديد، ومع مطلع آذار عام ١١٨٨ .. استؤنفت الأعمال القتالية لاستئصال شأفة الوجود الصليبي من الساحل السوري، وتمكنت قوات العروبة والإسلام من تحرير بيروت وبانياس وجبلة واللاذقية، وانتزاع حصن صهيون الذي كان يعد أعجوبة

الإنشاء العسكري والذي اعتبر ممتنعاً على الفتح وشبِّه بالشجا الناشب في حلق المسلمين.

كما تهاوت شبكة التحصينات الصليبية: حامية مملكة أنطاكية، حين افتتح صلاح الدين عنوة أهم حصونها وأشهر قلاعها.. وفي هذا الوقت تمكن أخوه الملك العادل أن يفتح الكرك.. وبسقوطها أعيدت الاتصالات بين مصر والشام.

الحملة الصليبية الثالثة

كان لمعركة حطين الخالدة وفتح بيت المقدس وتحرير المدن العربية من نير الاستعمار الصليبي، وقعه البالغ عالمياً، فإسلامياً قوبلت بالأفراح أنباء هذه الأحداث، بينما كان الذهول يخيم على الغرب، ولم يفق من الصدمة إلا على أنباء الإعداد لحملة صليبية جديدة. يقول شاندور:

«لقد أقضت المضاجع في جميع البلاطات الأوربية، وبدأت الدعوة للحملة الصليبية الثالثة التي دعا إليها البابا غريغوريوس الثامن، إذ حث جميع المسيحيين القادرين على القتال على حمل السلاح بغية إنقاذ الدين». (الفصل الثامن عشر، تحالف أوربا المسيحية ضد الإسلام).

وتسلم كل من عاهلي انكلترا (ريتشارد قلب الأسد) وفرنسا (فيليب أوغست) الصليب من بطريك صور، وشرعا يعدان العدة معاً للحملة المقبلة، كما حلم امبراطور جرمانيا فردريك باربروس بانتزاع قصب السبق في المشرق، فوضع قواعد صارمة لحملته الصليبية الجديدة، وأعلن الحرب على صلاح الدين باسم الأباطرة الرومان ـــ حين رفض بطل الإسلام إنذاره بإعادة الأراضي المحررة إلى الفرنجة ـــ وشرع بالزحف براً باتجاه الشرق على رأس جيش قوامه مئة ألف مقاتل.

وظهرت عبقرية صلاح الدين الفذة ، حين عقد معاهدة تحالف مع اسحق لانج امبراطور بيزنطية يقول شاندور محللاً :

« كان عالمان يتأهبان للمجابهة ولتحمل تجربة رهيبة ، ولكن عبقرية صلاح الدين السياسية ستتيح له أن يحقق أعظم نجاح دبلوماسي في حياته : فمعاهدة التحالف التي وقعها مع اسحق لانج الإمبراطور البيزنطي والمسيحي العريق الذي بفضله انضمت بيزنطية إلى المسلمين عشية الحملة الصليبية الثالثة » ويتابع **شاندور** حديثه عن معطيات المعاهدة ، قائلاً :

... « فقد **تعهد** اسحق لانج بموجب المعاهدة التي أبرمها مع فاتح القدس بالتنازل للمسلمين عن إحدى أشهر كنائس بيزنطية لتصبح جامعاً ، ووعد بأن يستنزف مؤخرة جيش فرديرك باربروس ، وأن يحوّل الدروب ما استطاع إلى ذلك سبيلاً إلى طرق مقطوعة » . (الفصل الثامن عشر) .

ملحمة عكا

كان قد سبق لصلاح الدين أن حاصر مدينة صور ثم اضطر إلى رفع الحصار عنها ، مرجئاً إلى وقت آخر فتحها وكان قد تسلم كونراد دي مونفرا زمام قيادتها ، فلم يلبث أن حولها إلى قلعة حصينة ، وبوابة مفتوحة لاستقبال أساطيل الغرب ، والأمر الأخطر أن انطلق منها غي دي لوزينيان عاهل مملكة القدس ــ الملكة الشبح ــ الذي أطلق صلاح الدين سراح أسره في أعقاب معركة حطين ــ « بعد أن أقسم له بألا يشهر سيفه أبداً ضد الإسلام » ــ « ليظهر من جديد على مسرح الأحداث السياسي على رأس سبعة آلاف رجل » زاحفاً باتجاه عكا ، حيث التقى هناك بطلائع قوى الفرنجة ، وضرب حصاراً على المدينة .

يقول شاندور محللاً الوضع العسكري الجديد أمام أسوار عكا المحاصرة : « وبدلاً من أن يواجه صلاح الدين في عكا ــ كما كان يعتقد ــ بضع

مئات من الفرنجة المتعصبين الذين لا يقلقونه لقلة عددهم وجد نفسه وجهاً لوجه مع ألفي فارس، وثلاثين ألف راجل تقريباً، وكانت قوات فرنجية جديدة تنزل من البحر على الساحل اللبناني، ويعبر خمسمائة مركب مضيق جبل طارق قادمة من أوربا الشمالية في أول أيلول (سبتمبر) وعليها ١٢٠٠٠ من الدانماركيين والفرنسيين. وكانت أساطيل أخرى ترسو.. ولا ننسى أن هذه القوات لم تكن تمثل سوى طليعة أنفذها الغرب اللاتيني، ... طليعة ستتبعها عما قريب جيوش ملكي فرنسا وانكلترا، وكان فريدريك باربروس ما يزال زاحفاً مع جرمانييه المائة ألف..».

وعند أسوار عكا، دارت أضرى المعارك ما بين عالمين.. فكانت الملحمة العظمى، في تاريخ الحروب الصليبية.

وينقل شاندور عن كتاب الروضتين لأبي شامة ما يلي:

«وهكذا، غدا المسلمون والفرنجة كل منهما محاصِراً ومحاصَراً في آن واحد، الأولون في عكا والآخرون في المدينة الجديدة التي كانوا ينشؤنها دفاعاً عن أنفسهم ضد صلاح الدين، إلّا أنه بقي وحده محتفظاً بحرية الحركة» وأحكم الفرنجة الحصار على عكا براً وبحراً، هذا الحصار الذي بدأ في أيلول ١١٨٩ حتى سقوطها في ١٣ تموز ١١٩١.

ولكن، إذا كان الفشل نصيب الحملة الصليبية الألمانية بسبب ما عانته قواتها من المجاعة والمرض والتساقط موتاً على قارعتي طريق زحفها، وأخيراً فقدانها قائدها غرقاً، ووصول فلولها هزيلة إلى أرض المعركة.. فإن قوى الانكليز والفرنسيين وصلت إلى حومة الصراع بكل زخمها.. كما لم يتوقف البتة تدفق الإمدادات العسكرية لكلا المعسكرين معاً.. الفرنجة، والعرب المسلمين، تترى متقدمة نحو عكا لتتناوب الهجمات والهجمات المضادة، وكان سكان عكا المحاصرون يعانون الجوع والحرمان، وبالمقابل فقد خامر اليأس قلوب الفرنجة من طول الحصار المشفوع بقوة الصمود.. فشرع كل من

ملكي انكلترا وفرنسا يتباحثان سراً مع صلاح الدين لإيجاد مخرج لهذا الصراع الذي تمثلت فيه شعوب شتى وأمم مختلفة.

وأخيراً، سقطت المدينة بيد الفرنجة الذين دفعوا الثمن غالياً، فقد خسروا أمام أسوارها خمسين ألف راجل، ويقدر شاندور استناداً إلى المصادر الغربية أن الفرنجة خسروا في الحملة الصليبية الثالثة بمائة وعشرين ألف قتيل.

وانفجرت الخلافات الكامنة في الصف الصليبي إثر سقوط المدينة الشهيدة، فغادر ملك فرنسا الأراضي المقدسة، وتفرد ملك انكلترا بقيادة الفرنجة، وارتكب مجزرة رهيبة عز نظيرها في التاريخ، بسكان عكا العزّل من السلاح.. والذين ساقهم رجالاً ونساءً مكبلين حفاة عراة، إلا من ستر الإيمان، لتغرز أسنة الحراب في حر الرقاب.

الصراع على الساحل الفلسطيني، وسياسة الأرض المحروقة

وحاول الفرنجة الاستيلاء على الساحل الفلسطيني، بهدف إعادة سيطرتهم على القدس، فناجزهم صلاح الدين بمعارك ضارية دارت ما بين أرسوف والرملة، ولم يتردد بطل الشام في تدمير مدينة عسقلان خشية أن تسقط بيد الفرنجة كي يؤمن حسب قوله حياة القدس وخلاصها.. كما هدم الرملة واللد جاعلاً الطريق إلى القدس قاعاً صفصفاً، مطبقاً بذلك استراتيجية الأرض المحروقة، في كل موطىء قدم يمكن للأعداء أن يجوسوا خلاله.

الطريق إلى القدس

واقترب جيش الفرنجة من القدس، وعسكر على قاب قوسين منها، لكنه عانى عند أعتابها: الأمرين، مرارة الظرف القاسي، والمواجهة الأقسى مع عقبان الصحراء أبطال القبائل العربية، يقول شاندور:

«لقد هرع بدو المناطق المجاورة، فأنزلوا ضرباتهم الخاطفة بالجيش المبتل

بمياه الأمطار ، المرتعد برداً ، والذي كان يتقدم بمنتهى البطء في الطرقات الموحلة ، وقطعوا عليه قوافل تموينه مكرهين إياه على البقاء بحالة استنفار دائم » .

« وتوقف ريكاردوس قلب الأسد على مسافة عشرين كيلومتراً من القدس وعقد اجتماعاً لمجلسه ، وتردد . فقد كان فرنجة المغرب يودون متابعة الزحف نحو القدس ، على حين كان فرنجة المشرق يبغون العودة إلى الساحل لأنهم كانوا يتوجسون خوفاً من أن يصبحوا بين فكي كماشة : حماة القدس ، وجيش صلاح الدين المسيطر على الريف . وكان هذا الخطر شبيهاً بذاك الذي سبق أن واجهوه وراء أسوار عكا ، ولكنه هذه المرة أشدّ ، لأنهم بمنأى عن البحر وبعيدون عن حماية الأساطيل الفرنجية .. وكان الفرنجة على شبه يقين بأن امداداتهم ومواصلاتهم مع الساحل يمكن أن يقطعها عليهم البدو » . (الفصل الرابع والعشرون) .

واضطر الفرنجة إلى الانكفاء متقهقرين إلى الوراء ارتداداً إلى الساحل ، توجساً من مواجهة العرب المسلمين عند أبواب بيت المقدس ، فتكون القاضية عليهم .

البحث عن مخرج من حالة اللاسلم واللاحرب

وابتدأت مرحلة جديدة في تاريخ الحروب الصليبية ، وترتب على الفرنجة أن يفكروا بطريقة تخرجهم من مأزقهم الكبير وتخبطهم في النفق المظلم دون أن يروا أي بصيص أمل ، وكان هدف صلاح الدين مع مطلع عام ١١٩٢ حسب رأي شاندور : « أن يطيل حالة اللاسلم واللاحرب المتأرجحة بين المسلمين والفرنجة » ، معتمداً في سياسته البعيدة المدى ، على الصبر واليقظة والتأهب والإنهاك تمهيداً لاستئناف القتال كما يقول صلاح الدين : « حالما نلمح الامارات المؤاتية لنصر الإسلام الحاسم » .

القدس .. وهاجس حطين أخرى

وقرر الفرنجة استئناف القتال مرة أخرى والزحف نحو القدس ولكنهم انكفأوا عنها ثانية قبل أن يبلغوها لأنهم أدركوا عقم حصارهم إياها إذ تأكدوا أنها غدت حصينة لا تقهر، وأن عليهم مواجهة القوات الإسلامية الموحدة تحت راية صلاح الدين الظافرة عند أسوارها المنيعة، ويحلل شاندور موقف ريكاردوس قلب الأسد، وهاجسه المقلق من حطين أخرى، بقوله :

« ويلاحظ أن ملك انكلترا لم يكن يريد أن يتحمل مسؤولية حطين ثانية، وأنه كان يفضل الاحتفاظ بالمواقع المحتلة على الساحل، ولو بصعوبة بالغة، سليمة بدلاً من خسارة كل شيء في معركة يذكر ريكاردوس قلب الأسد بذعر نتائجها » . (الفصل الخامس والعشرون) .

الصلح الصعب

وبدأت مرحلة تالية في البحث عن أسس جديدة للصلح الصعب، كان من نتائجها حسب رأي شاندور : « أن أملى صلاح الدين المعاهدة إملاء المنتصر » ، حين تم التوقيع على « وثيقة ليست هي سلماً دائماً بل هدنة مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام ... وبقي الساحل الممتد من يافا إلى عكا تحت سلطة الفرنجة، وظلت عسقلان محايدة، وقسمت منطقة الرملة ــ اللد قسمين أحدهما بيد الفرنجة، والثاني بيد المسلمين، وبموجبها كان المسيحيون يستطيعون الحج بحرية إلى الديار المقدسة » .

مجد صلاح الدين وفشل الحملة الصليبية الثالثة

ويخرج شاندور بتحليله الأخير أن الصلح بين الفرنجة والمسلمين كرس مجد صلاح الدين وعبقريته السياسية والعسكرية، كما كشف عن عقم الحملات الصليبية، يقول :

«تلك كانت نهاية هذا التحالف الضخم للشعوب، الذي عرف باسم الحملة الصليبية الثالثة وكرست هذه النهاية مجد صلاح الدين وعبقريته، كما كرست عجز الفرنجة المنقسمين سعياً وراء قضايا مصلحية قذرة، أمام الإسلام الذي كان ظله يتعاظم، وسيشمل قارات أخرى فيما بعد».

صلاح الدين: سيف ملحمة الإسلام المنتصر

كانت حياة صلاح الدين ملحمة بطولية خالدة، ولذا اعتبر رمز الإسلام وسيفه المنتصر ... يقول شاندور:

«مطلقاً لم يبلغ أحد من البشر ما بلغه صلاح الدين من ألق المجد بعد انقضاء عهد الرسول وقادة الفتح الأولين، إذ أحرز أكبر نصر للإسلام على الفرنجة في حطين وأزاح ستار الظلام القائم بين الشرق والغرب. لقد بكى الناس فقدان القدس في أكثر الأكواخ تواضعاً في فرنسا، ولكن هنا في دمشق أصبح صلاح الدين في حياته وسيبقى أبداً على مر الأجيال سيف الإسلام. وأضحى رمز الإسلام، وغدا اسمه وحده يجعل يقظة الإسلام تهز رهبةً أعماق أقصى الولايات في الغرب». (الفصل السادس والعشرون).

وكان صلاح الدين، وسيظل تلك الصورة النقية للحاكم العادل والقائد الإنسان؛ تجلى لمؤرخي الحروب الصليبية بتلك الصورة التقية الورعة، ورغم أنه ألحق أفدح الهزائم بالغرب الفرنجي.. فقد ملأت قلبه الرحمة التي تمثلت بأروع صورها بعد نصره العظيم في معركة حطين وتحريره بيت المقدس.. لم يقابل أعداءه بالحقد الديني ولا الهمجية الجماعية التي عاملوا بها المسلمين وخاصة عندما سقطت بأيدهم القدس عام ١٠٩٩ في الحملة الصليبية الأولى، إذ ذبحوا سبعين ألفاً من المسلمين في المسجد الأقصى، بينما سمح هو عقب التحرير، للفرنجة المهزومين بالخروج سالمين وأظهر أريحيته ونبله تجاه مستضعفيهم، مخففاً من آلام النسوة، غامراً إياهن بالهدايا والمؤن، وبفيض رحمته على هؤلاء وأولئك من البؤساء، في وقت تنكر لهم أبناء دينهم وجلدتهم.

صلاح الدين الأيوبي.. وحطين ما بين الأمس واليوم

وعودا على بدء نرجع إلى القول: لقد قدم بطلنا الخالد، بطل حطين ومحرر بيت المقدس الدروس والعبر التاريخية، سياسياً وعسكرياً، ومن هنا كانت الأهمية الكبرى لدراسة الحروب الصليبية والوقفة المتأنية حيال أبطالنا الذين نازلوا الكيانات الاستعمارية المصطنعة، وقارعوها حتى النهاية: نور الدين زنكي، صلاح الدين الأيوبي، الظاهر بيبرس، وإعادة بحث المعارك العسكرية التي دارت ما بين العرب المسلمين والفرنجة الصليبيين وكان مسرحها شرقنا العربي، ومن هنا كانت أيضاً في محلها تلك الندوة: ندوة حطين التي عقدت مؤخراً بدمشق، في سياق صراعنا مع الكيان الصهيوني.

ما أشبه اليوم بالبارحة.. الماضي البعيد بالحاضر الراهن، أي منذ ولادة فكرة الحروب الصليبية إلى الغزو الصهيوني، بدءاً من الخدعة السياسية والتعلق بالخرافات والأساطير، إلى تغذية الروح الاستعمارية بهدف الاستيلاء على ثروات الشرق. وكيف لا؟ والوجود الصليبي ــ شأنه أمس شأن صنوه الكيان الصهيوني اليوم ــ قام على حراب الدعم الخارجي الكبير، فأوربا كانت وراء الممالك اللاتينية في المشرق، كما أن أمريكا زعيمة الامبريالية العالمية ودول أوروبا الغربية والرجعيات الدولية، دعمت وما زالت تدعم بلا حدود هذا الكيان الدخيل.

ولا ننسى أن كلا الغزوين الفرنجي والصهيوني استفادا من تمزق العرب وتخلف المسلمين، بل من صراعاتهم الداخلية، ضد بعضهم بعضاً، عشية الغزو الفرنجي والاحتلال الصهيوني. ولكن هاهي ذي بوارق اليقظة ومشاعل النضال تلوح ــ كما في سورية الأمس ــ وفي سورية اليوم معقد آمال العرب وكعبة رجائهم في النهوض والتحرير.

ولا خلاف فإننا مع الأخ الدكتور شاكر مصطفى بما ذهب إليه في محاضرته القيمة التي ألقاها في ندوة حطين «من الغزو الصليبي إلى الغزو

الصهيوني وبالعكس » ، حين خلص إلى النتيجة الهامة ــ التي يعرفها الصهاينة وامبرياليو الغرب حق المعرفة ــ والتي مفادها :

« كانت عملية تحرير فلسطين من الفرنجة من عمل مصر والشام ، وكان شمال العراق هو العمق الاستراتيجي للعملية .. ويبدو أن المنطق الجيو ــ بولتيكي مايزال قائماً وماتزال عملية التحرير من مهمات هذه المنطقة بالذات دون غيرها .. وكانت حطين ، لكنها لم تكن إلا بعد أن وجدت عاصمة ومركزاً ديناميكياً لها في دمشق وقيادة واعية ملهمة وقوة موحدة ساحقة ، وعمقاً استراتيجياً وراءها وإعداداً سياسياً وعسكرياً طويلاً » .

وليس من ريب ــ وقد كانت نهايات الكيانات الصليبية المصطنعة هي الزوال ــ أن نهاية الكيان الصهيوني ستكون مماثلة ، لأن منطق التاريخ يفرض هذا كما هذه ، ويرفض الكيانات الدخيلة المصطنعة ولن يضيع حق وراءه مطالب ، خاصة وأن سورية اليوم تعمل وحدها جادة لتحقيق التوازن الاستراتيجي مع إسرائيل ، وتعد العدة إلى صراع طويل الأمد ، فكيف إذا آتت الظروف وتوحدت كلمة العرب ، وانتهت الكلمة الموحدة إلى طاقة وعمل ؟

إننا الآن إذ نودع القارىء الكريم ليباشر بذاته ــ وعلى هواه ــ تلك النزهة التاريخية الممتعة ، على صفحات هذا السفر ــ سواء المترجم منها أو نصوص التحقيق ــ لا بد من الاقرار بأننا كثيراً وكثيراً ما لاحت لنا تلك الحقيقة في قوله جل جلاله : ﴿إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم﴾ .

ويتأطر هذا الشرط وجوابه بوعده الحق : ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ .

الشآم ٢٦ تموز ١٩٨٨

العماد

مصطفى طلاس

الفصــــل الأول

التمخضات الكبرى في العالم الإسلامي
عشية الحروب الصليبية

العهد الذهبي للإسلام

في القرنين السابع والثامن للميلاد هزّ الانفجار الرهيب للإسلام القارة القديمة، وعرف العالم العربي عهداًذهبياً من التوسع الإقليمي والديني، ومن الإشعاع المتوهج في مضمار العلوم والفنون، فكان هذا هو العصر الذهبي للمؤرخين العرب، كان عيداً مستمراً، وليس هذا فحسب، بل تحقق حلم الاشتراكيين المعاصرين، في أن يروا أنفسهم عائشين في كنف الدولة على الرخاء مسكناً ومطعماً.

وحدة العقيدة الروحية والزمنية للعالم الإسلامي وبوادر الانقسام

واستقر الإسلام بعد أن هدد أوربا، وفي هذه الكتلة الإسلامية الضخمة التي نجمت فجأة في تاريخ العالم لم يلبث أن ظهرت ــ في لحظة حرجة حرجاً خاصاً بالنسبة للغرب المهتز أمام الفتوحات العربية والصقلبية ــ الخصومات السّلالية والأزمة الرومانية في القرن التاسع، كما تفجر الكثير من بؤر الاضطراب بين غلاة الدعوة للمائة والأربعين سورة من القرآن الكريم بما فيها من إيجازٍ موحٍ كان يمكن تأويلها بتفسيرات مختلفة. ومن جهة كان النبي (ﷺ) قد

قال: «اختلاف أئمتي رحمةٌ». هذا الحديث ذاته كان يمكن أن يريح أكثر ضمائر المؤمنين رسوخ يقين، وهو يفسر لنا ــ إذا لم نؤخذ بعظمة الإسلام الظاهرة ــ تعدُّدَ المدارس الأصولية وتفتّحها، وتلاحيها فيما بينها لاكتساب التابعين.

وكان من نتائج فقدان التوازن العميق لدى قوى الإسلام الروحية أن تتزعزع ــ ولا مناص ــ الوحدة العقيدية والزمنية للعالم الإسلامي الذي لم يكن لديه ــ ولنركز على هذه الملاحظة ــ تقليد امبريالي ولا أرستقراطية ولا نخبات، وهي أمور لا يمكن من دونها تغذية ودعم سياسة قومية واضحة.

زعزعة السلطة المركزية وتسلط الموالي على الحكم

وفي خضم الخصومات العقيدية الحادة تقوضت السلطة المركزية التي غالباً ما كانت شرعيتها غير معترف بها.

وبالتأكيد لم يكن الخلفاء، خلفاء النبي (ﷺ) ليخشوا شيئاً خشيتهم من أن تجردهم من سلطتهم الفئات الإصلاحية التي كانت ماتنفك ثائرة عليهم. ولذا استدعوا الموالي من مختلف أجناسهم للحفاظ على سلطانهم وحراسة بلاطاتهم وقصورهم وإخماد الفتن الشعبية التي طالما أرّثها رجال المذاهب بعناية فائقة. وخشية أن تميد الأرض بهم استعاضوا بالمرتزقة الأتراك أو العبيد الإفريقيين عن الأعراب الأوفياء الذين أسس أجدادهم المتواضعون من قادةِ القوافل امبراطورية الإسلام، وتلك هي عقدة المأساة. فالمرتزقة الذين استدعاهم الخلفاء، وقد هبطوا جميعاً مندفعين من مهدهم: الهضاب الآسيوية القاسية، سعداء بأن يُسدوا خدماتهم لسادة بغداد الباهرين، أو سادة دمشق المحاطين بسحابة كثيفة من الشعراء والأمراء.

وكما يكتب أبو داود: لقد سعد رجال الشمال، هؤلاء الرعاة الذين كان ينزّ منهم البؤس في قراهم، أولئك الحفاة القساة في ساحة المعركة، الذين هم على أهبة الاستعداد لاستيعاب التلميح في القول لتحديد مهماتهم الأشد قبحاً، الخدم السريعو التصرف، الخُرس، نعم سعدوا بالغ السعادة من الآن فصاعداً بحياة الرغد في ظل أصحاب السلطان، وبأن يلعبوا دوراً أساسياً في مأساة الحريم الهزلية. ولذا استجابوا دونما استثناء لنداء الخلفاء غير

المتروّي، تماماً كما حدث فيما مضى للبرابرة الذين تركوا قبائلهم التائهة الجائعة وخفّوا مسرعين لحماية تخوم روما، ومن ثم لتقويض الإمبراطورية التي آوتهم[1].

ولم يلبث الوافدون الجدد أن اطلعوا على الضعف المزمن للسلطة التي كان عليهم أن يحموها، وسرعان ما انقلب المعاونون الأتراك على أسيادهم المتساقطين على عرش آل النبي (ﷺ) وحلوا محلهم، ولم يدعوا لهم سوى السلطة الروحية، وثم امتدت منهم قبضة نحو الشرق، تواصل الإغارة ليل نهار حتى بسطت على الهند سلطان الإسلام، وأما قبضتهم الأخرى فقد احتلت الولايات الغربية من فارس. وفي كل مكان تربع قادة العصابات القدماء والمغامرون على دست الوزارة. وغدت فوضى الخلافة الدستورية متواصلة، والحروب المحلية مستمرة، ولا ينفك كبار الاقطاعيين يثيرونها على بعضهم بعضاً في السلطنات الثانوية. وكما هو الأمر في أوربا الاقطاعية في الحقبة ذاتها، شرع حكام الاقطاعات يهددون السلطة المركزية. وكان ما يجري من نزاع دائم بين المصالح المحلية، والنهب المتفاقم الذي يمارسه الأعراب (البدو)، والتشاجر المستمر بين السكان، كل هذه الأسباب الأولية لعدم الاستقرار كانت تخدم خدمةً تتجاوز مطرَّح آمال الجبليين الوافدين من الشمال الطامعين، غلف القلوب.

وكنتيجة غير مرتقبة، كان هؤلاء المغامرون إبان الحملات الصليبية يجعلون الحروب أشد ضراوة، أو يثيرون بتجاوزاتهم قدْراً من الاستنكار حمل النصرانية بقضها وقضيضها على امتشاق السلاح لتجعل المسلمين الذين طغى عليهم الأتراك يحترمون اتفاقات شارلمان وهارون الرشيد التي كانت تحافظ على امتيازات مسيحيي سورية الفرنجية.

والأسباب ذاتها تؤدي على الدوام إلى النتائج ذاتها. فالخلفاء خدمة الأرضين المقدستين، سيكتفون من الآن فصاعداً، بما تدره عليهم سلطتهم الروحية، تاركين لوزرائهم الأجانب مهمة حل قضايا الدولة، وعكفوا منهمكين برعاية شعرائهم، يخشون وقع قوافيهم حتى ليفرغوا بيت المال وهم يتمتعون ــ كما جرى للأمين عشية قتله ــ بعذوبة ضوء القمر الراقص على مياه دجلة. فهذا المجتمع الطائش يدع، مبتهجاً عبء المسؤوليات السياسية. وكان رجال البلاط الدائرون في فلك الأمراء ما ينفكون محتاجين للمال مسيس الحاجة لأنفسهم أولاً، ولعائلاتهم وبطانتهم ثانياً، ومن ثم لحاشيتهم وحواشي حاشيتهم، ويرسم لنا

مؤرخو الحوليّات العرب بلغتهم الخيالية هذا الفراغ في السلطة، وذلك الإسراف مع عدم الانضباط وجشع الوزراء وولاة الأقاليم وسائر العمال، ناهيك بتحلل الولايات التي كان عمالها يرفضون بقحّة ووقاحة دفع الضرائب، تجرّئهم على الفوضى هذه الانشقاقات المستمرة في قلب الخلافة، وتلك المطالب من المغامرين. وسياسة ذاك قوامها تشجع— لا محالة— الاضطرابات حتى لتبدو كارثية.

محنة العالم الإسلامي وانقسامه عشية الحروب الصليبية

وقبل أن نتعرض لعصر صلاح الدين ينبغي أن نقول فيه هذه الكلمات: كان الإسلام يمر بمحنة، لحظة لم تكن السلطة الخليفية البتة منعدمة أو مشكوكاً فيها بهذا المقدار، لحظة كان يمكن التنبؤ بانقسام العالم الإسلامي إلى مجموعتين كبيرتين تستقطبهما بغداد، والقاهرة.

فالعباسيون ينشرون أوامرهم الثورية، وعصابات من الزنج تنتشر في بقاع ما بين النهرين السفلى، ناهبين المدن المزدهرة، حتى المدينة المقدسة مكة لم تكن في منجاة من ذلك. فقد أغارت عليها جحافل القرامطة المتعصبة فقتلت عشرة آلاف من المؤمنين حوالي الكعبة.

ولأن قوافل الحجّاج لم تعد تجرؤ على التوجّه إلى مكة حيث كان الناس يتذابحون بضراوة على مدار الأيام، وقع حادث سيكون له تأثيره المزعج في العلاقات بين المسيحيين والمسلمين، ذلك أن هؤلاء قرروا أن يحجوا من الآن فصاعداً إلى القدس، حيث حلّ مسجد عمر محل الكعبة، ولم يكن المسيحيون ليحصلوا على أيّ ربح من تفجّر هذه المواكب التي لا تنتهي من المؤمنين وهي تؤم القدس دورياً، والتي كانت تحت تأثير حماستها تهدد وتقتل أعضاء المجتمعات المسيحية. وقد دفعت التجاوزات التي كان المسيحيون ضحاياها، بيزنطة إلى التدخل، إذ كانت العاصمة الكبرى للإمبراطورية الرومانية الشرقية تؤكد أنها لن تقف متفرجة على ما يجري في الأرض المقدسة، وخاصة وهي منذ خمسة قرون تصمد لضغط العالم الإسلامي، وكما سنرى، فقد أخذت سياسة أباطرتها السورية، تنعش آمال مسيحيي الشرق، إبان كانت المستوطنات المسيحية في مصر مصابة بالإرهاب من تصرفات الخليفة الحاكم.

ففي القرن الحادي عشر تمّ انشطار العالم الإسلامي قسمين أساسيين. فالمدينتان

المقدستان أصبحتا للخلفاء الفاطميين القادمين من إفريقية الشمالية السادة الجدد لمصر، منتزعين من خصومهم خلفاء بغداد الألقاب المثيرة للحسد، ألقاب حماة الحرمين الشريفين، وكان على الخلافة الفاطمية حسب كلمة مؤسسها أن تبني على أنقاض عالم الجور والفساد مملكة العدالة، والسعادة، وكان ظهورها ـ ولاريب ـ حدثاً ضخماً في تاريخ الشرق الإسلامي.

الفاطميون والحكم الإرهابي في مصر

لقد بلغت الإمبراطورية التي أقامها الفاطميون من القوة حداً جعلها تهدد تهديداً جدياً الإسلام السوري الذي أوهنته خصومات أمرائه، وبلغت هذه الإمبراطورية ذروتها حينما أفسدت الأمور، فقد ارتقى عرش مصر مهزوز، حسب رأي البعض، أو مكشوف عن بصيرته حسب قناعة الآخرين. كان عمره إحدى عشرة سنة، وكان اسمه الحاكم، هذا الملك الغريب الأطوار، وغير المستقر، والسابق لزمانه، يستحق أن نخصص له بضعة أسطر لأنه صورة متميزة إذ كان ـ كما يشيع عنه أعداؤه ـ يتلهى بقطع رؤوس المنجمين، ويجلس ليلاً في المحاكم، يجندل في يوم واحد رؤوس عشرة آلاف ضحية، يحرق ليتسلى أحياء كاملة من القاهرة، يخرج الجثث من المقابر ليغذي بها كلابهُ المحببة، ويحمل عبيده الزنوج على ضرب النساء العاريات بالسيف.

وفي وقت من الأوقات أغرق شعبه في ذهول قريب من البدعة، فجعل المقربون منه يروون عنه أنه تجلّ للخالق ذاته، وقد وجد أناساً مهووسين ينشرون هذه البدعة في فارس والهند وسورية.

اضطهاد مسيحيي مصر

غير أنّ المسلمين لم يكونوا الوحيدين الذين آذتهم هذه الاضطرابات النفسية للخليفة. فبعد أن هاجم الحاكم الممارسات التقليدية للإسلام خطر له أن يضطهد المسيحيين الذين كانوا يقدمون لإدارته أفضل الموظفين، فلكي يميز المسيحيين ويذلهم، ويعيدهم إلى منزلة دافعي الجزية جعلهم يحملون حَمْلاً ظاهراً صليباً زنته أربع أوقيات. ولم يكتف بهدم كنائسهم

وحيّهم في القاهرة، وتوسلاً لبعض الشعبية والدعوات في العالم الإسلامي،.. خطر له خاطر مجافٍ للحكمة، وهو أن يقلب الأرض التي جرت عليها المأساة الأبديّة، فنقض كنيسة القيامة حجراً حجراً، والتهمت النار ماأخطأته يد الدمار في جبل الجلجلة.

ودعيت العامة لنهب الأديرة التي طرد منها قساوستها، وبلغ الإرهاب حداً أخذت معه جمهرة كبرى من المسيحيين تنسحق تزاحماً أمام أبواب المحاكم الشرعية لتشهر إسلامها تقية.. ومن نافلة القول: إن هذا الاضطهاد أثار في الغرب ردة فعل عنيفة، وبلغ التأثّر ذروته، عندما ألغى الحاكم نهائياً الحماية التي أقرها شارلمان في الأرض المقدسة. ودخل النزاع بين المسيحية والإسلام مرحلة متفاقمة.

السلجوقيون وكارثة البيزنطيين في معركة ملاذكرد (هنزيكرت)

ولم يكن التأثر الذي أحدثه اضطهاد المسيحيين في مصر قد هدأ بعد عندما عُلِم في أوربا بحدوث كارثة جديدة، إذ عمد عدد من المرتزقة الأتراك القدماء الذين استدعتهم خلافة بغداد وهم السلجوقيون الذين ما كادوا يأنسون بأنفسهم قوة الشكيمة نتيجة ما خاضوا من مغامرات حتى اندفعوا لمهاجمة حدود بيزنطية، وأبادوا في ١٠ آب سنة ١٠٧١ في حومة معركة ملاذكرد المشهورة جيشاً بيزنطياً قوامه مائة ألف مقاتل. ثم استولوا على القدس وأنطاكية وازمير ورودس، ودخلت العواصم الآسيوية، التي اشتهرت بذكريات العهد الرسولي الواحدة بعد الأخرى ضمن دائرة النفوذ السلجوقي.

مجمع كليرمون والدعوة إلى الحملة الصليبية الأولى

وهنا أخذت الأحداث بالتسارع، ولم يعد بوسع روما أن تبقى غير مكترثة أمام هذا الانهيار. ففي مجمع كليرمون سنة ١٠٩٥ دعا البابا الفرنسي أوربانوس الثاني إلى الحملة الصليبية الأولى، ولكن ما وطّأ للبابوية من مسوغات هذه الحرب المقدسة لم يكن التهديد الضاغط على بيزنطة بقدر ما كان مصير القدس. ويمكن القول: إن هذه الحملة الصليبية المستوحاة جماهيرياً من بؤس المسيحيين في الشرق قد عبَّرت تعبيراً عفوياً عن غيرة المسيحيين على الأرض المقدسة التي سبق أن طبعها في قلب مسيحيي الغرب قرنان من الحجيج المتواصلة

ودبلوماسية شارلمان الباهرة التي حصلت على الإذن ببناء الكنائس، والأديرة والمشافي في فلسطين.

وإذا لم نعترف بقيمة هذا الماضي وتأثيره فهيهات لنا أن ندرك معنى ولادة الحروب الصليبية، هذا الاندفاع الروحي لشعوب صهرها إيمانها حول قبر المعلم الإلهي ــ بلا تمييز في القومية ــ في اتحاد واحد متوهج قلباً وروحاً(٢).

واقع التجزئة والانقسام في الصف الإسلامي

وفيما كان الصليبيون الأوائل يحتشدون، كان السلجوقيون الذين ما كادوا يفرغون من إشادة صرح إمبراطوريتهم المزدهرة حتى انكفؤوا يشهدون انهيارها دون أن يتسع لهم الوقت للتمتع بها. وهذا الحدث الذي انتاب سورية كان بالنسبة إلى الصليبيين ــ حدثاً سماويّاً ــ فالوحدة الإسلامية المحققة بقبضة حديدية لم تقم قطعاً تجاه هذه المحنة الجديدة التي حلّت بالإسلام السوري.

أما ورثة السلجوقيين فانقلبوا إقطاعيين همهم المحافظة على مناطقهم من غارات جيرانهم، وبهذا انفصمت روابط الوحدة مرة أخرى، بوقت كانت فيه وحدة العرق والدين ضرورية لمواجهة التهديد الذي أخذ يتضّح في الغرب، في بلدان أوربة اللاتينية التي كان يطوف فيها الرهبان مثيرين غضباً مقدساً ضد غير المؤمنين (المسلمين). وحينما أخذت جيوش الحملة الصليبية الأولى بالتدفق على أرض آسية، لم يحفل الأمراء السوريون بالنتائج المنطقية لهذا الغزو، إذ كانت أحقادهم الأسرية والقبلية تسيطر مهيمنة على ساح النزاع. كانوا متحصنين في عواصمهم معتقدين أنهم في منجاة وراء صحارى ما بين النهرين. وكانوا ينظرون إلى هذه الموجة تمر عرضاً بدلاً من أن يضعوا حداً لأحقادهم ضد بعضهم بعضاً، وأن يتّحدوا للدفاع عن الإسلام.

وهكذا بقيت الصليبية الأولى غير مفهومة لديهم، ولم تكن في نظر المسلمين حرباً دينية كما سيثيرها فيما بعد صلاح الدين بعد الحركة الغبيّة التي قام بها رينو دي شاتيون عندما اختطف في قلب السّلم قافلة تجارية كانت تعبر أراضيه. وفي غمرة حركة المدّ الضخمة للغرب

نحو الشواطىء الموقّرة للأراضي المقدسة لم يجد أتقياء المسلمين القصيرو النظر أيّ سبب للقلق. وكان يجب انتظار بروز صلاح الدين الأيوبي الذي سيعرف كيف يجمع ويُعَقْلِنُ حواليه الأمراء المنشقين، كما كان يجب انتظار عبقرية بيبرس وقرنين من الصراعات لكي تتطهر أخطاء المسؤولين المسلمين في آخر القرن الحادي عشر بدم الآلاف المؤلفة من الرجال المبادين على طريق القدس بالأوبئة والجوع والظمأ والحرب.

الممالك اللاتينية في الشرق

ووافى الحظ غود فروا دي بويون، فدحر الأتراك في بضع مراحل عبر الأناضول، على حين كان أخوه يؤسس عبر الفرات إمارة الرها التي كان يمكن أن تهدد الموصل وبغداد.

وبعد معركة ظافرة ضرب غود فروا دي بويون خيمته أمام القدس. وإثْرَ حصار شهر واحد أخذت المدينة، وذبح مائة ألف مسلم. وهكذا أرسيت دعائم مملكة الشرق اللاتينية وسط صرخات الابتهاج في العالم المسيحي، وشهقات العويل في العالم الإسلامي. وأخذ الصليبيون يقتطعون لأنفسهم ولايات إمارة أنطاكية التي كانت تُظلُّ براية حمايتها أرمينية الصغرى، وكونتية طرابلس المحدودة شمالاً وجنوباً بقلعة المرقب المهيبة، وجبيل الفينقية القديمة، وأخيراً مملكة القدس التي احتوت مناطق مؤاب النبطية القديمة، والتي قسمت إدارياً أربع بارونيات كبرى: كونتية يافا وعسقلان، إمارة طبرّية، بارونية صيداء، ومشيخة الشوبك في أراضي عبر الأردن. وفي كل مكان شاد الصليبيون ـــ الذين استولوا على هذه الأراضي التي سيريقون فيها الكثير من الدماء ـــ القلاع والحصون، لكي يحموا الشاطىء السوري، ويراقبوا طرق دمشق وحلب أو القاهرة.

حواشي الفصل الأول

١ ــ لم نعرف مؤرخاً اشتهر بكنية أبي داود الذي يعبر قوله . «لقد سعد رجال الشمال هؤلاء الرعاة ...» عن نقمة العرب ضد عناصر الموالي من شعوب الأمة الإسلامية التي قفزت إلى سدة الحكم ، ولم تدع للخليفة العباسي سوى القشرة الدينية الظاهرة من معالم السلطة ..

وقد تجلت تلك النقمة أبرز ما تجلت لدى المتنبي أيام اندفاعات شبابه وتطلعات طموحه سعياً للحكم ، في قوله :

وإنما الناس بالملوك وما	تفلح عرب ملوكها عجم
لا أدب عندهم ولا حسب	ولا عهود لهم ولا ذمم
بكل أرض وطئتها أمم	ترعى بعبد كأنها غنم
يستخشن الخز حين يلمسه	وكان يبرى بظفره القلم

ولكنه ــ عفا الله عنه ــ نسي هذا القول وغيره من نظائره ، وقصد كافوراً الأخشيدي في مصر ومدحه ، كما مدح عضد الدولة وابن العميد وأطنب ..

وإن كانت لنا كلمة بالموضوع ، فالإسلام رغم كونه غرساً عربياً خالصاً عالمي النزوع ، إنساني التطبيق ، وحسبنا قوله عليه السلام لأبي ذر وبالتالي لمن هم وراء أبي ذر من متعاقبي الأجيال ، برواية أنس ، وتخريج البخاري ومسلم : «اسمع وأطع ولو لعبد حبشي كأن رأسه زبيبة» ...

وهل بمستطاعنا ــ وخاصة إذا أحطنا موضوعياً بالظروف التاريخية ــ إلا أن نفخر ونباهي بأمثال : عماد الدين ، ونور الدين الزنكيين ، وشيركوه وصلاح الدين الأيوبيين ، والملكين الظاهر بيبرس وقلاوون ، وغيرهم وغيرهم كثير ، وخاصة أنهم استعربوا جميعاً ، بعد أن درجوا على أرض العروبة .

والمهم وحده هو الحكم الصالح ﴿ولا تزر وازرة وزر أخرى﴾ .

٢ ــ لم تكن دوافع الحروب الصليبية ــ التي دامت قرابة قرنين ما بين الغرب المسيحي والشرق العربي الإسلامي ــ

دينية بحتة، بل هي أصلاً دنيوية، حقنت بمصل ديني لتحريك مشاعر العامة من مسيحيي الغرب، ولتثير حسب قول شاندور: «ذلك الاندفاع الديني حول قبر المعلم».

ففي أعقاب معركة ملاذكرد «هنزيكريت» التي منيت بها بيزنطية بالهزيمة المرة أمام السلاجقة، تعالت أصوات الدعوة الأولى للحروب الصليبية التي أطلقها امبراطور بيزنطية الأرثوذكسية مستنجداً بأوروبا الكاثوليكية، حين ذكرها بالثروات الطائلة التي يمكن أن يقدمها دعماً للحملات الصليبية والتي أغرت ملوك أوروبا محركة أطماعهم فضلاً عن أن المدن الأوربية الإيطالية والفرنسية وخاصة البندقية، التي كانت تسيطر على تجارة البحر الأبيض المتوسط، أخذت تخشى تفاقم الخطر السلجوقي الداهم الذي شرع يهدد مصالحها الاقتصادية بعد أن تمكن السلاجقة الأتراك من بسط سيطرتهم على الأناضول، ونفوذهم إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط حين سيطروا على أنطاكية عام ١٠٨٤ م، وأنشؤوا أسطولاً ضخماً في أزمير وطفقوا يشكلون خطراً جدياً ليس على بيزنطية فحسب، وإنما على سائر المدن التجارية الأوربية، ولا سيما المدن الإيطالية: البندقية وبيزة وجنوة، التي تحكمت آنذاك في التجارة العالمية بين الشرق والغرب لأنها: «الأبواب الرئيسية لأسواق الغرب وفيها وحدها تنتهي عهد ذاك طريق الصين والهند، أو طريق الحرير والتوابل.

ولقد درس صديقنا الباحث المرحوم قدري قلعجي في كتابه القيم «صلاح الدين الأيوبي» كيف تناول: أشهر الباحثين من فرنجة وعرب مسألة الدوافع الاقتصادية، والعوامل الأساسية الكامنة وراء الحروب الصليبية، نأخذ طرفاً من أقوالهم، اقتباساً عنه:

«ولعل أفضل من عدد الدوافع المختلفة للحروب الصليبية سواء لدى الزعماء الداعين لها أو لدى المتطوعين الذين اندفعوا في غمارها، هو المستشرق جون لامونت، فقد أشار إلى خطاب البابا أوربانوس في كليرمون فيران بقوله: «ولم ينس أوربانوس أن يذكر مستمعيه بالأرباح المادية والروحية التي سيجنيها الصليبيون. إن من يموتون في سبيل القضية سينالون المغفرة والخلاص. أما مدن «أرض الميعاد» الغنية فستكون جزاء من يحتلها من الأحياء. ولم يشر البابا إلى الفائدة العظيمة التي ستجنيها السدة البابوية من قيادة جيش فخم يسير تحت راية البابا، كما لم يشر إلى الأثر العظيم الذي سيتركه مثل هذا الجيش البابوي في نفوس الأباطرة والملوك. ولم يشر البابا إلى النكسات التي نزلت بالكنيسة على أيدي السلطات الزمنية، وإلى أن الحملة الصليبية ستذكّر عاهل الإمبراطورية الرومانية المقدسة بأن خادم خدام الرب (البابا) ما زال قادراً على القيادة واصدار الأوامر.»».

وأشار لامونت إلى المتطوعة أجناداً وقادة فقال: «وبينما تطوع عدد كبير من القادة في «صليبية الأمراء» مدفوعين بدوافع دينية في جوهرها، فقد شارك آخرون في الحملة لكسب مغانم الدنيا أكثر مما فعلوا في سبيل إعلاء مجد الرب. لاشك في صدق الدوافع التي حملت غودفري على الاشتراك في الحملة للتكفير عن ذنوبه السابقة، ونيل الخلاص لنفسه. ويحتمل أن يكون روبرت اوف نورمندي وروبرت أوف فلاندرس مدفوعين إلى حد كبير، بدوافع دينية، وإن كنت أرى إنهما كانا مدفوعين بدافع آخر، إلى جانب الدوافع الدينية، ألا وهو أن الحملة الصليبية أتاحت لهما الفرصة ليصبحا بطلين. ولكن لا يستطيع أحد أن يزعم بأن بوهيمند أوف تورنتو قد ذهب لسبب غير رغبته في تأسيس إمارة في الشرق. كما كان ريموند أوف سنت جيلز، بطل الحروب الإسبانية، يطمع في الاستيلاء على قطعة من أرض سورية الجميلة. وأغلب الظن أن اتباع هؤلاء القادة قد اشتركوا في الحملة لأسباب

عديدة. فقد ذهب بعضهم مدفوعين بحماستهم الدينية المحضة، وذهب بعضهم فراراً من رتابة حياتهم المملة، أو تخلصاً من ألسنة زوجاتهم السليطة. وحمل بعضهم الصليب حباً بالمغامرة والمخاطرة. وذهب بعضهم لمجرد ان الآخرين قد فعلوا ذلك.».

وينفذ لامونت إلى أعماق الواقع الإنساني عندما يقول: «انني لست واثقاً من أن الحماسة الدينية التي رافقت الحملة الصليبية الأولى قد استمرت طوال حياة الرجال الذين قادوها. لقد أدرك أبناء الجيل الأول أن «بينهم وبين جيرانهم كثيراً من الأمور المشتركة» على الرغم من أنهم «كانوا يعتبرون كل سورية الإسلامية أرضاً للميعاد لا أصحاب لها» هذا من حيث المحاولات التي كانت تجري للاستيلاء عليها، ولست أعتقد أن الصليبيين حاولوا الاستيلاء على البلاد الإسلامية لكونها بلاداً إسلامية. فالحقيقة أن الجيل الأول من الصليبيين حملوا الصليب وخرجوا ليستولوا على البلاد ويؤسسوا فيها إمارات لهم. وكانت البلاد، بصورة عامة، بأيدي المسلمين، وعلى هذا فقد تعين عليهم أن يحاربوا المسلمين للاستيلاء على ما ملكت أيديهم. إن سيرة تنكريد وهو أحد عظماء الصليبية الأولى، الذي أثلج قلب أغوبير بذبحه المسلمين بشكل وحشي عندما احتل القدس وانتهبها تعطينا شواهد عديدة على أن أمراء الحملة الصليبية، عندما اندفعوا بسياستهم التوسعية، كانوا يستهدفون غايات دنيوية محضة، وأنهم كانوا على استعداد، حين تدعو الضرورة، للتفاهم مع أعدائهم المسلمين. فكان تنكريد مصمماً على إنشاء أكبر دولة ممكنة. وفي سبيل تحقيق هذه الغاية لم يجد أي بأس في أخذ البلاد من أيدي المسلمين أو اليونان أو الأرمن أو من أيدي أبناء جنسه الإفرنج.. إن الزمن والنشاط اللذين أنفقهما تنكريد في محاولة الاستيلاء على اللاذقية وغيرها من المدن النصرانية من أيدي حكامها اليونان والأرمن يعدلان الزمن والنشاط اللذين أنفقهما في محاربة الأتراك. أما سيرة بلدوين دي بورغ وبخاصة في أيامه بالرهاء، فلا تنقض هذه القاعدة العامة» (راجع كتاب دراسات إسلامية بإشراف الدكتور نقولا زيادة ص ١٠٢ ــ ١١٠).

أما محمد عبد الله عنان فهو يرى أن الحروب الصليبية لم تكن فورة فجائية أثارتها قصص الحجاج الناقمين أو دعوة بطرس الناسك، ولكنها كانت تتمة أو ذروة للمعركة الكبرى التي كانت تضطرم منذ أربعة قرون بين الشرق والغرب، وكان مسرح هذه المعركة حتى القرن الحادي عشر في أوربا وفي اسبانية بنوع خاص، فنقلته الحروب الصليبية إلى آسيا، ثم يقول في وصف الدوافع المباشرة والخفية لهذه الحروب:

«ولئن جاشت أنفس الزعماء والفرسان بنوع من الحماسة الدينية، فقد كانت الأطماع الدنيوية أقوى البواعث التي زجت بهم في غمار تلك المخاطرات النائية، بل لقد شق التنافس على الملك والرياسة بينهم طريقه منذ البداية. ولنا ما يوضح ذلك في معظم الحملات الصليبية، فقد سار جودفروا دي بويون وزملاؤه الأمراء على رأس الحملة الأولى بعد أن تعهدوا بأن يحكموا البلاد المفتوحة باسم البابوية، فلما وصلوا إلى قسطنطينية تعهدوا بأن يحكموها باسم الامبراطور مقابل اختراق الجيوش الصليبية أراضي الدولة، غير أنهم ما كادوا يصلون إلى طرسوس وأنطاكية حتى ثارت بينهم عاصفة شديدة من الخلاف والتنازع، فافترق بلدوين عن زملائه واستقر في إمارة الرها، واستقر بوهموند في أنطاكية وأبى السير إلى الجنوب، واشتغل ريمون دي تولوز بغزو طرابلس، واستقل جودفروا بإمارة بيت المقدس. وحكم الجميع الإمارات الجديدة باسمهم ولحسابهم، وأنشأوا القصور، وأقطعوا القطائع. وقد رأينا أن الحملة الرابعة لم تصل إلى الأرض المقدسة بل استقرت في قسطنطينية، وخاض أمراؤها غمار الدسائس التي

كانت تعصف حينئذ بعرش القياصرة، وآثروا في النهاية أن يلتهموا أشلاء الدولة الشرقية على أن يحجوا إلى قبر المسيح».

(راجع كتاب مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام لمؤلفه عبد الله عنان ص٩٦).

ويقول دكتور نقولا زيادة اعتماداً على كثير من المصادر الغربية والشرقية: «كان في الجيوش الصليبية ومع التجار الصليبيين، الفرنسيون من مختلف المدن، واللومبارديون، من مدن إيطاليا التجارية الشمالية، والمالطيون، والإسبان، والإسكنديناڤيون، والإنكليز، والهنغاريون، والبلغار، والجرمان من القبائل المتفرقة في أواسط أوروبا وكان عددهم كبيراً جداً حتى تألفت منهم فرقة الفرسان التوتون. وكانت قلاعهم الخاصة حصينة. وكان بين هؤلاء القادمين على رواية المؤرخين المعاصرين من الغربيين: القاتل واللص وقاطع الطريق والمجرم والقرصان والسكير واللاعب والراهب والراهبة والرجل والمرأة والطفل والعاهرة والمحكوم عليه بالإعدام والملك والأمير والفلاح والتاجر والنبيل والغني والفقير. وباختلافهم اختلفت الغايات والأطماع، من دينية خالصة إلى مادية بحتة، والأخيرة هي التي غلبت متسترة بالأولى. وقد كان هناك من جاء يفتش عن أميرة شرقية غنية يتزوجها».

وصفوة القول، إن الحروب الصليبية تندرج في إطار الحروب الاستعمارية، فهي حسب قول ج. وتومبسون:

«كانت الحروب الصليبية أول تجربة في الاستعمار الغربي قامت بها الأمم الأوربية خارج حدود بلادها لتحقيق مكاسب اقتصادية واسعة النطاق».

(قدري القلعجي: صلاح الدين الأيوبي ص٣٩ — ٤٨).

الفصـــل الثـانـي

سورية الفرنجية

وضع سورية الفرنجية في مطلع القرن الثاني عشر

بإزاء وضع الإسلام السوري الذي بسطنا باختصار عوامل ضعفه، قمين بنا أن نشرح باقتضاب وضع سورية الفرنجية وما كانت عليه في مطلع القرن الثاني عشر في أعقاب تلك النتيجة الظافرة للحملة الصليبية الأولى.

قلاع الصليبيين وحصونهم في سورية

فبعيد تأسيس مملكة القدس قام في سورية بضع مئات من الفرسان الجسورين بتشييد هذه القلاع التي لمّا تزل ــ رغم ما انتابها من عوامل الخراب والدمار إذا ما تملاها المرء ــ موضع الإجلال والإكبار في طابع مؤثر في النفس، وذلك لأن تلك العمائر العملاقة تذكرنا بماضٍ غنيّ بشتى ضروب الدروس لمن يريد أن يجد معنى لعظمة شهادتها، إذ تركت الصليبية الغازية بصماتها على هذه الأرض السورية العظيمة التي سحرت شبابنا، وكذلك تحت أديم هذه السماء ذات الصفاء الذي لا يحيط به وصف، حيث تتابعت حضارات عديدة غير مخلّفةٍ سوى ذكرى مدنها الهامدة، وشعوبها المندثرة، على حين أقام أولئك الرجال الوافدون من وراء

البحار في قمم جبال لبنان التي تسامر نجوم السماء بمواقع عظيمة هذه الملاجىء التي كانوا يستطيعون منها مراقبة دار الإسلام وتهديدها . وقد أشار الرحّالة العربي ابن جبير[١] الذي تجوّل بسورية أيام صلاح الدين إلى ما كان يعتري المسلمين من ذعر لدى رؤيتهم هذه القلاع المستعصي بلوغها أو القائمة على جرف من المنخفضات في معتزل المرتفعات الشاهقة ، فهي رؤى كابوس لم يستطيعوا دفعه عن مخيلتهم ، إذ كانت تقوم في مواجهة الإسلام فخورة قوية رموزاً للصليبية الظافرة ، حارسة متيقظة لاتحاد الدول الفرنجية الذي كان ينتظم بعضها بعضاً راسخة في الأرض السورية[٢] . لقد بنى الصليبيون الأوائل للمستقبل كما لو أنه جارٍ في قبضتهم بديمومته إلى الأبد .

كان التناقض جد مثير إذا ما تملّوه بواقعية ، ولنتذكر هنا للمقارنة أسس مملكة القدس اللاتينية ، وعدم الاكتراث الرومانطيقي لحكام بغداد .

البنية السياسية للمجتمعات اللاتينية في سورية

لقد مارس الصليبيون في سورية ــ عفواً ودونما شعور منهم ــ سياسة استعمارية بارعة من الغبن عدم الاعتراف باستلهاماتها الليبرالية . يقول الأب لامنس في كتابه المدهش (سورية) : « إننا لن نلقى في أية حقبة من القرون الوسطى تركيبة سياسية أوسع ، تجمع في عمل مشترك واحد جميع فئات الدولة : النبلاء ، الكهنوت ، البورجوازية ، الشعب المحلّي . ووحده كان العهد الروماني يذكّرنا بازدهار اقتصادي مماثل . فالفرنجة مع الرومان كانوا أكثر البناة اجتهاداً متواصلاً بين جميع الذين مروا بالأرض السورية » . فمنذ القرن الثاني عشر نهضت في ممالك المشرق اللاتينية بورجوازية كاملة التنظيم متمسكة بامتيازاتها المحددة تحديداً دقيقاً في وثيقة دستورية ، متقدمة عدة أجيال على الغرب الإقطاعي . فعلينا هنا أن نرى تأثير أولئك الرجال المستنيرين أمثال غود فروا دي بويون وبودوان وغيرهما من الصليبيين القادمين من الفلاندر ومن الجمهوريات الإيطالية ، إذ حصلت البورجوازية عهد ذاك على الاعتراف بحقوقها ، وعلى احترام استقلالها الذاتي .

وكحصيلة لاعتراف البابوية بالممالك اللاتينية في المشرق مُنحت الكنيسة حقّ الإشراف على المنشآت الفرنجية ، ومارست باستمرار رقابة لا يمكن نكران دورها المهدّىء ،

الخيّر. ومؤكد أن ملك القدس كان ممسكاً بإدارة بِلاطه وكبار موظفيه، وهو قادر على دعم عمّاله، وممارسة سلطته التنظيمية إذا ما شغر منصب من لا عقب له، كما كان يفصل في النزاعات. ولكن في المقابل كانت سلطته خاضعة لرقابة بطريركية القدس والمجالس الإكليريكية ومنظمات الفرسان، ولم يكن مسموحاً بالاستبداد في الأراضي المقدسة، إذ لم تكن الملكية وراثية بل انتخابية لا مجال فيها للتطلّع إلى تلك السلطة المطلقة التي طالما تمتع بها عهد ذاك أباطرة بيزنطية الذين كان عملهم الإفسادي ظاهراً ظهوراً فاحشاً.

ونتيجة للدعم غير المحدود الذي قدمته البابوية للصليبيين كان في صلب غايتهم أن يؤمنوا للتنظيمات الكنسية مركزاً ممتازاً في إدارة الممالك اللاتينية المشرقية. فبطريرك القدس— وهذا ما له فحواه الخاص— هو الذي كان يكرّس الملك، ولايفتأ يتدخل رسمياً وعلناً في شتى القضايا التي من شأنها أن تؤثر في مستقبل المملكة وازدهارها.

وغدا سدنة التنظيمات الدينية بما تتلقاه من هبات الأمراء ومتقي المؤمنين من كبار الملاكين العقاريين، وبالمقابل كانت تلك التنظيمات تساهم في الذود عن الأرض الخاضعة لسلطتها القضائية، وتتحمل الكثير من أعباء أعمال البر. ففي مدينة القدس وحدها— كما يحكي لنا بنجامان توديل— كان ألفان من المساكين يتلقون من الاسبتاريين المعونة اليومية، وكان تنظيم القديس اليعازر الفروسي يعنى بالمجذومين. وبدوره كان المطران الأرمني الشهير القديس نرسيس دي لامبرون، يتحدث بإعجاب عن أعمال الإحسان التي شاهدها رؤي العين جارية لدى المسيحيين، فيكتب قائلاً: ففي كل قدّاس، بعد تلاوة الإنجيل يستدير الكاهن نحو المصلين فيضع كل منهم في يده ثمار إيمانه. كان الرجال والنساء يقدمون أعطياتهم كما يحبها الله. يقدمونها كبركة، يداخل نفس كل منهم أنه بتقبُّل الفقر الذي قبله المخلّص سيصبح هو غنياً. فباسم المسيح، وحسب روح الكتب المقدسة، كانت يد العون تسدى خالصة إلى الحجاج والمرضى، وليس بغية تسجيل وقفة تكرم سهلة.

وفي داخل المملكة، لم تكن سلطة الملك تمارس مباشرة إلّا في بعض المدن (عكّا، صُور، القدس) وحتى هنا علينا أن نلاحظ أنّ هذه السلطة كانت معدّلة بوجود الامتيازات الأجنبية: شأن الامتيازات الغامضة للجمهوريات الإيطالية فيما يتعلق بالسلطة الزمنية. وفي

أماكن أخرى مثل نابلس وقيسارية، وبيروت وصيداء كانت سلطة الملك خاضعة لتصديق النّبالة الإقطاعية التي كانت تملك إقطاعات مستقلة بشكل إمارات أو كونتيات، أو بارونيات أو مشيخات تدار وفق التقاليد العريقة للقانون الإقطاعي.

منظمات الفرسان زمن الحروب الصليبية(٣)

وكانت التنظيمات الفروسية تحقق أمن المملكة. وهذه التنظيمات جد معروفة: إنهم الاسبتاريون وفرسان الهيكل، وبعدها في آخر الحروب الصليبية الفرسان التوتونيون. وقد لعب الاسبتاريون وفرسان الهيكل دوراً أولياً في سورية رغم صفتهم الدُّوَلية، والعنصر الفرنسي هو السائد فيما بينهم، وترتب على الأعضاء أن يتلفظوا بالنذور الرهبانية. وكان كل تنظيم يشتمل على ثلاث طبقات: الفرسان ــ وكلهم نبلاء ــ والرقباء، وجميعهم ينحدرون من البورجوازية، والإكليريكيون وهم الذين يضطلعون بالأعمال الكنسية. وكان للتنظيمات الفروسية، جنودها المشاة والبحرية ورجال الدبلوماسية، وحاز التنظيم الأخير حق إبرام المعاهدات وفرض الضرائب على الأمراء وعمالهم المسلمين، وبكلمة فقد شكلت تلك التنظيمات دولاً داخل الدولة وبلغت ثروات سدنتها حداً يفوق ثروات الملوك أنفسهم، وكان من شأن هذا الاستقلال وذلك الازدهار أن يؤثرا تأثيراً سيئاً في الانضباطات الأولية. ومع ذلك فميخائيل السرياني الذي كثيراً ما عايشهم في عصر صلاح الدين اقترحهم قدوة لرعاياه. وكان مما جرى به قلمه: «حينما يحتل الهيكليون أو الاسبتاريون موقعاً عسكرياً لا يتزحزحون عنه ثابتين فيه للنهاية معرضين أنفسهم للقتل حيث هم. وحينما يموت أحد الأخوة يطعمون الفقراء إكراماً له طيلة أربعين يوماً بمعدل أربعين شخصاً في اليوم الواحد. ويعتبرون قتلى المعارك شهداء. ويوزعون على الأهالي عِشْر غلّاتهم من القمح والنبيذ، وكلما خبزوا في أحد بيوتهم يدعون للفقراء رغيفاً من كل عشرة أرغفة، وهم رغم طائل ثرائهم متواضعون يعاملون بالحسنى كل من احترم الصليب. وأنّى كانوا، شادوا المشافي والمصحات لخدمة الغرباء المرضى ومساعدتهم.».

ومهما تكن الأخطاء التي اقترفها فيما بعد أعضاء هذه التنظيمات الفروسية بسبب قوتهم المتفاقمة فيشفع لهم أنهم أسهموا بقسط وافر ببقاء مثل مسيحيّ أعلى في المشرق يشهد على عظمته جمٌّ أعمال إحسانهم.

المحاكم والقوانين في المجتمعات الصليبية

وكان السادة مجتمعين في هيئة يؤلفون المحكمة العليا التي لا يمكن لأي مرسوم ملكي أن يصبح قانوناً نافذاً دون موافقتها. ولم يكن التاج يرفع على هامة الملك إلّا بعد أن يؤدي أمامهم القسم بأن يحترم قوانين القدس الأساسية. هذه القوانين، وهي الوثيقة الدستورية (الشَّرْطُ الدستوري) كانت تلحظ جميع الحالات حتى حالة حنث الملك بيمينه، وهنا يعتبر السّادة في حلّ من واجباتهم تجاهه، ويعلنون بالتالي عزله لأنه غير أهل بالتاج. وتقوم تحت المحكمة العليا محاكم بورجوازيين تماثل اختصاصاتهم اختصاصات السادة. وكان هؤلاء الوجهاء يتمتعون بوضع سياسي لا تعهده أغلب الدول الأوربية القروسطيّة. وكانت المستعمرات التجارية التي هي أصلاً من بيزة أو جنوة أو البندقية أو مارسيلية أو مونبلييه، والتي قامت على الشواطىء السورية هي الصانعة النشطة لازدهار المملكة الاقتصادي. ولكونها أسهمت في الفتوحات الأولى بما قدمته من أساطيل فقد عرفت كيف تفرض تثمين مساهمتها، وتحصل على ضروب من الإعفاءات التي فوتت على الخزينة المركزية الكثير من الدخل ناهيك بما كانت تثيره من منازعات بشأن امتيازات أحيائها في المدن ومحاكمها الخاصة المخالفة لروح قوانين القدس. وكان على الدوام يجب المناقشة والمرافعة في منازعات لا تفضُّ حتى تعود لتذر قرنها من جديد.

التحولات الاجتماعية

أما النُّبالة الفرنجية، فما إن استقرت في هذه الأراضي حتى فسحت المجال بالترحاب لينخرط في صفوفها السوريون أو الإقطاعيون الأرمن حيث ظهرت بناتهم في بلاطي القدس وأنطاكية.

ولم تلبث أن دوّت كلمة رئيس كنيسة بودوان الأول: «لقد أصبحنا شرقيين كاملين، فالروماني أو الفرنجي تحوّل في بنائه الجديد إلى جليلي أو فلسطيني، والمولود في رنس أو شارتر انقلب إلى واحد من أهالي صور أو أنطاكية، وبَنَيْنا بنساءٍ لسن من بلادنا، وإنما هن سوريات أو أرمنيات، وأحياناً مسلمات متنصرات».

واحتفظت المدن التي احتلها الصليبيون بأغلب سكانها المسلمين، وكثير منهم نازحون هاربون دون موجة الغزو، ولكنهم آثروا العودة إلى مدنهم وقراهم الأصلية التي يحكمها الصليبيون بعد أن جربوا العيش في ديار الإسلام، وإنما في ظل نظام أقل حرية. ولم يستطع الرحالة الأندلسي ابن جبير أن يمنع نفسه — كَمُسْلم صادق — من أن يلوم هؤلاء المؤمنين الذين لم يبادوا كما يحلو التحدث لبعض المؤرخين، ولكنهم بالعكس، كانوا متمتعين بحماية امتيازات شارلمان[٤].

العلاقات التجارية بين الفرنجة والمسلمين

وإذا كان قادة الممتلكات اللاتينية يراعون الحالة الذهنية للجماعات الإسلامية المقيمة في المدن مراقبين إياها، كان التجار السوريون بالمقابل ينعمون بحرية واسعة. فقوافلهم كانت تتجول بلا عائق من الساحل إلى داخل البلاد. ولم يكن أمنهم مهدداً، ما عدا مرة أو مرتين على التقريب بحالة الحرب في عهد صلاح الدين. وقد لاحظ ابن جبير — إبان زيارته سورية — «أن القوافل الإسلامية كانت تتوغل في الأراضي الفرنجية متقاطعة في الطريق مع قوافل الأسرى المسيحيين الذين كان يجب أن يباعوا بالمزاد في أسواق نخاسة دمشق»[٥] وعلى طول الحدود، في بانياس الغنية بمرزّاتها (حقول أرزّها) حيث كانت تتداخل متشابكة الأملاك الإسلامية والمسيحية. يقول كاتب عربي آخر: «إن قسمة الغلّات كانت عادلة، وإن القطعان كانت ترعى معاً بلا ممانعة ولا عنف» ويقول ابن جبير في يوميات رحلته: «لقد اجتزنا سلسلة من القرى، حيث المستغلّات تتبع إحداها الأخرى، يقطنها جميعاً مسلمون يعيشون في رفاهية تحت حكم المسيحيين «نعوذ بالله من الفتنة[٦]. » إنهم يتركون لهم نصف الغلة إبّان الحصاد مكتفين باستيفاء ضريبة الأعناق ديناراً وخمسة قراريط لا أكثر، ناهيك بضريبة خفيفة على الأشجار، وبالمقابل يملك المسلمون منازلهم ويديرون شؤون أنفسهم كما يحلو لهم. وهكذا هي الحال في جميع الأراضي التي احتلها الفرنجة على الشاطىء السوري، وفي جميع الدساكر والبروج والقرى التي يقطنها مسلمون. ولا يستطيع أغلبهم أن يحبسوا النفس إغراء عن عقد المقارنة بين وضعهم ووضع إخوانهم الذين لبثوا مقيمين في المناطق الخاضعة لحكم سلطان دمشق؛ لأن هذا الوضع الأخير كان نقيض البحبوحة والازدهار. وإحدى محن المؤمنين الحقيقيين أنهم كانوا يتذمرون من ظلم سادتهم على حين كانوا لا يستطيعون إلّا أن يمتدحوا

سلوك المسيحيين أعدائهم الأبديين. أصلح الله هذه الحال[7] وإنها لشهادة بليغة ــ وخاصة لا يحق لنا أن نتهم ابن جبير بمحاباة المسيحيين كل المحاباة، لأنه كان حتماً يهتز فرحاً حينما يصفهم «بخنانيص قذرة».

وعلى حين كان وصول الصليبيين صفر الأيادي من كل شيء، إلا من الحماسة، كان الأمر بالنسبة للتجار السوريين مصدراً غير مرتقب للموارد الإضافية، ولا يخفى أن بعض هؤلاء التجار الدمشقيين أو الحلبيين جمعوا من الثروات ما بلغت معه حد الفحش، وسرعان ما انتزع ذهبهم المتراكم احترام الفرسان المسيحيين، واحتراماً ليس دونه نفعية لدى الأمراء المسلمين.

وكان سان جيروم قد أشار إلى ما اتصف به أولئك التجار «من حماسة في أعمالهم المالية، وحمىَّ البحث عن الثروة حتى تحت قعقعة السلاح»، حتى أقرض بعضهم الهيكليين مبالغ ضخمة.

البنية الإدارية للمالك اللاتينية والمسيحيون الشرقيون

وكما هو الأمر في عهد العباسيين، كان المسيحيون من أهل البلاد يستخدمون في مكاتب الإدارة المحلية. فمنهم مثقفون ينشئون تفاهات المراسلات الرسمية بنثر رقيق الحاشية مسجّع وبروتوكولي. وكما كان خليفة بغداد على الدوام يضمُّ في عداد إدارييه موظفين مسيحيين، لأن وضعهم المتدني كدافعي جزية يدفع عن نفسه الشك في مرونتهم وولائهم، كانت البنية الإدارية للممالك اللاتينية في المشرق هي البنية الإدارية ذاتها لبغداد، فهناك كتاب وموظفو ديوان ومراقبو مكوس (جمارك) وجباة ضرائب ومترجمون في المحاكم. إنهم يمثلون أمراء الداخل الذين أقام الفرنجة معهم علاقات يومية لتصفية المنازعات الحدودية المحددة تحديداً سيئاً، وتبادل الأسرى أو افتدائهم وإبرام المعاهدات التجارية واستيفاء الجزى. وعلينا أن نقول: «إن الموظفين السوريين كانوا ناعمي البال لهذه القرطاسية المغرية؛ إذ احتل الكتبة مكانة بارزة في عداد الأقليات التي ترتب على الفرنجة أن يأخذوا جانب حذرهم منها أكثر من حذرهم من المجتمع الإسلامي» فهم سوريون غير قابلين للتحول، أوفياء للمطامع الإمبريالية، ولطقوس الكنيسة البيزنطية، كثيرو الحركة في أنطاكية، يظهرون في كل مناسبة أحكامهم المسبقة ضد اللاتين، ولكونهم متفشّين في مكاتب الدبلوماسية الإمبراطورية التي لم تدع

سانحة تمر، دون أن تعلن عداءها لروما. وبدورهم كان هؤلاء الكتبة أفضل عملائها المتآمرين في سورية، رافضين أن يعترفوا بكل فخر إلا بسلطة رأس الكنيسة الشرقية، مما كان يصدم شعور الغربيين سياسياً ودينياً، ناهيك بمعاداتهم البابَاوية القيصرية، لمعرفتهم كيف جعلت بيزنطية من كهنتها آلة ضخمة للدعاوة وبالتالي للسيطرة؛ وهذا ما حمل ميخائيل السرياني على اتهامهم بإثارة المعارك بين التنظيمات الأخوية المسيحية، وبالتدخل في صبرٍ شرقيٍّ تماماً لدى السلطات الفرنجية لإفسادها ببيزنطيتهم الحاقدة العنيدة.

ولطالما أشار بعض المؤرخين غير المدققين أو المتأثرين بانحيازهم إلى التعصب الكاثوليكي لدى الصليبيين «الذين لم يكونوا ــ كما يقول أحد مؤرخيهم ــ يعاملون المسيحيين المحليين أفضل مما يعاملون المسلمين». ولنقابل هنا هذا الاتهام المجافي للواقع بشهادة البطريرك ميخائيل السرياني الذي نوّه بليبرالية الفرنجة وتسامحهم:

«كان أحبار كنيستنا اليعقوبية يعيشون في ظهرانيهم غير مضطَهَدين ولا معذّبين. ففي فلسطين كما في سورية لم يكن الفرنجة يقيمون أية عقبة تتعلق بالمعتقد، كما لم يحاولوا إيجاد صيغة واحدة لجميع الشعوب أو لسائر اللغات المسيحية. بل كانوا يعتبرون بإطار عام كل من قدّس الصليب مسيحياً دونما تحقيق بملته أو نحلته».

المبادىء الليبرالية في مجتمعات سورية الفرنجية

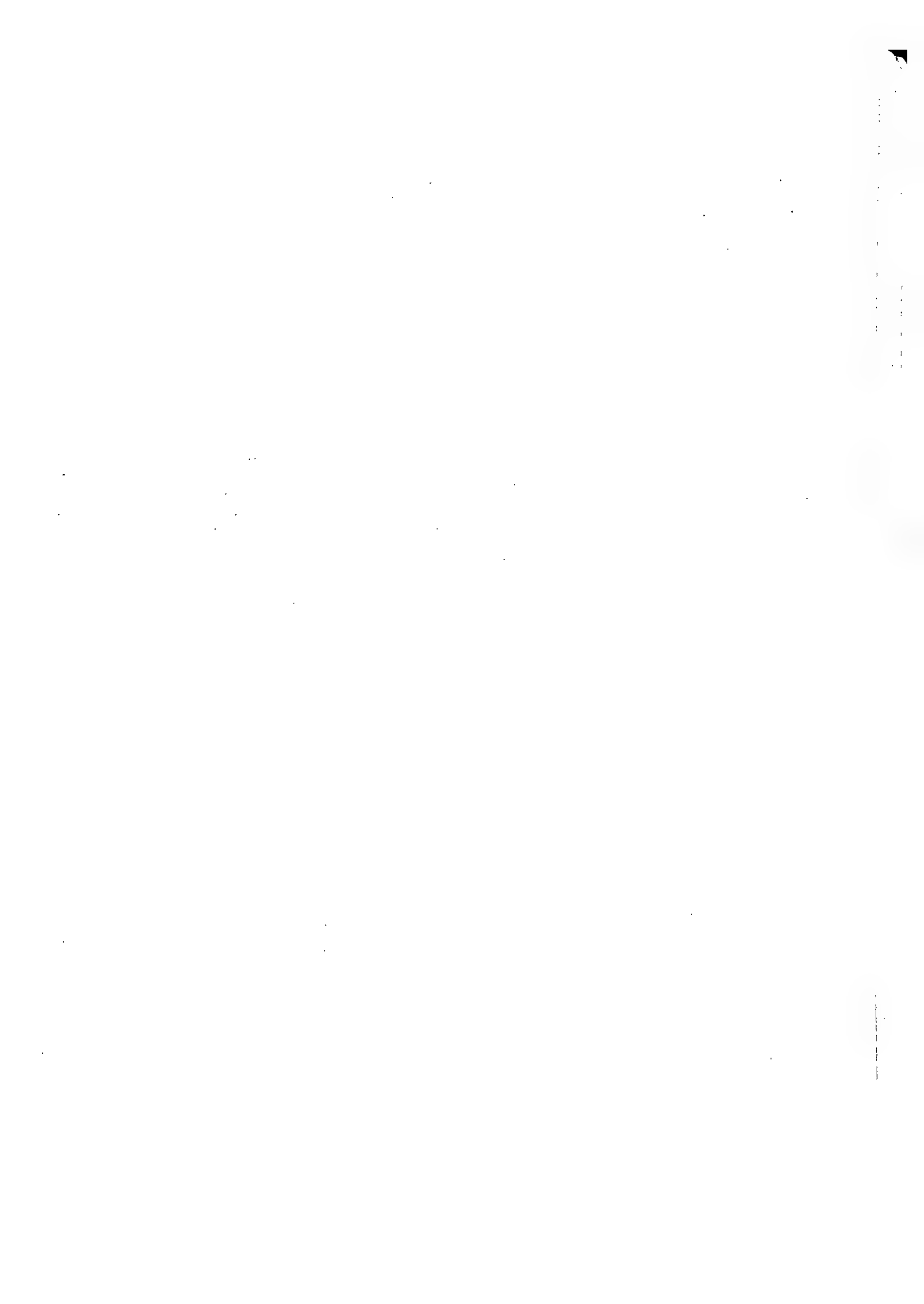
وهكذا كانت سورية الفرنجية في القرن الثاني عشر تساس وفق مبادىء مستوحاة من ليبرالية حقيقية ومتناقضة مع حالة أوربا الإقطاعية في الحقبة ذاتها.

وتقريراً للحقيقة؛ فإن فقدان التجربة لدى القادمين الجدد الذين كان عليهم إبان الاحتلال أن يخطّوا ارتجالاً الفصل الأول من الاستعمار الأوربي، والضعف الدستوري للسلطة المركزية، وأخطاء بعض العناصر المريبة وفظاظاتهم، كان من شأنه حتماً أن يسبب سوء تفاهم، ويفضي إلى نتائج مضرّة بسمعة الحروب الصليبية.

طبعاً لم يكن الصليبيون كلهم قدّيسين؛ إذ كثيراً ما كان الإكليروس المستنكر السلوك العام أو الخاص للسّادة غير المحترمين يأمرهم بأن يستنزلوا الغفران ورضا الله بالذهاب

للقتال في الأرض المقدسة؛ ولم يكن هؤلاء البتة مجنّدين ذوي قيمة؛ وحمل بعض الكهنة الطامعين الصليب حالمين بمطرانية آسيويّة مترفة. وفي خضم كل هذه الكتل التي تحركت في أوربة بعامل غيرة أساسية نقية، لا مناص أن تظهر شيئاً فشيئاً دناءات الطبيعة البشرية التي هيهات مجانبتها.

هذا الشرق! ـــ ومن منا يستطيع أن ينكر أنّ خياله كان دمية سحره؟ ـــ لم يكن البتة أرض التجليات الإلهية فحسب، بل غدت هذه الأرض خلال تلك المسيرة العجيبة نحو القدس أرض العجائب التي تهوي فيها النجوم من السماء، حيث تبدو نيران سماوية تهدي الحجاج إلى الأراضي المقدسة بتجلي الرب، حيث تمزّق المذنبات كالحراب الغسق من جهة مدن الإسلام. هذه الغيرة السماوية التي كانت تدفع الجحافل الضخمة السائرة نحو القدس على أنغام الموسيقى والمزامير خلال المائة والخمس والسبعين سنة التي سيستمر إبّانها الصراع العملاق بين الشرق والغرب، لتتطهر في سورية بالشقاء والمجد.



حواشي الفصل الثاني

١ ــ ابن جبير، أبو الحسن محمد بن أحمد: (١١٤٥ ــ ١٢١٧)

رحالة أندلسي، ولد في بلنسية. خرج للحج، فزار سردينية ومصر وجزيرة العرب والعراق والشام وصقلية، ثم قام برحلتين أخريين إلى المشرق. وصف رحلاته في كتابه «رحلة ابن جبير». توفي بالاسكندرية. (الموسوعة الميسرة ص ١٢).

ويعد كتابه «رحلة ابن جبير» من المصادر الهامة اجتماعياً وسياسياً لعصر صلاح الدين عموماً، وتحديداً في دراسة العلاقات الإسلامية الصليبية».

٢ ــ من الملاحظات التي خلفها لنا ابن جبير، والتي يمكن أن ننعتها بـ «الرسم بالكلمات» وصفه حصون الفرنجة ومنشآتهم العسكرية وكيفية اختيار مواقعها، ليقينهم بأن الأرض التي تحدق بهم عدوة، يقول في رحلته:

«فرحلنا عنها ــ أي بانياس ــ عشيّ يوم السبت المذكور إلى قرية تعرف بالمسية بمقربة من حصن الإفرنج المذكور فكان مبيتنا بها، ثمّ رحلنا منها يوم الأحد سحراً، واجتزنا في طريقنا بين هُونين وتِبْنين بواد ملتفّ الشجر، وأكثر شجره الرَّند، بعيد العمق كأنّه الخندق السّحيق المَهْوَى، تلتقي حافتاه، ويتعلّق بالسماء أعلاه، يعرف بالإسطيل لو ولجته العساكر لغابت فيه، لا منجى ولا مجال لسالكه عن يد الطالب فيه، المَهْبَط إليه والمَطْلَع عنه عقبتان كؤودان، فعجبنا من أمر ذلك المكان.» (رحلة ابن جبير ص ٢٧٤).

٣ ــ منظمات الفرسان إبان الحروب الصليبية:

لقد ظهر عدد من التنظيمات العسكرية الدينية الأصل زمن الحروب الصليبية، أبرزها منظمتان هما: منظمة فرسان المستشفى، أو فرسان القديس يوحنا التي أطلق عليها العرب اسم الاسبتارية، ومنظمة فرسان الهيكل (وسماها العرب الداوية)، ثم أنشئت منظمة ثالثة إبان الحملة الصليبية الثالثة هي منظمة فرسان التوتون، وننقل عن الموسوعة الميسرة تعريفاتها بها:

فرسان مستشفى القديس يوحنا أو الاسبتارية

أعضاء الهيئة العسكرية الدينية التابعة لمستشفى القديس يوحنا المقدسي، ويعرفون أحياناً بفرسان القديس يوحنا، أو بفرسان بيت المقدس. وسماهم العرب: الفرسان الاسبتارية. وقد نشأت الهيئة من مستشفى أسس في القرن ١١ للعناية بالحجاج في الأراضي المقدسة. وعندما أعيد تكوين فرقة الفرسان على أساس عسكري لم تلبث أن ازدادت ثروتها وسطوتها. وأنشئت على غرارها مؤسسات أخرى لمساعدتها في أوروبا كلها. وقد اشترك فرسانها مع زملائهم ومنافسيهم فرسان الهيكل أو الداوية في جميع حروب المملكة اللاتينية والصليبيين. وبعد استيلاء العرب على بيت المقدس ١١٨٧ انتقل الاسبتارية إلى عكا، ثم إلى قبرص ١٢٩١، وبفتحهم لجزيرة رودس ١٣١٠، ونتيجة لما جلب انحلال الفرسان الداوية عليهم من فوائد مادية، بدأوا عهداً تعاظمت فيه قوتهم وسطوتهم. وبدؤوا يعرفون بفرسان رودس، وسيطروا على البحر المتوسط. وتمكنوا من وقف غزو المسلمين لأقطار أوروبا بل أخذوا يلجأون هم أنفسهم إلى الغزو البحري، ودافعوا ببطولة عن رودس تحت امرة بيير دوبوسون ضد محمد ٢ (١٤٨٠)، ولكنهم اضطروا إلى الاستسلام لسليمان ١ (١٥٢٢)، فمنحهم الامبراطور شارل ٥ (١٥٣٠) جزيرة مالطة التي أصبحت مقرهم الرئيسي. ودافعوا عن هذه الجزيرة ببطولة تحت امرة جان دي لافالت ضد الأتراك الذين ظلوا يهددونهم تهديداً قوياً حتى معركة ليبانتو ١٥٧١ ومنذ هذا الوقت واصل فرسان مالطة أعمال الإحسان في المستشفيات. متمتعين بسلم نسبي، إلى أن استولى نابليون على مالطة ١٧٩٨. ولا تزال بقايا من هذه الهيئة في أوروبا. وأعاد البابا ١٨٧٩ منصب الرئيس الأعلى للاسبتارية، ولكن علاقة الهيئة الجديدة بفرسان مالطة القدماء غدت واهية.

فرسان الهيكل أو فرسان الداوية

الهيئة العسكرية الدينية التابعة لفرسان المسيح الفقراء، الذين كانوا يعرفون في العصور الوسطى أيضاً بفرسان هيكل سليمان، نسبة إلى مقرهم بيت المقدس. وقد عرفوا في الكتب الدينية التي ترجع لعصر الحروب الصليبية باسم الداوية. وهي كالهيئات العسكرية الأخرى، مثل فرسان القديس يوحنا (اسبتارية) والتيوتون. تألفت خلال الحروب الصليبية، وكانت النواة الأولى للهيئة فرقة تألفت من تسعة فرسان اجتمعوا ١١١٨ برياسة هيو دي باين، لحماية الحجاج إلى الأماكن المقدسة المسيحية. وازداد عددهم تدريجاً، واتخذوا لأنفسهم قانون طائفة الرهبان البندكيين، ومنحوا مقراً في بيت المقدس يجاور البناء الذي كان يدعى هيكل سليمان. وانضم كثير من النبلاء الشبان إلى هذه الهيئة التي بدأت فقيرة جداً. ثم سرعان ما أخذت تتلقى منحاً من اقطاعات ومال من جميع أنحاء أوروبا. فأصبحت في مدة قصيرة من أقوى المنظمات العسكرية الأوروبية. واكتسب الداوية شهرة عظيمة بفضل اعلانهم أن هدفهم الأمثل هو حماية المسيحية، وبفضل انتصاراتهم العسكرية، إذ أثبتوا شجاعتهم في جميع الحروب التي قامت بها المملكة اللاتينية، ولعبوا دوراً هاماً في الصراع بين الصليبيين والمسلمين. وقد قامت منذ وقت مبكر منافسة مستعرة بينهم وبين الاسبتارية. وكان فرسان الداوية مسئولين عن قلعة غزة التي سقطت في يد نور الدين زنكي، ثم استعادوها منه. غير أن فتوح صلاح الدين الأيوبي أكرهت الداوية، كما أكرهت الاسبتارية، على الجلاء عن بيت المقدس.

وبعد فتح عكا، استقر الفرسان فيها، ولعبوا دوراً هاماً في الحروب الصليبية الثالثة. وأخذ نصيب فرسان

الداوية والاسبتارية والتيوتون من محاربة العرب يطرد ازدياداً، حتى كادوا ينفردون به دون الصليبيين المتأخرين. لكن هذه الهيئات وقعت فريسة التنافس المدمر فيما بينها، كما أدى صراعها الداخلي المميت هذا إلى إضعاف قضية المسيحية في الشرق الأدنى. وأخذ المسلمون يستعيدون جميع الأراضي المقدسة، وسقطت عكا ١٢٩١، وانسحب الاسبتاريون والداوية إلى قبرص، ثم تخلت هيئة الداوية عن صفتها الحربية الرئيسية، وكان أفرادها قد أصبحوا حتى في القرن ١٢ صيارفة أوروبا بفضل الأموال الطائلة التي أغدقت عليهم، وكانت مؤسساتهم في انجلترا وفرنسا بوجه خاص عديدة ومزدهرة، وأصبحت مقارهم بيوتات العالم المالية. وقد زادت هذه السيطرة المالية من قوتهم، وأثارت عليهم حسد الأمراء والملوك. وما زاد الطين بلة ابتعاد الداوية عن المبادىء القويمة: فساقوا أنفسهم إلى التهلكة. وحقد عليهم فيليب ٤ ملك فرنسا لسيطرتهم المالية، وارتكابهم لجرائم عديدة، فاضطهدهم (١٣٠٨ــ ١٣١٤) وبإعدام الرئيس الأعلى لفرسان الهيكل، جاك دي مولاي ١٣١٤، انصرمت حياة هذه الطائفة.

فرسان تيوتون

طائفة عسكرية دينية ألمانية، تأسست (١١٩٠ــ ١١٩١) في البلاد المقدسة، على نمط جماعتي فرسان الهيكل وفرسان المستشفى (الاسبتارية). ذاع أمر هذه الطائفة عندما قامت بغزو بروسيا الوثنية ١٢٢٦، وكانت أراضيها الواقعة على البلطيق تخضع للسيادة الاسمية للبابا في بادىء الأمر، لكن بولندا استولت على بعض مناطقهم ١٤٦٦، فرضخوا للسيادة البولندية. اتحدوا مع الفرسان الليفونيين (١٢٣٧ــ ١٥٢٥) وبعد أن أبادوا سكان بروسيا الأصليين تقريباً أسكنوا فيها جاليات ألمانية. كان المقر الأول للفرسان في مارينبورج، ثم أبدلوها بكينجزبرج بعد ١٤٦٦. وفي ١٥٢٥ اعتنق رئيسهم الأعلى البرت البراندنبرجي البروتستانتية، ونقل مقر الطائفة إلى دوقية بروسيا الوراثية. واستمرت الطائفة تقيم بألمانيا الكاثوليكية حتى ١٨٠٥، ثم أحيت في النمسا كطائفة فخرية. ولباس الفرسان طيلس أبيض، عليه صليب أسود مطرز بالذهب.

(الموسوعة الميسرة ص١٢٨٨ــ ١٢٨٩).

٤ ــ ٧: ويتحدث ابن جبير في رحلته هذه عن طبيعة العلاقات الاقتصادية بين المسلمين والفرنجة، أي بين دار الإسلام ودار الحرب، وعن اتفاق المسلمين والمسيحيين، واختلاف القوافل بين مصر ودمشق، عبر البلاد التي احتلها الصليبيون، بقوله:

الحرب واتفاق النصارى والمسلمين

ومن أعجب ما يُحدَّث به أن نيران الفتنة تشتعل بين الفئتين مسلمين ونصارى، وربّما يلتقي الجمعان ويقع المُصافّ بينهم ورفاق المسلمين والنصارى تختلف بينهم دون اعتراض عليهم. شاهدنا في هذا الوقت، الذي هو شهر جمادى الأولى، من ذلك خروجَ صلاح الدين بجميع عسكر المسلمين لمنازلة حصن الكَرَك، وهو من أعظم حصون النصارى، وهو المعترض في طريق الحجاز والمانع لسبيل المسلمين على البر، بينه وبين المقدس مسيرة يوم أو أشفّ قليلاً، وهو سَرَارة أرض فلسطين، وله نظر عظيم الاتّساع متّصل العمارة، يُذْكَر أنّه ينتهي إلى أربع مئة قرية. فنازله هذا السلطان وضيّق عليه وطال حصاره.

واختلافُ القوافل من مصر إلى دمشق على بلاد الإفرنج غير منقطع. واختلاف المسلمين من دمشق إلى

عَكّا كذلك. وتُجّارُ النصارى أيضاً لا يُمنَع أحد منهم ولا يُعترَض. وللنصارى على المسلمين ضريبة يؤدّونها في بلادهم، وهي من الأمَنة على غاية، وتجار النصارى أيضاً يؤدّون في بلاد المسلمين على سِلَعهم، والاتفاق بينهم والاعتدال في جميع الأحوال. وأهل الحرب مشتغلون بحربهم، والناس في عافية، والدنيا لمن غلب. (رحلة ابن جبير ص ٢٦٠).

ويتابع ابن جبير في رحلته الحديث عن طبيعة العلاقات الاقتصادية — حتى في زمن الحرب — بين دار الإسلام والبلاد التي احتلها الصليبيون، وكيف أن المسلمين يدخلون مواقع الصليبيين في حين أن سبيهم يدخل بلاد المسلمين، قوله:

«ومن أعجب ما يُحدَّث به في الدنيا أن قوافل المسلمين تخرج إلى بلاد الإفرنج وسَبْيُهم يدخل إلى بلاد المسلمين؛ شاهدنا من ذلك عند خروجنا أمراً عجيباً، وذلك أن صلاح الدين عند منازلته حصن الكرك، المتقدّم الذكر في هذا التاريخ، قصد إليه الإفرنج في جميعهم، وقد تألّبوا من كلّ أوب وراموا أن يسبقوه إلى موضع الماء ويقطعوا عنه الميرة من بلاد المسلمين. فصمد لهم وأقلع عن الحصن بجملته وسبقهم إلى موضع الماء. فحادوا عن طريقه وسلكوا طريقاً وعراً ذهب فيه أكثر دوابّهم، وتوجهوا إلى حصن الكرك المذكور، وقد سدّ عليهم بنيّات الطرق القاصدة إلى بلادهم ولم يبق لهم إلّا طريق عن الحصن يأخذ على الصحراء ويبعُد مداه عليهم بتحليق يعترض فيه. فاهتبل صلاح الدين في بلادهم الغرّة وانتهز الفرصة وقصد قصدها عن الطريق القاصدة، فدهم مدينة نابُلُس وهجمها بعسكره فاستولى عليها وسبى كلّ من فيها وأخذ إليها حصوناً وضياعاً. وامتلأت أيدي المسلمين سَبْياً لا يحصى عدده من الإفرنج، ومن فرقة من اليهود تعرف بالسَّمَرَة منسوبة إلى السامريّ. وانبسط فيهم القتل الذريع، وحصل المسلمون منها على غنائم يضيق الحصر عنها، إلى ما اكتُفت من الأمتعة والذخائر والأسباب والأثاث، إلى النّعم والكُرَاع، إلى غير ذلك. وكان من فعل هذا السلطان الموفّق أن أطلق أيدي المسلمين على جميع ما احتازته، وسلّم لهم ذلك، فاحتازت كلّ يد ما حوَتْ وامتلأتْ غنىً ويساراً. وعَفّى الجيش على رسوم تلك الجهات التي مرّ عليها من بلاد الفرنج، وآبوا غانمين فائزين بالسلامة والغنيمة والإياب، وتخلّصوا من أسرى المسلمين عدداً كثيراً، وكانت غزوة لم يسمع مثلها في البلاد.

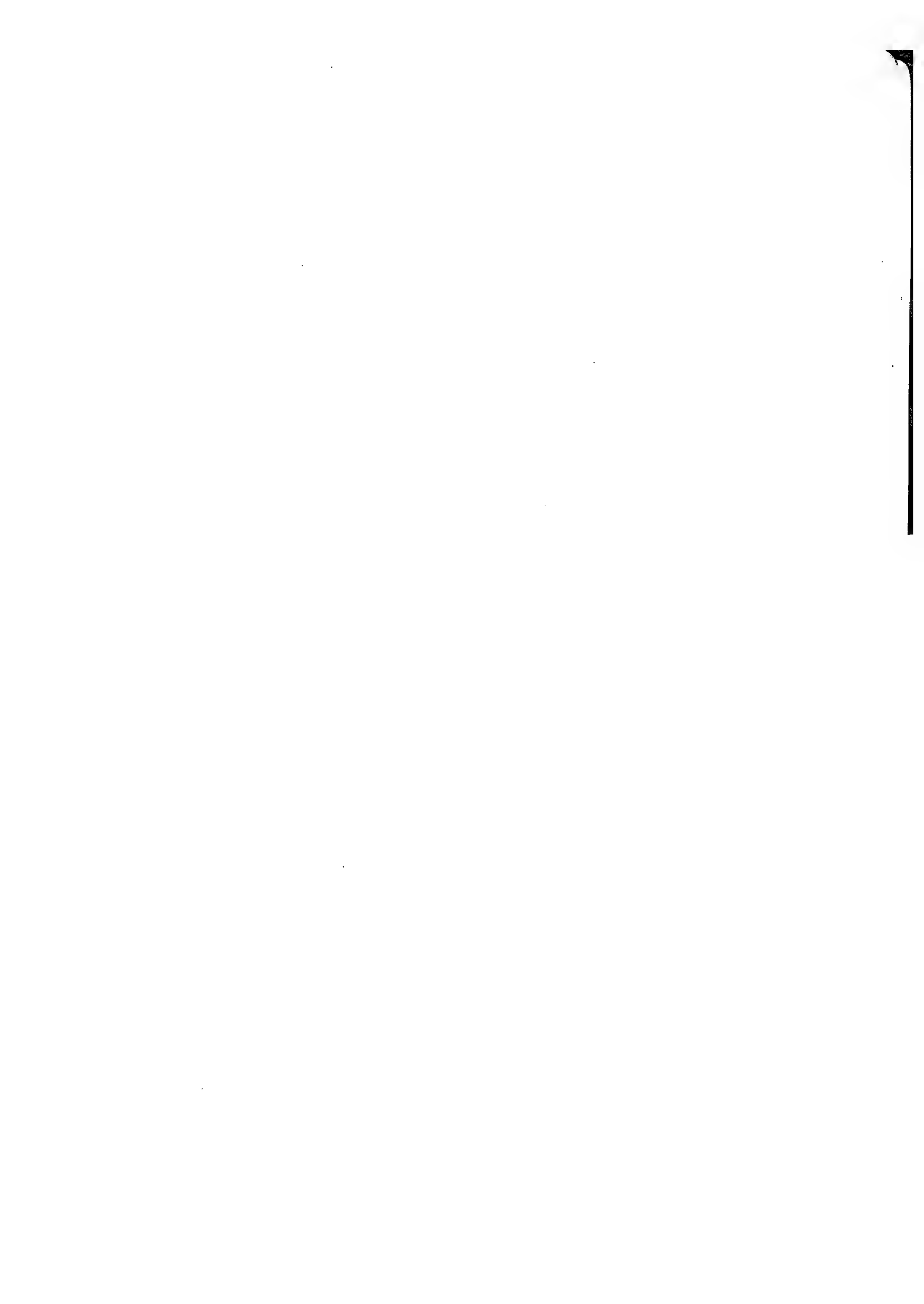
وخرجنا نحن من دمشق وأوائل المسلمين قد طرقوا بالغنائم كلٌّ بما احتواه وحصلت يده عليه، وكان مبلغ السبي آلافاً لم نتحقّق إحصاءها. ولحق السلطان بدمشق يوم السبت بعدنا الأقرب ليوم انفصالنا، وأُعْلِمْنا أنّه يُجمّ عسكره قليلاً ويعود إلى الحصن المذكور، فالله يُعينه ويفتح عليه بعزّته وقدرته. وخرجنا نحن إلى بلاد الفرنج وسبيُهم يدخل بلاد المسلمين، وناهيك من هذا الاعتدال في السياسة! فكان مبيتنا ليلة الجمعة بدارِيّة، وهي قرية من دمشق على مقدار فرسخ ونصف، ثمّ رحلنا منها سحر يوم الجمعة بعده إلى قرية تعرف ببيت جن، هي بين جبال، ثمّ رحلنا منها صبيحة يوم السبت إلى مدينة بانياس، واعترضنا في نصف الطريق شجرةبلوط عظيمة الجرم متّسعة التدْويح، أُعْلِمْنا أنّها تعرف بشجرة الميزان، فسألنا عن ذلك، فقيل لنا: هي حَدّ بين الأمن والخوف في هذه الطريق لحَرَاميّة الإفرنج، وهم الحَوّاسَة والقُطّاع، مَنْ أخذوه وراءها إلى جهة بلاد المسلمين ولو بباع أو شبر أُسِر، ومن أخذ دونها إلى جهة بلاد الإفرنج بقدر ذلك أُطلق سبيله، لهم في ذلك عهد يوفون به، وهو من أظرف الارتباطات الإفرنجية وأغربها. (رحلة ابن جبير ص ٢٧١ — ٢٧٢).

وحين يصل ابن جبير في رحلته إلى بانياس يتحدث عن حدّ المقاسمة بين عمالة الفرنجة والمسلمين بقوله :

« هذه المدينة — أي بانياس — ثغر بلاد المسلمين ، وهي صغيرة ، ولها قلعة يستدير بها تحت السور نهر ويفضي إلى أحد أبواب المدينة ، وله مَصَبّ تحت أرحاء . وكانت بيد الإفرنج فاسترجعها نور الدين ، رحمه الله . ولها محرث واسع في بطحاء متصلة يشرف عليها حصن للإفرنْج يسمّى هونين ، بينه وبين بانياس مقدار ثلاثة فراسخ . وعمالَةُ تلك البطحاء بين الإفرنْج والمسلمين ، لهم في ذلك حدّ يعرف بحدّ المُقاسَمَة ، فهم يتشاطَرون الغلة على استواء ، ومواشيهم مختلطة ، ولا حَيْفَ يجري بينهما فيها » (رحلة ابن جبير ص ٢٧١ — ٢٧٢) .

ويقف ابن جبير عند واقع المسلمين الذين آثروا البقاء في قراهم وضياعهم والعيش في حماية الفرنجة ، قوله :

« ورحلنا من تبنين ، دمّرها الله ، سحر يوم الاثنين ، وطريقنا كلّه على ضياع متّصلة وعمائر منتظمة ، سكّانها كلّها مسلمون ، وهم مع الإفرنج على حالة ترفيه ، نعوذ بالله من الفتنة ، وذلك أنّهم يؤدّون لهم نصف الغلّة عند أوان ضمّها وجزية على كلّ رأس دينار وخمسة قراريط ولا يعترضونهم في غير ذلك ، ولهم على ثمر الشجر ضريبة خفيفة يؤدونها أيضاً . ومساكنهم بأيديهم وجميع أحوالهم متروكة لهم . وكلّ ما بأيدي الإفرنج من المدن بساحل الشام على هذه السبيل ، رَسَاتِيقُهم كلّها للمسلمين ، وهي القرى والضياع ، وقد أُشْرِبت الفتنة قلوبُ أكثرهم لما يبصرون عليه إخوانهم من أهل رساتيق المسلمين وعُمّالهم ، لأنّهم على ضدّ أحوالهم من الترفيه والرفق . وهذه من الفجائع الطارئة على المسلمين : أن يشتكي الصنف الإسلاميّ جورَ صنفه المالك له ، ويحمد سيرة ضدّه وعدوّه المالك له من الإفرنج ، ويأنس بعدله ، فإلى الله المُشْتَكى من هذه الحال ، وحسبُنا تعزيةً وتسليةً ما جاء في الكتاب العزيز : ﴿إنْ هِيَ إلّا فِتْنَتُكَ تُضِلّ بِهَا مَنْ تَشاءُ وتَهْدي مَنْ تَشاء﴾ » (رحلة ابن جبير ص ٢٧٤ — ٢٧٥) .



الفصـــل الثـالـث

الحملة الصليبية الثانية ويقظة الإسلام السوري

سقوط القدس وردود الفعل الإسلامية الأولى

لقد أحدث سقوط القدس هزة كبرى في أرض الإسلام؛ وتسربل خليفة بغداد ثياب الحداد على المدينة المقدسة. ورفع الشعراء المستلهمون وحيهم الحربي عقيرتهم: إن الإسلام في خطر:

وشر سلاح المرء دمعٌ يفيضه　　إذا الحرب شبَّـت نارُهـا بالصوارم

ولم تلبث الدلائل الأولى لرد الفعل الإسلامي أن ظهرت في دمشق أولاً، ثم في حلب وديار بكر والموصل، وكان صنيعاً له مغزاه أن يطالب الجمهور عام ١١١٠ أمام قصر الخليفة في بغداد بعملٍ سريع ومباشر ضد الصليبيين. وقامت وفود سورية مؤلفة من الفقهاء والتجار البارزين والجنود باقتحام الجوامع وإثارة الاضطرابات فيها، قاطعين شعائر العبادة مطالبين بالرد المطلوب. واستيقظ الإسلام السوري يعي مصائبه. الجهاد! ومن أقاصي المغرب إلى أعماق المشرق دوّت صرخة التوحيد الرهيبة طاغية على كل ما عداها من صرخات ثانوية. الجهاد في كل مكان. في كل مسجد بعد صلاة الجمعة يستنزل الأئمة اللعنات الأبديّة على أولئك

القاعدين الذين لا يؤدون فريضة الجهاد كمؤمنين صادقين، بل القتال حتى الموت ضد أعداء الإسلام، ذلك القتال الذي سينتهي بالشعوب العربية إلى السيطرة الكونية.

معركة الرها والدعوة إلى الحملة الصليبية الثانية

وكانت استعادة إمارة الرها في ٢٥ ديسمبر (كانون الأول) ١١٤٤ على يد ابن أمير الموصل عماد الدين حدثاً ضخماً[١]. أولاً لأن مائة ألف مسيحي قتلوا فيها، ثم لأن هذا الحدث تسبب بنشوب الحملة الصليبية الثانية التي دعا إليها القديس برنار دي كليرفو الذي لخص خطابه الذي ألقاه في فيزليه تلخيصاً واضحاً المصيبة التي حاقت بالنصرانية، أمام هذه المصائب الجديدة. وجلجل صوته، مخاطباً جموع الشعب الضخمة التي احتشدت لسماعه: «ليكن دارعوكم لا يُغلبون، لتكن المخاطر والآلام ومشقات الحرب التوبة التي يفرضها الله عليكم، لقد اجتاح المسلمون أراضينا في الديار المقدسة. إنهم يسبون نساءنا وبناتنا ويدنّسون معابدنا. ماذا تنتظرون لتدفعوا هذه المصائب الرهيبة؟ احملوا السلاح، ولينفخ فيكم الغضب المقدس روح القتال، ليتردد في العالم المسيحي هذا الحديث النبويّ: ويلٌ للذي لا يخضب سيفه بالدم».

وأقبل الكل على حمل الصليب: ملك ومطارنة. وجثا ذوو النّبالة الحاضرون عند قدمي الواعظ، وطاف القديس برنار فرنسا مثيراً الجماهير السائرة خلفه، وكتب إلى أمراء إيطالية وألمانيا محرضاً إياهم على حمل الصليب. واقتدى كونراد الثالث بملك فرنسا؛ وكذلك فعلت النّبالة الجرمانية قاطبة.

الصليبيون وصراع المصالح الخاصة

وفي مطلع عام ١١٤٧ شرع الملكان يغذان السير. وبعد صعوبات جمة، وبسبب خيانة اليونانيين الذين كانوا يذبحونهم بعد أن يعوّذوهم بدعوات وتمنيات لا تنتهي، وبلغت الجيوش المسيحية فلسطين في ربيع ١١٤٨ بدلاً من أن ييمموا القصد نحو الموقع الأكثر إلحاحاً، أعني إلى استرجاع الرها، وهي قلعة الفرنجة فيما بين النهرين، ومنطقة حلب التي كان السلطان نور الدين قد افتتحها، وصار بمستطاعه أن يهدد أنطاكية مباشرة. واجتمع

قادة الصليبية الثانية في عكّا للتشاور، ولكن انفض هذ المجلس الذي حضره ممثلا الكرسي الرسولي: ملك فرنسا وإمبراطور ألمانيا، وكذلك بطريرك القدس وقادة الفرسان في سورية وفرنسا وألمانيا، مسفراً عن خيبة أمل بالغة، فكل من أولئك القادة كان يعمل على توظيف تجهيزات الصليبية لتطمين مصالحه الخاصة، ولم يكن البتة هدف هذه الحملة المعلن في فيزلاي مدار مباحثات عكّا، وإنما تلك القضايا التافهة، قضايا المصالح الشخصية التي طالما احتدم النقاش حولها، وقرر في نهاية المطاف مهاجمة دمشق.

فشل الحملة الصليبية الثانية أمام دمشق

وبعد قطع الصحارى، وتكسرات الحرارة المثيرة للهلوسة؛ وتموجات الرمال؛ واجتياز جبال الحرمون الجرداء ذات الأخاديد الموحشة العدائية... أيّ تأثّر استحوذ على الصليبيين حينما اكتشفوا دمشق العظيمة الصامتة البيضاء التي كانت مآذنها تشمخ في انطلاقة واحدة من الحجر وسط امتداد رحب المدى من البساتين، وأيّ فرحٍ لعيونهم المرهقة بالإشعاعات القاسية عندما رأوا هذا الفردوس المنسيّ على الأرض ينتصب أمامهم، وهذه المدينة الشهيرة كانت تبدو لمن يرنو إليها من التلال المجاورة سابحةً في النور المنبثق منها ذاتها.. غامضة، عظيمة، شبقة.

فدمشق كانت رمز الشرق، وجماله وسحره، بل كل عظمته الأسطورية التي لم تتعب منها مخيلاتهم. وبانتظار المعركة كان الصليبيون يحلمون بقصور سلاطينها وبكنوزها المتراكمة في نورها المظلّل، وبأسواقها، وبجمال جواري حريمها.

وبهت حاكم دمشق لدى رؤيته الغضب المسيحي ينقضّ عليه، فدافع عن نفسه ببسالة طوال خمسة أيام حاول خلالها الصليبيون عبثاً اقتحام أسوارها. ماذا حدث فعلاً بعد ذلك؟ يزعم غيّوم الصوري أن البارونات السوريين أي سادة الفرنجة المقيمين في سورية فاوضوا حاكم دمشق سراً على اتفاق ما؛ ويذهب المؤرخ العربي القلانسي المذهب نفسه، فقد عرض الدمشقيون على ملك القدس دفع مائتي ألف قطعة ذهبية مقابل رفع الحصار، فكان العرض مغرياً، فقبل ملك القدس هذه الصفقة المخجلة التي خدع فيها خدعة كاملة؛ وإذا

صدقنا كاتب الحوليات السرياني أبا الفرج، فقد اكتُشف متأخراً أنّ كثيراً من هذه القطع كان مزيَّفاً.

وهكذا فشلت الصليبية الثانية فشلاً ذريعاً، ومن فوره غادر كونراد مع فرسانه سورية مشمئزاً يجر أذيال الخيبة وكذلك فعل ملك فرنسة(٢).

وأثارت نتيجة مساومات دمشق ظلال عدم الثقة بين لاتين المشرق ولاتين المغرب الذين لم يمنعوا أنفسهم من اتهام البارونات السوريين مالكي الأراضي والمستحوذين على المنافع بأنهم خانوا القضية المشتركة. وعلينا أن نركز على هذه النقطة:

إن فشل حملة دمشق أثار استياءً حقيقياً، فبعد الاندفاع الكاثوليكي عام ١٠٩٧، واحتلال القدس وما أسفر عنه من تثبيط عزائم المسلمين، حتى «لقد عاش الإسلام السوري على الدوام — كما يقول ابن الأثير — هواجس تهديد صليبية جديدة توقع بحلب ودمشق ما أوقعته في أنطاكية والقدس»(٣). ولكن هاهم الصليبيون يعودون إلى سورية غازين بقيادة رئيسي دولة، وإنما ينكفئون دونها خاسرين، وأسفرت مغبة مغامرتهم المؤمنة عن فتور حماسة النصرانية الغربية نحو الغزوات عبر البحر، على حين تأخذ الحماسة سبيلها — في الصف الإسلامي — إلى القلوب بغيرة أشدّ لمنازلة أعداء دينهم، لأنهم آنسوا أن الهيبة العسكرية للصليبيين قد بهتت، وفيما كانوا يخشون جانب كبار القادة الغربيين — كما يقول غيّوم الصوري — «فهاهم يرونهم يرحلون دون أن يفعلوا أي شيء، فخامرت نفوسهم الفرحة، ولم يعد هاجس الخوف من الفرنجة يستحوذ على تفكيرهم، وتكونت لديهم آمال عريضة».

نور الدين زنكي ويقظة الإسلام المناضل

وتحققت هذه الآمال، إذ دخل تاريخ الإسلام السوري شخصٌ جديد يمكن اعتبار ملكه بهذا الشكل أو ذاك المقدمة لملك صلاح الدين. لقد سبق أن أشرنا إليه آنفاً حينما قلنا إن منطقة حلب آلت إلى يد نور الدين، الذي كان تجسيداً للإيمان المناضل، وحاكماً صوفياً عنيفاً، وبطلاً قوميّاً حقيقياً، مؤمناً بعظمة الرسالة السماوية. هذا الجندي الباسل الذي غدا بفضل سلسلة من المناورات تدعمها التظاهرات العسكرية سيدَ سورية، والذي سيكرس

حياته لمقارعة الفرنجة ومنازلتهم، على حين كانت الممالك اللاتينية في الغرب تصاب بردة الفعل المزعجة في أعقاب فشل الحملة الصليبية الثانية. وبينما كان المسيحيون يندبون حظهم في القدس، كان الإسلام المقاتل، المستقر جيداً في قبضة نور الدين يستعيد نوعاً من الطمأنينة النفسية. ولا يخفى أن الصليبيين الأوائل كانوا قد أفادوا من الصراعات بين الممالك الهشّة، ومن سلسلة طويلة من الأخطاء، وعدم الكفاءة، وكثرة الممالك الصغيرة، ومن ممارسات أهل البدع الذين غالباً ما كانوا معادين للفكرة العربية والإسلام الأصولي، ومن الانتفاضات على الطريقة الإيرانية المشؤومة الصبيانية.

أما الآن فتغيرت الصورة، فنور الدين كان يبذل قصارى جهده لتوحيد سورية، ولأنه كان ثابت الإيمان بحقيقة الرسالة النبوية فقد انصبت جهوده من الآن فصاعداً نحو هدف واحد: طرد الأجانب خارج سورية وفلسطين. وسيسهل مهمته الصليبيون أنفسهم، فالمستعمرات المسيحية الدولية طفقت تتنازع على مناطق النفوذ، وحلّتْ روح جديدة محل الاندفاعات الأولى، من حماسات عشية الزحوف، ولم يكن عهد ذاك «سياسة مسيحية» يجب تحديدها واتباعها لئلا تتوزع حركة الصليبيات الأولى إلى مجهودات عقيمة. وسبق لبعض المؤرخين أن كتبوا قائلين: إن ضعف دول الفرنجة بسورية ناجم في جوهره عن كون الصليبيين جلبوا معهم النظام الإقطاعي. ولم تكن سلطة كبار البارونات لتتعدى إقطاعاتهم المحصنة. وغدت القدس بيزنطية ثانية، وكانت المنظمات العسكرية التي تحتل القلاع الأهم تمارس رقابتها المستمرة على السلطة الشرعية. وهذه الأسباب من عوامل الضعف ما كان لها إلّا أن تحظى بمباركة زعيم مسلم من مستوى نور الدين الذي انفرد بمهمة استغلال هذا الوضع. ولكونه جديراً بوالده الذي كان جندياً شجاعاً حسن التدبير، فقد أرسى الأسس التي سيشيد عليها صلاح الدين بناء راسخاً. فخلال الثماني والعشرين سنة التي أمسك فيها بمقاليد الحكم (١١٤٦ ــ ١١٧٤) أنهك الصليبيين هادماً حصونهم في كونتية طرابلس، مغرقاً بالنار والدماء ضواحي حارم، ساحقاً في معركة ضارية فرسان الأمير ريمون الأنطاكي، مكرهاً حُماة أفامية على الاستسلام. وفي أقل من سنتين احتلّ تقريباً جميع مواقع الفرنجة في سورية الشمالية، غير تارك لأعدائه لحظة راحة، داحراً إياهم في جرأةٍ اهتزت لها القدس.

ولم يقف عند هذا الحد. فمصر، بعد حكم الحاكم ذلك الخليفة العبقري الذي لم يمت شأن سائر الناس ـــ بل اختفى بصورة غامضة ـــ فمصر هذه عرفت أياماً قاتمة. فلم يقيض لها حكام حقيقيون؛ بل آلت ليدين ضعيفتين لطفل لم يتخطّ التاسعة، هو الخليفة العاضد الذي كان مجرد صورة يتنازع الوزراء حواليها السلطة؛ ويفرغون خزائن بيت المال، يدفعون بأزلامهم لإثارة الفتن، وليعيشوا حياة السلب باختفاء شرقيّ غامض. وطمع نور الدين في سهل النيل الخصيب الذي بدا له غنيمة سهلة؛ وضرورياً لعظمة الإسلام؛ وذلك بأن يعيد شيئاً من النظام إلى هذا البلد بأسرع ما يستطاع، خاصة وأن المسيحيين في القاهرة الذين طالما اضطهدوا في عهد الحاكم بدؤوا يظهرون جسارة وبُعد همة بصورة غريبة. فحشد جيشاً ليرسله إلى مصر، وعقد لواء قيادته لشيركوه الكردي.

حواشي الفصل الثالث

١ ــ عماد الدين زنكي : الشهيد (ت ١١٤٦) من أبرز أبطال الإسلام ، ومؤسس الدولة الزنكية في الموصل.. كان من الأمراء المقدمين في العهد السلجوقي.. بسط نفوذه على سنجار وحرّان وحلب ، ناضل نضالاً لا هوادة فيه ضد الصليبيين ونازلهم بمعارك كثيرة أبرزها معركة الرها ، حين استعادها منهم عام ١١٤٤..، فكانت الذريعة لشن الحملة الصليبية الثانية ، ولقد أرّخ ابن الأثير (انظر ترجمته المادة ٣ من هذا الفصل) في كتابه « الباهر » للدولة الزنكية ، الذي كان متحزباً لها.. ومما سجله عن نضال عماد الدين الشهيد وفتحه الرها ، قوله :

في ذكر فتح الشهيد مدينة الرها

في جمادى الآخر من سنة تسع وثلاثين وخمسمائة ، فتح الشهيد رضي الله عنه مدينة الرها من الفرنج ، وكانت لجوسلين عاتيهم وشيطانهم ، والمقدم على رجالتهم وفرسانهم ، وكلهم قد أذعن له بالنهاية في الشجاعة ، فهم يخضعون له ببذل الطاعة. وكان مدة حصارها ثمانية وعشرين يوماً ، وأعادها إلى حكم الإسلام ، ونفذت فيها أحكام أهل الإيمان ، وهذه الرها هي من أشرف المدن عند النصارى وأعظمها محلاً. وهي إحدى الكراسي عندهم ، فأشرفها البيت المقدس ، ثم أنطاكية ، ثم رومية والقسطنطينية ، والرها. وكان هذا فتح الفتوح حقاً ، وأشبهها ببدر صدقاً ، من شهده فقد تمسك من الجهاد بأوثق سبب ، ولو عاصره الطائي (أبو تمام) لعلم أنه أولى بقوله : السيف أصدق أنباء من الكتب ، لأن ضرر من بهذه المدينة من الفرنج على المسلمين لقربها عظيم ، وشرهم إليها جسيم. إذ كانت من الديار الجزرية عينها ، ومن البلاد الإسلامية حصنها ، وانضاف إليها عدة من البلاد فاتسعت مملكتهم ، واشتدت على أهلها وطأتهم فملكوا من نواحي ماردين إلى الفرات. وكانت غاراتهم تبلغ مدينة آمد من ديار بكر ، وماردين ، ونصيبين ، ورأس عين ، والرقة. وأما حران فكانت معهم في الخزي ، كل يوم قد صبحوها بالغارة ، فلما رأى الشهيد الحال هكذا ، أنف لدولته أن يترك من بالرها من الكفار يجوسون من مملكة الإسلام خلال الديار ، وكان يعلم أنه لا ينال منها غرضاً ، ولا يمكنه أن يحيل جوهر الكفار بها عرضاً ، ما دام بها جوسلين وفرسانه ، وجنوده وأعوانه ، وأنه متى قصدها محاصراً لها اجتمعت الفرنج لحفظها منه ، فعدل إلى أعمال الحيل والخداع ، والرأي قبل شجاعة الشجعان هو أول وهي المحل الثاني. فعدل عن قصدها إلى ما جاورها من ديار بكر التي بيد المسلمين ، كحاني ، وجبل جور ، وآمد على ما تقدم ذكره ، فكان يقاتل من بها قتالاً فيه إبقاء ، فهو يخطبها وعلى

غيرها يحوم، ويطلبها وسواها يروم، ووكل بها من يخبره بخلو عرينها من آساده، وفراغ حصنها من أنصاره وأجناده. فلما رأى جوسلين اشتغال الشهيد بحرب أهل ديار بكر، ظن أنه لا فراغ له إليه، وأنه لا يمكنه الإقدام عليه، ففارق الرها إلى بلاده الشامية ليلاحظ أعماله، ويتعهد ذخائره وأمواله، فأتت الشهيد عيونه فأخبرته بمسيره مع عساكره وذويه، وخلو البلد عن حافظه وحاميه، فحينئذ أمر بالنداء في العسكر بالتجهيز والتشمير، والجد في المسير، ويهدد لمن عن صحبته تأخر، وأعلمهم أنه لا يقبل عذر من اعتذر، وأقبل مسرعاً كالسهم الصادر عن وتره، والسيل الصائر إلى مستقره، وتبعته العساكر يتلو بعضها بعضاً، عازمين على أن يؤدوا من الجهاد سنة وفرضاً، وأقبلوا زمراً مجدين كقطع السحاب تحتها الجنائب، وقد استعانوا على السرعة بركوب النجائب. فلما علم من بها من العدو إقباله، سرى الرعب في أحشائهم، واختلط الخوف بدمائهم وسقط في أيديهم، ورأوا أنهم قد ضلوا وقالوا ﴿لئن لم يرحمنا ربنا ويغفر لنا لنكونن من الخاسرين﴾. فأبى الله إلا أن ينتقم منهم بسيف الشهيد، ويجمع في جهنم بين الغائب منهم والشهيد، جزاء بغيهم الشنيع، وقتلهم الفظيع، فصبه الله عليهم عذاباً، وساقه إليهم عقاباً فضاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم نفوسهم، ونكست لشدة هيبته رؤوسهم، ووافى البلد في حده وحديده، وعده وعديده وبمواكبه المنصورة، وجموعه المحشورة، وبنوده المنشورة.

وزحف بهم نحو البلد يقدمه، والشجاعة تقدمه، فكادت الأرض تزلزل. والنهار بسواد الليل يسربل، وصار الفرنج مع علمهم بأنهم صائرون إلى البوار، يتهافتون إلى القتال تهافت الفراش في النار، أخذا بقول من يقول:

تأخرت أستبقي الحياة فلم أجد لنفسي حياة مثل أن أتقدما

-فما رأى الشهيد البلد، رأى بلداً جمع بين الحصانة والحسن، فراسل أهله يبذل لهم الأمان والأمن، ليسلموه سليماً من إخراب أسواره، وإخلاء دياره، ضناً منه على مثله أن يصبح خاوياً على عرشه، وأن يلتحق سماؤه بفرشه، فأبوا قبول الأمان، وامتنعوا من الإذعان، فاستخار الله تعالى في قتاله، وقدم الشجعان لنزاله، ونصب المجانيق، وقدم النقابين، وألح على من به القتال، خوفاً أن يجتمع الفرنج فيزحزحونه عنه ويستنقذونه منه. وبلغ الخبر إلى الفرنج فقاموا وقعدوا، وأبرقوا وأرعدوا، وجمعوا فارسهم وراجلهم، وشابهم وكهلهم، وحرصوا على السرعة خوف الفوات وعاد جوسلين عند سماعه الخبر إلى شرق الفرات، لعله يجد فرصة ليدخل إليها، أو يرسل نجدة يحافظ عليها، فحيل بينه وبين ذلك، وأنّى يكون ما يريد وخصمه الشهيد أتابك. ولم يزل الشهيد يزحف إليها مرة بعد أخرى، حتى وصل النقابون إلى سورها فنقبوه، فألقوا النار فيه فأحرقوه، وملك البلد عنوة وقهراً، وأوسع كل من فيه نكالاً وشراً، فلما ملكها استباحها، وأذل لقاحها، وقتل شجعانها وفرسانها، فهم معه بين قتيل وأسير، وجريح وكسير، وملأ الناس أيديهم من النهب والسبي، ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾. ثم إنه دخل البلد فراقه منظره، وشاقه مخبره، فأسف لمثله من الخراب، وأن يستولي عليه في ملكه البوار والتباب، ورأى إن أخربه وأخلاه من أهله، غير مستحسن من مثله، فأمر بإعادة ما أخذ منه من أثاث ومال، وسبي ورجال، وجوار وأطفال، فردوا عن آخرهم لم يفقد منهم إلا الشاذ النادر، فعاد البلد عامراً بعد أن كان داثراً، وآهلاً وآمناً، ورتب فيه من العساكر من يحفظه، وسار عنه فاستولى على ما كان بيد الفرنج من هذه الناحية من المدن والحصون والقرايا، كسروج وغيرها، وأخلى الديار الجزرية من معرة الفرنج وشرهم، وأراح أهلها من كيدهم وضرهم، وأصبح أهلها بعد الخوف آمنين، وعلى مهاد الأمن وادعين، ومنادي التوحيد ينادي: جاء الحق

وزهق الباطل. وألقى الإسلام بهذه البلاد جرانه، وبث فيها أنصاره وأعوانه، وصدق وعد الله في قوله ﴿وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض﴾. فهي لهم إلى يوم العرض. وكان فتحاً عظيماً لم ينتفع المسلمون بمثله، وطار في الآفاق ذكره، وطاب بها نشره، وسارت به الرفاق، وامتلأت به المحافل في الآفاق، وشهده خلق كثير من الصالحين والأولياء، واستبشر به الأبرار والأصفياء.» (ابن الأثير: الباهر في التاريخ ص٦٦ ــ ٦٩).

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الصليبيين استعادوا الرها بقيادة جوسلين الثاني، حين علم بوفاة عماد الدين زنكي.. عندها زحف نور الدين محمود بن الشهيد عماد الدين على المدينة عام ١١٤٦ وخربها وأنزل العقاب الصارم بأهلها.. وجاء في الموسوعة الميسرة في ترجمة حياة نور الدين محمود:

«.. وكان لاستيلاء المسلمين على الرها وقع كبيرٌ في أوروبا، لما كان لها من قداسة عند العالم النصراني، فدعا البابا يوجين الثاني إلى حملة صليبية جديدة، وألهب القديس برنار ببلاغته شعور المسيحيين وحثهم على محاربة المسلمين، فاستجاب للدعوة اثنان من كبار ملوك أوروبا، وهما لويس السابع ملك فرنسا وكونراد الثالث ملك ألمانيا، وقاما بما يعرف بالحملة الصليبية الثانية التي انتهت بالفشل، فقد حاصرا دمشق ١١٤٨، فاستنجد صاحبها مجير الدين آبق البوري بنور الدين، ففشل الملكان في الاستيلاء عليها» (الموسوعة الميسرة ص ١٨٥٧).

٢ ــ حصار الصليبيين دمشق وارتدادهم عن أسوارها:

كتب ابن الأثير في كتابه الباهر في التاريخ:

«في سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة، خرج ملك الألمان من بلاد الفرنج في جيوش عظيمة لا تحصى كثرة من الإفرنج إلى بلاد الشام، واتفق هو ومن بساحل الشام من الفرنج، واجتمعوا وقصدوا مدينة دمشق ونازلوها ولا يشك ملك الألمان أنه يملكها وغيرها لكثرة جموعه وعساكره. وهذا النوع من الفرنج هم أكثر الفرنج عدداً وأوسعهم بلاداً، وملكهم أكثرهم عَدداً وعُدداً، وإن كان غير ملكهم أشرف منه عندهم وأعظم محلاً، والسيف أصدق أنباء من الكتب. فلما حصروا دمشق وبها صاحبها مجير الدين آبق بن محمد بن بوري بن طغدكين، وليس له من الأمر شيء وإنما كان الأمر إلى معين الدين أنر بن مملوك جده طغدكين، فهو كان الحاكم والمدبر للبلد والعسكر. وكان عاقلاً خيراً ديناً حسن السيرة، فجمع العسكر وحفظ البلد، وحصرهم الفرنج وزحفوا إليهم سادس ربيع الأول، فخرج العسكر وأهل البلد لمنعهم عن القرب منه، وكان فيمن خرج معهم، الفقيه حجة الدين يوسف بن ذي ناس الفندلاوي المغربي، وكان شيخاً كبيراً زاهداً عابداً، خرج راجلاً فرآه معين الدين فقصده وسلم عليه، وقال له: ياشيخ أنت معذور ونحن نكفيك، وليس بك قوة على القتال. فقال: قد بعت واشترى، فلا نقيله ولا نستقيله يعني قول الله تعالى ﴿إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم﴾ الآية. وتقدم وقاتل الإفرنج حتى قتل رضي الله عنه عند النيرب شهيداً. وقوي أمر الفرنج وتقدموا، فنزلوا بالميدان الأخضر وضعف أهل البلد عن ردهم عنه، وكان معين الدين قد أرسل إلى سيف الدين يستغيث به ويستنجده، ويسأله القدوم عليه، ويعلمه شدة الأمر الذي قد دفعوا إليه، فجمع سيف الدين عساكره وحشد، وسار مجداً إلى مدينة حمص، وأرسل إلى معين الدين يقول له: قد حضرت ومعي كل من يطيق حمل السلاح من بلادي، فإن أنا جئت إليك ولقينا الفرنج وليست دمشق بيد نوابي وأصحابي وكانت الهزيمة علينا، لا يسلم منا أحد لبعد بلادنا عنا، وحينئذ يملك الفرنج دمشق وغيرها، فإن

أردت أن ألقاهم وأقاتلهم، فتسلم البلد إلى من أثق إليه، وأنا أحلف لك، إن كانت النصرة لنا على الفرنج أنني لا آخذ دمشق، ولا أقيم بها إلا مقدار ما يرحل العدو عنها وأعود إلى بلادي. فماطله معين الدين لينظر ما يكون من الفرنج.

وأرسل سيف الدين إلى الفرنج الغرباء يتهددهم، ويعلمهم أنه على قصدهم إن لم يرحلوا، وأرسل معين الدين إليه أيضاً يقول لهم: قد حضر ملك الشرق ومعه من العساكر ما لا طاقة لكم به، فإن أنتم رحلتم عنا وإلا سلمت البلد إليه، وحينئذ لا تطمعون في السلامة منه. وأرسل إلى فرنج الشام يخوفهم من أولئك الفرنج الخارجين إلى بلادهم، ويقول لهم: أنتم بين أمرين مذمومين، إن ملك هؤلاء الفرنج الغرباء دمشق لا يبقون عليكم ما بأيديكم من البلاد، وإن سلمت أنا دمشق إلى سيف الدين فأنتم تعلمون أنكم لا تقدرون على منعه عن البيت المقدس، وبذل لهم أن يسلم إليهم بانياس إن رحلوا ملك الألمان عن دمشق، فأجابوه إلى ذلك وعلموا صدقه، واجتمعوا بملك الألمان وخوفوه من سيف الدين وكثرة عساكره وتتابع أمداده، وأنه ربما ملك دمشق فلا يبقى لهم معه مقام بالساحل، فأجابهم إلى الرحيل عن دمشق وسار عنها. ورحل فرنج الساحل وتسلموا حصن بانياس من معين الدين، وبقي حصن بانياس مع الفرنج حتى فتحه نور الدين محمود بن زنكي رحمه الله تعالى.» (الباهر في التاريخ ص ٨٨ــ ٨٩).

٣ــ ابن الأثير، أبو الحسن علي (١١٦٠ــ ١٢٣٤)

مؤرخ عربي، عاش بالموصل وتنقل بين دمشق والقدس واستقر أخيراً بالموصل.. عاصر صلاح الدين الأيوبي ويعدُّ كتاباه «الكامل في التاريخ» و «الباهر في تاريخ الدولة الأتابكية» من المصادر التاريخية الهامة والأساسية لتلك المرحلة من صراع الشرق والغرب أبان الحروب الصليبية، وكذلك لعصر صلاح الدين..

الفصـــل الـرابـع

صراع الفرنجة والمسلمين على وادي النيل

بدايات صلاح الدين

اصطحب شيركوه معه ابن أخيه صلاح الدين: ذلك الفتى المنعزل الخجول الذي كان يريد أن يثقفه ويعده لمهنة قيادة الرجال المخيبة للآمال، وربما لإنقاذه من التأثير السيء لبلاط دمشق، وحتى ذاك التاريخ لم يكن صلاح الدين قد استرعى الأنظار. فقد ولد سنة ١١٣٨ في تكريت: القرية المتواضعة القائمة على الضفة اليمنى لنهر دجلة، في قلب المنطقة الكردية، وكانت مركزاً قديماً لمطرانية يعقوبية أغلب سكانها حتى عهد صدر الإسلام الأول مسيحيون، وقد هاجر أبوه إلى بغداد ـــ حيث سعى له أحد أصدقائه من ذوي النفوذ في بلاط السلاجقة الأتراك ليسند إليه منصب حاكم بعلبك، وفيها أنشأ تكية للصوفيين، وهم مسلمون أتقياء ينسبون أنفسهم إلى البدايات الزاهدة للإسلام القائلة بفكرة «الحب في الله». في هذه المدينة القديمة التي سمق فيها شاهقاً هيكل جوبيتر الضخم لعبادة الشمس رُبّي صلاح الدين متلقياً تعاليم الصوفية الآمرة باحتقار كل ما هو دنيوي وتوجيه النفس نحو الباقي وحده، الكائن الإلهي، والتجرد من كل مظهر للحياة الشخصية وصولاً إلى الاتحاد بالحياة الإلهية التي هي وحدها حقيقة، و «إلى الانتشاء بالشراب الروحي من الجمال والنور الإلهيين».

وانغمس صلاح الدين في هذه الفلسفة، وكان عليه ما عاشَ أن يتذكر التعاليم التي تلقاها في تكية بعلبك. ورغم هموم السلطة ومغرياتها سيسعى ما امتد به الأجل إلى بلوغ حالة النعمة هذه في محبة الله. وسيتبع هذا المثل الأعلى لكمال النفس الإنسانية، الذي هو الصوفية، وسيفرض في محيطه ممارسات التقشف درجاً على نهج تعاليم الله، والتلاشي في الله. ودرس أشهر الشعراء العرب الصوفيين الذين كتبوا فيما نظموه «تطهّر من كل صفة ذاتية، لكي تشاهد جوهرك الباهر. ألغ وجودي لأن اللاوجود يناديني على أنغام القيثارة. إنّا لله وإنّا إليه راجعون. انظر في قلبك معرفة النبي بلا كتاب ولا معلم، ولا مدرب»[1] ولن ينسى صلاح الدين سحابة عمره أن يشبع ذاته بهذه التأملات ـــ إنه مدين للصوفية التي ستلهمه وتهديه طوال حياته السياسية.

وفي السابعة عشرة من عمره رافق صلاح الدين أباه، الذي سمي حاكماً لدمشق، إلى بلاط نور الدين، فلم يتألق له أي نجم لدى السلطان، بل كان على درجة من خمول الذكر لم يعرفه معها عهد ذاك الأمير أسامة بن منقذ. وأتمّ صلاح الدين الشاب ثقافته، واجتهد معلمو دمشق بعد معلمي بعلبك في أن يوحوا إليه مجاهدة النفس بحزم بأداء شعائر دينه، وفي بغض المسيحيين (الفرنجة)، وبسبب ميوله السلمية لم يكن هنالك ما يدعو إلى التنبؤ بما ستكون عليه سيرته المدهشة. ولم يظهر على الساحة لأول مرة إلّا حينما قرر عمه شيركوه اصطحابه في حملته على مصر رغم عزوفه عن ذلك[2]، كما يؤكد أحد مؤرخيه أبو شامة[3].

نور الدين واهتمامه بحماية مصر من الهجمات الصليبية

ولم يحمل نور الدين على التفكير في إنفاذ حملة إلى وادي النيل جاذبية الثروات الأسطورية التي كانت تتدفق على القاهرة، ولا النداءات المتكررة لوزير معزول كان يعرض على سلطان دمشق مقابل مساعدته إياه لاستعادة سلطته ثلث واردات مصر، بقدر ما كان يحفزه الاهتمام بحماية الإسلام من الهجمات الصليبية على هذه البلاد. وذلك لأنه انتهى إلى علمه، وقد أخذته الدهشة، أن ملك القدس وقع معاهدة تحالف مع الخلافة الفاطمية في القاهرة، وأن جيشاً لا يستهان بعدده من الاسبتاريين كان في طريقه إلى عاصمة الفراعنة القديمة لقاء ألف دينار لكل مرحلة يقطعها. وكان ملك القدس ينتهج سياسة غريبة وغبيّة، مورطاً نفسه

في قضية يتطلب نجاحها وقتاً ورجالاً، بظرف هيهات له أن يأمل في الاستقرار بمصر حين كانت الإمارات الصليبية في سورية تهتز يومياً تحت متكرر ضربات نور الدين. فبأي خداع للرؤية أرسل أموري الأول المسيحيين دفاعاً عن عرش خلافة إسلامية؟ في حين كانت مملكته محتاجة للسلم لكي تتحصن.

إن سياسة النفوذ المديدة الأجل هذه ما كان لها أن تؤتي ثمارها، وكان الأجدى لو استطاع الصليبيون المتمكنون في الأرض المقدسة أن يحصلوا على خيرات مصر دونما مخاطرة نزف الهجوم عليها؛ لكن الأمر لم يكن البتة آخذاً هذا السياق، وأية هيبة تبقى للصليبيين حينما يرسل ملك القدس «المسيحي جداً» فرنجة ليحاربوا ويموتوا تحت إمرة وزير مسلم كبير؟ واهتم نور الدين بإضفاء الشرعية المسوغة لعمله ضد الفاطميين، وذلك بأخذه موافقة خليفة بغداد ومباركته.

الخليفة العباسي يؤيد سياسة نور الدين تجاه مصر

وكان على الرسول الذي بعثه إلى الخليفة أن يبرهن لأمير المؤمنين على أن شعب أرض الكنانة — وهو تحت حكم الفاطميين — ما زال سراً على مذهب السنة، وأنه يتطلع إلى العودة إلى أحضانها، وإذا ما تخلص من سلالة المرتدّين هذه الذين انتهوا إلى التحالف مع أسوأ أعداء الإسلام، فسيكون له مجد الممثل الأوحد للإسلام غير المنازع. وإن اسمه سيتردد في الجوامع كافة، وإن العقيدة الإسلامية الحقة ستعاد سيرة تدريسها في مدارس مصر.

وأيّد خليفة بغداد هذه الحجج الدامغة؛ ولا يخفى أنه كان منذ زمن بعيد يتطلع إلى استئصال شأفة هذه السلالة المنافسة التي كانت تهدد وحدة الإسلام المعنوية، وتنازعه بعناد لقبَ الإمام الأول؛ والممثل الوحيد لخلافة النبي، وهذا ما شجّع نور الدين لكي ينفذ إلى مصر ألفي فارس من السوريين، وستة آلاف تركي واعداً إياهم بنعيم المجاهدين، فسعدوا بأن يقاتلوا مجتمعين تحت راية سلطان دمشق.

الحملة الصليبية على مصر واستنجاد الخليفة الفاطمي بنور الدين

وعبر ملك القدس صحراء سيناء وانتهى — في غرة تشرين الثاني ١١٦٨ — بفرسانه

الاسبتاريين إلى أسوار بلبيس. وهناك سأل قائد الموقع أين يمكن أن يضرب خيام جيشه، ويظهر أن هذا الأخير أجابه محتداً: «خيّم على رؤوس حرابنا.» فأمر آموري بالهجوم، وبعد ثلاثة أيام سقطت بلبيس، فعمل السيف برؤوس أبنائها إبادة جماعية، ولم يحترم المنتصرون حتى المسيحيين من السكان. ولننقل هنا ما يقوله غيّوم الصوري: «دخل جماعتنا المدينة ولم يوفروا حتى النساء ولا الأولاد ولا الشيوخ». ويقول أبو شامة: «وإن مثل هذه الأعمال غير الضرورية أثارت ثائرة المصريين واستنكارهم، ولو سلك الفرنجة سلوكاً إنسانيّاً نحو سكان بلبيس لتسنى لهم بيسر الاستيلاء على القاهرة»[٤]. كانت النتيجة السياسية لهذه المجزرة محزنة، فقد حمل الرجال السلاح للدفاع عن وطنهم، وطردوا الحامية الفرنجية من القاهرة حيث كان الوزير الخائن للخليفة الفاطمي قد أدخلها.. وأحرق حاكم القاهرة ضاحية الفسطاط لحماية العاصمة التي شرع الفرنجة يستعدون لاجتياحها. وفي ٢٢ تشرين الثاني ١١٦٨ احترقت المدينة العسكرية القديمة واستمرت طعمة للنار أربعة وخمسين يوماً. واستطاع آموري أن يتمتع بهذا المشهد وسأله شمس الخلافة: «هل ترى اللهب الذي يرتفع نحو السماء؟ إنها الفسطاط تحترق. فقبل أن أجيء إلى هنا أمرت بإضرام عشرين ألف وعاء من النفط، وبإلقاء عشر آلاف شعلة في المدينة»[٥]. وبينما كان آموري ينتظر ابترداد رماد المدينة ليتمكن من العبور كانت القاهرة تنظم دفاعها، وإضافة إلى ذلك، كان الخليفة الفاطمي العاضد— رغم ما أبرمه من تحالف مع ملك القدس— يساوره القلق فجأة من نوايا صديقه الذي تصرّف تصرّفاً همجيّاً بهدف حمايته. وهنا خرج من ذهوله، وكتب إلى نور الدين مرسلاً إليه شعور نساء حريمه، قائلاً له: «هذه شعور نسائي يستغثن بك لتنقذهن من الإفرنج[٦]» ولم تكن لهجة الخليفة الإنشائية تتصف بما يجب من الحزم، ولكن سلطان دمشق أدرك أن الخطر داهم؛ وفيما كان الخليفة يطلب سراً التدخل السوري عمد كبير وزرائه الممعن في الخداع إلى السعي لكسب المزيد من الزمن وخاطب ملك القدس، ويده على قلبه قائلاً: «إنه يفضل أن تبقى مصر بيد الفرنجة على أن تكون بيد نور الدين، وأضاف في استحياء: إن الشعب تألم كثيراً لما حلّ ببلبيس، ومن المشقة بمكان احتواء غضبه ومنعه من الاستنجاد بالسوريين». ورغم انزعاج الفرنجة، كان قميناً بهم أن يعقدوا معه اتفاقاً جديداً، ولأنه كان يعرف من يخاطب وعد آموري بكل ما في مصر من ذهب، كما عرف كيف يشتري موافقة بعض البارونات البارزين، وهكذا تمت الصفقة مع ملك القدس الطامع في المال أكثر من طمعه في

المجد. فتخلى عن مشروعه في إقامة حماية فرنجية في القاهرة، وراح يعسكر في نواحي بلبيس مع فرسانه، بانتظار القوافل السرابية المحمّلة ذهباً؛ وخلال ذاك كان صلاح الدين وعمه شيركوه يصلان إلى مصر(٧).

وخدع وزير خليفة القاهرة آموري، وفيما أخذ صبر هذا الأخير ينفد لعدم وصول القافلة الموعودة، شرع الوزير يتذرع بأنه محتاج إلى المزيد من الوقت لفرض ضرائب على المناطق الأكثر استعصاء، وكان يرسل إلى آموري تأكيدات الصداقة مع المرطبات والهدايا الصغيرة قائلاً له: «اصبر أيها الملك النبيل، اترك الوقت لعبيدي ليستخرجوا الذهب من مناجم النوبة السفلى وليستخرجوا الزمرّد من مناجم الصحراء بين كفت وأسوان».

وصول القوات السورية إلى مصر

وبينما كان ملك القدس الواثق الغبيّ ينتظر القناطير المقنطرة من الذهب والحجارة الكريمة، لاهياً مع باروناته، علم أن الأسطول الذي سبق لإمبراطور بيزنطية أن وعد أن يمده به أنزل به الأسطول المصري ضربة قاصمة، وأن القاهرة تعجّ بالجيوش وقد دعمت حصونها، وأن جيشاً سورياً اجتاز حدود مصر. وعند ذاك أدرك آموري أن المسلمين خدعوه حين وعدوه بالقوافل، وأن هيبته وهيبة المسيحيين قد تأثرت تأثراً جديّاً بهذه المغامرة، ولم يبق له بالتالي سوى مخرج واحد هو مغادرة مصر، لأنه ليس معقولاً أن يقاتل في آن واحد أتراك نور الدين، وسوريي صلاح الدين ومصريي صديقه خليفة القاهرة. فغادر هذا الوادي الخصيب، وادي النيل الغنيّ الذي طالما تاق إليه، وأخذ طريق القدس متفادياً مواجهة صلاح الدين. وكان من نذالته أن ألقى بمسؤولية هذه الهزيمة على الذين نصحوه بعدم القيام بهذه الحملة. وبكل الأحوال، فقد استبعد نهائياً أمل إقامة حماية فرنجية على مصر.

شيركوه وصلاح الدين في القاهرة

وفي كانون الثاني (يناير) ١١٦٩ استقبل شيركوه في القاهرة(٧) كمُحرِّر، فأقيمت الاحتفالات العامة. وأظهر الخليفة الفاطمي لمبعوثي سلطان دمشق كل مودة مع أنه كان سيحاربهم إلى جانب ملك القدس لو كانوا هم الأضعف. وغمر شيركوه بضروب التكريم،

وبالطبع انعكس هذا المجد الصاخب على ابن أخيه الذي صار أقل ندماً في أيام النصر هذه على متارف بلاط دمشق، وعلى دروسه الفقهية الغالية، ومع ذلك، وبعد العناقات المعتادة وخُطب الصداقة التي تتجلى فيها العواطف أكثر من أي شيء آخر، كان شاور وزير الخليفة الأول مغتاظاً من نجاح الكردي لدى سيده ولدى الشعب معاً؛ وأدرك أن نجمه سيجنح للأفول أمام النجم الشاب الجديد الذي بدأ يسطع في مصر، خاصة وأن شيركوه المخلص للمهمة التي كلفه إياها سرّاً نور الدين شرع يتصرف لمصالح السوريين، ويشتري معونة ضباط الخليفة ووجهاء القاهرة وأخذ يعتني بترسيخ شعبيته وشعبية ابن أخيه الملازم إياه على أيدي شعراء التكسب الذين كانوا يتجمعون على أبواب العظماء كجراد الصحراء.

صلاح الدين يعجل بنهاية الوزير الخائن

وأغضبت هذه الحفاوات، وتلك المهرجانات، وهاتيك الروحات والجيئات عند الخليفة أغضبت كثيراً شاور البائس الذي كان يرى في ذلك زوال سلطته، حتى إنّه قرر التخلص من غريمه. وقد اختار الوسيلة الأنيقة التقليدية: المأدبة. وأشرك في سرّ نواياه الخبيثة هذه ابنه البكر الذي سبق للمسيحيين أن عفوا عنه في مجزرة بلبيس، ولكن الابن رفض أن يشترك في المؤامرة؛ ولشدة اشمئزازه من الانحدار في درك النذالة أسرع فأطلع صلاح الدين على مشروع أبيه. فقرر صلاح الدين أن يزيل نهائياً هذا الشخص المزعج، مدركاً أن شاور هذا لا يمكن أن يكون موالياً لأحد. فأوقف بنفسه الوزير، وكان ذلك أول عمل سلطويّ له. وما كاد نبأ هذا العمل الجيّد يشاع في القاهرة حتى عمّها ارتياح حقيقي، وتزاحم خصيان القصر على قطع رأس شاور وجرّوه كما تجر الدمية في أسواق القاهرة. وتلك كانت نهاية هذا المأفون الذي سلّم بلاده ثلاث مرات لأعداء سيده وأعداء دينه بغية المحافظة على وزارته.

صلاح الدين يخلف عمه وزيراً أول لمصر

وعيّن الخليفة الفاطمي شيركوه وزيراً أول لكنه لم يتمتع طويلاً بالتكريمات التي استحقها بوفائه، وبالخدمات التي أدّاها لنور الدين، لأنه مات بعد شهرين من هذا الحدث.

وقام العاضد ـــ بناءً على نصيحة خصيّ معتوق كان شيركوه قد سمّاه أميراً ـــ برفع

صلاح الدين إلى منصب الوزير الأول. صحيح أنه رفعه إلى هذا المركز ليس لأن صلاح الدين سيضطلع بهذا المنصب بصفات استثنائية بقدر ما كان يتمناه من حدوث خيبة أمل لدى الأمراء السوريين النافسين، حظَّ هذا الشاب المجهول ابن الاثنين والثلاثين عاماً. فكان العاضد بإسناده منصب الوزارة لصلاح الدين ينوي إثارة الخصومات، ووضع بعض السوريين في مواجهة بعضهم الآخر، ومن ثمّ طَرْدهم. وفعلاً حصلت احتجاجات، لكنها مرت دونما عقابيل، لأن نور الدين اعترف فوراً بصلاح الدين قائداً أعلى وحيداً للقوات السورية في مصر إضافة إلى صفته وزيراً أكبر، موجهاً إليه تهانيه.

هكذا كان سيبدأ عصر مجيد للإسلام. فاعتباراً من هذا اليوم سيكون الملك الناصر صلاح الدين يوسف، صلاح الدين العظيم. فالقوة التي واتته إياها ظروف ملائمة وجدت فيه رجل دولة مؤهلاً بصورة خاصة للنهوض بمثل هذا العبء المنيء وإيصاله إلى نهايته الحميدة.

صلاح الدين سيد مصر المطلق

ورغم كونه لم يظهر البتة حتى الآن ميلاً لمهنة السلاح، ولدرجة اضطر معها عمه إلى التدخل الحازم كي يقبل بمرافقته إلى مصر، وربما كان يفضل المناقشات الفقهيَّة الهادئة على مشهد ساحات القتال، وركض الفرسان المحاربين، فقد تكشف رغم كل ذلك عن رجل عمل، وقائد مهيب، ومدبر ممتاز. فوهب ذاته للقضية بدأب ومثابرة. وقد تجلت له واضحة الطريق التي عليه أن يسلكها: إعادة العقيدة السنية إلى الربوع المصرية ورد الجميع إلى جادة القانون وإطاعته إطاعة دقيقة، ومحاربة الصليبيين دونما هوادة، وبالتالي تحقيق سلطته وسلطة عشيرته وممارسة سياسة إعادة بناء فخمة. وبفضله سيعهد الإسلام عصر ازدهار جديد يعيد إلى الذاكرة أزهى أيام العباسيين أو الأمويين الذين حملوا من بغداد أو من دمشق إلى الشرق حضارة مذهلة.

وإذا كان صلاح الدين قد استطاع اداء ما عليه فيجب ألا يعزب عن البال أن نور الدين قد سهّل له مهمته، كما أفاد من انحطاط الخلافة الفاطمية، وكذلك من انقسامات الصليبيين، كما عرف كيف يوجّه ضرباته في اللحظة المناسبة، ويفيد من أخطاء خصومه مستوحياً كل سياسته من هذا الشعار: العمل. سيعمل بلا توقف ولا قسوة.

ولاننسى أن الخليفة العاضد عندما رفع صلاح الدين إلى سدة الوزارة كان يأمل ألا يبقى الشاب السوري طويلاً في القاهرة. فالمصريون حالما هدأت حرارة حماساتهم الأولى، انقلبوا يتوجسون خوفاً من سيطرة هذا الغريب الصارم الذي كان يزعم أنه سيحكم حكماً سلطويّاً، وسيسحق الفتن، ويثّور الجهاز الإداري، ويجعل السيادة للقانون في تلك الديار التي حالت منذ زمن طويل فردوساً للمغامرين بمختلف ضروبهم، وقد فوجئوا مأخوذين دهشة أنه يوم غدا وزيراً ودون أي احتفال ابتهاج حتى مع خلصائه نشر مرسوماً يقضي بتطهير جميع الإدارات، مما يعني القضاء على المؤامرات البيروقراطية البالغة التمكن والاستشراء، وقد أنحى المستاؤون المطرودون من مناصبهم باللائمة على صلاح الدين لرغبته في تقليص نفوذ الخلافة الفاطمية؛ وتطلعه إلى الدكتاتورية. وفي حكم المؤكد تقريباً، أن الوزير الجديد لم يكن يثق في العاضد، متوقعاً بروز العقبات دونه، ولذا قرر بتصميم على الإمساك صراحةً بالدّفة، وأن يعمل لحساب نفسه. فمصر كانت مغرية في نظر هذا الوزير ذي الاثنتين والثلاثين سنة. وبما أن قبضته الحازمة ما كان لها أن تحظى برضا رجال البلاط الذي أخضعه لرقابته الصارمة ذر قرن الفتنة بعد عدد من التوقيفات المثيرة، وثار الحرس الأسود من النوبيين والأحباش بقيادة خصيّ يدعى المتنعم، كان يفرض القانون في القصر وفي أسواق القاهرة القديمة.

وبتشجيع سرّي دونما ريب، من سيد القصر المتقلب حرَّض المتنعم الفرنجة لأن يكونوا على أهبة الاستعداد لغزو مصر حالما يبلغهم نبأ ثورة الحرس الأسود الذي يدعمه كبار الموظفين في الإدارة المركزية، وكان على النوبيين ــ حسب الخطة ــ أن يبيدوا حامية القاهرة السورية، ويغتالوا الوزير الجديد، ولكن البريد الذي وجهه إلى القدس أوقف وشدد عليه بالتحقيق حتى اكتشفت الخيانة. ودحرج رأس المتنعم، وحينما ذاع النبأ بادر خمسون ألف مصري إلى محاصرة قصر الوزارة، شمالي القاهرة رافعين عقيرتهم بشتم صلاح الدين، ولكن هذا الأخير لم يكن عابئاً بتهديد وعيدهم، فأمر بالحال قواته السوريّة بالهجوم، وبلا رحمة من الجانبين استعر القتال من شارع إلى شارع، واستمرت المجزرة ثماني وأربعين ساعة. وقد ترك لنا المؤرخ العربي ابن الأثير حكاية هذه الأيام المأساوية. فكل حي لجأ إليه الثائرون أحرق، وكان النسوة والأطفال يُشوون بين الجثث التي كانت تتراكم وأحرقت أيضاً قلاع القوات الأرمنية

دافنة تحتها البؤساء الذين لم يشتركوا في هذه الفتنة. وأخيراً أعيد النظام، ولكن إشارة الانذار بالخطر كانت مقلقة(٨).

وحينما قدم صلاح الدين تقريره إلى الخليفة الفاطمي أدرك هذا، بعد أن بهت دهشة، أن وزيره لم يكن ينوي أن يذلّه وإنما هو مصمم على الإقامة المتمكنة في القاهرة، وعدم ترك الحكم لأحدٍ غيره، وكان الخليفة غاية في السعادة لأن أحداً لم يشر إليه بإصبع الاتهام في هذه القضية، ولكنه — كما قيل — هو الذي قدّم الخنجر لمن كان عليه أن يغتال صلاح الدين إذا نجحت المؤامرة، وأسند لوزيره السلطات كاملة ولم يعد يجرؤ على الإتيان بأية حركة.



حواشي الفصل الرابع

١ ـــ أغلب الظن أن هذا الشعر هو لجلال الدين الرومي ، كما أخبرنا الأستاذ الزميل عبد القادر عنداني الضليع بالتراث الصوفي ، ولكن لم نعثر على النص الأصلي .

٢ ـــ ظهور نجم صلاح الدين حين أشركه عمه شيركوه بحملته على مصر :

جاء في رواية القاضي ابن شداد ، أنّ صلاح الدين قال له : « كنت أكره الناس للخروج في هذه الواقعة ، وما خرجت مع عمي باختياري ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم﴾ » (ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٣١ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٥٥) .

٣ ـــ أبو شامة المقدسي ، عبد الرحمن بن اسماعيل :

(١٢٠٣ ـــ ١٢٦٨) . لغوي ، ومحدث ، ومؤرخ . ولد ومات بدمشق ، ودرس اللغة والفقه بها وبالاسكندرية . ولي مشيخة دار الحديث للأشرفية بدمشق ، وأدى لسانه اللاذع إلى أن دخل عليه اثنان يتظاهران باستفتائه ، فضرباه ، فمرض ومات ، أو قتله جمهور غاضب لاتهامه بإحدى الجرائم . ألّف عدة كتب ، مثل : « الروضتين في أخبار الدولتين » ، ترجم فيه لصلاح الدين ونور الدين ، و « ذيل الروضتين » ، و « مختصر تاريخ دمشق » ، و « الممتع المقتضب في سيرة خير العجم والعرب » ، في التاريخ ، و « المرشد الوجيز إلى علوم تتعلق بالكتاب العزيز » ، و « البسملة » ، و « أبرز المعاني في شرح حرز الأماني » في علوم القرآن ، و « شرح البردة » ، و « المقاصد السنية في شرح القصائد النبوية » في اللغة . (الموسوعة الميسرة ص ٣٥) .

٤ ـــ حصار الفرنجة بلبيس وأعمالهم السيف بأهلها : (راجع الكامل في التاريخ ج ١١ ص ١٥٠ ـــ ١٥١ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٥٤) .

٥ ـــ إحراق الفسطاط : (راجع الكامل في التاريخ ج ١١ ص ١٥٤ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ج ١ ص ١٥٤) .

٦ ــ استغاثة الخليفة الفاطمي بنور الدين: (راجع الكامل في التاريخ ج ١١ ص١٥١، أبو شامة: كتاب الروضتين ج ١ ص١٥٤).

٧ ــ لقد أجمعت المصادر العربية على أن صلاح الدين رافق عمه شيركوه إلى مصر ثلاث مرات ــ كل ذلك بأمر نور الدين.

الأولى: بطلب من الوزير الفاطمي شاور السعدي الذي زيّن لنور الدين السير إلى مصر، لإعادته إلى كرسي الوزارة، الذي يعني سدة الحكم فعلياً، على أن يكون لنور الدين ثلث واردات وادي النيل،.. وكان ذلك،.. ولكن ما إن استعاد شاور سلطاته حتى غدر بشيركوه واستنجد عليه بالفرنجة فأنجدوه.. مما أجبر القوات السورية على الانسحاب من مصر..

والثانية: كانت انتقاماً من شاور الناكث بعهده، والمتحالف مع الفرنجة أعداء العروبة والإسلام..

والثالثة: بطلب من الخليفة الفاطمي الذي استنجد بنور الدين، فأنفذ إليه شيركوه وبرفقته صلاح الدين على رأس القوات السورية التي حطمت الحلف الصليبي المصري فكان أن قتل الخائن شاور، وغدا أسد الدين شيركوه وزير مصر بأمر الخليفة الفاطمي العاضد،.. (راجع ابن الأثير: الباهر ص١١٩ ــ ١٤٠).

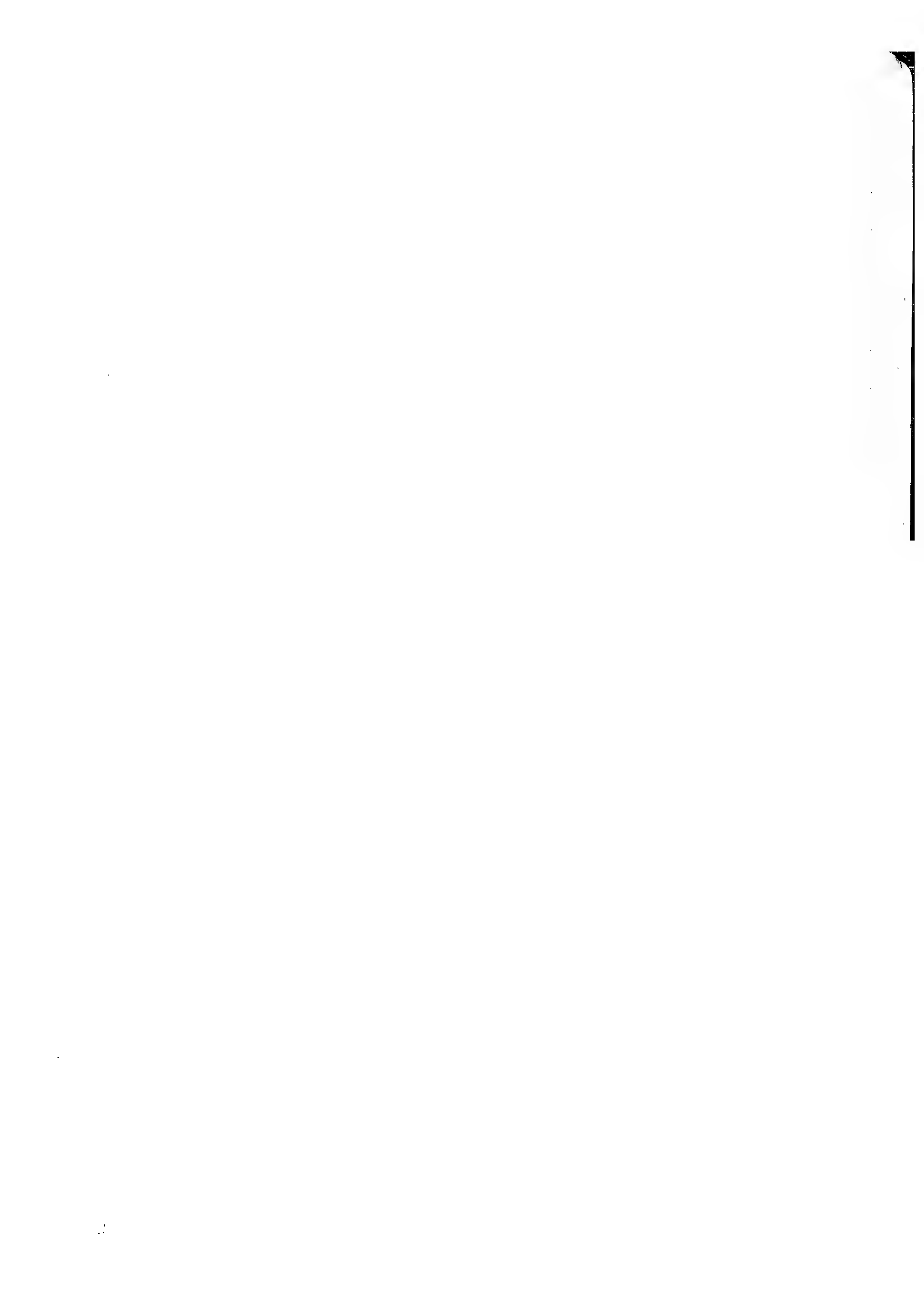
٨ ــ صلاح الدين يخلف عمه وزيراً أول لمصر:

جاء في كتاب الباهر لابن الأثير عن ذكر وفاة: أسد الدين شيركوه وملك صلاح الدين يوسف بن أيوب:
﴿حتى إذا فرحوا بما أوتوا أخذناهم بغتة﴾ لما ثبت قدم أسد الدين شيركوه وخلا وجهه ممن يخافه، وصفت له دنياه، وارتفع شأنه، وخافه القاصي والداني لاسيما الفرنج، أتاه أمر الله الذي لا محيد عنه ولا مفر منه ولا يحتمى عليه، ملك بكثرة رجال ولا يمنع عنه المعاقل والمال، فمرض وتوفي يوم السبت الثاني والعشرين من جمادى الآخرة سنة أربع وستين وخمسمائة، فكانت ولايته شهرين وخمسة أيام.

ولما توفي كان معه صلاح الدين يوسف ابن أخيه نجم الدين أيوب بن شاذي، قد سار معه على كره منه. حكي لي عنه أنه قال: «لما وردت الكتب من مصر إلى الملك العادل نور الدين رضي الله عنه مستصرخين ومستنجدين، أحضرني وأعلمني الحال، وقال: تمضي إلى عمك أسد الدين بحمص مع رسولي إليه، يأمره بالحضور وتحثه أنت على الإسراع فما يحتمل الأمر التأخير. قال: ففعلت، فلما فارقنا حلب على ميل منها لقيناه قادماً في هذا المعنى، فقال له نور الدين: تجهز للمسير، فامتنع خوفاً من غدرهم أولاً وعدم ما ينفقه في العساكر ثانياً، فأعطاه نور الدين الأموال والرجال، وقال له: إن تأخرت أنت عن المسير إلى مصر، فالمصلحة تقتضي أن أسير أنا بنفسي إليها، فإننا إن أهملنا أمرها ملكها الفرنج ولا يبقى لنا معهم مقام بالشام وغيره قال: فالتفت إليّ عمي أسد الدين، وقال تجهز يا يوسف. قال: فكأنما ضرب قلبي بسكين، فقلت: والله لو أعطيت ملك مصر ما سرت إليها، فلقد قاسيت بالاسكندرية من المشاق مالا أنساه أبداً، فقال عمي لنور الدين: لا بد من مسيره معي فترسم له، فأمرني نور الدين وأنا أستقيله، فانقضى المجلس. ثم جمع أسد الدين العساكر من التركان وغيرهم ولم يبق غير المسير، فقال لي نور الدين: لا بد من مسيرك مع عمك، فشكوت إليه الضائقة وقلة الدواب

وما أحتاج إليه ، فأعطاني ما تجهزت به فكأنما أساق إلى الموت ، وكان نور الدين مهيباً مخوفاً مع لينه ورحمته ، فسرت معه ، فلما استقر أمره وتوفي ، أعطاني الله من ملكها ما لا كنت أتوقعه .

وأما كيفية ولايته ، فإن جماعة من الأمراء النورية الذين كانوا بمصر ، طلبوا التقدم على العساكر وولاية الوزارة ، منهم : الأمير عين الدولة الياروقي ، وقطب الدين خسرو بن تليل — وهو ابن أخي أبي الهيجاء الهذباني الذي كان صاحب إربل — ومنهم : سيف الدين علي بن أحمد الهكاري — وجده كان صاحب قلاع الهكارية — ، ومنهم : شهاب الدين محمود الحارمي — وهو خال صلاح الدين — ، وكل من هؤلاء يخطبها وقد جمع ليغالب عليها ، فأرسل الخليفة العاضد لدين الله صاحب مصر إلى صلاح الدين وأمره بالحضور في قصره ليخلع عليه خلع الوزارة ويوليه الأمر بعد عمه ، وكان الذي حمل العاضد على ذلك ضعف صلاح الدين ، فإنه ظن أنه إذا ولّى صلاح الدين — وليس له عسكر ولا رجال — كان في ولايته مستضعفاً يحكم عليه ، ولا يجسر على المخالفة ، وأنه يضع على العسكر الشامي من يستميلهم إليه ، فإذا صار معه البعض أخرج الباقين وتعود البلاد إليه وعنده من العساكر الشامية من يحميها من الفرنج ونور الدين « أردت عمراً وأراد الله خارجةً » فامتنع صلاح الدين وضعفت نفسه عن هذا المقام فألزمه به وأخذ كارهاً ، « إن الله ليعجب من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل » ، فلما حضر في القصر خلع عليه خلعة الوزارة ، الجبة والعمامة وغيرهما ، ولقب الملك الناصر ، وعاد إلى دار أسد الدين فأقام بها ، ولم يلتفت إليه أحد من أولئك الأمراء الذين يريدون الأمر لأنفسهم ولا خدموه . وكان الفقيه ضياء الدين عيسى الهكاري معه ، فسعى مع سيف الدين علي بن أحمد حتى أماله إليه ، وقال له : إن هذا الأمر لا يصل إليك مع وجود عين الدولة والحارمي وابن تليل ، فمال إلى صلاح الدين . ثم قصد شهاب الدين الحارمي ، وقال له : إن هذا صلاح الدين هو ابن أختك وملكه لك ، وقد استقام الأمر له ، فلا تكن أول من يسعى في إخراجه عنه ولا يصل إليك ، ولم يزل به حتى أحضره أيضاً عنده وحلفه له . ثم عدل إلى قطب الدين ، وقال له : إن صلاح الدين قد أطاعه الناس ، ولم يبق غيرك وغير الياروقي وعلى كل حال فيجمع بينك وبين صلاح الدين أن أصله من الأكراد ، فلا تخرج الأمر عنه إلى الأتراك ، ووعده وزاد في إقطاعه فأطاع صلاح الدين أيضاً . وعدل إلى عين الدولة الياروقي — وكان أكبر الجماعة وأكثرهم جمعاً فلم تنفعه رقاه ولا نفذ فيه سحره ، وقال : أنا لا أخدم يوسف أبداً ، وعاد إلى نور الدين ومعه غيره فأنكر عليهم فراقه ، وقد فات الأمر ليقضي الله أمراً كان مفعولا . وثبت قدم صلاح الدين ، ورسخ ملكه ، وهو نائب عن الملك العادل نور الدين ، والخطبة لنور الدين في البلاد كلها ، ولا يتصرفون إلا عن أمره . وكان نور الدين يكاتب صلاح الدين بالأمير الأسفهسلار (أي مقدم العسكر) ، ويكتب علامته في الكتب تعظماً أن يكتب اسمه ، وكان لا يفرده في كتاب ، بل يكتب الأمير الأسفهسلار صلاح الدين وكافة الأمراء بالديار المصرية يفعلون كذا وكذا . واستمال صلاح الدين قلوب الناس وبذل لهم الأموال مما كان أسد الدين قد جمعه ، وطلب من العاضد شيئاً يخرجه فلم يكن يمكنه منعه ، فمال الناس إليه وأحبوه ، وقويت نفسه على القيام بهذا الأمر والثبات فيه ، وضعف أمر العاضد ، فكان كالباحث عن حتفه بظلفه . » . (ابن الأثير : الباهر ١٤١ — ١٤٣) .



الفصـــل الخامـــس

صلاح الدين يحل في القاهرة محل الفاطميين ويؤسس السلالة الأيوبية

مصر صلاح الدين بؤرة الإسلام المناضل

أقض مضجعَ الصليبيين أن يروا قبضة صلاح الدين تحكم السيطرة على مصر المشتهاة، وكان على الممالك اللاتينية في المشرق التي تهددها حلب من الشمال ودمشق من الشرق أن تأخذ من الآن فصاعداً جانب الحذر من الجنوب حيث غدت مملكة القدس تتهددها مصر التي أصبحت ثانية ــ تحت حكم صلاح الدين ــ بؤرة الإسلام المناضل، خاصة وقد أحبطت مساعي آموري في محاولاته المخفقة لاحتواء وادي النيل الخصيب سواء أ بالخدعة أم بالسيف، وتبدّى له جدياً أن عليه ــ ما استطاع من سرعة ــ أن يحمي بطريركية القدس وممتلكات أساقفتها الواسعة؛ ولذا سارع إلى إنفاذ الرسل إلى كل من فرنسا وانكلترا وألمانيا وبيزنطية وروما لاطلاع زعماء المسيحية على مجريات الأحداث، ولمطالبتهم بإثارة حملة صليبية جديدة، وقطعاً لم تكن الظروف مؤاتية في أوربا: فالبابا الكسندر الثالث كانَ على خلاف مع فريدريك باربروس، وتحدق بملك انكلترا المصاعب والمتاعب للحفاظ على عرشه المهتز بعنف أمام خصمه اللدود كبير أساقفة كنتربري، وبدوره لم يكن ملك فرنسا ــ لويس السابع ــ مستعداً للقيام بتجربة جديدة بعد فشله أمام أسوار دمشق، ولم يتحرك سوى الروم

الذين قدموا لآموري أسطولاً قوامه مائتان وعشرون مركباً، وحين تلقى ملك القدس هذه العمارة العظيمة قرر أن يعمل شيئاً، فبادر إلى محاصرة دمياط مفتاح وادي النيل.

صلاح الدين يدحر في دمياط حلف بيزنطة ومملكة القدس[1]

لم يتمكن الأسطول البيزنطي من اقتحام مدخل المرفأ، وظلت المدينة مستعصية صامدة لحصار خمسين يوماً، لأن صلاح الدين أعد للذود عنها أفضل قواته الكردية، ولم يكتف المحاصرون بدحر الفرنجة بل لم يدعوا لهم أي متنفس للراحة منهكين إياهم، محرقين آليات الحصار الضخمة التي جلبها الروم، وقسماً من الأسطول البيزنطي الذي ما زال عاجزاً عن اقتحام مدخل الميناء. واستمرت المعركة دائرة أكثر مما قدر ملك القدس، وبدأت المؤن تنفد مما اضطر المهاجمين أن يكتفوا بزهوات النخيل وبثمار الكستناء ليتغذوا، وليس هذا فحسب بل تسببت الأمطار الغزيرة بفيضان النيل، وأحالت معسكر الفرنجة إلى مستنقع لا يمكن المكوث فيه.

أمّا المسلمون الصامدون وراء تحصيناتهم، والذين لم يكن ينقصهم شيء لأن صلاح الدين عمل بفسحة كافية من الزمن لتكديس القمح لهم، ولأنهم أفادوا من العون الإلهي: هاطل الأمطار، وعاصف الرياح، وتفشي الحميّات، فأوقعوا بالفرنجة خسائر فادحة، فخارت عزائم هؤلاء، وعرضوا على المسلمين الصلح، ودفعوا غرامة كبيرة، ورحلوا كرة أخرى عن الأرض المصرية؛ وخرج صلاح الدين من هذه المغامرة أعظم مما كان عليه، إذ تمثل فيه روح صمود دمياط؛ وأنقذ مصر نهائياً رغم وجود عدّو داخلي ما لبث يترقب فشله، متربصاً به ليجهز عليه.

في ١٣ كانون الأول ١١٦٩، انكفأ ملك القدس عائداً إلى فلسطين مع فرسانه المتضورين جوعاً، متعزياً بعض الشيء إذ علم أنه خلال حصار دمياط السيء الطالع فاجأ الصليبيون المسلمين بحصن عكار في نواحي حمص وأسروا حاكم الموقع واثني عشر من المماليك. أما ما تبقى من الأسطول البيزنطي فأقلع بدوره وتوارى عن الأنظار تحت غامر الموج رجالاً وأموالاً خلال تلك الهزّة الأرضية الشهيرة التي ضربت الساحل السوري مدمرة قرى لا تحصى ومدناً كبيرة، مثل انطاكية وطرابلس التي وجد فيها رجل واحد حيّاً، وحلب

وحماة وبعلبك حيث انهارت الأعمدة المرمرية لهيكل جوبتر معبد الشمس العملاق، محدثة فرقعة رؤيويّة.

صلاح الدين ينتقل من الدفاع إلى الهجوم

وبعد رحيل الصليبيين أراد صلاح الدين أن يفوت عليهم فرصة معاودة تسللهم إلى مصر، فتوجه ــ منتقلاً من الدفاع إلى الهجوم ــ نحو داروم، وهي قلعة أقامها آموري على أنقاض دير لحماية حدود شرقي الأردن من جهة مصر، ولكن الحامية الصغيرة صمدت لجميع الهجمات، فارتحل عنها مهاجماً غزة الواقعة على تخوم الصحراء حيث سبق لامرأة مسلمة أن قاتلت قتالاً ضارياً أعداء زوجها، ولما تزل متسربلة زينة عرسها، وقتلت سبعة رجال بعمود الخيمة. ودهش السكان من وصول صلاح الدين المفاجىء، فأرادوا اللجوء إلى القلعة، ولكن حاكم الموقع ميلون دي بلانسي أغلق دونهم أبواب الحصن ليكرههم على الدفاع عن أبواب المدينة. وحمل المسيحيون السلاح مستميتين في الذود عن أنفسهم ونسائهم وأولادهم، ولكن شجاعتهم ذهبت بدداً، فدخل صلاح الدين بذاته المدينة على رأس قوّة جريئة؛ وتضرع السكان المتعرضين للضرب من جميع الجهات، إلى حماة الحصن لكي يدعوا النساء والأطفال يدخلون القلعة؛ ولكن الأبواب ظلت مغلقة بإصرار في وجه هؤلاء البؤساء الذين تناوشتهم سيوف المسلمين، ونُهبت المدينة وأحرقت، ولأن القلعة صمدت لجميع الهجمات انقلب صلاح الدين ثانية نحو الداروم حيث واتته الفرصة لإبادة جيش ذي أهمية من الفرنجة سبق لملك القدس أن أنفذه على جناح السرعة لإنجاد ميلون دي بلانسي، ثم أرسل طليعة باتجاه الرملة وعسقلان قبل أن يعودوا إلى مصر؛ واستولى قسم من الجيش السوري على مدينة ايلياء (ايلات الكتب العبرية) الواقعة على البحر الأحمر عند نهاية الطريق التي بناها أحد قواد تراجان، والتي ازدهرت أيام داود، ثم ضمّت إلى الولاية العربية اا [illegible]ـبة. كان امتلاك هذه المدينة التي سبق أن وقعت عام ١١١٦ في قبضة مئتين من الفرسان من شأنه أن يتيح لفرنجة عبر الأردن أن يفرضوا رسوم مكوس لها شأنها على جموع الحجاج المسلمين المتجهين إلى مكة، وعلى قوافل التجار المتنقلة بين مصر وسورية والمتاجرين بمنتجات الشرق الأقصى والهند وفارس. فضلاً عن كون الفرنجة يمتلكون بهذا قاعدة ممتازة، ويأملون أن يمدوا عبرها

سلطتهم على البحر الأحمر، وحصر نقل البضائع لصالحهم، وقطع الاتصال بين مصر والجزيرة العربية... وفي الواقع لم يكن أخذ هذا الميناء عملية سهلة.

وقد اضطر صلاح الدين إلى بناء سفن نقلت أجزاؤها على ظهور الجمال عبر الصحراء حتى شواطىء البحر الأحمر حيث تم تجميعها.

إنهاء الخلافة الفاطمية في مصر

وعندما عاد صلاح الدين إلى القاهرة علم أن نور الدين يسعى لإلغاء لقب الخليفة الفاطمي المهيمن على مصر من صلاة الجمعة، ليحل محله اسم خليفة بغداد العباسي.

وكان يمكن لهذا الإصلاح الاستثنائي الذي يجرد تجريداً عنيفاً سيد مصر من سلطته كخليفة للنبي أن يصدم قناعات مصر الدينية، حيث كان الفاطميون سلالة فاطمة بنت الرسول يتهمون العباسيين المنتسبين إلى عم النبي باغتصابهم السلطة الدينية العليا. لقد فهم صلاح الدين مشقَّة أن تغير بين ليلة وضحاها عقيدة بلد وفيٍّ لتقاليده، ولذا أجاب نور الدين بأن من الأهمية بمكان إعداد النفوس وتهيئتها لتقبل مثل هذا التغير الأساسي؛ ولكن خليفة بغداد بدا أقل تفهّماً؛ وأنه ينتظر بفارغ الصبر أن يوسع سلطته الروحية من جهة، وليصفيٍّ لصالحه نزاعاً عائلياً قديماً، من جهة ثانية، ولذا أظهر شيئاً من عدم الثقة بصلاح الدين وأطلع نور الدين على ذلك؛ مضيفاً أن سلطة مبعوثه في مصر يجب أن تؤيد تأييداً كافياً لخنق أية حركة مناوئة، وأن صلاح الدين بدا حتى الآن جندياً باسلاً ومدبراً ذا شأن، ولم يقصر في وضع قواته في النقاط الحساسة، وتعيين الرجال الموثوق بهم في الإدارة، مما يعني بوضوح رغبته في أن يذكر اسمه فوراً في صلاة الجمعة. وإزاء هذا الضغط من الخليفة أمر نور الدين صلاح الدين، بعبارات لا لبس فيها هذه المرة، بأن يذكر بصلاة الجمعة ــ في القاهرة والأرياف ــ اسم خليفة بغداد. وقد ظهر صلاح الدين في هذه المناسبة بالغ اللباقة؛ فلم يتسرع بل أعدّ بهدوء النفوس شيئاً فشيئاً، فأمر بتعليم عقيدة العباسيين السّنيَّة في المعاهد والمدارس، وعين القضاة في المدن المصرية الكبرى، وهكذا ودون أية ضجة ــ وقد حدثت كل هذه الدعاوة لصالح العباسيين ــ قام صلاح الدين بثورة حقيقية، فارضاً على رعاياه السيطرة الروحية لخلافة بغداد؛ وفي إحدى الجُمَع حلّ اسم العباسي محل الفاطمي في جامع

القاهرة الكبير، ولم تضطر القوات السورية التي وضعها يومذاك على مفارق الطرق وفي الأسواق إلى التدخل، وشاهدت ـــ وهي واضعة سلاحها عند إقدامها ـــ جماهير المصلّين الموجهة توجيهاً جيداً والقابلة باحترام ودون أي احتجاج بما جرى، وأنه لا يأتي من الله إلا الخير، وتقبل الناس الأمر الواقع. فأقيمت في بغداد مهرجانات فخمة احتفاءً بهذا الحدث. وسُمي نور الدين سلطاناً، واستقبل صلاح الدين الرايات السوداء رمز الوحدة وشعار العباسيين وقد كتب عليها «إن الراية السوداء ستعيد الإنسان إلى الصراط المستقيم»، كما تقبل لقب معيد سلطة أمير المؤمنين.

وفيما كان المسلمون الصالحون يبتهجون بهذا النصر المبين للعباسيين، كان آخر خلفاء الفاطميين في القاهرة العاضد لدين الله، حفيد الحافظ يسلم الروح وسط حريمه في الوقت المناسب. ترى هل قتل كما يزعم المؤرخون المسيحيون بيد أخي صلاح الدين وبأمر منه، ولم يكن سوى آلة فاقدة الإرادة بيد وزرائه؛ لقد مات كما عاش دونما بريق وبلا ضجة، وكان الخليفة الرابع عشر والأخير من سلالة عرفت في مصر ساعاتٍ مجيدة.

صلاح الدين مؤسس السلالة الأيوبية الحاكمة

واعتلى صلاح الدين عرش مصر وهو ابن خمس وثلاثين سنة مؤسساً بذلك سلالة الأيوبيين، وكان دم جديد، دم كردي يبعث الإسلام. كان صلاح الدين وهو يدخل التاريخ سيبرهن على أنّهُ جدير بالاضطلاع بدور بارز على الحلبة العالمية، وفي المشرق ستواجه الممالك اللاتينية من الآن فصاعداً سياسيّاً بارعاً مهيباً، وليس واحداً من أولئك الملوك الشرقيين التفهين العاجزين عن إدارة الشؤون التاريخية المسندة إليهم. وانتهت الخلافة الفاطمية التي نشأت أولاً في إفريقية الشمالية. وكان العباسيون الخاضعون للمؤثرات الآسيوية ينتصرون في القاهرة، كما سبق لهم أن انتصروا على الأمويين المتعالين الذين راعى ملوكهم من مركز سلطانهم من دمشق عريق تقاليد العروبة ومثلها.

وأما مصر التي ضَلَّت حيناً من الدهر فقد استعادت إيمانها المتفق والسنة النبوية، وحين أصبحت تحت سلطة صلاح الدين الذي اعترفت به بغداد كفّت عن اتباع حياة خاصة؛ متخلصة من بِدَعِها، لتصبح ابنة الإسلام البكر، بعد أن كانت حتى عهد ذاك

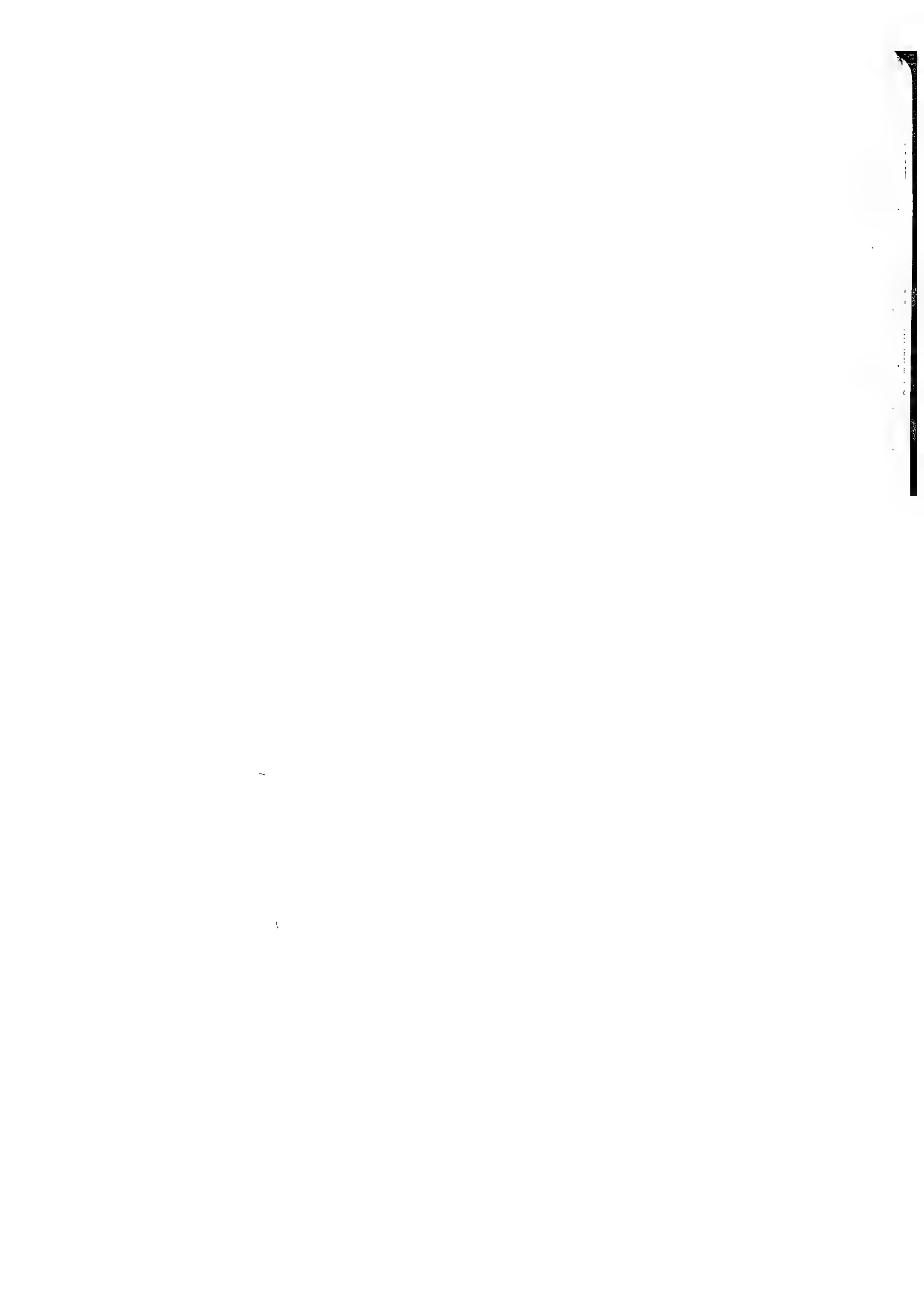
منعزلة . وبقدر ما كانت الخلافة الشرعية تضعف ، وتتراخى عملياً في مصر وشائج المحافظة على علاقات التابع ببغداد ، بيد أنها عادت مع صلاح الدين حجراً رئيسياً على رقعة شطرنج الإسلام السياسي الذي كان يرى في المسألة الدينية روح العالم الإسلامي وعقله . إن هذه الممارسة لمثل أعلى ناهيك بشرعية الأسرة المقربة إلى النبي كانت تسوغ مزاعم العباسيين . لكل ذلك ــ وهذا ما جرى في مصر على يد صلاح الدين ــ كان الفقهاء دارسو السنة والمطبقون مناهج علمية لإظهار روح القانون الإلهي يتيحون للإسلام أن يشهد عهد تنور في هذه البلاد . ولما كان هذا الدين ليس مجرد قواعد حياة روحية فحسب ، وإنما هو كذلك اجتهاد قضائي ترتب عليه أن يلبي متطلبات القواعد الفقهية الموكول أمرها إلى الخلفاء العباسيين ، وتطلب الأمر كذلك أن يفسر هذا القانون الديني (الشرع) بدقة متناهية مما يعني فيما يعنيه ــ كما سنرى ــ أن يبرز إلى جانب صلاح الدين ــ الوفيّ للتعاليم التي تلقاها في بعلبك ــ جمع غفير من القضاة والمشرعين .

حواشي الفصل الخامس

ذكر حصر الإفرنج مدينة دمياط في سنة خمس وستين

« في سنة خمس وستين وخمسمائة ، في أوائل صفر ، نزل الفرنج على مدينة دمياط من الديار المصرية ، فكان إفرنج الساحل لما ملك أسد الدين مصر قد خافوا وأيقنوا بالهلاك فكاتبوا الفرنج الذين بالأندلس وصقلية وغيرهما يستمدونهم ويعرفونهم ما تجدد من ملك مصر ، وأنهم خائفون على البيت المقدس من المسلمين ، وأرسلوا جماعة من القسوس والرهبان يحرضون الناس على الحركة ، فأمدوهم بالمال والرجال والسلاح ، واستعدوا للنزول على دمياط ظناً منهم أنهم يملكونها ويتخذونها ظهراً يملكون به ديار مصر ﴿ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً﴾ . فلما نازلوها حصروها وضيقوا على من بها ، فأرسل إليها صلاح الدين العساكر في النيل ، وحشر فيها كل من عنده وأمدهم بالمال والسلاح والذخائر ، وتابع رسله إلى نور الدين يشكو ما هو فيه من المخاوف ، وأنه إن تخلف عن دمياط ملكها الإفرنج ، وإن سار إليها ، خلفه المصريون في مخلفيه ومخلفي عسكره بالسوء وخرجوا عن طاعته ، وصاروا من خلفه والفرنج من أمامه ، فجهز نور الدين إليه العساكر أرسالاً ، كلما تجهزت طائفة سيرها ، فسارت إليه العساكر يتلو بعضها بعضاً .

ثم سار نور الدين فيمن عنده من العساكر ، فدخل بلاد الفرنج فنهبها وأغار عليها واستباحها ووصلت الغارات إلى مالم تكن تبلغه لخلو البلاد من مانع ، فلما رأى الفرنج تتابع العساكر إلى مصر ، ودخول نور الدين إلى بلادهم ونهبها وإخرابها ، رجعوا خائبين لم يظفروا بشيء ، وهذا موضع المثل : « ذهبت النعامة تطلب قرنين فعادت بلا أذنين » . فوصلوا إلى بلادهم فرأوها خاوية على عروشها . وكان مدة مقامهم على دمياط خمسين يوماً ، أخرج فيها صلاح الدين أموالاً لا تحصى ، حكي لي عنه أنه قال : ما رأيت أكرم من العاضد ، أرسل إليَّ مدة مقام الفرنج على دمياط ألف ألف دينار مصري ، سوى الثياب وغيرها » . (ابن الأثير ــ الباهر ص ١٤٣ ــ ١٤٤) .



الفصل السادس

القاهرة

إصلاح نظام الحكم في مصر

بعد تلك السلسلة الطويلة من الاضطرابات والمحن التي رافقت أفول نجم السلالة الفاطمية، وبعد تناوبات المجاعة والازدهار في أعقاب تسلط البيروقراطية، وبعد سني الضياع والاستياء وثورات الضباط والمحظيين وأخبار الحريم، وبعد ديكتاتورية الخِصْيَة، أصلح حكم صلاح الدين الخيّر الفوضى: فوضى الإدارة الخلافية القديمة، وهدّأ النفوس، وطمأن طبقة الملاك، وشجع التجارة، ولم يتردد في اتخاذ أحزم الإجراءات بهدف سلامة العاصمة، وشجّع تأسيس المدارس العديدة، وعرفت مصر، بفضل سلطة سيدها الجديد الآثار السعيدة لنهضة سياسة وازدهار اقتصادي ظلا مشهورين في تاريخها.

ففي مدينة القاهرة القديمة، قرب هليو بوليس حيث يقوم أبو الهول: طائر بلاد النخيل الذي يعيد كل خمسمائة سنة رماده إلى مدينة الشمس المجيدة رامزاً بذلك إلى الآمال المعزّية التي كانت تتيح للناس أن يؤمنوا بأن ما يموت ويذبل وينطفىء يلاقي حياة ازدهار وتوهج جديدين.. مدينة الجوامع التي لا تحصى المُطلقة مئات المآذن نحو السماء، أعجوبة البلاط

الحيّة المزدادة جمالاً كل قرن بفضل اهتمامات خلفائها الأسطوريين، كان المسافر يستطيع في القرن الثاني عشر للميلاد، أن يتذكّر بيسر عظمة وحيوية هذه الحضارة الإسلامية الفتيّة المتفتحة على أرض الفراعنة القدماء قيدَ خطوتين من هذا الهرم الأكبر الذي قد يحتفظ في قلب بنائه المذهل منذ خمسة آلاف سنة بسرّ الأزمنة الآتية، وبرسالة القرون المنصرمة.

القاهرة... هذا الاسم المهيب الذي ما يزال حتى الآن ينبئنا بملاذّ الشرق وسحره وجماله. هذا الاسم الذي يجنِّح وقعه جميل ذكرياتنا، هذه المدينة المقدسة ـــ التي شأنها شأن دمشق الصامتة البيضاء الكبرى ـــ والتي كانت تعبّر أمس كما تعبّر على الدوام بشعر قصورها وترف أسواقها عن مجد الإسلام وسيفه. والحياة البطيئة لسكانها القادمين إليها من كل حَدب وصوب، بنقش مضاء إضاءة فخمة. فنجارة ممفيس، هذه المدينة الملكية حقاً، والمشهورة موضع احترام جميع المسلمين في سائر أنحاء العالم. كان شعراؤها بلغتهم الغنائية المميزة، المسارعون إلى إبداء حماساتهم المزركشة التي تجعلنا نضحك ونحلم في آن واحد، قد تغنوا كما يليق بهم أن يفعلوا بشائعات مدينة الخلفاء وأضوائها، وبعذوبة لياليها المتفردة، ومياه النيل، وبفسيقياتها، حيث كانت الدبابير البنّاءة تشيد بوقاحة أعشاشها في تجويفات هيروغليفياتها المقدسة. فكل إنسان في الشرق شاعر بمقدار ما. حتى إن إسكافيّاً من الموصل تجرأ فزعم لكي يبدد كآبات خليفة عبوس أن بغداد هي مدينة السرور الوحيدة: فردّ عليه شاعر آخر، تائه ونبيل بأن من لم يَرَ مصرَ أعمى، لأنّ تربتها من تبر، وأن منظرَ نساء هذا الفردوس ينعش نظر المؤمن كالماء العذب. وأن نيلها كالأنهار الجارية في جنة الخلد. وفي إحدى حكايات ألف ليلة وليلة تصف شهرزاد المضطربة المدينة البعيدة بهذه العبارات: «أين سعادة الافتتان بالأشكال الكاملة لجسد الحبيبة من سعادة التمتع بمشاهد القاهرة (مصر)! ومن شاهد هذه المدينة الشهيرة بين المدن فلن يقدر على نسيانها، وإذا فكرنا بليلة وفاء النيل الذي يغطي الأرض بطميه المخصب أعدنا الكأس إلى الساقي غير مفكرين إلا بهذه المدينة العجيبة الفريدة». وتضيف شهرزاد، فيما هي ذاهبة بوصفها: «يا أمير المؤمنين الحكيم لو كنت في القاهرة قرب النيل حين تغمر الشمس الغاربة المدينة بغلالتها النورانية لاحتقرت عرشك وعبيدك، ونسيت بغداد ولعشت على ضفة النهر المقدس»... هكذا تكلمت شهرزاد واصفة القاهرة: بابل مصر القديمة التي عسكرت فيها الكتائب الرومانية قروناً عديدة، ساهرة على

ضفاف النيل؛ حيث كانت تتدفق المراكب النوبية حاملة ثروات السودان. وكان السامعون يرون مسحورين مسجد عمرو تاج المساجد، وأحد أقدم الجوامع في الإسلام المقام على أنقاض كنيسة قبطية إبّان الفتح العربي، والذي أعاد صلاح الدين بناءه عام ١١٧٢ بسوره المنقوش بألوان براقة مذهبة، وبمصاحفه الألف والمائتين والتسعين المزينة، وبالثمانية عشر ألفاً من المصابيح المنارة عند اقتراب الليل، بحيث يظل هذا المسجد أحد أجمل أبنية الفن العربي، حتى إن جميع المؤمنين بإله واحد، من مختلف أصقاع المعمورة وسائر الأديان كانوا يستطيعون التجمع والصلاة الجامعة فيه أيام البؤس والحصول بتقواهم على فيضان النيل الضروري.

أيّ مشهد مدهش كان يمكن رؤيته، مشهد المسلمين وراء علمائهم والمسيحيين من كل مذهب، واليهود مع قرائهم وربابنتهم مجتمعين اجتماع أخوّة في الساحة الكبرى لمسجد عمرو قبل أن يتوجهوا لأداء الصلاة معاً بعد الوضوء، أمام الكائن الأعلى في المعبد ذي الثلاثمائة وستين عموداً من الرخام التي حملت من معابد وكنائس متدثرة، والمتوجة بتيجان يختلط فيها الفن الكورنثي النباتي والاستدارة اليونانية، والتاج البيزنطي المكعّب، وتاج عهد البطالسة. وفي الأسفل حيث يحل الضوء الخفيف محل النور الباهر في الخارج نجد المحراب المزين بالفسيفساء وبالترصيعات الدقيقة المعقدة من الحجارة الكريمة. وهذا المحراب الذي يتجه نحو مكة المدينة الكبرى المقدسة البرّاقة كحلية في رمال العربية السعيدة. ايتها الجوامع، ينابيع البناء، رموز الارتفاعات الروحية، انطلاقات الحجر المنبثقة من هذا المقدار من التقوى، ومن هذا القدر من الصبر، أنت الأماكن الخالدة حيث تمتزج في شاعرية صوفية حارّة، هذه المواكب للجنود المجندة من الأرواح الوافدة من جميع الأزمنة حاملة الرسالات الإلهية.

أما جامع ابن طولون فمبني قرب التل حيث ــ كما تذهب إحدى الروايات ــ أرسل الله إلى ابراهيم الكبش ليفتدي به اسحق حينما همّ بذبحه. وقد أسّسه عالم لم يكن يفوّت يوم جمعة واحداً دون أن يعود المرضى والمجانين. هذا الأمير الليبرالي الذي حينما شعر بدنوّ أجله دعا رعاياه للتجمع والصلاة من أجله: المسلمون حسب القرآن، واليهود حسب التلمود والمزامير، والنصارى حسب الإنجيل. وبنى هناك أحد أروع أبنية القاهرة. فجامع ابن طولون هذا يذكر المؤمنين بهذا الأمير الذي خلف بعده /١٥/ ابناً و /١٦/ بنتاً و /٢٥/ ملياراً، وأنفق

طوال مدة ملكه على /١٠٠٠٠/ مملوك و /٣٠٠/ فرس أصيل و /٢٤٠٠٠/ عبد و /١٠/ مراكب حربية.

بناء قلعة القاهرة

والقلعة العالية المشرفة على القاهرة التي أرسى قواعدها ورفع بناءها صلاح الدين، هادفاً من وراء ذلك، بعد أن أصبح سيد مصر الجديد أن يجعل فيها مسكنه. ويروي المقريزي أن صلاح الدين اختار هذا المكان لأن اللحم كان يبقى فيه طازجاً يومين وليلتين، بينما هو يفسد في المدينة بيوم واحد.

كان صلاح الدين قد أقام من قبل في قصر الوزراء، ومنح أمراءه قصر الخلفاء؛ ولكن بعد سقوط الفاطميين وإعادة المذهب السني الذي ما انفكت تهدده الشيعة الأصولية، ما انفك يخشى القاهرة: فِتَنَها الغوغائية، وحقد الموظفين المعزولين، ولم يكن بمستطاعه أن يختار قصراً يستطيع منه فرض الطاعة على المدينة، فكلف الخصيّ قراقوش ببناء القلعة. هذا الوزير المدهش نصْف المجنون، ونصْف العاقل[1] الذي خفض الميزانية المخصصة للبناء بهدم الأهرام الصغرى في الجيزة، وباستعمال ثالث الأهرام الكبرى أي هرم ميكيرنيوس كمقلع، وباستخدام كتل الحجارة الفخمة المنحوتة المأخوذة من قبور الفراعنة أسساً لقلعة صلاح الدين. وبقي ذكر قراقوش حياً في مصر بصورة ممعنة في الخصوصية. حتى إن المهرج، وهو الشخصية الكلاسيكية في كل تمثيل مسرحي يحمل اسم وزير صلاح الدين. ويظهر أنه استحق هذه الشهرة استحقاقاً ــ إذا أخذنا بأقاويل المؤرخين المسلمين ــ الذين احتفظوا لنا بكثير من صفات هذه الشخصية، فقد كتبت أرملة أحد هؤلاء أنها طلبت من قراقوش كفناً لتلف به جثمان زوجها فأجابها: «إن صندوق الحسنات فارغ الآن، فعودي في السنة القادمة حيث أستطيع بإذن الله أن أعطيك كفناً». وحكاية أخرى شائعة جداً في عهد صلاح الدين، وهي أكثر مواءمة لشهرة قراقوش: أن سرقة كبرى حدثت في القاهرة اضطربت لها المدينة. فسأل قراقوش المسروق لهم هل زقاقهم مسدود النهاية كما كانت الشوارع آنذاك فأجابوا: نعم. فأمر بجلب الباب وجميع سكان الزقاق، ووضع أذنه على الباب متظاهراً بالإصغاء وقال: «أخبرني الباب بأن السارق يضع في عمامته ريشة» فكان، وبصورة لا شعورية أن وضع السارق يده على رأسه، فكشف نفسه.

ثروات الخليفة الفاطمي الأسطورية

وأطلق العرب على القلعة الجديدة اسم «قصر الجبل». وكان طريق صاعد محاط بالأسوار العالية يوصل إليها. وكان غيّوم الصوري منبهراً بالثروات الضخمة والمحاسن الفاتنة، والملذات الآخذة التي كانت في القاهرة فوصف الاستقبال الذي حظي به رسولا ملك بيت المقدس (في قصر الخليفة الفاطمي: العاضد الذي آل إلى صلاح الدين)[٢] بقوله: «لما كان قصر هذا الأمير مغموراً بمتارف خاصة للغاية حتى إنه لم يُرَ مثلها في زماننا، سنقول هنا في دقة ما علمناه من التقارير الصادقة الصادرة عن الذين كانوا لدى هذا الأمير العظيم عن عظمته وثرواته وفخامته غير العاديّة. لما وصل هوغ دي سيزاريه (قيسارية) ومعه فارس الهيكل غود فروا إلى القاهرة، سير بهما لبلاط الخليفة العاضد (والذي غدا من أملاك صلاح الدين)[٣] يصحبهما جمع غفير من الخدم كانوا يتقدمونهما في صخب بسيوفهم المجرّدة عبر ممرّات ضيقة وغرف مظلمة يحرسها أحباش مسلحون، وبعد اجتياز الحارسين الأول والثاني وصلا إلى قاعات مبلطة بالرخام المتعدد الألوان، فوجدا فيه ممرّات للتنزه ذات أعمدة رخامية. كانت سقوفها الفخمة المنحوتة والمرصعة بالذهب تلمع في الظل. كل هذا كان له من جمال المادة والعمل الفني مما أوقع أميري الفرنجة في دهش لا يملكان معه نفسيهما أن تمتنعا عن التحديق، وأن عيونهما لم تكن لتكف عن التأمل في هذه الأعمال التي كانت تتجاوز في كمالها كل ما شاهداه حتى الآن. كان ثمة نوافير تتدفق منها المياه من أنابيب من الذهب والفضة، وعصافير من كل الأنواع غير معروفة أسماؤها عندنا، ذات تغريد متنوع وأشكال وألوان غريبة، ومن هناك قاد الخصيان الرافلون بالثياب المزركشة الفرنجيين إلى قاعات أخرى تفوق الأولى جمالاً.

كان هناك الكثير من مختلف أنواع الحيوان التي لا مثيل لها إلا أن يأتي بمثلها ريشة الرسام، واستعارة الشاعر والروح الهائمة في أحلام الليل، ووصلا بعد جولات عديدة عبر الكثير من القاعات التي تستوقف أشدّ الناس عجلة من أمره ومشاغله، ووصلا أخيراً إلى القصر الملكي ذاته حيث كانت مجموعات من الناس المسلحين، وحشد من الأتباع الذين يدلّون بكثرتهم وفخامة أسلحتهم وبهي حللهم على مجد سيدهم، وحيث كانت الأماكن ذاتها تنطق بما كان عليه المالك من طائل الثراء وعظيم الكنوز، وحينما أُذن لهما وأدخلا القسم

الداخلي من القصر ، قدّم الوزير لسيّده الاحترام المعتاد ، ساجداً على الأرض مرتين مبجلاً إياه بطريقة لم يتعوّد أحد أن يدلل على احترامه بها ، وحينما جثا الوزير للمرة الثالثة ووضع سيفه المعلق -في عنقه انزاحت الستائر المطرزة بالذهب والحاجبة العرش في وسط القاعة المزينة بالذهب والجواهر المنتقاة ، وأصبح الخليفة منظوراً . كان وجهه مكشوفاً ، وكان جالساً ـــ بفخامة من الثياب هي أكثر من ملوكية ـــ على عرش من الذهب »(٤) .

قلعة قصر الجبل

والذي يزور اليوم هذه القلعة الفسيحة التي بناها صلاح الدين يتأثر تأثراً لا يُنسى . إنها خليط من الساحات والحدائق والدهاليز المتعرجة والقلاع والقصور والأسوار الصخرية المستقيمة والعقبات ، ويرى فيها المشاهد أعلى مآذن القاهرة وآباراً أخفض من مستوى مجرى النيل . وفي ظل هذه القلعة الفخمة كانت تقام في شهر شوال قبل سفر الحجاج إلى مكة أسواق مشهورة في الشرق كله . وكم من مرة كان صلاح الدين متخلياً من هموم الحكم في الساعات العذبة من ليالي الشرق ، هذه التي لا ينساها من عرفها ، يحدّق مليّاً من أعلى هذه القلعة ، مفكراً في هذه المدينة الشهيرة النابضة بضجيج ضخم ، في السلام الذي لا يمكن تحديد نهاياته لهذه العشيّات التي تحوّل الأشكال إلى تعدّد غير متناهي الألوان ، في هذا الاشتعال المفاجىء لمئات القباب والمآذن ، ومن الممكن أنه أدرك أن أبهة المجد والعظمة هي أكثر وهماً من شعلات المساء المنبثقة من شفق الآفاق المتوهجة . وكم من مرة انحنى سيد الإسلام على هذه المدينة الباهرة الأسطورية الحافلة بالضجيج والأنوار والخليط من الشعوب المختلفة والتي كان اسمها وحده يسحر بورجوازيي دمشق أو غرناطة الحالمين في أروقتهم المعطرة بعبير أشجار البرتقال بمملكة النيل الخصب هذه . ومن أعلى القلعة يمتد النظر بعيداً جداً : إلى الغرب ، إلى هذه الغلالة الرحبة الامتداد والهادئة للنهر والأراضي المزروعة التي يرويها .. وفي الأفق على مشارف الجبل الليبي ، والتراكم الهرمي لقبور الفراعنة ، وهي الكتل السرّية الخالدة . وإلى الجنوب مشهد غريب للأراضي التي تغطيها الطواحين الهوائية وتلال من الأنقاض ومقابر واسعة ... مدن القبور ذات القباب المزدحمة حوالي مدافن الخلفاء الفخمة .

وما دامت الشمس متربعة قبة السماء يبقى هذا المشهد الرائع كما لو كان مجرداً من

سحره ... من الرمادي إلى الأصفر إلى الأسمر إلى الأبيض الباهر، فقليل من الأخضر المخفف بنثار الغبار أو بالبُعد، تلك هي الألوان الوحيدة التي نصادفها، ولكن عندما تشرق الشمس، والأفضل عند الأصيل قبل أن يتوارى الكوكب الوهاج وراء الجبل الليبي، عندما تغرق الشمسُ الأرضَ ببهائها تولد مدينة غريبة جديدة بمثيلاتها الشرقيّة، إذ ذاك تصبح المدينة غارقة في البرفير، فالنيل يحمل في أعماق مياهه ذهباً برّاقاً، فتلتهب الحقول وتنفصل الجبال البعيدة عن الأفق ملوّنة بلون البنفسج. ذاك هو وجه القاهرة. وإلى هذه المدينة المحظوظة كانت تتدفق ثروات العالم في عهد صلاح الدين. كان أمير سيلان يكتب إلى الخليفة الفاطمي «إنني أرغب في عقد معاهدة تجارية معك. فأنا أملك كمية مذهلة من الحجارة الكريمة، واللؤلؤ، ولديّ سفن وفِيَلَة وأقمشة من كل نوع وخشب الصندل، والقرفة يحملها إليك تجار ربانيون (فرقة من البراهمة). وفي أرض مملكتي تقوم أشجار تصنع منها أقنية الرماح، فإذا طلبت مني حمولة عشرين سفينة كل سنة أستطيع أن أرسلها إليك، ويستطيع المصريون أن يأتوا للمتاجرة بأمان في ممالكي، لأن أمير اليمن طلب إليّ أن يبرم معي معاهدة تحالف، فصرفته بسبب محبتي مصر. إني أملك سبعة وعشرين قصراً مفعمة أقبيتها بالحجارة الكريمة، أما مصايد اللؤلؤ فهي جزء من ممالكي».

ووصل إلى القاهرة مبعوثون صينيون كانت مراكبهم الضخمة تعمل منذ زمن بعيد في تجارة المحيط الهندي. وقد طاب لمؤرخي العصر الذين تعوّدوا أن يروا في كل سفارة قادمة من بلاد مجهولة نوعاً من الخضوع للإسلام، طاب لهم أن يروا ــ ربما مخطئين ــ أن للدين دوره الذي يعادل الدورَ التجاري في السلوك غير العادي لبعض حكام الشرق الأقصى. وكما يروي المقريزي «فإن بعض سفراء ملك الصين حملوا إلى القاهرة رسائل موجهة إلى الخليفة ورد فيها أن داعية ورعاً شخص إلى ربوع الصين وأقام فيها رَدْحاً طويلاً يعمل جهده لصرف السكان عن عبادتهم الشمس المشرقة؛ وإدخالهم في دينه. وقد سمع به الملك وأراد أن يتحدث إليه فاقتنع بحججه واعتنق الإسلام. ولما مات الداعية أرسل الملك مبعوثين إلى مصر طالباً بعض الكتب الفقهية، وفقيهاً قادراً على تعليم رعاياه الشعائر الإسلامية تعليماً صحيحاً. فاستقبل الخليفة المبعوثين استقبالاً لائقاً، وأمر أن تخلع عليهم خلع التكريم وسُلّم المبعوثون عدداً مختاراً من الكتب التي من شأنها أن تثقفهم ثقافة دينية راسخة». وقد كانت نتائج مثل هذه

البعثات الزمنية ذات فوائد جمة لمصر . فأصبحت طريق القوافل القديمة مسلكاً مستمراً لقوافل طويلة من الجمال المثقلة بالنفائس . ولم يكن سهلاً أن يحصى عدد المراكب المحملة أو المفرغة . وكان عددها في النيل أيام صلاح الدين ستة وثلاثين ألفاً ، وأكد أحد الفلورنسيين الذي مرّ بالقاهرة أنه كان في مينائها من المراكب أكثر مما كان في جنوة والبندقية ، ويصف لنا وانكون نصاً عن ابن خرداذبة ازدهار مصر : «كان التجار اليهود المتكلمون باللغات العربية والفارسية ، واليونانية وكذلك الفرنجية والإسبانية ، والصقلبية يحملون من الغرب إلى القاهرة نساءً إماء وغلماناً ، وبروكاراً ، وجلود الكستور وفراء التّموس والسيوف . كانوا يركبون البحر في بلاد الفرنجة ويتوجهون نحو القاهرة وهم يحملون بضائعهم على ظهور الجمال ، ويسيرون إلى موانىء البحر الأحمر لينطلقوا منها إلى الهند والصين ولدى عودتهم من الأخيرة كانوا يحملون المسك وخشب الخيزران والكافور إلى القاهرة»(٥) . كانت الطرق آمنة للغاية ، ونقاط الاتصال مجهزة بالمؤن ، حتى إنه كان بمستطاع ظعينة وحدها أن تسافر على مطيّة ، أو سائرة على قدميها من القاهرة إلى دمشق دون أن تتزود بماء أو طعام . كانت قلعة القاهرة منطلق هذه الطرق التي تنشعب إحداها باتجاه كوس حيث تتفرع فرعين يتجه أحدهما إلى أسوان والنوبة ، ويصل الثاني العاصمة بدمياط حيث يجري الانتقال إلى سورية .

ثروات القاهرة في عهد صلاح الدين

ويتفق كل المسافرين الذين زاروا القاهرة في عهد صلاح الدين على ما تنعم فيه من بحبوحة ، يقول المقريزي : «رأيت ثروات هي من الضخامة بحيث لو أردت أن أحصيها أو أصفها لما صدّق كلامي أحد في بلاد العجم» . ويقول لنا ابن مُيَسّر : «استمر نقل الكنوز من قصر الفضل إلى قصر الخلافة على ظهور الجمال أو البغال شهرين كاملين» . وإذا حاولنا إحصاء هذه الثروات لأصبنا بدوخة الأرقام : «ثمانمائة مليون قطعة ذهبية ، سبعمائة صينية من الذهب والفضة ، مئات من آنية البورسلان الصيني مملوءة حجارة كريمة ومكدسة بلا ترتيب . تسعون ألف ثوب من البروكار المتنوع أو من حرير بغداد . خزائن عطور محشوة بعلب الخيزران ، آلاف الصناديق الملأى بأقمشة دابق ، والكتان المحيك في تينيس أو في دمياط . اثنتا عشرة غرفة مملوءة حتى السقف بالسجاد وأقمشة الخيام والمساند من كتّان دابق تتخلله خيوط من الحرير أو الذهب ، وصناديق محشوة بصناديق صغيرة من السبائك الذهبية

من العراق. ثمانمائة صبية منهن خمسون محظية لكل منهن غرفة خاصة. أطنان من القطن والكتان والشمع والحديد والخشب، أربعة آلاف حصير من القش المنسوج، ستمائة قطعة من البلّور الصخري، خمسمائة رحل للنقل، ألف بالة من بضائع اليمن، سبعة آلاف سَرْج»..

ولم يكن العامة أنفسهم محرومين شيئاً: شراب مثلّج بثلج لبنان؛ وإليكم وصفة مطبخ حفظها لنا أحد مؤلفي الحوليات من حاشية صلاح الدين تتعلق بإعداد إحدى المعجنات: «اعداد العجين من ثلاثين أوقية من الدقيق البالغ النعومة، يضاف إليه خمس أواق ونصف من الطحينة (زيت السمسم)، يقسم العجين إلى قسمين يرقق الأول جداً؛ ويوضع في موقد كبير من النحاس، وتُمد عليه حشْوة من اللحم فوقها ثلاثون حَمَلاً مشوياً ومحشواً بحشوة معطرة من الفستق المكسّر، والفلفل والزنجبيل والقرفة والآنيسون وجوزة الطيب، يرش الكل بماء الورد الممزوج بالمسك. ويوضع فوق الحملان، وبينها عشرون فروجاً؛ ومثلها من الفراخ وخمسون عصفوراً صغيراً، بعضها محشو وبعضها الآخر مقلي بعصير الليمون، ويغطى الجميع بمعجنات صغيرة من اللحم ومعها صحون صغيرة من الحلويات تضاف إليها أجبان مقلية، وحينما يأخذ المجموع شكل القبّة يصب عليه زيت الورد. ويغطى بالقسم الآخر من العجين ثم يوضع الطبق بالفرن».

صحيح أن هذا كان طبق الملك أو أحد أصحاب المناصب الرفيعة، أما العامّة في القاهرة كالإسكافي والشويعر فحسب أحدهم سيخ من الشحم مع ماء السبيل؛ مما هو مبذول في الأسواق أو يبسطه أمام الجامع واحد من الخمسة عشر ألفاً من الطباخين المتجولين الذين كانوا ينادون بمزايا أطعمتهم غير ناسين أن يتبادلوا الكلمات القارصة أخوياً فيما بينهم.

وبما أن للأرقام أحياناً مذاقاً خاصاً فلنذكر بعض الثروات المشهورة في القاهرة. كان الإيراد السنوي لكاتم أسرار المجلس الاستشاري لصلاح الدين، القاضي الفاضل ٦٢٥٫٠٠٠ فرنك ذهباً، فضلاً عن دخله من المعاملات التي كان يجريها تجار الهند والمغرب. وخلف الأمير تورونتاي ــ الذي ما تزال قبته تستحوذ الاعجاب حتى الآن ــ لورثته /١٠٠٠٠/ من سبائك الفضة وقطعها.

ونهب العسكر قصر أحد الأمراء خلال إحدى الفتن، فبلغت حصيلة النهب بين

أيدي سكان القاهرة مبلغاً من الضخامة بحيث هبط سعر الذهب في لحظة بنسبة خمسين بالمائة.

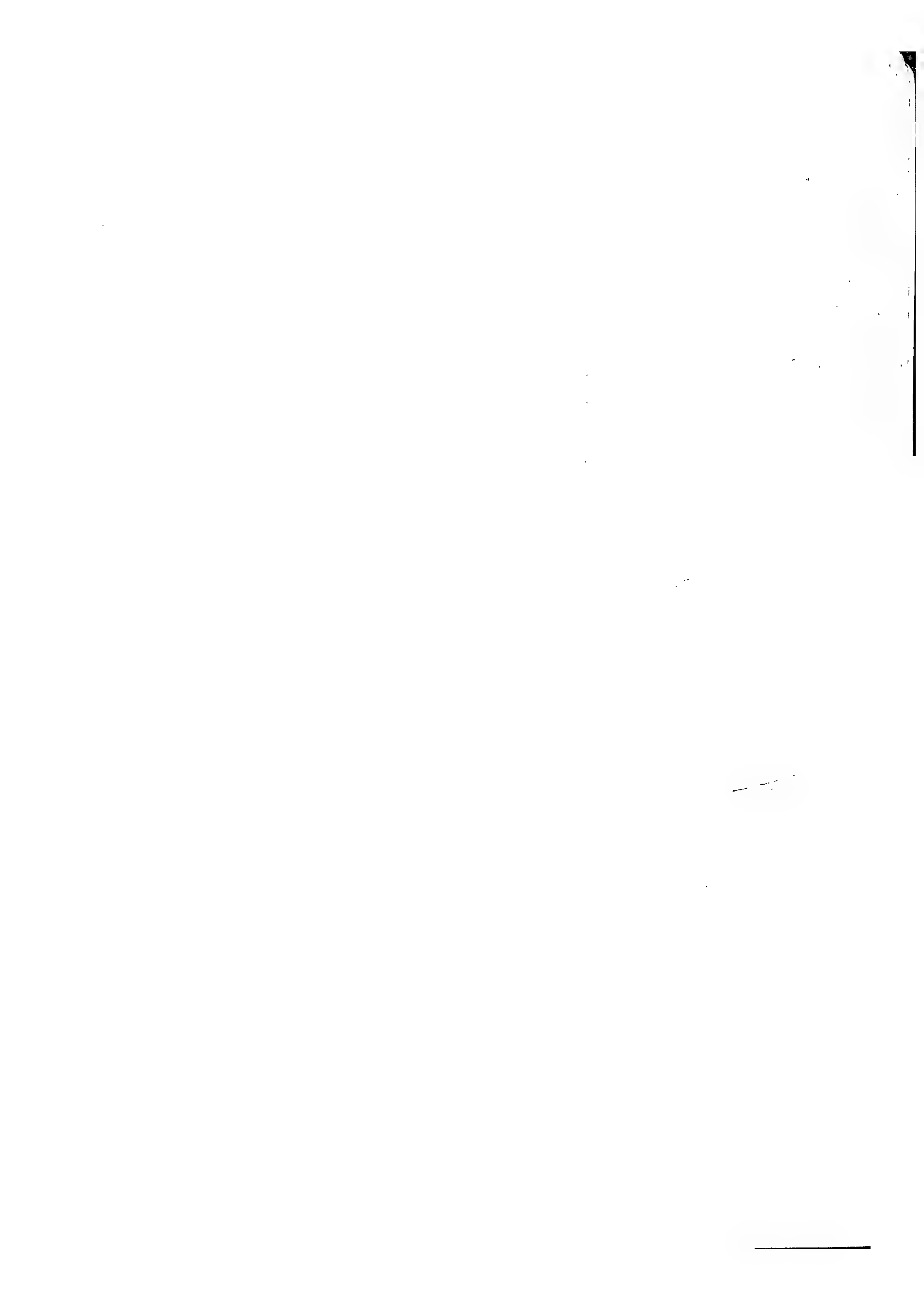
الازدهار التجاري لمصر والمبادلات الاقتصادية مع الفرنجة

وافتتح ملك صلاح الدين في القاهرة عهداً من الازدهار التجاري؛ ولم يتردد الصليبيون أنفسهم في إقامة علاقات اقتصادية هامة مع عدو عقيدتهم.

وكما كتب صلاح الدين عام ١١٨٣، «كان أهالي جنوة وبيزة والبندقية يجلبون إلى مصر منتجات مختارة من الغرب، وخاصة الأسلحة والمعدات الحربية، وهذا ما يشكّل فائدة للإسلام وخسارة للنصرانية». ونرى من هذه الوثيقة أن حالة الحرب بين المسلمين ودول الفرنجة، لم تكن لتعوق العلاقات التجارية، رغم انتقادات بغداد من جهة، ومقررات المجامع الكنسية من جهة ثانية، ومع صراحة النص لمقررات تلك المجامع: «كل من يتجاسر ويبيع المسلمين أسلحة أو حديداً أو أخشاباً للبناء البحري أو مراكب جاهزة أو يدخل في خدمة المسلمين بصفة قائد مركب أو نوتيّ يعّرض نفسه للحرم، وهو عقاب يستوجب لمرتكبه مصادرة أمواله وفقدان حريته الشخصية». وصحيح أن البابا منع أي اتفاق مع صلاح الدين، لكنه أمام مدّ الاحتجاجات التي تعالت هنا وهناك اضطر إلى إعطاء تنازلات، مكتفياً بمنع بيع المواد التي يمكن أن تخدم مباشرة قوّة مصر العسكرية. وكان الصليبيون بتوسيعهم علاقات أوربة التجارية مع مصر يحصلون على فائدة كبرى للحرب المقدسة ضد المسلمين. فمنذ النصف الأول من القرن الثاني عشر أخذت الأغاني الشعبية تصف أعاجيب أرض الإسلام، ودخلت أوربة في مدرسة الحضارة الشرقية، وتطور الإنتاج فيها؛.. ففي الشرق تعلّم أجدادنا نسج الأقمشة الفخمة التي كوّنت شطراً كبيراً من ثروة البندقية، وبعد ذلك جلب إلينا في جزء من فرنسا المشرقية فن صناعة الساتان والمخمل والأقمشة المقصبة بالذهب أو الفضة أو الأقمشة الخفيفة مثل الموسلين (الموصلّي) والخزّ والصندل والتافتا. ومنذ القدم كان الشرق يمتاز بإنتاج فاخر السجاد، وحاول الصناع الأوربيون تمثُّل هذه المهارة.

وإذا كانت البندقية لم تلبث أن شهدت سكب الزجاج وصناعة المرايا فقد انتهى إليها ذلك بفضل معرفتها التقنيات المستعملة في أسواق الشرق الأدنى.

وأخذ الغرب كذلك عن الحرفيين السوريين فن صناعة الورق، وحتى معرفة فن الطهو وإعداد الشراب. وكان لهذا الدخول السلمي نتائج ذات آثار باقية في التجارة والصناعة الناشئة حديثاً في أوربا: صناعة الجوخ المتطورة، وتعليم أوربا صناعة الألبسة، والصناعات المترفة التي استقرت وتطورت في الغرب، وصار الإنتاج يتنوع، والتقنية تتكامل. وفي الحقيقة.. كانت ثورة اقتصادية تقلب مجتمعاً كاملاً وقارّة كاملة.



حواشي الفصل السادس

١ ــ قراقوش، بهاء الدين أبو سعيد:

(قراقوش بالتركية: العقاب، أو النسر الأسود). (ت ١٢٠١)، نشأ في خدمة صلاح الدين الأيوبي، وناب عنه في بعض الأحيان، وخاض معه المعارك، بنى سور القاهرة وقلعة الجبل وقناطر الجيزة. ولي عكا بعد أن أخذها صلاح الدين من الإفرنج. فعادوا واستولوا عليها، فأسروه، فافتداه صلاح الدين بعشرة آلاف دينار. توفي بالقاهرة. ينسب إليه العامة أحكاماً متعسفة عجيبة، هي محل شك، لما كان عليه من ثقة صلاح الدين به. ألف ابن مماتي كتاباً جمع فيه بعض نوادر العامة عن ظلمه، وأسماه «الفاشوش»، يعتبره بعضهم مجرد تنفيس العامة عن شعورهم بظلم المماليك، فاتخذوا قراقوش المشهور بحزمه شخصية يعزون إليها كل حكم جائر. (الموسوعة الميسرة ص ١٣٧٣).

٢، ٣ ــ الزيادة ما ضمن القوس، لرفع اللبس بين الخليفة العاضد وصلاح الدين.

٤ ــ لقد وصف مؤرخو الفرنجة اللقاء التاريخي الذي جرى بين الخليفة الفاطمي العاضد وبين رسولي ملك المقدس أموري وقد كتب ستانلي لين بول عن هذا اللقاء:
«اختير هيو حاكم قيصرية وجوفري فارس المعبد رسولين من الملك أموري، وقد سار بهم الوزير بنفسه (شاور) وجعل يقتحم بهم كل رسوم الأوضاع السرية. فسار بهم في ممرات خفية وأبواب عليها حراس من أقوياء السودان، وكانوا يحيونهم بسيوفهم المجردة، حتى بلغوا صحناً فسيحاً لا سقف له إلا السماء وحوله أقبية قائمة على عمد من الرخام، وكان السقف المزخرف مرصعاً بالذهب مزيناً ببديع الألوان، وأما الأرض فكانت من الفسيفساء البديعة، وقد أخذت تلك المناظر بعيون الفارسين اللذين لم يعتد نظرهما أن يقع على مثل هذا الجمال، فكانا يريان هنا فوارة من الرخام تحيط بها الطيور الزاهية التي لا نظير لها ببلاد الغرب، ثم يريان هناك أنواعاً من الحيوان لا مثيل لها إلا أن يصور ألوانها مصور بارع، أو يخترع صورتها شاعر ماهر، أو يحلم بها حالم في عالم الخيال. وهكذا كانا يريان أشياء لا يريان مثلها في بلادهما إذ هي مما لا يوجد إلا في بلاد الشرق والجنوب.

وبعد سير طويل في تعاريج وتلافيف وصلا إلى مكان العرش، فأعلن قدومهما عدد عظيم من الحشم

يلبسون حللاً بهية ، ثم تقدم الوزير خالعاً سيفه وقبل الأرض ثلاث مرات كأنما يسجد لله ، ثم أعقب ذلك أن انكشفت الستائر الثقيلة فجأة وهي تلمع بما عليها من ذهب ولؤلؤ ، ولاح من خلفهما الخليفة وعليه حلل وزينة تزري بما يتحلى به الملوك . فقدم إليه الوزير بخشوع الرسولين الفارسين ، وبيّن بصوت منخفض ما كانت عليه البلاد من خطر ، وما كان من شأن صداقة ملك بيت المقدس له . وكان الخليفة شاباً أسمر اللون قد خطا الخطوات الأولى خارجاً من عهد الصبا ، فقال إنه يرغب أن يوافق على معاهدة صديقه العزيز ملك بيت المقدس ، ولكنه تردد في أن يمدّ يده عندما طلب الرسول منه أن يمدّ يده دليلاً على صدق عهده ، وقد غضبت حاشيته من ذلك الطلب ، غير أن الخليفة مد يده بعد قليل إلى السير هيو ، ولكن هذا وجد عليها قفازاً فقال : « مولاي إن الحق لا غطاء له ، وإن كل شيء مكشوف في عهود الأمراء » فتبسم الخليفة برغمه وخلع قفازه كارهاً ، ثم مد يده إلى هيو وحلف اليمين على انفاذ المعاهدة بصدق وإخلاص » (ستانلي لين بول — نقلاً عن كتاب قدري قلعجي صلاح الدين الأيوبي ص ١٧٢ — ١٧٣) .

٥ — جاء في كتاب المسالك والممالك لابن خرداذبة . عن ازدهار تجارة مصر ومسلك التجار اليهود الراذانيّة ، قوله :

مسلك التجار اليهود الراذانيّة

« الذين يتكلمون بالعربية والفارسية والرومية والإفرنجية والأندلسية والصقلبية ، وإنهم يسافرون من المشرق إلى المغرب ومن المغرب إلى المشرق برّاً وبحراً يجلبون من المغرب الخدم والجواري والغلمان والديباج وجلود الخزّ والفراء والسمّور والسيوف ، ويركبون من فيخة في البحر الغربي فيخرجون بالفرما ويحملون تجارتهم على الظهر إلى القلزم (البحر الأحمر) وبينهما خمسة وعشرون فرسخاً ، ثم يركبون البحر الشرقي من القلزم إلى الجار وجدّة ثم يمضون إلى السند والهند ، الصين فيحملون من الصين المسك والعود والكافور والدراصيني وغير ذلك فيما يحمل من تلك النواحي حتى يرجعوا إلى القلزم » (ابن خرداذبة : المسالك والممالك ص ١٥٣ — ١٥٤) .

الفصـــل الســـابـع

نور الدين ضد صلاح الدين

قلق نور الدين من نشاط صلاح الدين

أخذ السلطان نور الدين يقلق لنشاط صلاح الدين ونجاحاته الشخصية. وطفق السعاة يدخلون في روعه أن صلاح الدين يتحين الفرصة المؤاتية ليتحرر من وصايته عليه، فقرر وضعه تحت رقابة الأمراء المستائين الذين كانوا يتملقون سلطان مصر؛ وطلب منهم أن يزودوه بتقارير عن سياسة صلاح الدين، وعامله صراحة في رسائله الرسمية كما لو يعامل الخادم البارز.. مما يعني في نظر صلاح الدين أنه لم يكن صاحب السلطة، بل مستودع مصالح الإسلام السوري في مصر.

وعليه ــ بهذه الصفة ــ ألّا يتصرف من لدنه، بل يتقيّد بالتوجيهات التي ترده من دمشق. وبحكم المؤكد فإن نور الدين كان يتوق إلى امتلاك مصر وإعادة صلاح الدين إلى مشاغله القديمة غير المؤذية أي المسائل الفقهية. ولكن لديه الآن الكثير من الهموم الشخصية، فالفرنجة ينشطون على أبواب مملكته، ومن الشرق شرع بقايا الأمراء الصغار الصاخبين فيما بين النهرين ينازعونه سلطته ويتخذون طريقهم بجرأة إلى العصيان.

الفرنجة يحلمون بالاستيلاء على مصر

وكان الصليبيون بعد الاستنفار الصاخب في الداروم يبحثون عن منافسات جديدة، وشخص آموري ملك القدس الذي بنى بحفيدة أندرونيك كومين شقيق امبراطور بيزنطية،.. متوجهاً إلى تلك المدينة التي تكلؤها رعاية الله، وبحكم تلك القرابة شخص ملك القدس إلى الامبراطور الذي كان في نظر جميع الشعوب المسيحية لا يبدو وهو على عرشه الذي لا يتناهى إليه إلا كتجلٍّ حيّ للألوهة؛ ساكناً في ثوبه الباهر من الجواهر مثل أيقونة مقدسة. وهو شخصية رهيبة، ملك عشرين أمة، فهو تجسيد القيصرية التقليدية، ملك الأرض بعد الله، متسلط، سيد مطلق، لا يدنو منه أعظم الناس إلّا مطأطئين، سيّد المعتقدات، المطلق المانح، المطلق للثماني عشرة سلطة استشارية للإمبراطورية.

كان مانويل كومين ما يزال حاكماً مخلفاً وراءه ماضياً مثقلاً بالخيانات والانتصارات والهزائم، موزعاً وقته بين توضيح العقيدة الجديدة التي يشتم منها تأثير عقيدة محمد، وساعات التعهّر مع ابنته تيودورا، رامياً بالحِرْم كلَّ من جرؤ على انتقاد سلوكه، مضطهداً رجال الكنيسة البارزين الذين كانوا يجبهونه بخطاياه. واستقبل ملك القدس وفق العادة التقليدية لأسلافه. هذا وقد روى لنا غيّوم الصوري بالتفصيل المهرجانات التي جرت على شرف آموري، والمراسم الفخمة للحفاوة التي استقبل بها.

ومع ذلك، وفي خضم هذه الحفلات الراقصة لم ينس آموري البتة هدف رحلته، فقد تحدث إلى الامبراطور عن ضرورة شن حرب لا رحمة فيها على صلاح الدين الذي أخذت قوته المتعاظمة تقلق الفرنجة، وذكّره بأن الرّب قدر أن يحارب ويدّمر إلحاد الأمم بيد أباطرة بيزنطية، لكي يتحد بالإيمان أولئك المختلفون بالعرق. وعرض عليه مطوّلاً وضع الممالك الفرنجية البائسة في سورية، المهددة بالدمار بسبب ما شجر من خلاف بين البارونات والمنظمات الإكليريكية الكبرى والملك، والمهددة بقيام كتلة إسلامية ضخمة ممتدة من الفرات إلى ليبيا، موحدة سياسيّاً ودينياً.

وأدرك ملك القدس بوضوح أن الوحدة الإسلامية ستعود على أنقاض الفرنجة، واقترح على مانويل كومين طرد صلاح الدين من مصر وإقامة دولة فرنجية فيها يشاطره إياها، ولم يكن

آموري بحاجة إلى إظهار فصاحة غير عادية لإقناع حميّه بآرائه؛ لأن مانويل كومين الوفي لتقاليد الدبلوماسية البيزنطية كان يعتبر الاستيلاء على وادي النيل ليس مجزياً بما تدره من موارد فحسب، بل لأن ذلك سيتيح لنصرانية المشرق أن تمدَّ الطرف أبعد قليلاً من حدود إقطاعاتها، وتستعيد بالتالي حيوية جديدة، تحفزها جاذبية الكنوز المكدسة في أسواق القاهرة، ولم يستطع إلا أن يتبنى منطق نسيبه ملك القدس سياسياً واقتصادياً، فوعده بدعمه.

نور الدين يستولي على قلعة الشوبك (مونتريال)

وبينما كان آموري يتباحث مع امبراطور بيزنطية، ويفكّر في حملاته المقبلة، طفق نور الدين يستولي على قلعة الشوبك قرب البحر الميت في قلب هذه الأرض (عبر الأردن) التي استصلحها بصبر وجلد المؤسسون الأوائل لمملكة القدس. كانت تلك خسارة مؤثرة لدى فرنجة شرق الأردن، لأن موارد هذه الإمارة المترفة حققت لهم دُخولاً (جمع دخل) لها شأنها اقتصادياً. فعلى هذا الشريط من هضاب موآب، كان يغرس شجر العنب والزيتون، وتزرع الحبوب وتعمر حقول قصب السكّر. وكان هذا السكر يصدر إلى بعيد. ففي جزيرة قبرص كان التجار يبيعون سكراً ناعماً يدعى سكر قلعة الشوبك. واشتهرت تلك القلعة الهامة ذات السور الثلاثي بمناعتها وبأنها لا تقهر. وقد بناها بلدوين لضبط حركة الطريق الشرقية لمملكة القدس؛ ولممارسة رقابة جمركية على القوافل المتنقلة على الدرب الكبير المسمّى درب الحج، ولحماية السكان المزارعين من غارات الأعراب النهّابين، لأن عمل المزارعين كان يُثري المستعمرة الفرنجية عبر الأردن.

الصراع الخفي بين نور الدين وصلاح الدين

وبعد أن استقر نورُ الدين في الشوبك طلب إلى صلاح الدين أن ينضم إليه قائلاً له: لقد بات ضرورياً إزالة هذه القطعة المتقدمة من مملكة القدس، تلك القطعة العدوانية بقلاعها المنيعة المتسلسلة على امتداد ثلاثمائة كيلومتر، ولاشك في أنه صاغ مشروع التخلص من أرض عبر الأردن هذه بمساعدة قوات حاكم القاهرة المصرية. فأخذ صلاح الدين الطريق، لكن هل تراه اطلع على نوايا نور الدين؟ لا نعرف ذلك، بيد أنه كان عالماً بخيبة الأمراء السوريين، وكم هم ينفسون عليه تألق نجمه، بل كم هم مستعدون لخذلانه، لذا وخشية أن يعتقل ويجرد

من ملك مصر، ولكونه خاصة غير راغب في فتح طريق وادي النيل أمام أصدقائه المريبين في دمشق، فقد غيّر رأيه وهو في الطريق، وانقلب عائداً إلى القاهرة، متذرّعاً بأنه علم فجأة بوجود مؤامرة كانت تدّبر في العاصمة، ضدّ أمن الدولة.

واستاء نور الدين من تصرف صلاح الدين ووعد بجلب رأسه في كيس، وأقسم أن يشخص بنفسه على رأس قواته السورية لمباغتة العاصي.

صلاح الدين يتجنب الصراع الأخوي مع نور الدين

وحدثت ضجة في القاهرة، فأنصار صلاح الدين منهمكون في العمل، على حين اجتمع مناوئوه، واتخذوا كل التدابير لاستقبال نور الدين، وتحدث بعضهم عن مقاومة هذا الأخير بالسلاح، وأحصوا عدد قادة الحامية الموثوق بولائهم. ويذهب مؤرخ سيرة صلاح الدين الذي كان يشغل عنده وظيفة كاتم سره إلى أن سيد مصر كان الوحيد الذي لم يخطر بباله هذا العمل؛ وقد أجاب من كانوا يودون المقاومة والقتال: علينا ألّا نفكر في هذه الأمور. قال مؤرخون آخرون: إن وزراءه نصحوه بعدم اقتراف مالا يمكن إصلاحه؛ لأن نور الدين حسب رأيهم صاحب مصر الحقيقي. وأن له عليه أيادي بيضاء، وأنهم إذا ما خيروا بين صلاح الدين ونور الدين فلن يترددوا، وبادره أحدهم بالقول: «بم تفكر» حينما تسألنا عن موقفنا؟ ألا تعلم أنّ نور الدين حائز ثقة الخليفة؟ وأنه إذا ما علم بعزمنا الدفاع عن قضيتك حرباً، فهو من جهته قادر على السعي فوراً إلى محالفة الفرنجة ــ لعنهم الله! ــ والتخلي عن كل حرب ليُهرع إلى مصر ليجد فيها فوق كل ذلك كثيراً من التفهم في صفوف الجيش، والإدارة، وحتى في محيطك ذاته؟ أنصح لك أن تتصرف كما يلي: دفعاً لغضب نور الدين توجه إليه برسالة قل له فيها: «لقد ترامى إليّ أنك قادم إلى هنا لتنتزع مصر منّي، ما الحاجة إلى كل ذلك؟ ليرسل إليّ مولاي أحد ضباطه بدلاً من ذلك ليقودني إليه والحبل في عنقي. ولن يجد مني أيّة ممانعة»[1]. وهذا هو النص المنقول حرفياً عن المؤرخ العربي ابن الأثير من كتابه تاريخ الأتابكة. ويبدو أن هذا الناصح قد أقنع صلاح الدين بعدم الجدوى من صراع أخوي لن يكون فيه إلى جانبه لا الرأي العام غير المهتم بهذه المنازعات على السلطة، ولا جنده الذين يوالون من يدفع أكثر، ولا وزراؤه الحذرون المستعدون للتخلي عنه.

صلاح الدين يعزز موقفه ويسند لأخيه فتح برقة والنوبة واليمن

لقد كان وحيداً، ولم يحن الأوان ليتخذ موقفاً حاسماً؛ وكان أذكى من أن يعتقد بأن وضعه في القاهرة مكين وطيد، ومع ذلك أراد أن يظهر أنه ما يزال السيّد المطاع، فتخلص من امرائه المريبين الذين كانوا يزجون أوقات فراغهم في حبك المؤامرات وتدبير الفتن ضده، فأرسلهم إلى أعمال بعيدة يصابون فيها بالحميّات. وأسند لابن أخيه قيادة عدد من السوريين وأرسله ليحتل برقة، وليكتشف قسماً من ساحل المتوسط، كما أوكل إليه مهمة أخرى هي فتح النوبة الغنية بالخيول. فأصاب هذا الأخير مجداً واحتل عنوة الأماكن الكبرى، وفرض الجزية، واجتاز البحر الأحمر إلى اليمن حيث أسس سلالة أيوبية.

وفاة نور الدين المفاجئة واعتلاء الملك الصالح عرش مصر

ولكن أيام صلاح الدين غدت كما تتراءى للمتأمل معدودة، إذ استقدم نور الدين قوات مهمة من مابين النهرين إلى الشوبك، ولأنه — دفعاً لتأجيل مقابلة صلاح الدين — أسرع بالتوجه نحو القاهرة ذات الكنوز الاسطورية، لكن، وفيما هو يتأهب لاجتياز حدود امبراطورية الفراعنة القديمة وافاه أجله يوم الأربعاء ١٥ مايو (أيار) ١١٧٣ بسبب ألم تَفِه بالحنجرة. واعتلى عرش دمشق الملك الصالح إسماعيل بن نور الدين.

سيرة نور الدين الكفاحية

ليس من نافلة القول أن نقف هنا عند شخصية نور الدين[٢]، الذي كان جندياً عظيماً، وبناءً كبيراً، وقاهر الفرنجة في مائة معركة، وأستشهِدُ أولاً بمؤرخ عربي شهير هو ابن الأثير الذي كتب ما يلي: «لقد درست جيداً سِيَر ملوكِ الزمن القديم، ولكنني منذ الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز لم أجد واحداً في حياته أنقى، وحبه للعدل أشدّ. مسلم تقيّ ومؤمن إيماناً عميقاً بعظمة الرسالة النبوية وحقيقتها. وقد بذل قصارى جهده لكي يتبع اتباعاً دقيقاً في كل الحالات — في حياته الخاصة وفي ممارسة السلطات العامة — أحكام القرآن والسنّة في سلوك المؤمنين، كان يخصص غنائم الحرب لإقامة المؤسسات الخيرية، وللقيام بأعمال الصالح العام.

لقد دعم تحصينات جميع المدن السورية: دمشق، حمص، حماة، حلب، بعلبك، وفي كل مكان ارتفعت في عهده المساجد والمدارس والخانات وكان العلماء موضع عنايته واهتماماته وتضحياته. ولم يكن لمجاهيده من هدف سوى طرد الفرنجة من سورية وفلسطين وحاول أن يؤدِّي بأمانة هذه الرسالة»[٣]. هذا هو نور الدين أصغر أولاد زنكي، وأشهر أمراء العصر السلجوقي المجيد الذي لقّبه الفرنجة بالسفّاح، لقد أظهر منذ خطواته الأولى في الحياة العامة، أنه لم يَنْسَ دروس والده الذي علمه كيف يحكم الناس، ويبغض الفرنجة، ذلك اليافع الذي انغمر في الحياة العامة منذ طراوة عوده. ترك أخاه الأكبر يحكم بهدوء أرض أبيه ـــ الموصل ـــ مفضلاً الإقامة في حلب لكي يكون أقرب إلى حدود أعداء دينه. لقد كان ـــ حسب شهادة معاصريه ـــ مدبراً مدهشاً لبيت المال فنظر بريبة في الثروات الفاحشة للأمراء المتحلين بالماس، وللموظفين الشديدي الطاعة. جهز دمشق بدار العدل التي ما انفك الحكام العثمانيون يستخدمونها حتى القرن الماضي، وبالبيمارستان. وجد تجديداً كاملاً جامع حلب من ماله الخاص، وهو أوّل من أنشأ في سورية المحكمة العليا التي أصبحت محكمة استئناف حقيقية لأحكام قضاة الدرجة الأولى، تُبرم فيها نهائياً جميع القضايا دون أن يكون على القضاة مراعاة مركز المتقاضين أو صفتهم، وكان أحياناً يحضر المحكمة لعقد الجلسات. واضعاً ثقل سلطته الشرعية بخدمة العدالة متنزهاً عن الانتفاع أو جنوح التحيز؛ أمر بأن توضع غنائم الحرب كلها في خزائن بيت المال بدلاً من أن توزّع ـــ كسالف العادة ـــ على القادة والأمراء الذين كانوا على الدوام يمنحون أنفسهم نوعاً من الحق الإلهي، كان لا ينفك يكرر القول على مسامع مستمعيه المذهولين بأنه لم يكن المحاسب لأموال المسلمين، وليس من حقه أن يستعملها إلّا في مصالحهم. ولم تكن هذه اللغة دارجة في بلاط الأمراء البارزين المتأثرين بمثل هذا الزهد الأخلاقي، ولكن غير الراغبين في الاقتداء به. لم يَسْعَ إلى الثروة ولا إلى الأبهة؛ فعاش عيشة متواضعة مجتهداً ألّا يكون مبذراً ولا مقتراً، وقد وضع قاعدة غريبة في ذلك العصر، فكان أول من استعمل حمام الزاجل لكي يتلقى بريده بأسرع ما يستطاع، ولكي يبلغ قادته أوامره في المعركة، ولمفاجأة تحركات العدو. وبفضل هذا التجديد، كثيراً ما فاجأ الفرنجة ومزقهم مفوتاً عليهم الوقت الكافي ليفهموا بأيّ سحرٍ كان على علمٍ بتحركاتهم بهذه السرعة.

ولكن الأمر الذي يبرز نور الدين قبل غيره، كإحدى الصور الأشد تأثيراً بين صور الإسلام هو استماتته في محاربة مستعمرات الفرنجة في سورية، فقد نذر حياته لهذا الكفاح المتجدد باستمرار ضد أعداء دينه.

ولم يكن بغضه فرنجة المشرق بغضاً سياسيّاً، وإنما كان بغضاً بارداً متجدداً، محسوباً، بغضاً دينيّاً حقيقياً. كان شغوفاً بالجهاد، ولا يخطىء غيّوم الصوري الذي يعرف زمانه كل المعرفة عندما يصفه بأنه عدو الفرنجة القاسي. فبالنسبة إليه لم تكن القضية مسألة صراع عرقي، ولا استعادة الأراضي العربية، ولا النزاع على الحدود، بل هي مسألة المصالح الروحية، مصالح الإسلام المقدسة؛ ولإنفاذ هذا الهدف، وبالتالي لفرض سياسته، كان بتصرفه عدة الدعم شبه المضمون، إذ كان له ــ من جهة ــ جيشه الذي لا يشك في إخلاصه، لكونه مؤلفاً من المماليك والعبيد المعتوقين الذين كانت تربطهم بسيدهم روابط قانونية ومعنوية؛ ومن جهة ثانية كان المعمّمون من العلماء والمتصوفة المكلفين بالدعوة الدينية، والذين ما فتئوا ــ وهم في خدمة السلطان ــ يكوّنون لصالحه تياراً جارفاً من الرأي العام. وحين وافته المنية، كان يحوز تأييد السواد الأعظم من المسلمين السوريين للرسالة التي خدمها بكثير من الثبات.

ولكل هذا كان عظيماً ذلك الذي كانت سلطته تمتد «من أعماق النوبة حتى أبواب همذان»، ولذا كان المؤمنون يذكرون اسمه في صلواتهم في مكة والمدينة، وكما كتب رونيه غروسّيه: «لقد أكمل نور الدين عمل أبيه، بما يماثل بعض الشيء إكمال القديس لويس عمل فيليب أوغست، فالسياسي والفاتح يخليان المكان للقديس. وبالتأكيد لم يكن الأمر كذلك، فنور الدين شأنه شأن لويس التاسع لم يتخل عن التقليد العسكري لأجداده، بل العكس صحيح، إذ نذر حياته للجهاد، إنما بجلاء مفاده أن الحرب المقدسة هي كل مبرر وجوده». متفانياً فيها بحماسة الصوفي العنيدة، فهو من هذه الزاوية الملك القديس، إذ كان منذ أصبح سيد سورية المسلمة يحيا في حاضرتيه حلب ودمشق حياةً مدهشةً في بساطتها، حياة تداني أيام الجهاد، حياة زاهدٍ مرهقة بالصوم، متقدة بالصلاة؛ حتى لقد استطاع ذووه أن ينقشوا على قبره بعض مأثور قول أحد الصحابة قبيل وفاته: «مرحباً بك أيها الموت، مرحباً بك أيها الزائر الصديق الذي ينضم إليّ في الفقر وفي الصلاة؛ إلهي أنت تعلم أني خشيتك دائماً. أما

اليوم فإني عظيم الرجاء فيك. لم أحب الدنيا ولا طول العمر في هذه الدنيا لحفر الأقنية وغرس الأشجار، ولكن لأظمأ في لهيب الهاجرة، ولأسمع العلماء في حلقات الذكر».

كان مجده صافياً من أية شائبة، ويعدُّ اليومَ في آداب المسلمين المقدسة من الأولياء الصالحين. فهو مع صلاح الدين الذي يتبوأ إحدى أرفع الدرجات في التسلسل الهرمي لأولياء الإسلام. يزور قبره في دمشق كل سنة آلاف المؤمنين، حيث يرقد بهذه البنية المهيبة التي طالما أحبَّها: المدرسة النوريّة.

وفاجأت وفاة نور الدين صلاح الدين مفاجأة سارّة. لقد كانت سماوية بالنسبة إليه.

القضاء على ثورة الفاطميين

كان على صلاح الدين الآن أن يواجه أزمة داخلية بالغة الخطورة؛ ولا نَنْسَ أنّ الاعتراف باسم خليفة بغداد في صلاة الجمعة مرّ بسلام، وكل ما في الأمر أن سكان العاصمة تذمروا بعض التذمر ولكنهم تأثروا برؤية بعض القوات الكردية التي عرضها صلاح الدين في الأسواق، فآثروا الامتناع عن أية تظاهرة معادية؛ ولكن الريف كان أقل تورية تجاه سلطة بغداد؛ إذ ما انفكت أغلبية المصريين موالية سراً لحكامها القدماء الفاطميين، فابن العاضد كان مايزال حياً، وهو الوريث الشرعي لهذه السلالة، لذا حاول شاعر يمني هو عمارة بن أبي الحسن، يعاونه كاتم سره، وبعض القادة السودانيين السعيدين بالمجازفة بحياتهم، وكذلك بعض خدم العصر الخليفي المجردين من الضمير ومن المكانة، حاول أن يعيد ابن العاضد إلى عرش آبائه، فألف حكومة ثورية كان عليها أن تمسك بزمام السلطة في موعد متفق عليه، وأوفد المتآمرون أحد رؤوسهم لطلب عون الفرنجة مقابل أراضٍ جيدة وأموال طائلة، وأُبرم اتفاق في القدس بين الثائرين المصريين والملك آموري الذي أوفد إلى القاهرة أحد أتباعه مكلفاً في الظاهر أن يُسلّم على صلاح الدين، ولكن حقيقة مهمته هي الاطلاع على مدى تقدم هذه المؤامرة. وعلم صلاح الدين من شرطته بما يبيت ضدّه، فكان القمع بلا رحمة. فأعدم كل الذين كانوا ينتمون من قريب أو بعيد لعائلة العاضد، كما شنق قادة الفتنة، والذين ثبتت عليهم الشبهة. وهرع بعض الأشخاص من ذوي المكانة الذين أقسموا على نهاية صلاح الدين

إلى المساجد لأداء فريضة الصلاة جهراً باسم عباسيي بغداد، متخلين بذلك عن الشاعر اليمني وعن مشاريعه لإعادة الفاطميين. ولكن النظام لم يعد مطلقاً. فالنار التي أخمدت هنا عادت للاشتعال في مكان آخر أشد ضراماً.

ففي ٧ ايلول (سبتمبر) ١١٧٤ أي بعد ستة أشهر من اكتشاف المؤامرة الأولى، قام قائد فاطمي هو كنز الدولة من قبيلة بني الكنز الشديدة البأس، وحشد قوات سوداء في أسوان ووعدها بنهب القاهرة وبرأس صلاح الدين. وعزل حكام مدن مصر العليا، ورأى جيشه يكبر بانضمام المستائين والجنود النظاميين الفارّين من الجيش للاشتراك في نهب أسواق العاصمة، فاجتاح بلاد طيبة مستولياً على كنوزها الشهيرة، ولم يكن صلاح الدين هذه المرة يواجه عصابة مثقفة من العصاة، بل يجابهه قائد بارع لقوات متحمسة متمرسةٍ بالحرب، وكيلا يغادر القاهرة في هذه الساعات الحرجة كلف صلاح الدين أخاه أن يعيد سلطته إلى الريف المتفجّر، فقام هذا الأخير يصحبه بعض الأمراء الذين استخلصهم صلاح الدين لنفسه بالهبات والحظوات، وبالثروات التي أغدقها عليهم، والمناصب المجزية مالياً التي أسندها إليهم. لقد اختارهم عن عمد من بين الذين تذوقوا رغد العيش في القاهرة فصاروا يفضلون الموت على أن يحرمهم منها زعيم قبيلة وسودانه؛ ونجح مماليك أخيه في مباغتة الثائرين فأسر القائد الفاطمي وأرسل رأسه إلى القاهرة. وصلب ثلاثة آلاف من رجاله حيث دعي جميع سكان عروس النيل لمشاهدة هذا المشهد الدامي.

لكن فشل هذه المؤامرات يجب ألّا يجعلنا نتجاهل أهميتها؛ لقد هز الثائرون البلاد هزاً، واستنجدوا بالفرنجة الذين تعودوا منذ زمن بعيد هذه اللعبة، وكتبوا إلى زعيم هذه الفئة السورية المدهشة فئة الحشاشين سنان المشهور شارحين له أن العقيدة الفاطمية تماثل عقيدته ولا خلاف بينهما إلّا على نقاط لا تشكل بدعة ولا تمنعه من نجدتهم؛ وطلبوا منه أن يعيّن فدائياً لقتل صلاح الدين غيلة، أو ينصب له فخاخاً وكمائن. وكان صلاح الدين سيكرّس نفسه لأعمال عظيمة. كان موت نور الدين يطمئنه من جهة دمشق، فخليفة بغداد المتقلب بعض الشيء لم يكن يريد — بعد أن شجع نور الدين ضد صلاح الدين — أن يعقّد الأمور، وأخذ يتكيّف مع الوضع الجديد؛ فقد أعيد الأمن إلى نصابه في مصر بإعدام المتآمرين، وانتهى

الفاطميون بتصفية آخر فرد من سلالتهم. وأخذ وضع صلاح الدين يترسّخ، وبات في مستطاعه أن يفكر غير قلق في المستقبل الزاهي الموعود لسلالته.

صلاح الدين والتنظيم الإداري في مصر

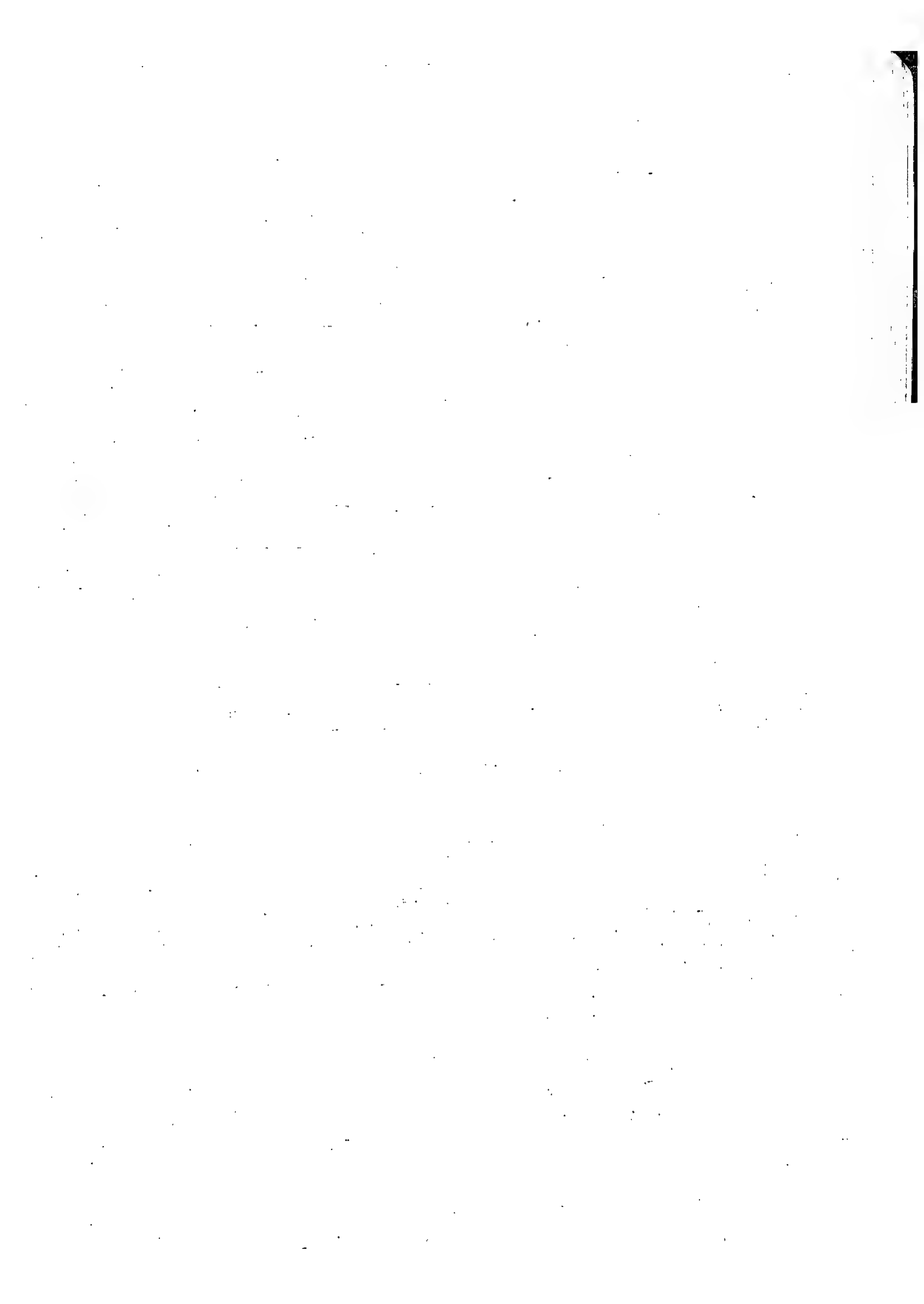
وحين استتب الهدوء في القاهرة وعاد الأمن لنصابه، انصب اهتمام صلاح الدين لإعادة التنظيم الإداري إلى مصر، وعرفت البلاد حينذاك حقبة من النهضة الاقتصادية والروحية، إذ كان يتخرج من جامعة الأزهر أعداد غفيرة: شعراء ونحويون وأطباء، وازدهرت الحياة الدينية إذ أسس صلاح الدين مدارس للمذاهب الإسلامية الأربعة الكبرى. يدرس في أبنيتها الشامخة الفقه، وعِلما الشرع والتصوف مما تتيح تعاليمها الزهدية الصارمة لمريديه الذين ينظرون إلى الحياة كخطيئة مالم يستغرقوا كليّة في تأمل آلاء الله.

الوزير الفاضل الأنا الآخر لصلاح الدين

وأحاط صلاح الدين نفسه بمستشارين أذكياء نشيطين قادرين على تنفيذ إصلاحاته المتعلقة بالإدارتين المدنية والعسكرية، ومن أبرزهم وزيره الفاضل[٤] المولود في عسقلان الذي لعب دوراً متميزاً في الإدارة الأيوبية بمصر. وبعد أن اشتهر بأناقة تقاريره وإيجازها، عين في القاهرة حيث تولى رئاسة ديوان الجيش، وحينما تربع صلاح الدين دست السلطة أصبح الفاضل الأنا الآخر لصلاح الدين، فأعاد تنظيم الشؤون المالية والأسطول والجيش. وحرّر جريدة رسمية (المتجددة) وهي لا تتضمن الملاحظات الثمينة عن إصلاحاته فحسب، بل كذلك الأحداث الهامة الجارية في مصر خلال حكم صلاح الدين. «فكان ــ كما يكتب المأمونيّ ــ يعيش في القاهرة عهد ذاك رجل جم النشاط يصعب تصور نظير له. كان يستطيع في جلسة واحدة أن يكتب بآن معاً رسالة ويملي رسالتين أخريين» كانت شهرته خارج مصر مثلما هي فيها. فقد صبَّ جُلَّ اهتمامه طوال حياته لأن يبسط يديه بالخيرات التي آتاه الله إياها، ففتح خزائن ثروته لإغاثة الملهوفين، وتعليم الأيتام، وزيادة عدد العلماء، لقد كان موضع ثقة صلاح الدين الذي قدم له مكتبة الخلفاء الفاطميين الشهيرة لما يعهده فيه من شغف بالكتب النادرة.

الحكم المستنير

وهكذا عرفت مصر في ظل الحكم المستنير لمؤسس السلالة الأيوبية عصر اشعاع متوهّج ثقافياً ودينياً. وساعد إرساء قواعد السلم أعمالَ العلماء، وتطورت الفنون تطوراً حراً، وحمل استئناف الأعمال التجارية إلى المصريين الغنى، ووفرة المنتجات الواردة من كل حدب وصوب. وحل عهد الازدهار محل سنوات الاضطرابات الاجتماعية والمجاعة، والفوضى، والاضطهاد والمصادرة، التي أفسدت حياة مصر في عهد الخليفة الفاطمي العاجز العاضد.



حواشي الفصل السابع

١ ــ جاء في كتاب الباهر لابن الأثير عن ذكر الوحشة بين نور الدين وصلاح الدين:

«وفي سنة سبع وستين أيضاً، جرى ما أوجب نفرة نور الدين من صلاح الدين. وكان الحادث أن نور الدين أرسل إلى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها إلى بلد الفرنج، والنزول على الكرك ومحاصرته، ليجمع هو أيضاً عساكره ويسير إليه، ويجتمعا هناك على حرب الفرنج والإستيلاء على بلادهم، فبرز صلاح الدين من القاهرة في العشرين من المحرم، وكتب إلى نور الدين يعرفه أن رحيله لا يتأخر، وكان نور الدين قد جمع عساكره وتجهز، وأقام ينتظر ورود الخبر من صلاح الدين برحيله ليرحل هو، فلما أتاه الخبر بذلك، رحل عن دمشق عازماً على قصد الكرك فوصل إليه، وأقام ينتظر وصول صلاح الدين إليه، فأتاه كتابه يعتذر فيه عن الوصول إليه باختلال البلاد، وأنه يخاف عليها مع البعد عنها فعاد إليها، فلم يقبل نور الدين عذره.

وكان سبب تقاعده أن أصحابه وخواصه خوفوه من الاجتماع بنور الدين، فحيث لم يمتثل أمر نور الدين شق ذلك عليه وعظم عنده، وعزم على الدخول إلى مصر وإخراج صلاح الدين عنها، فبلغ الخبر إلى صلاح الدين، فجمع أهله وفيهم والده نجم الدين أيوب وخاله شهاب الدين الحارمي ومعهم سائر الأمراء، وأعلمهم ما بلغه من عزم نور الدين على قصده وأخذ مصر منه، فاستشارهم فلم يجبه أحد منهم بشيء، فقام تقي الدين عمر ــ ابن أخي صلاح الدين ــ وقال: إذا جاءنا قاتلناه وصددناه عن البلاد، ووافقه غيره من أهله. فشتمهم نجم الدين أيوب وأنكر ذلك واستعظمه ــ وكان ذا رأي ومكر وعقل ــ وقال لتقي الدين: أقعد، وسبه، وقال لصلاح الدين: أنا أبوك، وهذا شهاب الدين خالك، أتظن أن في هؤلاء كلهم من يحبك ويريد لك الخير مثلنا، فقال: لا. فقال: والله لو رأيت أنا وهذا خالك نور الدين لم يمكننا إلا أن نترجل له ونقبل الأرض بين يديه، ولو أمرنا أن نضرب عنقك بالسيف لفعلنا، فإذا كنا نحن هكذا، كيف يكون غيرنا، فكل من تراه من الأمراء والعساكر، لو رأى نور الدين وحده، لم يتجاسر على الثبات على سرجه ولا وسعه إلا النزول وتقبيل الأرض بين يديه، وهذه البلاد له وقد أقامك فيها، وإن أراد عزلك فأي حاجة به إلى المجيء، يأمرك بكتاب مع نجاب حتى تقصد خدمته ويولي بلاده من يريد. وقال للجماعة كلهم: قوموا عنا، فنحن مماليك نور الدين وعبيده يفعل بنا ما يريد، فتفرقوا على هذا،

وكتب أكثرهم إلى نور الدين بالخبر. ولما خلا أيوب بابنه صلاح الدين، قال له: أنت جاهل قليل المعرفة، تجمع هذا المجمع الكثير وتطلعهم على ما في نفسك، فإذا سمع نور الدين أنك عازم على منعه عن البلاد، جعلك أهم الأمور إليه وأولاها بالقصد، ولو قصدك لم تر معك أحداً من هذا العسكر، وكانوا أسلموك إليه، وأما الآن بعد هذا المجلس، فسيكتبون إليه ويعرفونه قولي، وتكتب أنت إليه وترسل في هذا المعنى وتقول: «أي حاجة إلى قصدي، يجيء نجاب يأخذني بحبل يضعه في عنقي» فهو إذا سمع هذا عدل عن قصدك، واشتغل بما هو أهم عنده، والأيام تندرج والله كل وقت في شأن. ففعل صلاح الدين ما أشار به والده، فلما رأى نور الدين الأمر هكذا، عدل عن قصده، وكان الأمر كما قال نجم الدين، توفي نور الدين ولم يقصده ولا أزاله، وهذا كان من أحسن الآراء وأجودها.» (ابن الأثير: الباهر ص ١٥٨ ـــ ١٥٩).

٢ ـــ نور الدين محمود الزنكي (١١١٨ ـــ ١١٧٤) من أعظم قادة الإسلام وأبطالهم، تابع مسيرة والده النضالية ضد الوجود الصليبي في بلاد الشام،.. وهو كما يقول كاتبنا شاندور عن ملكه، «بأنه يمكن اعتباره بهذا الشكل أو غيره المقدمة لملك صلاح الدين»...

ويتحدث المستشرق الألماني الشهير كارل بروكلمان في كتابه تاريخ الشعوب الإسلامية بإعجاب بتلك الشخصية المناضلة الفذة، بقوله: «والواقع ان نور الدين ورث عن أبيه صفات الحاكم الفاضل إلى حد بعيد جداً. فبينا كانت الكثرة المطلقة من الحكام الذين تصدروا لسياسة المسلمين، طوال أجيال عدة، يعتبرون، ممالكهم إقطاعات واسعة يستغلونها لمصالحهم الخاصة، كان هو أول من استشعر أنه مسؤول تجاه الله عن رفاهية رعيته. ومن هنا لم ينفق موارد الدولة الغزيرة، التي تمت له بالإدارة البارعة والتي لم تثقل كاهل رعيته على كل حال، على تحصين بلاده وتوطيد مركزه الحربي في عالم زاخر بالأعداء ـــ وهو ما اقتضاه نفقات ضخمة ـــ فحسب، بل أنفقها في المحل الأول على الشؤون الثقافية والمساجد وزوايا الدراويش، وخانات المسافرين، والمستشفيات، ودُور العلم. ولقد أنشأ في دمشق دار الحديث وهي أقدم مدرسة لهذا العلم، والبيمارستان (المستشفى) الذي يحمل اسمه، والذي لم يلبث أن نما وتطور إلى مدرسة طبية راقية. ودفن نور الدين في المدرسة المعروفة باسمه.

وكانت سياسة نور الدين تهدف قبل كل شيء إلى طرد الفرنجة». (كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٣٤٨).

٣ ـــ ومما سجله ابن الأثير في كتاب الباهر عن بعض سيرة الملك العادل نور الدين محمود، قوله:

«قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا، فلم أر فيها بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز، ملكاً أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين، ولا أكثر تحرياً للعدل والإنصاف منه، قد قصر ليله ونهاره على عدل ينشره، وجهاد يتجهز له، ومظلمة يزيلها، وعبادة يقوم بها، وإحسان يوليه، وإنعام يسديه. وقد تقدم من أحواله في مملكته ما يستدل به على ما ذكرنا. ونحن نذكر ههنا ما تعلم به محله في أمر دنياه وأخراه، فلو كان في أمة لافتخرت به، فكيف في بيت واحد». (ابن الأثير: الباهر ص ١٦٣).

وتناول ابن الأثير في كتابه المذكور طائفة من أخبار الملك العادل نور الدين تحدث فيها عن زهده وعلمه وعدله، وكان يعتبر أن الأموال التي بين يديه «هي أموال المسلمين ومرصدة لمصالحهم، ومعدة لفتق إن كان من

عدو الإسلام» (ص ١٦٤)، «وكان عارفاً، بالفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة، ليس عنده فيه تعصب بل الإنصاف سجيته في كل شيء» (ص ١٦٥)، ويتحدث عن عدله فيقول: «فإنه كان من أحسن الملوك سيرة، وأعدلهم حكماً، لم يترك في البلاد التي حكمها ضريبة ولا مكساً ولا عشراً بل أطلقها جميعها. وكان يتحرى العدل وينصف المظلوم من الظالم كائناً من كان، القوي والضعيف عنده في الحق سواء» (١٦٦) وكان هو أول من بنى داراً لكشف المظالم وسماها دار العدل». (ص ١٦٧).

«وأما شجاعته وحسن رأيه فقد كانت النهاية إليه فيهما، فإنه كان أصبر الناس في الحرب وأحسنهم مكيدة ورأياً، وأجودهم معرفة بأمور الأجناد وأحوالهم، وبه كان يضرب المثل في ذلك.

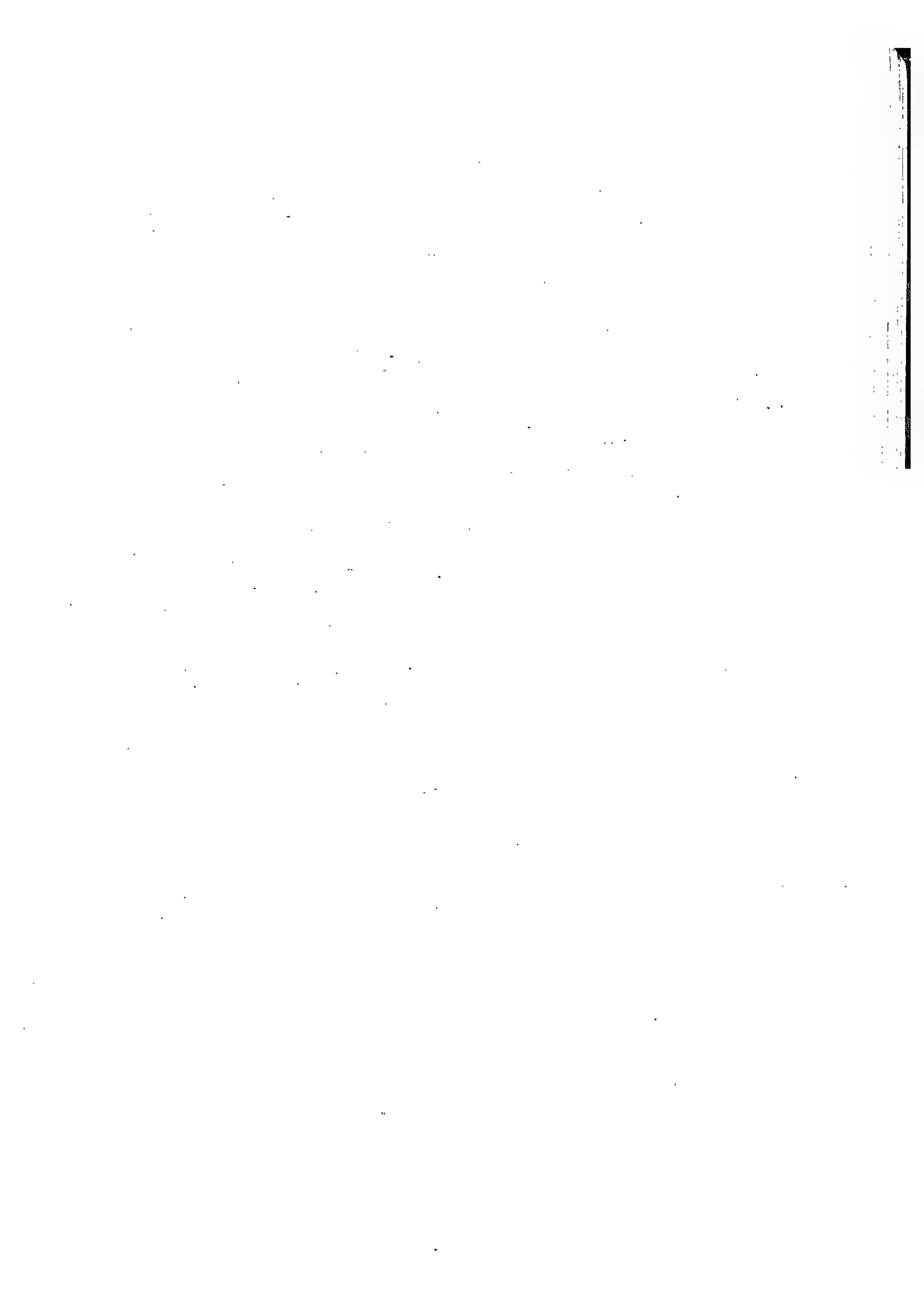
..وكان رحمه الله يكثر إعمال الحيل والمكر والخداع مع الفرنج خذلهم الله تعالى، وأكثر ما ملكه من بلادهم به.» (١٦٨ـــ ١٦٩).

وحين ضربت الزلزلة بلاد الشام عام ٥٦٥ هـ فتهدمت مدنها وخربت أسوارها، «فأخرج من الأموال مالا يقدر قدره»، ولقد باشر بنفسه عمارة مدينة حلب، وأحكم أسوار جميع المدن.. (١٤٥).

وحين اتسعت رقعة بلاده، اتخذ الحمام الهوادي، لتبادل الرسائل بهدف حفظ الثغور» (ص ١٥٩).

٤ ـــ القاضي الفاضل، عبد الرحيم بن علي (١١٣٥ ـــ ١٢٠٠)

كاتب. ولد بعسقلان، ومات بالقاهرة. نشأ ببيسان، ثم حضر إلى القاهرة، والتحق بديوان الإنشاء ثم كتب لابن حديد قاضي الاسكندرية، إلى أن أعجب به الخليفة الحافظ الفاطمي، فاستقدمه إلى ديوانه. اتصل بأسد الدين شيركوه عند مقدمه، ثم صلاح الدين الأيوبي، وترقى عنده حتى صار وزيره ووزير العزيز والمنصور بعده. وكان سريع الخاطر، غزير الإنتاج، تكاد تبلغ مسودات رسائله مائة مجلد. واشتهر بأنه صاحب مذهب في النثر يعتمد على التزام السجع، والإكثار من ألوان البديع، والجناس تامه وناقصه، والاقتباس من القرآن، وتضمين الأشعار، والتلاعب بمصطلحات العلوم. وله شعر يماثل نثره في التكلف والتصنع. (الموسوعة الميسرة ص ١٣٦١).



الفصــل الثـامــن

فتح سورية

آموري ملك القدس يحاصر بانياس

حينما علم آموري بوفاة نور الدين اعتقد أن الفرصة سانحة لمهاجمة المسلمين الذين حُرِموا فجأة أحد أشجع قادتهم.

ففي ربيع ١١٧٤ حاصر بانياس على الطريق الكبرى بين دمشق وصور، وكانت تحمي في القرن الثاني عشر تخوم الجليل الفرنجي، ولم يتمكن من اقتحام مدخل القلعة التي تذود عنها حامية تركية تقودها امرأة كان أحد الأمراء الدمشقيين هو ابن المقدم وضعها فيها. وكان هذا الأخير يعرف ميل آموري إلى المال وتصرّفه خلال المساومات، فأسرع إلى مقر القيادة الفرنجية، واقترح على ملك القدس أن يتخلى عن مشروع اقتحام بانياس، باذلاً له تعويضاً ملوكياً مقابل نفقاته الحربية، زحفاً وعودةً إلى بلاده، وكذلك فك إسار آلاف الفرنجة وتحريرهم من أن يظلوا في أعماق سجون دمشق الباردة.

فاتفق المتناظران، ورفع آموري الحصار عن بانياس وقبض المال بكثير من التهذيب. وبعد أن وقّع هدنة غير مشرّفة مع المسلمين السوريين عاد إلى القدس ليحل فيها مشكلة قائمة

بين سنان شيخ الحشاشين الإسماعليين الذي تحدثنا عن شخصيته المقلقة، والمعلم الأكبر للهيكليين.

الصراع بين الإسماعيلية والهيكليين

ذلك أن الشيخ سنان الذي كان قد زوّد أتباعه المتحمسين بجهاز إرهابيّ مخيف، أخبر آموري أن أتباعه لا يجدون شيئاً أفضل من اعتناقهم النصرانية وارتدادهم عن الإسلام شرط إعفائهم من ضريبة الألفي دينار ذهباً التي كانوا يدفعونها سنوياً لهيكليي طرطوس بموجب معاهدة حسن جوار. وارتاح آموري مطمئناً لمثل هذه القرارات الجيدة المفاجئة وأطلع عليها الهيكليين مقترحاً عليهم إبرام الصفقة على أن يعوضهم من ماله الخاص دخل الألفي دينار، وحين بلغت الأمور هذه النقطة، أخبر آموري سفير الإسماعليين بجوابه الإيجابي للشيخ الطاعن في السن. إلّا أن الهيكليين ــ خاضعين لدوافع غير معروفة ــ عملوا على قتل المبعوث الإسماعيلي مع الضابط الفرنجي المكلف بحمايته. فأثارت هذه الجريمة الشنيعة غضب المسلمين والمسيحيين على حد سواء. ولكوْن الملك قد أهين طلب معاقبة المذنب بالموت شنقاً، ولكن الهيكليين رفضوا تسليمه واعدين بإرساله إلى روما ليحصل على الحلّ من خطيئته، مضيفين إلى ذلك أنهم ليسوا مسؤولين عن سلوك رجال الدين في منظمتهم إلّا أمام الله وتجاه البابا.

انقسام الممالك اللاتينية في الشرق

ولكن آموري صمد جيداً، وشخص إلى صيداء حيث كان يقيم سيّد الهيكل ومجلسه، واستولى على قصر الهيكل عنوة وقيّد غوتييه دي مينيل مقترف الجريمة أو الموحي بها، وبلغ الغليان ذروته، إذ قابل الهيكليون والاسبتاريون وسائر المنظمات البالغة الحرص على ألا تمس امتيازاتها القديمة، وعلى أن يكونوا وحدهم سادة المناطق الخاضعة لقضائهم، قابلوا بالاستياء هذا التصرف السلطوي الملكي. وامتد النزاع بعيداً، فانقسمت الممالك اللاتينية في المشرق مرة أخرى دون أن تهتم بمغبة العواقب الوخيمة لهذا الانقسام غير المناسب. حينذاك سقط آموري في ١١ تموز (يوليو) ١١٧٤ متأثراً بحمّى زحارية انتابته خلال حصار بانياس، مخلفاً وراءه ــ في الواقع ــ وضعاً داخلياً مرتبكاً، إنما يجب الاعتراف بحزمه وبجرأة آرائه فيما يتعلق بالسياسة الخارجية.

سياسة آموري الخارجية في المشرق

لم يكن آموري ينقصه المتفهمون لسياسته في المشرق، فقد سبق لنا أن رأينا كيف شجع فاطميي مصر المعادين لصلاح الدين. وكان اسماعيليو سورية مخلصين له بسبب موقفه في قضية الهيكليين؛ كما وقع في بانياس هدنة مع سلطنة دمشق. وأخيراً أقنع امبراطور بيزنطية بضرورة استعادة مصر وإقامة مملكة فرنجية فيها؛ وعرف كيف يقيم لنفسه نقطة ارتكاز عند المسلمين. صحيح أن اللعبة لم تكن سهلة، ولكن من الممكن جداً أنه لو عاش مدة أطول لوجد فيه صلاح الدين لاعباً قادراً على إفساد نجاحه، وخاصة أن يمنع عليه سورية.

بلدوين الرابع ملكاً للقدس

وارتقى ابن نور الدين اليافع عرش دمشق، ودفعت مقاليد حكم مملكة القدس لبلدوين الرابع ابن آموري من زواجه الأول بأنييس بنة جوسلان دي كورتناي. ومنذ التاسعة من عمره أصيب هذا الصبيّ بالجذام؛ وكان مُلكه التعيس القصير الأمد ــ إذ مات في الرابعة والعشرين من عمره ــ احتضاراً طويلاً، احتضاراً متواصلاً وهو على صهوة جواده يُصارع المسلمين.

لقد كان تجسيداً مثيراً للشفقة وإدارياً جديراً بالعظمة الملكية، التي طالما أسيء استعمالها. فظل هذا الملك الناحل المجذوم طوال حياته عبد واجباته المسيحية في حقبة مأساوية من تاريخ الممالك اللاتينية في سورية. فيالصورته المدهشة! فهذا اللهب الذي كان ينسيه آلام جسده المضنى المسكين، أوحى الثقة إلى محيطه، فكان حقيقةً بطلاً اسطوريّاً. فملك القدس الصغير هذا، هذا الطفل البطولي، الذي كان يفترسه ألمٌ ممض يجعله يتعفن حياً، كان من رسوخ المشيئة ــ وقد عجز عن الثبات على سرج جواده ــ بحيث يتابع راقداً في سريره البائس مراحل المعارك التي ستدور رحاها في مواجهة صلاح الدين. فكان وهو يحتضر مشحوذ الإرادة يقود فرسانه في المعركة منهكاً أعداء دينه، وبراثن الداء ناشبة فيه تنهكه.

الصراع على الوصاية

ومنذ أن اعتلى عرش القدس، اجتمع البارونات ليعينوا له وصياً، فتقدم مرشحان: ميلون دي بلانسي وهو فارس وقح بلا فضيلة، ولا وازع من ضمير، وكونت طرابلس ريمون الثالث الذي يرتقي نسبه مباشرة إلى الكونت دي سان جيل الذي اشتهر إبان الحملة الصليبية الأولى، ووافى الحظ ميلون دي بلانسي فعين وصياً على المملكة، فشحن الجو بالبغضاء فيما حوله لزعمه بأنه سيحمي السلطة الملكية، غير عابىء بامتيازات ذوي الحقوق المكتسبة. فذر على الفور قرن المعارضة ممثلة برأسها كونت طرابلس ريمون الثالث المغضب لاستبعاده من الوصاية؛ وكان هذا الأخير يتمتع بشعبية في صفوف البارونات الفلسطينيين، بل هو أكثرهم نفوذاً لأنه ضمّ إمارة طبرية إلى كونتيته الوراثية طرابلس، وليس هذا فحسب، بل تقدم — أمام مجلس بارونات مختارين من بين أصدقائه — يطعن بذلك القرار الذي أعطى حق الوصاية خصمه. وكانت القضية ما تزال عالقة، حينما ورد نبأ مفاده أن ميلون دي بلانسي وجد في أحد أزقة عكا تخترق جسده الخناجر بعد صلاة العصر، فأسندت الوصاية فوراً لريمون الثالث.

كانت المهمة شاقة، ففي مملكة فلسطين الجميلة هذه، كان البارونات المتهربون والوقحون لا يعبؤون بأوامر الملك، وانصرفوا يشيدون القلاع بهدف حماية إقطاعاتهم من المسلمين، وللاستقلال تجاه السلطة المركزية على حد سواء، ولم يكونوا يقاتلون إلّا توسلاً لتوسيع ممتلكاتهم، ينفسون على أندادهم سلطتهم، ويطمحون إلى الانتقاص منها توسيعاً لدائرة نفوذهم. ترى أين غدت — في خضم خلافاتهم المادية العديدة هذه — مبادىء أجدادهم، وذلك الإيمان المتوهج البالغ النقاء لدى الصليبيين الأوائل الذين كانوا يلفظون راكعين اسم القدس هذه البعيدة التي كانوا يحلمون بها في كل بلاد الغرب، والتي رووا أرضها المقدسة بسخي دمائهم.

والتنظيمات الدينية ذاتها بدلاً من أن تستنكر نشاط البارونات المشؤوم هذا، وتكبَح من جموح مطامعهم في السلطة، وتشهّر بدناءاتهم، كانت هي بالذات قدوة سيئة في تدني القيم المعنوية تدنياً حقيقيّاً. فهؤلاء الاسبتاريون وهؤلاء الهيكليون الذين التحفوا بالأمجاد عهد

حماسة الصليبيات الأولى وغضباتها، والذين برهنوا على تناهي البذل والإخلاص والإيثار غدوا الآن يتأثرون بالوسط المفسد، فانقلبوا مخادعين، أنانيين، مغتصبين. فشرعوا يرفضون دفع ضريبة (عُشر) الغنائم التي تؤخذ من المسلمين، وصاروا من القحة بحيث يجرؤون على معارضة القرارات الكنسية لبطريرك القدس «حتى إنهم — كما يكتب جاك دي فيتري في كتابه تاريخ القدس — دنّسوا الأماكن المقدسة، وارتفعت جلبة أسلحتهم بقعقعتها تُخفت من الأغاني الكهنوتية في كنيسة القيامة؛ فلم يكن يشغل بالهم إلا الثراء، والثراء وحده؛ وتعودوا أن يطالبوا بنصف المدن أو المناطق التي كانت تستمد عَوْنهم». تلك هي حالة مملكة القدس حينما ورثها بلدوين الرابع.

فشل الفرنجة أمام أسوار الاسكندرية

وبينما كان الملك المجذوم والوصيّ يعملان على توطيد النظام في مملكتهما، كان صلاح الدين يتلقى أول هجوم جدّي للفرنجة. ففي ٢٨ تموز (يوليو) ١١٧٤ ظهر أمام الاسكندرية أسطول غيّوم الصقليّ يقل ثلاثين ألف رجل، والوفير من آلات الحرب وعدتها، وكان الأمر كما يقول صلاح الدين «لقد قلق سكان الاسكندرية على مصيرهم، حالما شاهدوا وصول هذا الاسطول البالغ الخطورة والقوي التسليح. وألقى الاسطول بمراسيه قرب المنارة. وخرج فرسان الفرنجة من المراكب يتبعهم المشاة، وما إن وطئت أقدامهم البرّ حتى هاجموا حامية المدينة هجوماً هو من الشراسة بمكان، ودفعوهم حتى أسفل أسوارها. وبعدها عبرت مراكبهم بالمجاذيف إلى المرفأ. وأحرقت بعض سفن المسلمين التجارية، واستمرت المعركة محتدمة حتى المساء. وفي صباح اليوم التالي شدّد الفرنجة الحصار على الاسكندرية ورجموها بالقذائف، وحاولوا ثلاث مرات اقتحام أبوابها لكنهم ردّوا على أعقابهم.. وانتقموا من شجاعة جنودنا بذبح الأسرى وإحراق الحقول المجاورة. وكان رجالنا — بدورهم — يذبحون الفرنجة الذين يقعون في أيديهم ويمثّلون بجثثهم».

هذا وقد أنقذ الميناء المصري الكبير من السقوط بفضل النجدة السريعة التي استدعاها صلاح الدين؛ فما إن شاهد غيّوم الصقليّ طلائع قوات صلاح الدين حتى أصدر أوامره إلى جيشه بالعودة إلى مراكبه، وبعد بضعة أيام كانوا يقلعون شمالاً.

الانقسامات الداخلية في الدولة الزنكية

أما في دمشق فكانت الفوضى مماثلة لتلك السائدة في القدس وللأسباب ذاتها، إذ كانت تثار حول ابن نور الدين ـ الذي ورث سلطنة أبيه وهو دون الحادية عشرة ـ المنازعات بين أقاربه وأمرائه ومستشاريه الذين شرعوا يكتمون أنفاس المزعجين من غرمائهم، ويقلبون الملاكات الإدارية في البلاد، ويجزّئون هذه المملكة الزنكية لسورية التي حصنها بصبر وأناة نور الدين الوالد الذي لم يجف ثرى قبره بعد. وكانوا يمعنون في خيانة الفتى الذي كان له ـ على حد قول أحد معاصريه ـ من السّادة أكثر مما له من الرعايا المخلصين. وراح بعض الرجالات من أصحاب العقول الراجحة والبصائر النيرة، ممن أقلقتهم مغبة العواقب المحتملة لتلك الفوضى، راحوا يتساءلون عمّا سيؤول إليه مصير سورية المسلمة ـ وتلك حالتها ـ إذا ما واجهت الممالك الفرنجية في المشرق التي يمكن أن تضع في المرتبة الثانية منازعاتها الداخلية إذا تراءت لها إمكانية تحقيق النصر بالهجوم على دمشق المفككة، وليس هذا فحسب بل شرحوا لصلاح الدين حراجة الوضع في سورية طالبين رأيه دون أن يخفوا رغبتهم في أن يروه يلعب دوره السياسي بطلاً للإسلام في سورية ـ كما هو في مصر ـ.

وكان تصرف صلاح الدين إزاء تلك العروض حذراً، فطلب مهلة للتفكير بغية أن يأخذ على عاتقه مجدداً تحقيق المطمح الكبير لنور الدين: طرد الفرنجة من سورية.

صلاح الدين يدخل دمشق

ومن المثير للاشمئزاز ـ في الواقع ـ أن تعدد المؤامرات المعقدة التي حيكت في كل من دمشق والقاهرة ضد هذا المشروع، وما تتصف به مغامرات الأمراء من نوازع الغيرة والحسد التي لا يعرفون سبيلاً لدفعها، أو مغامرات الوزراء الذين يخشون جانب صلاح الدين قدر خشيتهم ملك القدس، ناهيك بقلقهم من روحات وجيئات هؤلاء وأولئك، فتلازمهم هواجس القلق الممض، غير عارفين وهم في مناصبهم أيّ قويّ يوالون لشدة ما يكتنف المستقبل من غموض. ولم يكن صلاح الدين على عجلة من أمره في قبول سلطنة دمشق لئلا يُظن أنه يسعى إلى الحلول محل ابن سيده السابق نور الدين. كان يُفضّل أن يُتوجه إليه بالرجاء، ولم يأخذ طريقه إلى دمشق إلّا بعد النداءات الحارة التي بعثها إليه أنصاره فيها،

فغادر القاهرة على رأس سبعمائة من فرسانه الأكراد متوجهاً صوب خليج العقبة. لتفتيش قلاع سيناء، واجتاز دونما ضجة وادي عربة عبر المواقع الفرنجية، ثم مرَّ ببصرى ودخل دمشق، يوم الثلاثاء ٢٧ تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٧٤؛ وسط ترحيب الشعب المسرع إلى تحية هذا الرجل الذي شرَع يعتبره منذ الآن بطلاً. وكم كانت فرحة صلاح الدين غامرة بأن عاد إلى تلك المدينة المقدسة ذات المائتين وخمسين جامعاً حيث قضى فترة يفاعته، وبأن يتملّى سحر هذه الواحة التي كانت تعد في الآداب العربية إحدى أربع أجمل بقاع الأرض، وفردوس الشعراء الذي تسقيه مياه بَرَدى المترقرقة، ذلك النهر الموزع على الحمّامات والجوامع وساحات البيوت، في خريرٍ أبديّ للسّواقي التي نجدها لدى كل خطوة. لقد تذكّر المدارس الشهيرة التي كم تردد إلى صفوفها أو كتاتيب الجوامع الهادئة حيث درس بحماسة في مصاحفها الفخمة المزيّنة، لقد رأى ثانية ذلك البلد المزدحم بالحشود المتعددة الجنسيات، وشهد تلك الحركة البطيئة لسير القوافل المثقلة بكنوز الأرض منتهية إلى تلك الأسواق الضيقة لتتكدس فيها منتجات جميع الأمصار تذكّر مآسي تاريخه، والحرائق وأعمال النهب، وعظمة دمشق في عهد العباسيين، ولم يكن يشعر بالغربة في هذه المدينة، وما دام الله قد أخذ بيده إلى ذروة السؤدد والعظمة، ووضع بين يديه سيف الإسلام، فقد قطع على نفسه عهداً بتوحيد سورية وتجميع قبائلها في سبيل الجهاد المقدس[١].

وأعلم صلاح الدين السوريين، في بيان له بأنه لم يأت إلّا لإنقاذ ابن نور الدين، السجين في حلب وتخليصه من قبضة وزير تربّى في القصر، ومراقبة تربيته السياسية. وبالتأكيد كان لإلغاء عددٍ من الرسوم الجمركية أثر أعمق.

استيلاء صلاح الدين على المدن السورية عنوة

بعد أن أعاد صلاح الدين تنظيم المصالح الإدارية في دمشق توجه إلى الشمال السوري صوب حلب الشهيرة بقلعتها القديمة التي بناها الحثيّون. وكان يفترض أن يشرع له حكام المدن التي سيمر بها الأبواب على مصاريعها حالما يظهر في الأفق، ولكن الأمر لم يجر على هذا النحو؛ مما دفعه لأخذ هذه المدن عنوةً الواحدة بعد الأخرى. ففي كانون الأول (ديسمبر) ١١٧٤ استولى على حمص (ايميزا القديمة) التي أسسها في زمن سالف سلوقس نيكاتور

المشهور، حينما استُدْعي «الياغابال» الكاهن الأكبر الشاب لمعبد الشمس ليتولى سدة حكم الامبراطورية. وعلى أبواب هذه المدينة أباد «أورليان» في معركة لا تنسى جيش الملكة زنوبيا مكللاً نفسه بالأمجاد ممهداً أمامه طريق تدمر.

وسلك صلاح الدين صعوداً طريق وادي العاصي حيث تكثر الحُميات، والذباب ذو الرأس الزمردي وأسراب البعوض التي لا تحصى، مما يجعل الإقامة مستحيلة. ودخل حماة المدينة المغرقة في القدم التي نجد اسمها في النصوص الآشورية وفي العهد القديم، وكانت تدعى أفامية في عهد أنطيوخوس الرابع ابيفانوس، وظلت بعد الفتح العربي ردحاً طويلاً مركزاً هاماً للدين المسيحي. «وكان سكان حماة ــ حسب قول أحد المعاصرين ــ يحتفلون بعيد الفصح ستة أيّام. وترتدي النساء حينذاك الثياب الأنيقة، ويصبغن البَيض ويُعددن الكعك والبسكويت. ويؤم سكان الضواحي حماة وينزلون ضفاف العاصي حيث ينصب الحمويون الخيام، ويجلبون المغنيات محمولات في السفن، ومن ثم يبدأ الرجال والنساء الرقص طوال الأيام الستة، وتحدث خلال هذه الرقصات مشاهد من التجاوزات التي تذكّر بممارسات طقس أدونيس، كما يحتفلون بدخول الشمس برج الجدي، وهذا مالم ألحظه في أية مدينة سورية أخرى، وفي ليلة الميلاد يوقدون المشاعل على الأجاجير، ويحرقون البارود والنفط، ويتراكض البدو من أعماق البادية المحيطة لمشاهدة هذه المدينة التي تبدو وكأنها تحترق وتنطفىء تحت جناح الليل الصافي لسمواتنا».

أمام أسوار حلب

وفي ٣٠ كانون الأول (ديسمبر) ١١٧٤ عسكرت قوات صلاح الدين أمام حلب، أقدم مدينة في العالم، وما تزال قائمة في أيامنا، مسكونة مزدهرة، بعد أن شهدت تحت أسوارها أوسع هجرات شعوب العالم القديم، منهم الحثيون القادمون من الأناضول منذ ماينيف على أربعة آلاف سنة، أولئك المؤسسون لإمبراطورية ذات حضارة راقية، التي انهارت بصورة بالغة القسوة والتي لم نعرف إلّا لماماً عن مجدها أو مدة ديمومتها. والخوريون **Khourrites** المتحدرون من القفقاس المتجهون جنوباً نحو مصر ليغمروها بموجة بشرية عارمة، والميتانيون المنفصلون في سورية عن قومهم الهندو ــ أوربيين ــ والآشوريون ذوو القوة العسكرية التي

لا مثيل لها في سالف العصور ، والذين سلكوا سياسة منهجية لاستعباد الشعوب بتوسلهم الإرهاب ، سبيلهم إلى ذلك ، مما أتاح لهم أن يخضعوا جميع الامبراطوريات المجاورة . والفرس الأشمونيون الذين طردهم بدورهم مقدونيو الاسكندر الأكبر الذي كان سيفتح في المشرق عهداً تاريخياً جديداً باتجاه لا يُدرك تطور مسيرته . والمستعمرات اليونانية لسلوقس نيكاتور الذي أسس بمفرده خمسين مدينة ، كانت نوى لزوبعةٍ من الدول الذاتية الحكم . وكان هذا الانفجار من الشعوب الفاتحة ما يزال قائماً في حلب الراسخة على صدر المعمورة ، بينما انهار حولها الكثير من العواصم مثل نينوى وبابل . وغدت حلب التي أحاطت نفسها بالأسوار العديدة أهم مركز سوري للهيلينيّة التي عمت تقريباً مختلف شعوب الشرق التي أُخذت بسحر نفوذها ، والتي ما يزال تاريخها مرتبطاً بتاريخ الحضارات المتوسطية . إنها تسمع الضجيج المكتوم لكتائب بومبي وديوقليسيان الحاملة معها عهداً من السلم والازدهار تحت حكم مندوبي مجلس الشيوخ الرومانيين المقيمين في أنطاكية الذين طوّروا إنجازات السلوقيين ، فنتج عن ذلك هَلْيَنَسَة البلاد بصورة أوسع وأعمق . وكان لانهيار روما صداه وانعكاسه في حلب . فالفوضى التي كانت تدمّر الولايات الأوربية من الامبراطورية الرومانية أمّنت للتجار الحلبيين مصدراً إضافياً للأرباح فأثروا من جرّائها إثراءً فاحشاً . ثم واجهتهم أيامٌ من المحن على أيدي العرب المجنّدين لدى الفرس الساسانيين ، وبسبب الهزّات الأرضية ورجال قبائل الهون الذين أجلوا السكان وأحرقوا حلب ودكّوها رأساً على عقب ، وأخيراً ، أفاد العرب من انهيار العالم القديم فانتزعوا سورية وفتحوا حلب بلا قتال . ولم يتغير عامل تطور المدينة إلا بصورة تدريجية ، وبانتقال غير محسوس . وفي ظل الحكم العربي ، ظلت حلب تتداولها الأيدي انتقالاً من يدٍ إلى يد حتى إنها ــ ذات مرة ــ بدلت سيدها ثلاث مرات في ثلاثة أيام . وكانت الفوضى تعمها في أعقاب الحروب الأهلية . ومن ثم عرفت عهداً من مؤامرات البلاط ، وزحفت إليها عصابات من الأتراك لتقيم فيها ، عارضة خدماتها المرْبكة القاسية على أمراء الإسلام . مقترفة الجرائم ، ومخلفة وراءها المآسي ، مما حمل أعداداً غفيرة من السكان على الهجرة إلى ما وراء الفرات ، مخلفين وراءهم مدينتهم لتكون عرضة للهجوم أو الحصار اثنتين وعشرين مرة في أقل من قرنٍ واحد .

وهكذا فإن مركز حلب ، الواقعة على ملتقى تقاطع وحدات جغرافية واسعة وتجمعات

بشرية كبيرة؛ كان وراء حسن حظها أو سوء طالعها اللذين هما على الدوام صُنْعُ طرق المواصلات التي تكوّن هي مفترقها. وكانت الأعجوبة تكمن في قدرتها على البقاء عبر هذه الامبراطوريات العديدة، وأن تزدهر رغم غزوات الشعوب التي عفّت ــ في كل مكان آخر ــ على حضارات كاملة، وأن تنمو طوال أربعة آلاف سنة على تخوم هذه الامبراطوريات الآسيوية، هذه البناءات السياسية المؤقتة التي شهدت ولادتها ونهايتها وسط قعقعة أسلحة الجيوش. كما شهدت الحشود البشرية الهائلة من كل جنس تمرّ بسهولها، من رماة السهام الآشوريين حتى صليبيي الغرب. أية آلهة إذاً حمت حلب عبر هذه السلسلة الطويلة من القرون؟ هذه المدينة التي رأت الكثير من الآلهة، وظلت حية متجددة الشباب، بينما انهارت نينوى في اللهب، وامحت بابل في الصحراء، وغدت مدن شهيرة غيرها لا تكاد تخطر بذاكرة البشر.

وحينما ظهر صلاح الدين مع أكراده أمام أبواب حلب كانت المدينة في إحدى حقب ازدهارها. ففي الخمسين سنة كانت الأنقاض المادية التي ركمها الأتراك قد أعيد بناؤها، إذ جدّد نور الدين بناء الجامع الكبير الذي أحرق عام ١١٦٩، ورمّم القلعة والأسواق. كانت الأبنية الجديدة ترتفع بكثرة والدخول السنوية الوفيرة للمدينة تدل على نشاطها العارم. وتتيح لنا هذه المداخيل أن نحكم بأن تجارتها كانت مزدهرة بقوافل جمالها وبأسواقها المالية ودباغاتها وأسواق نخاستها، وخاناتها المترعة بملح بحيرة الجبول، وخمورها وحريرها وتوابلها، وأدوات زينتها المصرية، ونباتاتها الصينية وجلودها وخلاصات الخشب الثمين والأفيون والعطور والأقمشة العجمية منها والهندية والموصليّة، والمتارف والأدوية والأسلحة. وكان إشعاعها الديني يؤمّن لها مكانة مميزة في سورية. كان مجتمعها الإسلامي السنّي واعياً ماهو عليه من مكانة، فكان نضاله ضد البدعة وانتصاره النهائي، ودعم الأمراء الرسمي إياه، وانتشار التعليم الديني، وصعود موجة التصوّف والتشدد في وحدة العقيدة المستعادة، جميع هذه الأمور كانت بمثابة براهين لكل مسلم على المنزلة الأولى للإيمان، كما كانت ــ وبالقدر ذاته ــ أسباباً لتأجج الشعور الديني. وفي حلب غدا الإسلام السائد أكثر تعالياً وأشد تصلباً منه في أيّ مكان آخر في سورية، فكان نزّاعاً على الدوام لاتخاذ موقف كفاحي، وله وحده حق المواطنة في المدينة التي غدت ــ بكل ما في الكلمة من قوة المعنى ــ مدينة مسلمة، والبؤرة المتأججة للإسلام

المناضل، المتشدد والمنهجي. هذا وإلى جانب الجامع الكبير الذي أعاد بناءه بفخامة نور الدين التقيّ شيدت مدارس قرآنية وتكايا دراويش وأخذت الأمكنة الدينية تتضاعف كل يوم.

وبدوره كان القانون صارماً، فكل من يحيا في ظل المجتمع الإسلامي — من الذميين — عليه أن يحيا حياته بصمتٍ ومتوجس الخشية.

وحينما شاهد سكان حلب قوات صلاح الدين تتمركز على أبواب مدينتهم لم يعرفوا أيّ موقفٍ يتخذون.. فالوجهاء وأكثرهم من التجار أخذوا يتخيلون الحرب وأهوالها والحصار ونهب الأسواق المكدسة بالبضائع. وقارنوا بين قوة صلاح الدين وقوة ابن نور الدين، وفضّلوا الخضوع لسيّد ماهر قادر على إدارة مصالحهم إدارةً شريفة، بدلاً من أن يخضعوا لحكم غلام يديره وصيٌّ ناشىء في القصر، فاقترحوا التسليم. أما الأمراء فكانوا مترددين، واشمأز السلطان الشاب من ثرثرة الأولين، وتردد الآخرين فقرر مخاطبة الحلبيين مباشرة، فتوجه إليهم بخطابٍ، لا ينقصه الحزم مبرزاً رأيه في صلاح الدين إبرازاً استثنائياً: «أيها الحلبيون الذين أحبهم والدي دائماً، لا تتخلوا عن ابنه الذي يطلب تأييدكم. وخائن ذاك الذي انتشله نور الدين من الحضيض، فلم يكتف بأن اغتصب مني أملاكي، وهاهو ذا اليوم يريد أن يطردني من ملاذي الوحيد المتبقي لي. إنه يطاردني حتى الموت كيلا يحول حائل دون مطامعه، أيها الحلبيون أنتم أملي الوحيد. دافعوا عني ضد خدمي الذين أصبحوا أعدائي؛ إلّا إذا كنتم تفضلون أن تلقوا بي عند أقدام هذا الكردي المتوحش»[٢].

وعندما سمع الجمهور هذه الكلمات أخذته الشفقة بالأمير الصغير، وتمكنت من جرّ جماهير الأسواق المتحمسة إلى حثّ الجنود المترددين للدفاع عن المدينة. واضطر صلاح الدين أمام صمود حلب، والصعوبات التي أثارها الفرنجة في مؤخرة جيشه أن يرفع عنها الحصار.

العودة إلى حمص

وحين شرع صلاح الدين يفكر في الانتقام وحشد قواته، علم بأن حاكم حمص المسلم يتفاوض من وراء ظهره مع الفرنجة، بمبادرة ريمون الثالث كونت طرابلس الذي أدرك أن وجود سيد مصر في سورية يهدد فرنجة المشرق. وكان الوضع جلياً، وغدا من الأهمية بمكان وضع

العراقيل أمام قوة صلاح الدين الصاعدة بأن يعلن كونت طرابلس نفسه حامياً لابن نور الدين الضعيف وتأييده مزاعم هذا الأخير الشرعية ضد مزاعم ابن أخي شيركوه.

ولهذا جمع ريمون الثالث قوة من المتطوّعة، وظهر أمام حمص حيث كان له عدد من الأصدقاء داخل الموقع فحرضهم على إعادة تسليم المدينة لحكامها السابقين، وكان يريد بهذا أن يقطع الطريق على قوات صلاح المنسحبة من حلب. وهكذا أُحبط فتح مدينة حلب، ولكن ظهر صلاح الدين أمام حمص بعد يومين من وصول كونت طرابلس، فطرد فرسان الفرنجة كما يُطرد سربٌ من عصافير الدوري. وشخص إلى أنطاكية فدمّر نواحيها انتقاماً من نوايا الفرنجة المعادية. أمّا كونت طرابلس فانكفأ إلى معقله يحتمي وراء أسواره: قلعة الحصن المنيعة، محققاً بذلك هدفه حين أجبر صلاح الدين على رفع الحصار عن حلب، وعلى التخلي عن فكرة الاستيلاء على المملكة الزنكية، مملكة ابن نور الدين، وبالتالي دعم امبراطوريته المصرية ــ الشامية على المحور السياسي حلب ــ الموصل. وكان هذا التحرك ــ الذي قام به كونت طرابلس يمثل بدقة تحقيقاً للسياسة المقدسة التي دشنها فيما مضى فولك، والتي تقتضي أن تحقق الغايات بأقل ما يمكن من الوسائل بحمايته أمراء دمشق ضد تطلعات نور الدين زنكي؛ للحيلولة ــ وبأي ثمن كان ــ دون قيام تحالف بين الأمراء المسلمين ضد الممالك اللاتينية على الشاطىء اللبناني.

الفرنجة يهددون جنوبي سورية

هذا وتزامنت محاولة حمص مع تدخلات أخرى للفرنجة في الأراضي الإسلامية، إذ عبروا الأردن وأحرقوا غلال المسلمين واغتصبوا نساءَهم، ودمروا عدداً من قراهم، وبعد ارتكابهم هذه الأعمال القظيعة عادوا ليتمتعوا بقسط من الراحة ولينعموا بملذّات القدس قبل أن يستأنفوا ــ على نطاق أوسع ــ حرب الغنائم تلك. كما اتجه بلدوين الرابع ــ وكان في الخامسة عشرة من عمره ــ نحو صيداء وتقدم صوب البقاع، هذا الوادي الرائع الجمال حتى ليخيل للمرء حسب ما كتب غيّوم الصوري: «أنه يرى فيه نهراً من اللبن والعسل». وانتقل الوصيّ من جنبيل عابراً جبل لبنان والتقى ملك القدس في سهول دمشق، وبعد أن هزم بلدوين الرابع أخا صلاح الدين وصل إلى مسافة خمسة كيلو مترات من المدينة الشهيرة، وتحديداً إلى قرية

داريا، لكنه لم يتمكن من دخول دمشق، وعاد إلى مملكته، وهكذا بينما كانت العقبات تعترض مسيرة صلاح الدين في شمالي سورية، كانت مملكته مهددة في الجنوب.

في ظل أعمدة بعلبك

وانحدر صلاح الدين في وادي العاصي واستعاد بعلبك التي قضى فيها ردحاً من سني شبابه برفقة والده. وفي ظل الأعمدة العملاقة لهيكل جوبيتر كان يستطيع أن يرى بشيء من الفخر، الطريق التي سلكها منذ ضحب عمه مرغماً إلى مصر؛ وذهب في موكب احتفالي إلى خرائب المعبد الفخم. ترى ماذا كان يدور في خلده أمام هذا الإنجاز البشريّ العملاق؟ رمز عظمة البشر وأوهامهم. أين أصبحت بعد كل هذه الاضطرابات، تلك الشعوب الأسطورية التي توهمت أنها تبني للخلود، وتحقق في الرخام والصوّان الحلم السرمدي لوجودها المستحيل. وأمام مذابح الهياكل هذه المقفرة الآن حيث كان مقدمو الأضاحي القدماء ينذرون أضاحيهم العذراء دفعاً لغضب الآلهة أو استنزالاً لرحمتها. ترى هل رأى صلاح الدين في هذه الخرائب الشهيرة للمدينة القديمة مواكب الملوك والمحاربين والأباطرة الزاحفين من الشمال والشرق والغرب أو القادمين من وراء البحار أو مقبلين خروجاً من أعماق الصحارى، أولئك الذين لا يُقهرون من ذوي الأمجاد الصاخبين تيهاً بأناشيد انتصاراتهم في ظل هذه الزينة المهلوسة لتلك الهياكل التي شيدها شعب من الآلهة؟ أوّاه ياجوبيتر الهيلوبوليتي حامل الصاعقة رمز الشمس، وسنابل القمح رمز الوطن الأم.

وهل أقلقت تلك النيران الدائمة الاشتعال في هذه المدينة المبنية من أجل مجد جوبيتر، نفس صلاح الدين؟ ياله من درس تاريخيّ قاسٍ اندثار هذه المدن الآسيوية: عمريت وحضارتها المشحونة بالأسرار (حضارةالبحّارة). طرابلس ومعابدها، صور وأعمدتها الزمرّدية، صيداء ومينياؤها البحري، وأبعد منها جبيل وأنأى كذلك نينوى، وأبعد مطّرحاً برسيبوليس (مدينة فارس)، وغيرها وغيرها كثير، ليس لها أوابد تشهد على عظمتها بل هي مجرد خرائب مبعثرة كتراب الموتى اندرست وامّحت لتحل محلها مدن أخرى منبثقة من الليل، أو غابات وكثبان ورمال. هل دار بخلده أن الشعوب في سباقها الجهنمي المتجدد على الدوام تعيد الآن تاريخ الإنسانية في مسيرة عبثها هذه.

الحلف الجديد ضد صلاح الدين

وظهرت أمام صلاح الدين تعقيدات أخرى. فبعد اخفاقه في حملة حلب، وظهور الفرنجة عند أبواب دمشق، كان عليه أن يعترف بأن وضعه في سورية غير مستقر. فالملك الصالح ابن نور الدين يودُّ بغية ترسيخ مملكة حلب، أن يحالف سيف الدين غازي، حاكم الموصل؛ وكان غرض هذا التحالف مصوغاً صراحة في ثلاث نقاط: التخلص من صلاح الدين، وإعادة سلطنة دمشق إلى صاحبها الشرعي الملك الصالح، واقتسام مصر وواردات المكوس. وكان الوقت يبدو لهما جد مناسب لترجمة هذه النوايا السياسية إلى وقائع، ذلك لأنّ قوات صلاح الدين ــ بسبب تركه حاميات لها شأنها في وادي النيل ــ قليلة في سورية، لكنها بالمقابل قوات موالية إياه ولاءً أعمى.

وبحكم المؤكّد، لم يكن صلاح الدين يستطيع القتال بآن معاً ضد الأمراء السوريين المخلصين لابن نور الدين وضد حاكم الموصل وبلاد مابين النهرين التي هي مستودع زاخر بالرجال، وضد الفرنجة القادرين على الإفادة من إرباكه.

وبالتأكيد فإنه سينهار أمام هذا الحشد من الأعداء لو أن سلطان حلب المجرد من سلطته استند إلى مستشار حاذق، وكان حاميه لسوء طالعه يخشى جانب صلاح الدين قدر ما يخاف حاكم الموصل، والذي لم يشأ خشية أن يفقد مركزه الممتاز أن يتورّط مع حليف قادر على تجريده من الحكم. ولذا كثيراً ما كانت المفاوضات تنقطع بسببه ليعاد استئنافها من جديد، وكان سوء طويته من الجلاء حتى قرر سلطان الموصل الشخوص إلى حلب لمقابلة الملك الصالح؛ ولكنه لم يذهب وحده، بل اصطحب معه حاشية مهيبة تضم أميري الجزيرة العليا وديار بكر وقوات ممّا بين النهرين حشدها ارتقيّو كيفا وماردين، وتوجه كل هذا الحشد الجيد التسليح في صخب صوب حلب.

هزيمة قوات أمير الموصل وأريحية المنتصر

وحين أصبح على بعد خمسين كيلو متراً من المدينة هاجمته قوات صلاح الدين، ولتساوي شجاعة الفريقين ظلت المعركة طويلاً سجالاً، وبدلاً من أن يسارع ابن نور الدين

ووزيره لشد أزر سلطان الموصل آثرا الاختباء في مكمنهما، وكانت النتيجة أن هُزمت قوات الحليف واستولى المنتصر على أمتعتها وخيامها الفخمة، ووقع عدد من أمراء ما بين النهرين أسرى، لكن صلاح الدين عاملهم بمنتهى الأريحية، وأرسلهم معززين إلى قبائلهم البعيدة، وأمر بأن يعالج على حسابه المرضى والجرحى الذين تخلى عنهم سيدهم، وبهذا اكتسب شعبية واسعة ظلت أمداً طويلاً تتردد على ألسنة شعراء البادية.

الاستيلاء على حلب وشمالي سورية

ولكيلا يفقد ثمن انتصاره اخضع صلاح الدين جزءاً من سورية العليا فاحتل منبج ــ الشهيرة قديماً بعبادتها الإلهين السوريين حَدد وآتار غاطس ــ، وبزعة التي تسيطر بقلعتها البيزنطية على طريق اللاذقية، وإعزاز التي شهدت مرور عربات آشور بانيبال. وأمام هذه البلدة الأخيرة، كاد أن يذهب ضحية جريمة سياسية أعدّتها ضده حركة الحشّاشين أو الاسماعيليين التي يتزعمها شيخها سنان الذي سبق أن تحدثنا عن شخصيته المقلقة، إذ أرسل هذا الأخير إلى مخيم صلاح الدين لاغتياله عصبة من أتباعه المتعصبين، وقد تمكنوا من الاقتراب من خيمته، حينما عرف الأمير خُمارتكين أحدهم ناداه، بينما تسلل الآخر إلى خيمة صلاح الدين لطعنه، وشاءت الإرادة الإلهية أن يكون هناك أحد الحرّاس، فسارع إلى اختراق جسده بالسيف، وبذا نجا صلاح الدين بأعجوبة، فتمالك نفسه مؤجلاً معاقبة شيخ هذه الفئة. وعاد أدراجه ثانية إلى حلب آملاً أن تكون قد سبقته أخبار الهزيمة التي حاقت بحلفاء ابن نور الدين، وتكون بالتالي عبرة لهذا الأخير ولوزيره، فيصير أكثر استعداداً للمصالحة. وتم الاتفاق بين الطرفين بعد عدة مناقشات ومساومات كان الملك الصالح سعيداً للغاية بإنقاذ رأسه الذي لم يكن مستعداً لرؤيته يُحمل كإنذار لسلطان الموصل، فسلّم الملك الصالح حلب لصلاح الدين الذي كافأه على خيانته أصحابه في ساعات محنتهم وأسند إليه حاكمية بعض المواقع الثانوية مثل حمص وحماة والمعرة وكفر طاب، مثبتاً بصنيعه هذا بأنه لم يكن ينوي أن يجرّده من السلطة بل أن يشرّفه بثقته.

السلطة الأيوبية من حلب إلى القاهرة

وطبيعي أنّ ابن نور الدين الذي انضوى في ظل صلاح الدين بعد أن كان تحت حماية

القدس والموصل لم يعد يفكر في التمسك بحقه في سلطنة دمشق. وهكذا بعد نجاحات متنوعة كانت سلطة مؤسس السلالة الأيوبية تترسّخ ويعترف بها من حلب إلى القاهرة. وكتب غيّوم الصوري يقول: «لقد انتشرت تلك الأنباء في أراضي الفرنجة الذين انتابهم جرّاءها الرعب، لأنها كانت دائماً موضع تخوّفهم، لإدراكهم تماماً أنهم سيطوقون من جميع الجهات إذا استولى صلاح الدين على حلب».

واغتنم صلاح الدين وجوده في حلب، فقام بزيارة الشيخ الصوفي يحيى المغربي وحجّ إلى قبر عمر بن عبد العزيز. ولكونه غدا سيد ثلاثة أرباع سورية الإسلامية نقل مقره إلى دمشق، وبذا بدا ملكاً فعلياً، وأطلع بلاط بغداد على ما حازه من نجاح.، وبالمقابل وفد عليه سفير الخليفة وخلع عليه خلع التكريم ومنحه صكّ توليةٍ يعترف به فيه سلطاناً على مصر وسورية الوسطى والنوبة واليمن.

مجد صلاح الدين وألقابه

وهكذا أصبح السلطان صلاح الدين ــ بما يحمل من نعوت تاج الأمراء، وقائد الجيوش، والمنتصر فخر الدولة، وعماد الإمام، وسيف الإسلام، ومجد الأسرة العباسية وسندها، وصاحب مقامها الأعلى، كما صكّت النقود باسمه الذي صار يذكر في خطبة صلاة الجمعة ــ وألغي اسم ابن نور الدين من الصكوك الرسمية في كل من مصر وسورية.

صلاح الدين وشيخ الجبل

وبعد الاحتفالات بهذه الأحداث، ترتب على صلاح الدين، أن يطلب من الشيخ سنان تفسيراً لمحاولته اغتياله في إعزاز على يد أتباعه المتعصبين وشرحاً لهذه الإخوانية الغامضة للحشاشين التي طالما تحدث عنها الناس في الشرق القروسطي؟ كان الإسلام ما يزال في اندفاعه وقد انتشر بسرعة فائقة بين شعوب متباينة ثقافةً وديانةً وعرقاً، بحيث أثار ردود فعل صامتة. وكان التسامح الإسلامي المستمد من روح الآية القرآنية: ﴿لا إكراه في الدين﴾ تدبيراً سياسياً ممتازاً..

ولم يكن بمقدور صلاح الدين وقد استتب له الأمر في سورية أن يتجاهل شيخ الجبل،

فماذا كان موقفه بالضبط؟ كان عليه مآخذ تجليها محاولة الاغتيال التي كاد أن يذهب ضحيتها في إعزاز. ولكنه لم يستطع أن يصادم مواجهةً تنظيماً لا يمثل قوّة مقلقة بعدد أتباعه فحسب، بل بتعصبهم وولائهم البطولي. وكانت المصلحة تقضي بأن يتصرف بحذر. والّا يضن في إظهار حسن نواياه وأن يداري شيخ الجبل معترفاً له بسلطته الروحية دون أن يرتج باب المستقبل. ويزعم بعض مؤلفي الحوليّات أنه حاصر مصياف في انتشار ظاهر للجيوش، وأنه فرض على الشيخ سنان معاهدة صداقة، ويؤكد بعضهم أن صلاح الدين ــ بعد كثير من المفاوضات السرّية ــ أصبح مقابل تنازلات غير معروفة في حماية الحشاشين. على كل حال لم يعد صلاح الدين بعد الآن يزعجه شيخ الجبل ومريدوه.

العودة إلى مصر وإنجازات صلاح الدين العسكرية والفنية والفقهية

في خريف ١١٧٦ عاد صلاح الدين إلى مصر تاركاً حكم سورية لأخيه طوران شاه خلال غيابه. ويقول الطبيب عبد اللطيف الذي عرفه عن كثب: كان بنّاءً عظيماً عالماً بكيفية تشييد الأسوار وحفر الخنادق، وتابع في القاهرة سياسة العمل التي بدأها قبل عدة سنوات، وكانت السلالة الأيوبية ــ التي يعد صلاح الدين رأس مؤسسيها وأكثرهم نشاطاً ــ ستبدأ بها مرحلة جديدة في تاريخ الإسلام، وستترجم أصالتها إنجازات موفقة في المضمار العسكري، وذلك بتوظيف جميع واردات الدولة لطرد الفرنجة من الأرض المقدسة، وفي المجال الفنّي، بخلق طرز معمارية جديدة وتبني أساليب تزيينية مبتكرة فضلاً عن إزالة الخط الكوفي من الكتابة على الأبنية، وأخيراً في المضمار الديني، بطمس البدع، وتأسيس المدرسة الشرعية التي أصبحت ــ حسب قول ابن إياس ــ مؤسسة سياسية، وقلعة للفقهاء.

هذا، وإن صلاح الدين الذي وطد دعائم حكمه، بتأسيسه في مصر مدارس يدّرس فيها مدرسون على المذهب السني، أوجد أيضاً الخانقاه، وهو تكية للمتعبدين التأمليين، وقد شاع هذا النوع من بيوت العبادة حتى صار الأمراء في القاهرة يتسابقون إلى إقامة المزيد منها.

وأمر صلاح الدين بصك النقود التي تحمل صورته، ويظهر عليها السلطان معتماً (صورة وجهية) جالساً على العرش على الطريقة الشرقية طاوياً ساقيه تحت جسمه. ولم تضرب هذه النقود الصلاحية في مصر بل في مابين النهرين.

مجد صلاح الدين

وهكذا بدأ صلاح الدين ــ وهو في التاسعة والثلاثين من عمره ــ يؤثل مجده بمهابة، انطلاقاً من مدينة القاهرة التي سبق له أن قدم إليها مجهولاً، فغدا سلطاناً لسورية، والنوبة، وسلطان اليمن الأسطوري، هذا البلد الذي تعاقبت فيه الممالك المزدهرة التي ربطها الإسلام بحكاية سليمان وملكة سبأ، وازدهرت به حضارات لم تكتشف أبنيتها بعد.. مؤسساً المدارس والتكايا، مقيماً في بلاط خليفة بغداد العباسي سفارة دائمة.

وبذا غدا صلاح الدين من أشهر شخصيات الإسلام.. تُرى هل تراءى له مستقبله في قاعة ديوانه في قلعة القاهرة حيث كان يعقد مجلسه، ويصدر أحكامه القضائية، وهو يشاهد أحد أجمل مناظر مصر، حيث العاصمة بجوامعها القديمة، ووادي النيل بحقوله الخصبة التي يرويها، وغنى هذه الأرض وروعة تلك السماء حيث تلعب في تنوع لا نهائي تناغمات النور الصاخبة.

حواشي الفصل الثامن

دوافع صلاح الدين في بسط نفوذه على بلاد الشام

١ ـــ كان لاضطراب حبل الأمن في بلاد الشام، في صراع الأمراء السوريين، حول الوصاية التي غدت موضع نزاع بين دمشق وحلب، وتصدع الوحدة السورية التي وطد دعائمها نور الدين زنكي، والخطر البالغ الخطورة الذي أخذ يذر قرنه، مع توغل الصليبيين في بلاد الشام، كل هذه الأمور، دفعت صلاح الدين الأيوبي إلى التفكير جدياً، بالسير على خطا بطل الإسلام الراحل نور الدين.. في خلق جبهة عربية واسعة صلبة، للوقوف أمام الخطر الصليبي الكبير يقول الباحث قدري قلعجي:

«وأمام هذه الفوضى العاصفة، أخذ الحلم الذي كان يراود صلاح الدين يعاوده بإلحاح، بل تحوّل في نظره إلى واجب ينبغي له القيام به ورسالةٍ من الحتم عليه أداؤها، فهو يعتقد بأنه الوارث الحقيقي لمملكة نور الدين ولسياسته في الجهاد، وقد انشقت أمامه الطريق لإنشاء إمبراطورية كبرى يبعث بها إمبراطورية بغداد، بتوحيد البلاد الناطقة بالضاد، وانتزاع أراضيها من أيدي الفرنجة.

ولقد كان واثقاً من أن ملايين العرب سيناصرونه في تحقيق هذا الحلم العظيم، وأنهم سيشعرون كما يشعر هو، بأنه واحد منهم ليس غريباً عن الأرض العربية التي ولد عليها وتغذّى منها ودرج في فلواتها، أو عن التقاليد العربية التي نشأ عليها وتأصلت في نفسه مذ كان في المهد صبياً، أو عن اللغة والآداب العربية التي ازدهرت في قصره وعهده أيما ازدهار، ومن ثم فليس هو غريباً أيضاً عما يشجي العرب وعما يطمحون إليه، ولا بدع في أن يتخذ الأمل الذي تجيش به نفوسهم هدفاً ينزع إليه مع جنوده المتعددي القوميات ولكنهم في كثرتهم عرب من سكان البلاد، واللغة العربية هي اللغة الجامعة لهم، والثقافة العربية والشريعة الإسلاميّة هي البوتقة التي صهرتهم والرابطة التي وحدتهم، فغدوا يُعرفون بها وفي ظلها يجاهدون.

وكان أول ما فكر فيه، وأراد أن يخطو به الخطوة الأولى نحو تحقيق هدفه، الانتصار للملك الصالح اسماعيل ابن نور الدين، ووضعه تحت كنفه، ليتسنى له بذلك توحيد بلاد الشام وضمها إلى مملكته في مصر. فكتب إليه وإلى الأمراء الذين يحيطون به ويتنازعون على ملكه، كتاباً أعلن فيه ولاءه له وعزمه على نصرته والانتصاف له من كل من يناوئه، لإنقاذ البلاد من التفرقة ودفعاً لخطر الفرنجة، وقد قال فيه: «تختلف القلوب والأيدي فتبلغ الأعداء

مرادها وتعدم الآراء رشادها، وتنتقل النعم التي تعبت الأيام فيها إلى أن أعطت قيادها، فكونوا يداً واحدة، وأعضاداً متساعدة، وقلوباً يجمعها ود، وسيوفاً يضمها غمد، ولا تختلفوا فتنكلوا، ولا تنازعوا فتفشلوا، وقوموا على أمشاط الأرجل، ولا تأخذوا الأمر بأطراف الأنمل، فالعداوة محدقة بكم من كل مكان. » إلى أن يقول بصدد الملك الراحل وولده القاصر: « ولهذا البيت منا ناصر لا نخذله وقائم لا نسلمه. وقد كانت وصيته إلينا سبقت، ورسالته عندنا تحققت، بأن ولده القائم على الأمر، وسعد الدين كمشتكين الأتابك بين يديه، فإن كانت الوصية ظهرت وقُبلت والطاعة في الغيبة والحاضر أديت وفعلت، وإلا فنحن لهذا الولد يدّ على من ناوأه وسيفٌ على من عاداه.. الخ » (مفرج الكروب ج ٢ ص ٧) ولم يقتصر صلاح الدين على هذا بل ضرب النقود المصرية باسم الملك الصالح، وأمر بأن يُخطب له على المنابر بعد الخليفة العباسي، ولم يدع مناسبة إلا اغتنمها كيما يبين فيها للسوريين غيرته على الملك الصغير، واهتمامه بأمره واستعداده لبذل وسعه في سبيله.

ثم أرسل إلى الخليفة العباسي المستضيء بالله كتاباً يوغر صدره فيه على ما آلت إليه الحال في بلاد الشام، ويعلن استعداده للعمل على تغييرها بتحرير البلاد وتوحيدها في ظل خلافته، مذكراً إياه من طرف خفي بأنه هو الذي جعل منابر مصر واليمن والمغرب تتجاوب باسم الخليفة العباسي مع منابر الشام وبغداد، بعد أن انقطعت عن ذلك نحواً من مئتي سنة، وقد بدأ هذه الرسالة، وهي من إنشاء القاضي الفاضل وبخطه، بذكر ما كان لأفراد أسرته من أثر في جهاد الصليبيين وتأسيس المملكة النورية، فقال: « كان أول أمرنا أنّا كنا بالشام لفتح الفتوح مباشرين بأنفسنا، ونجاهد الكفار متقدّمين لعساكرنا، نحن ووالدنا وعمنا في أيي مدينة فُتحت، أو معقل مُلك، أو عسكر للعدو كسر، أو مصاف للإسلام معه ضُرب، فما يجهل أحد صنعنا، ولا يجحد عدونا أنّا نصطلي الجمرة، ونملك الكرّة، ونتقدم الجماعة، ونرتب المقاتلة، وندبر التعبية، إلى أن ظهرت في الشام الآثار التي لنا أجرُها، ولا يضرنا أن يكون لغيرنا ذكرُها ».

ثم ذكر رحيله إلى مصر وما تم من فتحها وإبعاد الخطر الفرنجي عنها وإلغاء الخلافة الفاطمية فيها: « فهنالك تمت لنا إقامة الكلمة، والجهر بالخطبة، والرفع للواء السواد الأعظم، والجمع لكلمة السواد الأعظم، وعاجل الله الطاغية الأكبر بفنائه، وبرأنا من عهدة يمين كان إثم حنثها أيسر من إثم بقائه، إلا أنه عوجل لفرط روعته، ووافق هلاك شخصه هلاك دولته » وانتقل إلى فتح العقبة وحملة النوبة واليمن والاستيلاء على قسم كبير من شمال إفريقية « ومن البلاد المشاهير والأقاليم الجماهير: لك، وبرقة، وقفصة، وقسطيلية، وتوزر. كل هذه تقام فيها الخطبة لمولانا الإمام المستضيء بالله سلام الله عليه! ».

وينتقل إلى وصف الأوضاع المؤسفة التي سادت بلاد الشام بعد وفاة نور الدين، قائلاً: « .. وتوافت إلينا الأخبار بما المملكة النورية عليه من تشعب الآراء وتوزعها، وتشتت الأمور وتقطُّعها، وإن كل قلعة حصل فيها صاحب، وكل جانب قد طمع إليه طالب، والإفرنج قد بنوا قلاعاً يتخوّفون بها الأطراف الإسلامية، ويضايقون بها البلاد الشامية، وأمراء الدولة النورية قد سُجن كبارهم وعوقبوا وصودروا، وإن المماليك قدّموا الأيدي والأعين والسيوف، وسارت سيرتهم في الأمر المنكر والنهي عن المعروف، وكل واحد يتخذ عند الإفرنج يداً ويجعلهم لنظره سنداً ».

ثم يقول بعد أن يشير إلى مطامع الفرنجة واستعدادهم المتواصل: « وعلمنا أن البيت المقدس إن لم تتيسر

الأسباب لفتحه ، وأمر الكفر إن لم يتجه العزم في قلعه ، وإلا نبتت عروقه ، واتسعت على أهل الدين خروقه ، وكانت الحجة لله قائمة ، وهمم القادرين بالقعود آثمة ، وإنا لا نتمكن بمصر منه ، مع بعد المسافة ، وانقطاع العمارة ، وكلال الدواب التي بها على الجهاد القوة . فإذا جاورناه كانت المصلحة بادية ، والمنفعة جامعة ، واليد قادرة ، والبلاد قريبة ، والغزوة ممكنة ، والميرة متسعة ، والخيل مستريحة ، والعساكر كثيرة الجموع ، والأوقات مساعدة ، وأصلحنا ما في الشام من عقائد معتلة وأمور مختلة ، وآراء فاسدة ، وأمراء متحاسدة ، وأطماع غالبة ، وعقول غائبة ، وحفظنا الولد القائم بعد أبيه ، فأنا به أولى من قوم يأكلون الدنيا باسمه ، ويظهرون الوفاء في خدمته ، وهم عاملون بظلمه » .

ويصرّح صلاح الدين أخيراً بطلبه ، معتبراً إياه مطلباً قومياً وليس مطلباً شخصياً : « والمراد الآن هو كل ما يقوّي الدولة ويؤكد الدعوة ، ويجمع الأمة ، ويحفظ الألفة ، ويضمن الرأفة ، ويفتح بقية البلاد » إلى أن يقول مفصحاً عما يريد : « وهو تقليد جامع لمصر واليمن والمغرب والشام وكل ما تشتمل عليه الولاية النورية ، وكل ما يفتحه الله للدولة العباسية بسيوفنا وسيوف عساكرنا » . (السلوك لمعرفة دول الملوك ج ١ ص ٦٠ ، صبح الأعشى ج ١٣ ص ٨١ — ٩٠ ، كتاب الروضتين ج ١ ص ٣٤١ — ٣٤٤) .

ويقول الدكتور نظير سعداوي في التعليق على هذه الرسالة : إنها تبرهن أوضح برهان « على سعة أطماع صلاح الدين ، كما تشرح موقفه من مشروع توحيد القوى الإسلامية استعداداً للجهاد ضد الصليبيين ، فضلاً عما فيها من شرح لحقيقة القوى الأوربية ، وما فيها من إشارة إلى ما سوف يقوم به من حركات استراتيجية عندما يقتطف ثمار الحوادث بتلبية دعوة الدماشقة إلى نجدتهم . وكيفما كان الأمر من تلك الرسالة ، فمن العسير على الباحث الحربي أن يدرك تماماً كيف فكر صلاح الدين تلك السنة (١١٧٤) في ضرورة الاستيلاء على دمشق وحلب والموصل جميعاً للقضاء على الصليبيين ، إلا أن يرجع الباحث البصر إلى كاتب الرسالة ، وهو القاضي الفاضل العارف بخطة تطويق الصليبيين من ناحيتين ، وهي الخطة التي وضعها بدر الجمالي الوزير الفاطمي ، واتبعها من بعده نور الدين نفسه بالاستيلاء على دمشق والقاهرة ، ومن ذلك يتضح أن اهتمام صلاح الدين بدمشق وحلب والموصل ، لم يكن للاستيلاء على أملاك نور الدين والبيت الزنكي فحسب ، بل لتطويق الصليبيين بالشام من جميع الجهات ما استطاع إلى ذلك سبيلاً » . (التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ص ٥٦ .) (وراجع كتاب قدري قلعجي ٢٢٨ — ٢٣٣) .

٢ — جاء في كتاب الروضتين لأبي شامة عن مسير صلاح الدين إلى حلب وحصاره إياها ، وعن محاولة الملك الصالح ابن نور الدين كسب قلوب الحلبيين ، قوله :

« وسار السلطان إلى حلب ، ونزل على أنف جبل جوشن فوق مشهد الدكة ثالث الشهر ، وامتدّت عساكره إلى الخناقية وإلى السعدى . وكأن من بحلب يظنون أن السلطان لا يقدّم عليهم ، فلم يرعهم إلّا وعساكره قد نازلت حلب ، وخيمه تضرب على جبل جوشن ، وأعلامه قد نشرت ، فخافوا من الحلبيين أن يسلموا البلد كما فعل أهل دمشق ، فأرادوا تطييب قلوب العامة ، فأشير على ابن نور الدين أن يجمعهم في الميدان ، ويقبل عليهم بنفسه ويخاطبهم بنفسه أنهم الوزر والملجأ . فأمر أن ينادى باجتماع الناس إلى ميدان باب العراق ، فاجتمعوا حتى غص الميدان بالناس ، فنزل الصالح من باب الدرجة وصعد من الخندق ووقف في رأس الميدان من الشمال ، وقال لهم : ياأهل حلب ، أنا ربيبكم ونزيلكم واللاجىء إليكم ، كبيركم عندي بمنزلة الأب وشابكم عندي بمنزلة الأخ

وصغيركم عندي يحل محل الولد. قال وخنقته العبرة وسبقته الدمعة وعلا نشيجه، فافتتن الناس، وصاحوا صيحة واحدة ورموا بعمائمهم وضجوا بالبكاء والعويل. وقالوا: نحن عبيدك، وعبيد أبيك، نقاتل بين يديك ونبذل أموالنا وأنفسنا لك. وأقبلوا على الدعاء له والترحم على أبيه» (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ١ ص٢٣٨).

الفصـــل التـاســـع

كارثة الأيوبيين في سهل عسقلان

الفرنجة وأحلام اقتسام وادي النيل

لم يكن بلدوين الرابع المجذوم ليحيد نظره عن مصر، متطلعاً إلى إقامة دولة فرنجية تكون امتداداً طبيعياً لمملكة القدس في وادي النيل الخصيب، ينبوع الغلّات ومصدر الواردات. هذا، وقد عرف الإقطاعي الكبير، فيليب كونت الفلاندر ــ الذي وصل حديثاً إلى الأرض المقدسة على رأس قوة من الفرسان لها شأنها ــ عرف كيف ينعش الحماسة الحربية في محيط الملك وأن يزيّن لحاشيته فخامة أسواق القاهرة، ولكن هذا الأمير الموزّع إمارات لمّا تحتل، والراغب في محاربة المسلمين شرع يفرض على من يسير بركابه شروطاً قاسيةً، لأنه كرجل واسع الطموح، لم يشأ أن يحارب إلّا لحسابه الخاص، ولم ينخدع بلدوين الرابع البتة بحماسة هذه الشخصية، لأن إمبراطور بيزنطة وعده بالمساعدة، ولذا طلب منه أن يوفد إليه سفارة للاتفاق نهائياً على اقتسام وادي النيل والتصرف فيه، قبل الشروع بفتحه.

وأرسل مانويل كومين إلى القدس وفداً يمثله وأنفذ بعده أسطولاً قوياً محملاً بالجنود ومعدّات الحرب أرسى أمام عكا. بيد أن آمال ملك القدس تبخرت هباءً، لأن المفاوضات لم

تسفر عن أية نتيجة، إذ كان. كلا الفريقين يظهران حسن النية، لكن لم يشأ أيٌّ منهما أن يبادر إلى المفاوضات التقليدية في سياسة الضمّ والتقسيم الكلية، لأن هنالك مسائل شائكة حول السلطات ومناطق النفوذ حالت دون مرونة المحادثات. وكما يحدث دائماً لم يتمكن مسؤولو السياسة الفرنجية في المشرق أن يتفقوا على احتمالات عمل مشترك، وجلَّ ما فعلوه أنهم كانوا يطلقون التمنيات من أطراف شفاههم عبر المفاوضين بغير ما كانت تكنّ صدورهم. وفي آخر المطاف غادر يونانيو مانويل كومين القدس، بينما عاد أسطولهم الفخم إلى بيزنطة. أما كونت الفلاندر الذي احتدم غضباً ــ هذا القاتل غير المحتمل للمسلمين، وضارب السيف المتفوّق ــ فأعلنها صراحةً لملك القدس أنه يخشى على رفاقه في السلاح فيضانات النيل وحرارة الشمس ونقص اللحوم. لقد فكّر ــ حسب قول غيّوم الصوري ــ الذي كتب في عذوبة ــ: «انه ليقترف خطيئة لا تغتفر إذا ما سار برجاله نحو بلاد يحتمل أن يموتوا فيها جوعاً». وأبرز هذا الخلاف الناشب بين الفرنجة الضَّعْف المتناهي للسلطة الملكية بعقابيلها المأساوية.

صلاح الدين يحاصر عسقلان

واستعاض كونت الفلاندر عن خسائره بأن قام بغزو سهول سورية الشمالية على رأس مائة من الهيكليين وألفين من الرقباء المسلحين. وحينما علم صلاح الدين بهذا التسلل الفرنجي إلى أراضي المسلمين غادر القاهرة ووصل إلى فلسطين في تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٧٧. فخف بلدوين الرابع يجمع الفرسان الخمسمائة المتبقين لديه لحماية مملكته، وهُرِع إلى عسقلان (عروس سورية) لسدّ الطريق في وجه الغازي، فتحصن داخل أسوارها منتظراً نجدة أودون دي سانتامان وهيكلييه وهيكليي أمير أنطاكية رينو دي شاتيون[١]، المشهور في تاريخ الحملات الصليبية بحماسته في القتال وعدم تفريقه بين حلالٍ أو حرام، ذلك المغامر المتهور الذي جعلته السنون الست عشرة التي أمضاها في سجن حلب أكثر اندفاعاً. كان ابن سيد جيين، هذا الرجل ذو العينين المتقدتين بالشهوة، والذي وصل إلى سورية قبل ثلاثين سنة بعد لويس السابع إبّان الحملة الصليبية الثانية. وقد عُين أميراً لأنطاكية بسبب نشاطه واندفاعاته وعمليات نهبه. فجعل من اقطاعيته منطقة متقدمة مخيفة للفرنجة في بلاد الإسلام، ورفع عالياً شهرة الفرنجة؛ فلم يكتف ببقر بطون المسلمين طوال أيامه، وبتكديس الكنوز في

قلاعه ، بل غزا قبرص منتزعاً إياها من يد ملكها الشرعي إمبراطور بيزنطة ، فاغتاظ الأخير من إساءات هذا المغامر وهدّد بإعلان الحرب على ملك القدس ، مالم تعُد إليه جزيرته . تلك هي صورة هذا الفارس الذي لا يعرف الخوف والمجرد من الضمير ، الذي سيقود المملكة اللاتينية إلى أسوأ المغامرات ، وسيتحمل أمام التاريخ مسؤوليات جساماً رغم أعماله الذائعة الصيت في الآداب القروسطية .

خطأ صلاح الدين أمام عسقلان

هذا ، وقد اقترف صلاح الدين خطأً ، إذ لم يحفل بالحامية الصغيرة المحاصرة داخل عسقلان ؛ وكان باستطاعته أن يأخذها سلماً بعد حصار بضعة أيام ، لأنها خاوية من أي احتياطيّ للمؤن ، وآثر أن يترك جيشه ينتشر عبر السهول المجاورة ، ويحرق الرملة ويحاصر اللد ويتنزه على طول الشاطىء حتى أرسوف ، ولم يصادف في طريقه فرنجيّاً واحداً .

كانت البلاد تبدو مقفرة خاوية ، وراح مماليك صلاح الدين ينشرون الذعر على هواهم في قرى صغيرة تسكنها عائلات فلاحية هادئة ، إذ شرعوا ينهبون ويحرقون ويقتلون حيثما ساروا ، وأخذ الذعر يسود مدينة داود التي بدأ سكانها يتوقعون أن يروا العناصر الأولى من طليعة العدو ، فطفقوا يغادرون المدينة الواطئة ، ويلجؤون إلى الأبراج ، وكان بمقدور الملك بلدوين السيء الحظ أن يرى من أعلى أسوار عسقلان في الليالي الصافية ، قرى رعاياه تحترق الواحدة تلو الأخرى ، فعقد اجتماعاً مع فرسانه وأكد لهم بأنه ليس في وسعهم أن يبقوا مكتوفي الأيدي أمام مشهد تدمير المملكة . وعليهم أن يحاولوا المستحيل ضد صلاح الدين قائلاً لهم : « إن عدونا لا يحرس نفسه ، ووزّع قواته ، ولم يبق حواليه إلّا مماليكه ، وبعض القوات الخفيفة . فإذا استطعنا أن نباغته فسنوقع به الهزيمة . وعندها سيكون بمستطاعنا أن نبيد المجموعات التي تدمر أريافنا الواحدة بعد الأخرى ، وإذا لم نكن نملك التفوق العددي وتفوق الظروف فقمين بنا أن نموت بدلاً من أن نملك بلاداً تتحول إلى رماد أمام أعيننا » .

كان هذا المراهق المجذوم الوحيد الذي لم يطش رشده في الساعات المأساوية ، وذكر أتباعه ــ وهو الفتى الذي يكاد يعجز عن الحركة ــ بواجباتهم ، وحقق لنفسه مجداً أبدياً في إحدى أشهر المعارك التي انتصر فيها الفرنجة بحفنة من الرجال .

نصر الفرنجة في معركة عسقلان (الرملة)

وفي ٢٥ تشرين الثاني (نوفمبر) حين وصل صلاح الدين مع حرسه من المماليك إلى تل هو على مسافة خمسة أميال جنوب شرقي الرملة ساحباً وراءه قوافل الأسرى، بهت دهشة إذ ظهرت أمامهم فجأة هذه القوة الفرنجية التي احتقروها في عسقلان؛ وقد تولى بلدوين القيادة، وهو محمول على نقّالة وعيناه محمومتان، يرافقه أودون دي سانتامان مع ثمانين إخوانياً مسلحين، ورينو دي شاتيون الذي يساوي وحده كتيبة من الرقباء. وسارع صلاح الدين إلى إرسال بعضٍ من فرسانه لتجميع ما تفرق من كتائبه وصار يقاتل بحذر متراجعاً، إلى أن أنهك وفرضت عليه المعركة في نواحي وادي الدهر، حيث كان يحاول أن يحاذي المجرى المحمي للوادي. وفرّ عدد من مماليكه أمام الهجوم الشرس للأعداء، وقتل ملك القدس بعضهم، وهو يشق خلالهم الطريق مع فرسانه الثلاثمائة الشجعان.

ويقول أبو شامة: «إن جميع الذين نجوا من القتل في هذه المعركة لقوا حتفهم في الصحراء الموحشة».

إن معركة عسقلان هذه التي يطلق عليها المؤرخون الغرب اسم معركة الرملة تعتبر أحد أكبر انتصارات الفرنجة في الديار المقدسة.

حصار حارم

وبينما كان الملك المجذوم يكلل أحد أكبر انتصارات الفرنجة في الديار المقدسة كان الوصيّ على مملكته كونت طرابلس وكونت الفلاندر ـــ الرقيق الحاشية الذي كان يخشى على رفاقه قسوة مناخ مصر ـــ يحاصران بلدة حارم شمالي سورية.

ويبعد هذا الموقع الحصين الرابض بين حلب وأنطاكية عن هاتين المدينتين مسيرة يوم واحد للفارس، وهو من أملاك ابن نور الدين التعس، ويتدبر شؤونه وزيره الأرمني الذي تكشف مغامراته المعقدة عن المؤامرات العديدة التي تحدق بالملوك الشرقيين الصغار، يحيك خيوطها أتباعهم المعممون. وحينما ظهر الفرنجة أمام أبواب حارم سحبوا من جيوبهم ـــ بكل تهذيب ـــ معاهدة صداقة قديمة تعترف لهم بالسيادة على حارم، فأغلق السكان دونهم

الأبواب وأحكموا إيصادها، مما اضطر الفرنجة إلى مباشرة الحصار،.. ويظهر من قراءة ما كتبه مؤرخو حوليّاتنا، أن المحاصرين تعاملوا مع القضية وكأنها لعبة تسلية مكتفين ــ حسب قول غيّوم الصوري ــ باللعب بالمكعبات العظمية الصغيرة، وبالتنزه شبه عراة تحت خيامهم، وبكثرة التردد على أنطاكية للّهو في المواخير وقضاء ليالٍ ماجنة في مدينة اللهو المتعهّرة بصحبة الماجنين العابثين، وكانوا ــ بدلاً من أن يقاتلوا ــ يُزجون أوقاتهم في التعطّر. وبينما كانت غالبية رجال كونت الفلاندر وكونت طرابلس داخل حمامات انطاكية وصل ابن نور الدين بدوره إلى أمام حارم، ولكن لم تفتح له الأبواب كذلك، وصار وضع كل من الفريقين شائكاً.

كان الرجال يقومون بالحراسة على صهوات جيادهم ينشرون الرايات والبيارق أو يتبادلون التحية عن بعد تحت النظرات الجائعة لسكان حارم الذين يراقبونهم من أعلى أسوارهم، دون أن يوافق أذواقهم سلوكُ أولئك العابثين، لأن الخانات كانت فارغة والبطون خاوية. وبعد عدد من المفاوضات غير الهادفة تمنّى الفريقان المحاصران لو يتفقان، وبهدف البدء بالمحادثات أرسل ابن نور الدين سرّاً قافلة محملة بالهدايا إلى كونت طرابلس، تجاوزت أمانيه، فأمر بطيّ خيامه، وانسحب إلى إمارته، تاركاً رفاقه في مواقعهم. وقد شكَّ البارونات الآخرون بالهدف الحقيقي للانسحاب، فلم يكن في نيتهم أن يكونوا مضرب المثل بالسذاجة، وأفهموا ابن نور الدين أنهم قابلون للإغراء في سهولة ورحلوا بدورهم، وانسحب كونت الفلاندر إلى مراكبه وعاد أدراجه في طريق أوربا. وأمّا الصالح فدخل حارم وأمر بقطع بعض الرؤوس وأعاد النظام إلى سابق عهده.

صلاح الدين وسحق الهيكليين في مرجعيون

وبعد سنة من الهدوء سببه الطاعون المتفشي لدى هؤلاء وأولئك استؤنفت الأعمال العدائية بين المسلمين والفرنجة. وفي نيسان (ابريل) ١١٧٩ حدثت المسألة المسماة قضية وادي العيون التي أساء فيها ملك القدس معاملة بعض الرعاة المسلمين، واستولى على قطعانهم، فقام صلاح الدين بعد شهر من ذلك بمحاصرة قلعة معبر يعقوب، وأتلف غلّات المستعمرات الفرنجية، وسحق الهيكليين في مرجعيون، ورغم ما بذله بلدوين الرابع من جهدٍ فائق الحد لمساعدة هذا الموقع سقط عنوةً، وهلكت حاميته في لهب الحرائق، وأسر صلاح

الدين عدداً من الرجالات البارزين بينهم سيّد الهيكل، وشدد المنتصرون يد القسوة انتقاماً لكارثة عسقلان .. ويتحدث ابن الأثير عن تلك الواقعة بقوله: «كانت رائحة الجثث التي خلفناها هنا وهناك من الشدة بحيث تسببت بوباء مات من جرائه عشرة أمراء من بطانة صلاح الدين»[٢]. ويضيف المقريزي: «إن المسلمين استولوا على مائة ألف قطعة من السلاح وكميّةٍ وافرة من المؤن. وهدم صلاح الدين المُوقع وردم ما فيه من آبار»[٣].

وقد شاهد بلدوين الرابع من أعلى أسوار طبريّة، احتراق هذه القلعة التي سببت له الكثير من المتاعب، إذ تعتبر من أفضل دفاعات الجليل، فاشتدت عليهِ وطأة المرض أكثر من أي وقت مضى، ولأن علته كانت تتأكلّه حياً فاوض صلاح الدين على هدنة سنتين، لكنها لا تسري إلّا على مملكة القدس. ولأن كونت طرابلس وقادة التنظيمات العسكرية الأخرى رفضوا شروطها فقد غزا صلاح الدين بكل هدوء إقطاعاتهم في فلسطين. «وكان ــ كما يقول غيّوم الصوري ــ يُجري خيوله على أعنّتها تأخذ من أطراف البلاد، على مراحل قصيرة.».

حواشي الفصـل التـاسـع

١ ـــ رينو دي شاتيون (ت ١٠٨٧) Renauld de chatillon ويعرف باسم أرناط عند المؤرخين العرب. من القادة الصليبيين اتصف بالتعصب والرعونة والعجرفة، اعتبره المؤرخ م ج كينغ «نموذجاً للفارس اللص في عصره» بينما عده أبو شامة: «أغدر الفرنجة وأخبثها، وأنقضها للمواثيق المحكمة والأيمان المبرمة».. كان أميراً لانطاكية، أسره مجد الدين بن الداية أحد أمراء نور الدين زنكي عام ١١٦٠ وظل سجيناً في قلعة حلب إلى أن أطلق كمشتكين سراحه عام ١١٧٧ م متحالفاً بذلك مع الفرنجة ضد صلاح الدين بذلك.

وأصبح سيداً للكرك بزواجه السياسي من اتينت دي ميلي، فغدا أميراً على تلك المنطقة الهامة من جنوبي بلاد الشام لتحكمها بطرق القوافل بين مصر والشام. فكان يتعرض للقوافل الآمنة، ناقضاً بذلك المعاهدة التي أبرمها الصليبيون مع صلاح الدين الذي أقسم ليقتلنه، لاسيما بعد مغامرته الطائشة قرب شواطىء الحجاز، ومحاولته الاستيلاء على قبر الرسول (ﷺ).

قاد بأعماله الرعناء «مملكة الفرنجة إلى أسوأ المغامرات» ـــ حسب قول شاندور ـــ إذ عجل بصدام المسلمين والصليبيين في معركة حطين، فوقع أسيراً لدى صلاح الدين الذي وفى بنذره وقتله بيده.

٢ ـــ ابن الأثير ج ١١ ص ٣٠١ ـــ ٣٠٣

وجاء في كتاب الروضتين في فصل تخريب بيت الأحزان، (قلعة معبر يعقوب) نقلاً عن العماد الأصفهاني قوله:

«جمع السلطان جموعاً كثيرة من الخيالة والرجالة، فوصل إلى المخاضة يوم السبت تاسع عشر الشهر، والحصن مبني دونها من الغرب، فخيم منها بالقرب، وضاق ذلك المرج عن العسكر، واحتاج إلى نصب ستائر لأجل المنجنيقات، فركب السلطان بكرة الأحد إلى ضياع صفد، وكانت قلعة صفد يومئذ للداوية، وهو عشر البلية، وأمر بقطع كرومها وحمل أخشابها، فأخذ كل ما احتاج إليه. ورجع بعد الظهر، وزحفوا إلى الحصن بعد العصر، فما أمسى المساء إلا وهم قد استولوا على الباشورة، وانتقلوا بكليتهم إليها، وباتوا طوال الليل يحرسون، وخافوا أن يفتح الفرنج الأبواب ويغيروا عليهم على غرة. وإذا بالفرنج قد أوقدوا خلف كل باب ناراً ليأمنوا من المسلمين اغتراراً، فاطمأن المسلمون، وقالوا: ما بقي إلا نقب البرج، ففرقه السلطان على الأمراء فأخذ فرخشاه

الجانب القبلي، وأخذ السلطان الجانب الشمالي، وقصد ناصر الدين بن شيركوه بقربه نقباً؛ وكذلك تقي الدين وكل كبير في الدولة جعل له قسماً. وكان البرج محكم البناء فصعب نقبه، لكن ما انقضى يوم الأحد إلّا وقد تم نقب السلطان وعلق، وحشي بالحطب ليلة الاثنين وحرّق. وكان النقب في طول ثلاثين ذراعاً في عرض ثلاث أذرع، وكان عرض السور تسع أذرع، فما تأثر بذلك، فاحتاج السلطان صبيحة يوم الاثنين إلى إطفاء النيران ليتم نقبه. وقال من جاء بقربة ماء فله دينار. قال العماد: فرأيت الناس للقرب حاملين، ولأوعية الماء ناقلين، حتى أغرقوا تلك الثقوب فخمدت فعاد نقابوها وقد بردت. فخرقوه وعمقوه، وفتحوه وفتقوه، وشقوا حجره وفلقوه، ثم حشوه وعلقوه، واستظهروا فيه يوم الثلاثاء والأربعاء ثم أحرقوه واشتدّ الحرص عليه، لأن الخبر أتاهم بأنّ الفرنج قد اجتمعوا بطبرية في جمع كثير. فلما أصبح يوم الخميس الرابع والعشرين من ربيع الأوّل وتعالى النهار انقض الجدار، وتباشرت الأبرار. وكان الفرنج قد جمعوا وراء ذلك الواقع حطباً، فلما وقع الجدار، دخلت الرياح فردت النار عليهم، وأحرقت بيوتهم وطائفة منهم، فاجتمعوا إلى الجانب البعيد من النار، وطلبوا الأمان. فلما خمدت النيران، دخل الناس وقتلوا وأسروا، وغنموا مائة ألف قطعة من الحديد من جميع أنواع الأسلحة، وشيئاً كثيراً من الأقوات وغيرها وجيء بالأسارى إلى السلطان، فمن كان مرتداً أو رامياً ضربت عنقه، وأكثر من أسر قتله في الطريق الغزاة المطوّعة. وكان عدّة الأسارى نحو سبعمائة. وخلص من الأسر أكثر من مائة مسلم، وسير باقي الأسارى إلى دمشق. وأقام السلطان في منزلته حتى هدوا الحصن إلى الأساس، وطمّ جب ماء معين كانوا حفروه في وسطه ورمي فيه القتلى. وكان عند السلطان رسول القمص معاق، وهو يشاهد بلية أهل ملته. وقد كان السلطان بذل لهم في هدمه، ستين ألف دينار فلم يفعلوا، فزادهم حتى بلغ مائة ألف فأبوا. وكان مدّة المقام على الحصن في أيام فتحه وبعدها أربعة عشر يوماً، وبعد ذلك سار السلطان إلى أعمال طبرية وصور وبيروت وغيرها فأغار عليها، وأرجف قلوبهم بوصوله إليها.» (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ١١).

٣ــ المقريزي: السلوك ج ص ٦٧ ــ ٦٩.

الفصــل العاشــر

من ضفاف الفرات إلى ضفاف الأردن

مملكة أرمينية الصغرى وتحالفها مع ممالك الفرنجة

عند الخروج من إمارة أنطاكية من جهة الشمال الغربي تقوم أرمينية الصغرى، التي كان يحكمها عهد ذاك الأمير روبين الثالث الذي أعاد التحالف التقليدي بين فرنسا والأرمن نتيجة لزواجه من إيزابيل ابنة أونفروا الثالث دي تورون واتينيت دي ميلي. وكان نزّاعاً إلى تأجيج الخصومة مع جاره القوي السلطان في آسية الصغرى.

كان يكنّ الكراهية للسلجوقيين الأتراك الذين أنزل أجدادهم ضربة مميتة بالحياة السياسية والثقافية للأرمن في عقر وطنهم، ويذكر جيداً أن أولئك السلجوقيين المتعصبين القساة القلوب قد أجبروا شعبه على الهرب نحو الغرب لتفادي مجابهتهم وبطشهم قبل قرن خلا من تاريخ ارتقائه سدة الحكم وبدت كيليكية الوعرة المسالك للأرمن مكاناً مناسباً لتأسيس وتكوين مملكة قومية. وبحكم ذلك الواقع، وجد الأرمن أنفسهم بالضرورة ــ وهم الأعداء التقليديون وراثياً للأتراك ــ حلفاء لملوك الفرنجة الذين أسسوا الدول الفرنجية في سورية

الشمالية، واتحدوا معهم اتحاداً صميمياً بقدر ما أدركوا أن معركة وجودهم في مواجهة الإسلام المناضل ترتبط بتضامنهم مع بقاء الدول الفرنجية في سورية.

وهكذا كان الأرمن يؤلفون الامتداد لهذا السد الذي أقامه الفرنجة في وجه موجات العمق الإسلامية، التي كادت ــ أكثر من مرة ــ أن تغرق العالم القديم الذي كان ما يزال فاقداً التوازن بسبب صدمات الهجمات الضارية، وكان روبين الثالث قد أغار على مملكة قونية واستولى على بعض قراها التركية.

صلاح الدين يغزو أرمينية

وطلب قلج أرسلان من صلاح الدين إسداء يد عونه لطرد الغزاة من بلاده؛ لكن هذا الأخير ــ وهو السياسي البعيد النظر ــ حرص جيداً على ألا يعمل لحساب غيره، وفضَّل أن يباشر لحسابه حرباً ضد ملك أرمينية الصغرى، المذنب في إقامته علاقات ودية مع أعداء الإسلام. فغزا بلاده وسحق جيشه وحاصر عاصمته وأخذها عنوةً ونهبها وفرض شروط الصلح التي أملاها. واضطر روبين الثالث إلى إعادة ما كان أخذه وشرع يطلق سراح الأسرى الذين كانوا لديه، وأن يدفع فوق ذلك نفقات الحرب.

زعامة صلاح الدين وميثاق الصداقة

وشكر سلطان قونية صلاح الدين حارّ الشكر، وتمنى عليه باسم جميع الدول الصغيرة في تلك المناطق، أن يكون من الآن فصاعداً الوسيط في مصالحها، لتسهيل إبرام اتفاقية صلح عام؛ يكون هو فيه بمثابة راعيها الأعلى. وبهذا أصبح صلاح الدين حكماً في النزاعات المحلية المحتملة التي قد تقع بين الأمراء الكثر في هذا الجزء من آسية الصغرى على حساب وحدة الشعوب المسلمة. وهكذا عظم نفوذه في العالم الإسلامي، وائتلق نجمه، وأصبح في مقدوره ــ مستنداً إلى القاهرة ودمشق وحلب وحلفائه الجدد في مابين النهرين السعداء بالدوران في فلكه ــ أن ينتهج سياسة بارعةً رائعة. وفي ٢٠ تشرين الأول (اكتوبر) ١١٨٠ أُبرم في تظاهرة احتفالية على ضفّة الفرات قرب جرابلس ميثاق صداقة ــ أو معاهدة عدم اعتداء كما نقول اليوم ــ بينه وبين قلج ارسلان وسلاطين قونية وسنجار وأربيل وماردين

وديار بكر وروبين الثالث ملك أرمينية الصغرى ــ آخر الذين هزمهم الجندي الكردي العظيم ــ وأقيمت الولائم لدى جميع قبائل مابين النهرين، احتفالاً بهذا الصلح العام.

وعاد صلاح الدين إلى مصر، بعد أن سرح جنده بين مديح الشعراء الذين شرعوا يتحدثون من الآن فصاعداً عن الأسطورة المدهشة التي بطلها فارس الرحمن المخيف الجديد.

وكان عام ١١٨٠ سنة شؤم بالنسبة لكثير من الملوك: إذ فقدت فرنسا لويس السابع، وروما البابا الكسندر الثالث، وبيزنطة مانويل كومين، وبدورها فقدت بغداد الخليفة العباسي المستضيء، والموصل حاكمها سيف الدين غازي. وخلف فيليب أوغست لويس السابع، ولوسيوس الثالث البابا الكسندر الثالث، والكسي الثاني مانويل كومين؛ والناصر المستضيء.

وما إن تسلّم أمير المؤمنين الجديد بردة النبي وقضيبه، حتى سارع إلى مراسلة صلاح الدين بكتب ممهورة بخاتمه تؤكد الألقاب التي سبق أن منحه إياها سلفه.

حلب بؤرة صراع جديد

وفي السنة الثانية ١٨ تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٨١ أقعد المرض ابن نور الدين، وبعد أربعة أيام بلغت حالته من السوء بحيث أغلقت أبواب قلعة حلب إذ كان يُحتَضَر؛ وجمع أمراءَه وجعلهم يقسمون على التخلص من وصاية صلاح الدين، وأن يبقوا موالين لسلطان الموصل الذي عينه خليفة له.

كان هذا الإجراء يعني فسخ المعاهدة التي سبق أن أبرمها مع صلاح الدين، وتعريض مدينة حلب لشرور فظيعة لم تكن في الحسبان. وما إن دفن ابن نور الدين حتى قدم سلطان الموصل إلى حلب. لكن، وتفادياً للصعوبات التي كان سيواجهها مع الأيوبيين، وبناءً على نصيحة وزيره المتزمت الثقيل الظل، فضّل أن يبادل أخاه عماد الدين سلطنة سنجار الأقل بريقاً، ولكن الأكثر هدوءاً بسلطنة حلب. وحين استقر في حلب في ١٩ أيار (مايو) ١١٨٢ أطلق على نفسه لقب «سلطان سورية». وهكذا عادت حلب ــ كرة أخرى ــ بؤرة للاضطراب.

إعادة اليمن إلى الحظيرة الأيوبية

وفيما كان كل شيء يعاد بحثه في شمالي سورية، شرع صلاح الدين يعيد فتح اليمن، وسيتذكر قراؤنا أن تلك المناطق القصيّة اعترفت بسلطة صلاح الدين الذي أناب عنه فيها أخاه طوران شاه، وأوكل إليه أمر إدارتها.

لكن طوران شاه لم يعجبه مقامه الجديد، فعاد إلى سورية وحصل على حاكمية دمشق التي تهفو إليها القلوب، ثم حاكمية بعلبك وأخيراً حاكمية الاسكندرية حيث فضل أن يموت دونما بريق مجد، مؤثراً بذخ الطعام ودافىء أجواء الحريم.

وبعد وفاته رفض الأمراء الذين ترك لهم إدارة اليمن أن يرسلوا إلى صلاح الدين الخراج، وتبوأ كل منهم مقامه حيث هو، صاماً أذنيه عن طلبات أمناء الخزينة في القاهرة. وعزل صلاح الدين الأمراء المتمردين، وعيّن مكانهم سيف الإسلام الذي شخص إلى اليمن على رأس جيشه فقاتل العصاة بعض الوقت، وتمكن من طردهم، ودفع بانتظام المستحقات للإدارة المركزية في مصر.

مغامرة رينو دي شاتيون وخرق الهدنة بين الفرنجة والمسلمين

وفجأة طاف الشرق نبأ مذهلٌ كان له وقع الصاعقة: كان رينو دي شاتيون يتأهب لضرب الإسلام في أقدس مقدساته، في مكّة المكرمة، وتدنيس قبر الرسول في المدينة، وإرهاب المسلمين بهذا المشروع الذي لم يسمع قط بمثله، ولا سابقة له في التاريخ. كان ينوي أن يمحو الكعبة بلهيب النيران، وأن يجتاح المدينة المنوّرة ومكـة المكرمـة أولى الحرمين الشريفين، والتي يتجه المؤمنون يومياً نحوها خمس مرات في صلاة يؤديها مائتا مليون من البشر، والتي تعجّ ــ كل عام ــ بحشود قادمة من أصقاع المعمورة للحج وللتبرك بلمس الحجر الأسود الشهير المغلف بغطائه الفضيّ، ولرؤية الحرم الشريف يرتفع في الأفق، والسير فوق الأرض الملتهبة تحت شمس الجزيرة العربية التي لا تحتمل... مكة جنة المؤمنين، وموئل الصرافين من أصحاب الملايين.

وبدأ رينو دي شاتيون حملته. كان هدفه الأول المدينة. وبعد مسيرة غريبة اجتاز فيها

مسافة حوالي ثمانمائة كيلو متر عبر الصحراء، دخل الحجاز وأحرق تبوك وتيماء ــ التي اعتبرها كما يقول صلاح الدين في رسالته الموجهة إلى خليفة المسلمين ببغداد قاعة الانتظار بالنسبة إلى المدينة ــ ثم اتجه نحو المدينة المقدسة. ولكن حاكم دمشق المذهول دخل أراضي الكرك والشوبك، واضطر بحركته السريعة هذه رينو دي شاتيون إلى إرجاء تنفيذ مشاريعه. ومع ذلك استولى في طريق عودته السريع نحو الجليل على قافلة للحجاج عظيمة الثراء كانت متجهةً من دمشق جنوباً في طريقها إلى مكة، مع صيادلتها وأطباء عيونها وغاسلي أمواتها، والمحمل السوري، وهو هودج هرمي يجلله الجوخ الأخضر المطرّز بالذهب. لقد جلبت له هذه العملية مائتي ألف مثقال من الذهب، بيد أنه ستعقبها متاعب استخف بها، ولكن إذا لم يأبه رينو دي شاتيون بالنتائج السياسية لهذه العملية، فلم يكن الأمر كذلك في بلاط القدس؛ ذلك أن هذه القافلة من الحجّاج الواثقين بالهدنة النافذة بين بلدوين الرابع وصلاح الدين لم تتردد في عبور الأراضي الخاضعة للفرنجة، وكان رينو دي شاتيون قد خان تعهّد ملكه، وهو يسوق هؤلاء الحجاج أسرى إلى حصنه في الكرك، ويستولي على أموالهم والأضاحي المخصصة للكعبة. وكان يمكن لهذه المخالفة أن تؤدي إلى إلغاء الهدنة. ووجّه صلاح الدين احتجاجاً شديد اللهجة إلى ملك القدس طالباً منه إطلاق سراح الدمشقيين فوراً وإعادة القافلة وحمولتها من السجاد والذهب وخمسة وعشرين قنطاراً من الشموع المنهوبة. وعلى جناح السرعة أرسل بلدوين المتعض من هذه الفعلة إلى عامله فرساناً من الهيكل والاسبتار ليلومه على موقفه المخادع، ويأمره بأن يعيد كل ما أخذه، ولكن المجرم لم يصدع بالأمر وأجاب الرسل الأتقياء المكلفين بمعاقبته، بكل وقاحة: «ماذا لو حنث الملك بوعده؟» متجاهلاً سلطة سيده المُضْعَف بفعل مرضه الخبيث. كان رينو دي شاتيون القائم عند إحدى النقاط الأكثر حساسية من الحد الاتفاقي الفاصل بين الإسلام والفرنجة لا يتردّد البتة في الاشتباك مع السلطة الملكية التي كان شغورها المؤقت يتيح له كل المجازفات.

صلاح الدين يهاجم مملكة القدس

واعتذر الملك المجذوم لصلاح الدين؛ لكن ألقت عاصفة عهد ذاك على الشاطىء المصري مركباً كبيراً قادماً من أبولية، وعلى متنه ألف وخمسمائة راكب. فأسر صلاح الدين الفرنجة الذين قيضهم له القدر، وأعدّ العدة لمهاجمة مملكة القدس. وفي ١١ أيار (مايو)

غادر القاهرة مرةً أخرى وتوقف قليلاً في قصره الجديد (الصدر)، وشارف خلال ستة أيام إيلات، فعقد ملك القدس مجلسه الحربي الذي قرر حشد جميع القوات الجاهزة في فلسطين في منطقة الكرك لسدّ الطريق أمام تقدم صلاح الدين. ولكن الفرنجة لم يتمكنوا من اللحاق بالجيش الإسلامي الذي انطلق من العقبة سالكاً درب الحج، أي الطريق الكبرى الممتدة بين مصر والشام والموازية للطريق الرومانية القديمة. وعسكر المسلمون في الحسا ثم في الجربا. ولما وصل فرسان صلاح الدين إلى قرب الشوبك أحرقوا سائر الغلال واستأصلوا الكرمة. وكتب صلاح الدين إلى خليفة بغداد: «لقد وصل خادمك إلى هذه الأنحاء، فأتت النار على نسغ النخيل، وطبق حكم السيف شيئاً فشيئاً».

ثم استدار صلاح الدين شرقاً سالكاً طريق الأزرق وبصرى في جبل حوران، المشهورة بذكرى يوضاس ومكابي الذي حالما احتل هذه المدينة عرض كل ذكورها على حد سيفه.

سقوط قلعة حبس جلداق

ووصل صلاح الدين إلى دمشق في شهر حزيران (يونيو)، وبينما كان يتجه شمالاً جنوب العاصمة السورية كان ابن أخيه يغزو الجليل ويستولي على القلعة التي توصف بأنها لا تقهر، قلعة حبس جلداق المشرفة من الجنوب الشرقي لبحيرة طبرية على الضفة الشمالية لنهر اليرموك، ومنها تراقب أرض سويت التابعة لإمارة الجليل. وكانت هذه القلعة الخاضعة لقيادة فولك الطبري محفورةً في الصخر وتتألف من ثلاثة طوابق للسكن، بعضها فوق بعض، وتتصل فيما بينها بممرّ ضيق على حافّة الهوّات، لا يتسع إلّا لمرور شخص واحد. ولم يكلف احتلال القلعة المسلمين سوى خمسة أيام.

وقد فُسّر سقوط هذا الحصن الهام تفسيراً جائراً في القدس. إذ ذهبت بعض الأقاويل الهامسة إلى حدّ القول إن فولك الطبري باع المسلمين الحصن.

والحقيقة أن الحامية لم تكن تضم سوى القليل من الفرسان والرقباء الفرنجة الذين يعملون على تجنيد عددٍ من المرتزقة المحليين لحساب المملكة. وبعد هذا الاختراق السريع داخل أراضي العدو، أخذ صلاح الدين طريق دمشق جارّاً وراءه ألف أسير بيعوا في سوق النخاسة، وعشرين ألف رأس من الماشية.

ظهور المسلمين أمام بيروت وصمود الفرنجة

وأثر استراحة بضعة أسابيع في دمشق، انطلق صلاح الدين إلى الجهاد كرّة ثانية، وهدفه فتح سماريا والجليل؛ ولكن لعدم تمكنه من اختراق دفاعات الفرنجة حوالي افرابالا إلى الجنوب الشرقي من القاصرة، لشدة ما استبسل المدافعون عنها، إذ قاتلوا قتالاً مجيداً، وآثروا الموت في مواقعهم على مغادرة الموقع، انطلق صلاح الدين شمالاً والتحق بثقل جيشه بين رياق وجب جنين، ثم عبر لبنان وظهر أمام بيروت. وتتابعت الهجمات على المدينة طوال ثلاثة أيام في تواتر كان من الدقة بحيث لم يجد معه المحاصرون وقتاً للنوم والطعام.

ولم يتمكن صلاح الدين رغم تصميمه من دخول المرفأ اللبناني الكبير. واعتبر هذا الفشل دليلاً على أن المملكة الفرنجية في القدس ما زالت قادرة على الصمود، وعليه بالتالي ألّا يعتقد بأن في وسعه تصفيتها من الوجود بمجرد قيامه بتنزهات عسكرية.

كانت إرادة الصمود لدى بلدوين الرابع وأتباعه الأوفياء حقيقة واقعة ـــ لقد لعبت هذه الأسرة الأنجوية ـــ حتى وهي ممثلة بمراهق مجذوم ـــ دورها بحيوية كحامية للدول الفرنجية في سورية.

رينو دي شاتيون ومشاريعه للاستيلاء على المقدسات الإسلامية

وفيما كان الأسقف أود Euodes يطرد المسلمين من الساحل اللبناني، كان رينو دي شاتيون ـــ الذي لم يتخلّ قط عن مشروعه في تحويل الكعبة ومكة إلى هباء وجعل الإسلام يرتجف بالاستيلاء على قبر النبي المقدس ـــ يحشد في قلعته الشامخة بكبرياء الرفاق المعدّين لهذه الملحمة، والذين لم تغرهم الناحية الفكرية لهذه المغامرة الفريدة وحسب، وإنما أخذت ألبابهم كذلك الكنوز المكدسة منذ قرون في المدينة المقدسة المترفة. كان رينودي شاتيون يلزمه رجال من معدنه قساة، شجعان عديمو الشرف... وقد وجد من طرفه بارونات يبحثون عن إمارة، وفرنجة مغامرين مريبين يعرفون كيف يتحدّون الخير والشرّ، يتحدّون الملك وعرّافيه السيئي الحظ الذين لم يقدموا لهم ثروة؛ ولم يقطعوهم الأراضي، فهرعوا لوضع أنفسهم تحت تصرف هذا «السماوي» رينو دي شاتيون، الذي كان يهدهد أحلامهم بأمجاد البطولة كشركاء في انتصاره.

وجمع سيد الكرك رجاله وغادر إقطاعيته، وإذ سبق له أن فشل في عبور الصحراء ومهاجمة المدينة عزم هذه المرة على مداهمة الأماكن الإسلامية المقدسة بحراً عبر الساحل الغربي بوضعه أسطولاً في البحر الأحمر.

وهكذا، فإنّ الأفّاق، الذي سبق له أن قام بمسيرات كبرى على صهوات الخيل في كيليكية ومابين النهرين، وفلسطين. وسهوب وادي عربة، لم يتردد في تحويل فرسانه إلى قراصنة، وحملهم على مهاجمة السفن الإسلامية الماخرة عباب البحر الأحمر، معرقلين تجارتها، قاطعين طريق الحج بين افريقية وآسية، مندفعين من شاطىء إلى آخر، محرقين الموانىء، لينزلوا أخيراً إلى اليابسة في نقطة مختارة لينقضوا على مكة المبهورة ببريق انتصاراتهم. وبلغت هذه الحملة التي كانت تثير شهية أكثر المتخوفين حافة النجاح، ويذهب ابن جبير إلى أن رينودي شاتيون كان يريد الاستيلاء على رفات النبي محمد (ﷺ) ونقلها إلى أراضيه ليحج المسلمون إليه ويدفعوا له رسم المرور والحماية[1].

وقبل بضع سنوات خلت جهزت حكومة القاهرة اسطولاً صغيراً من القراصنة بقيادة ضباط يعرفون لهجة اللاتين متنكرين بثياب الفرنجة، وتمكنوا من دخول مرفأ صور فنهبوا وأحرقوا بعض السفن واستولوا وهم في طريق عودتهم على بعض المراكب الشراعية المحملة بالحجاج الذين بيعوا كعبيد. أمّا رينو دي شاتيون فقد تخيّل ما هو أفضل. إذ بنى، في الكرك (بلاشك) خمس سفن كبرى للنقل ومراكب خفيفة وسريعة، حُملت أجزاؤها على ظهور الجمال إلى شواطىء البحر الأحمر، وهناك جمعّت وشحنت بالذخائر والمؤن والرجال، وبعد أن سلحّت بدأت أعمال الصيد. فطوال عدة أشهر كان القراصنة يندفعون عبر البحر الأحمر على متن أسطولهم الشبّح، محرقين موانىء الحجاز واليمن وسفن المسلمين، مكدّسين الغنائم والهَدْي المخصص لمكة، قاتلين الحجاج وهم في لباس الإحرام... لقد شوهدوا على طول الشاطىء النوبي، ونزلوا في عيذاب، ميناء عبور القوافل القادمة من أسوان وأدفو وكوس، وأحرقوا مافيه من سفن، ونهبوا أكداس الأغذية المعدّة لتموين المدينة ومكة. لقد شوهدوا في كل مكان، مُزْبدين البحر، قاطعين كل ملاحة، باثين الذعر في نفوس القوافل المقدسة، التي كانت تسرع هرباً من الموانىء والشواطىء التي يرتادها الأسطول الفرنجي..

وأخيراً، نزل رينو دي شاتيون ورجاله بين المدينة ومكة، في رابغ والحورة. هذا، ويلاحظ

أن سيد الكرك كان يعرف معرفة عجيبة طوبوغرافية هذه الأماكن المحرمة على غير المسلمين، إذ سلك برفاقه طريق قوافل الحجاج التي كانت تنطلق من رابغ، وتعبر وادياً قفراً يبعث على اليأس، تحيط به الجبال والصخور البازلتية السوداء الصالحة للكمائن؛ ذلك الطريق الملهم بما تدل عليه القبور والعظام، والذي يقود إلى الأماكن الإسلامية المقدسة، حتى غدا على مسيرة يوم واحد للراكب الخيال من المدينة وواحتها.

وتطوّع بعض الأعراب المتسرعين إلى النهب، ليدلوا الغزاة على المدينتين المقدستين. وقد قالوا لهم «نحن لا نزرع القمح ولا الدخن (الذرة البيضاء) غلتنا هي من عائدات الحج» وذُعر الإسلام وصار سكان المدينة ومكة يتوجسون خيفة من أن يظهر— في أية لحظة— الفرسان الملعونون. ووصف المؤرخون العرب الذعر الذي انتاب مصر وبلاد العرب كلها. وكما كتب أبو شامة: «لقد كانت رهبة سكان هذه المناطق رهبة مفاجئة، لقد كانوا يرون ما يشبه بروق الشؤم الخاطفة نتيجة لهذا الغزو المباغت. ولم يسمع قط في ديار الإسلام مثل هذا النبأ، وقطعاً لم يذكر أحد أن مسيحيين ما وصلوا إلى هذه الديار. واعتقد الناس في كل مكان أنّه أزف موعد قيام الساعة»(٢).

تدابير الأيوبيين المضادة وسقوط المغامرة

ومع ذلك فالتدابير المضادة لم يطل انتظارها، ففي القاهرة، اتخذ الملك العادل أخو صلاح الدين قرارات حازمة، آمراً أن تفكك فوراً السفن المائتان التي كانت تحمي مدخل ميناء دمياط، وأن تنقل برّاً إلى القلزم (البحر الأحمر) حيث أعيد تركيبها وتسليحها ووضعت في البحر، وجمع في الوقت ذاته بحّارة شديدي البأس بالغي الشجاعة من المغاربة بقيادة حسام الدين لؤلؤ، وحالما تم تجهيز الأسطول المصري انطلق، وأدرك السفن الافرنجية في الحورة، ولم يبد الفرنجة أية مقاومة أو شجاعة تذكر، فأكرهوا على مغادرة سفنهم واللجوء إلى الجبال الساحلية، ثم حصروا في أحد الشعاب التي تقود إلى مكة. وهناك ألفوا أنفسهم مرهقين، بلا ماء، مصابين بالحمّى وسط هذا المناخ الحار القاسي، وتهاجمهم من الخلف القبائل البدوية— نفسها التي عرضت عليهم إيصالهم إلى الكعبة؛ مدحورين بلا زاد ولا موارد، فذبح أكثرهم ووقع من سلم بالأسر. ووحده رينودي شاتيون استطاع الإفلات

والهرب، دون أن يعرف أحد كيف تسنّى له ذلك، واقتيد بعض الأسرى إلى المدينة ليُرجموا يوم عيد الأضحى، بينما سيق الآخرون إلى القاهرة أو الاسكندرية. ومن المؤثر أن تقرأ رواية ابن جبير في وصف وصول هؤلاء الأسرى إلى مصر. «بينما كنا في الاسكندرية في شهر نيسان (ابريل) ١١٨٣ شهدنا تجمع جمهور فائق الحد؛ قادماً لرؤية الأسرى الافرنج الذين كانوا سيمرّون في المدينة وهم مُعْتلون الجمال ووجوههم إلى الخلف، على نفخ الأبواق وقرع الصنج. وحينما سألنا أجبنا بحكاية تثير الشفقة أو الرعب في آنٍ معاً. كان فريق من الفرنجة قد بنى في أرضه القريبة من بحر القلزم (البحر الأحمر) عدداً من السفن، فككوها ونقلوها عبر الصحراء على جمال البدو، إلى الساحل حيث أعيد تركيبها، وأعدت للإبحار. لقد مخر هذا الأسطول عباب البحر الأحمر، واقترف الفرنجة الكثير من الجرائم النكراء، التي لم يسمع بمثلها قط منذ ظهور الإسلام، وأسوأ ما ارتكبوه من فعال — تأبى أسماعنا أن تلتقطه — هو التجرؤ على التقدم نحو مكة والمدينة...»(٣).

وبعد أن عرض رجال رينو دي شاتيون الأسرى على الشعب جندلت رؤوسهم علناً يوم عيد الأضحى كيلا يبقى منهم أحد — كما نص قرار الإعدام — وليكونوا عبرة للفرنجة، إذا خطر ببالهم أن يعاودوا الكرة، على طرق البحر الأحمر والديار المقدسة. وهكذا انتهت تلك المغامرة التي قادت عدداً مغامراً من المسيحيين حتى أبواب مكة. ولكن رينو دي شاتيون لم يمت. ولن يجد صلاح الدين بعد الآن عدواً أعند منه.

الحلف الإسلامي الفرنجي غير المقدس

وحينما عاد صلاح الدين إلى دمشق علم بنبأ فاجع، وهو أن الموصل تتفاوض مع القدس، لتنسيق جهودهما وسياستهما بهدف انتزاع سورية من الأيوبيين. وكتب صلاح الدين إلى خليفة بغداد: «لقد تأكدت أن أهل الموصل اتفقوا مع أعدى أعداء المؤمنين، وقد حاولوا عبثاً إبقاء اتفاقهم سرّاً، ولكن كتابات العصاة تشهد عليهم — فضلاً عن شهادة الذين حضروا كتابة المعاهدة — فقدتعهد سلطان الموصل بأن يسلّم الفرنجة حصون المسلمين في تبنين وبانياس، وبأن يعيدوا لهم أسراهم، ليس فقط في المدن الواقعة تحت أيديهم، بل كذلك في المدن التي يأملون الحصول عليها بمعونة ملك القدس»(٤). وهذا الاتفاق ساري المفعول

لمدة إحدى عشرة سنة .. هكذا كان حاكم الموصل يعرض على بلدوين الرابع ميثاق مساعدة متبادلة، لأنه كان يخشى السيطرة السياسية التي يمارسها صلاح الدين ــ كما رأينا ــ على أمراء مابين النهرين الثانويين ... وكان حاكم حلب ابن نور الدين بدوره ــ وهو آخر مدافع عن المصالح الزنكية في سورية ــ وفياً للوعود التي قطعها على نفسه وهو على فراش الموت، فإذا هو يقطع علاقاته رسمياً مع دمشق، ويضع نفسه تحت تصرف هذا الحلف الإسلامي ــ الفرنجي المذهل. كان هدف الحلفاء واضحاً: الانقضاض على دمشق في وقت واحد عبر واديي العاصي والأردن.

صلاح الدين يوجه ضربته الأولى للأعداء

ووجه صلاح الدين دون أن ينتظر نتائج المفاوضات القائمة بين الموصل وحلب والقدس الضربة الأولى إلى أعدائه، فاخترق مابين النهرين وعبر الفرات في بيرجق، وانضم إليه عدد من مراكب بعض المماليك الذين ما زالوا أوفياء له في مابين النهرين.. وفتح الرها، وهي القطب القديم للمشروع الروماني الاستراتيجي، فسقط في يده موقع واحد قائم في حوض الخابور، ودون أن يدع لقواته وقتاً للراحة سارع فأخذ الرقة، وسار في الفرات حتى الخابور ذي المياه الجميلة الصافية، وأخضع الحسكة وكل وادي الخابور الخصيب، وتعدُّ هذه المنطقة أكبر منتج للقطن في العصر الوسيط؛ وتحتفظ طيَّ ثراها بآثار الكثير من الحضارات المندثرة. وعمل صلاح الدين على تقسيمها اقطاعات عسكرية.

حصار الموصل

وفي ١٠ تشرين الثاني (نوفمبر) حط رحاله أمام الموصل التي تُشاهد من أعلى قلعتها خرائب نينوى المؤثرة. كان سلطان الموصل على أهبة الاستعداد لملاقاته، إذ كدس ــ في هذه المدينة الشهيرة بالموسلين أو القماش المطرز بالذهب والحرير ــ الكثير من الأطعمة والأسلحة وكان في مستطاعه أن يصمد أكثر من صلاح الدين البعيد عن قواعد تموينه. والمضطر إلى الاكتفاء بموارد ضئيلة من جبل سنجار القاحل. كان في نيته ــ على الأكثر ــ أن ينهك عدوه بلا قتال، وأن يتحدّاه على هواه وهو قابع وراء أسواره الصفيقة الجدران، وأن يراه يستغيث يتآكله الحقد والألم. والواقع فإن الجيش السوري الذي أرهقته هذه المسيرات

المتابعة غير المنقطعة عبر هذا العدد من الصحارى أخافه أن يرى في الموصل معسكراً حقيقياً محصناً وآلات حربية مقلقلة كانت تقذف حمم النفط من أشداقها. فأيقظ صلاح الدين في جيشه روح الشجاعة، وذكره بانتصاراته الماضية، ولم ينس كذلك أن يعد رفاقه بنهب أسواق هذه المدينة المترفة وتتابعت الأسابيع. وقرر مصير الحرب نعل وجد هناك نتيجة مصادفة مشؤومة، فيما كان صلاح الدين يفتش المواقع المحصنة مع أمرائه غامر مقترباً أكثر من اللازم من أسوار المدينة، إذ قام أحد المحاصرين الناقمين بقذف سيل من الشتائم ورمى بنعله المغطى بالمسامير نحو المتقدمين، فأصاب به بطن أحد شيوخ بني أسد القبيلة العربية المشهود لها بالشجاعة. والتقط الشيخ النعل وأراه صلاح الدين قائلاً: «انظر بماذا يعتقد هؤلاء الناس أنهم سيصدوننا. إنهم يعاملوننا على ما يبدو كما لو أننا مجموعة من العبيد، فأنا لم أتعود مثل هذه الإهانات. قدني نحو أعداء جديرين بشجاعتي، وإلّا فأفضل الانسحاب».

وغادر تاركاً صلاح الدين هناك، إلى خيمته حيث روى للشيوخ الآخرين الذين تبعوا صلاح الدين مع قبائلهم حتى أسوار الموصل.. روى لهم الحادث الذي لا يحتمل... واعتُبر النعل الذي كان ينتقل من يد إلى يد سُبَّة شخصية موجهة إلى كلٍّ من هؤلاء القادة الذين لا يشك في شجاعتهم. وكم ودوا ألّا تنتقل الحكاية بعد تزيينها وتضخيمها على ألسنة شعراء البادية لتطوف جميع قبائل ما بين النهرين والعربية السعيدة، وأن يشار إلى استقبال صاحبها أمام أسوار الموصل بصفق النعال وهو في صحبة صلاح الدين.. وإثر هذا الحادث رفع صلاح الدين الحصار متفادياً ــ بسبب هذا الحادث التافه ــ مجازر وحرائق وربما تدمير الموصل.

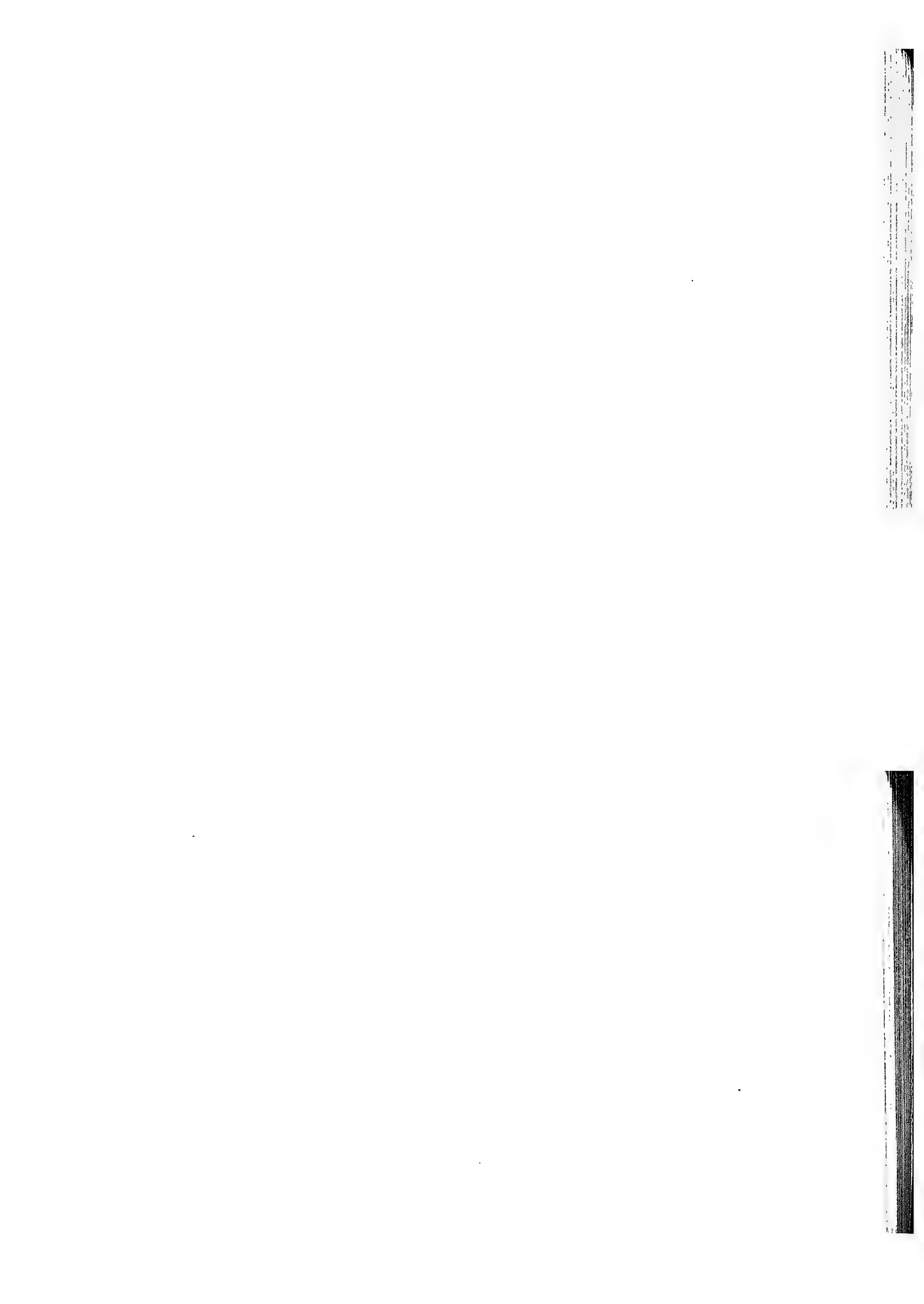
عودة حلب إلى سلطة الأيوبيين

وبعد فشل صلاح الدين أمام الموصل ظهر للمرة الخامسة وراء أسوار حلب؛ لمعاقبة حاكمها على خيانته. فكانت المهمة سهلة؛ إذ تعب التجار الحلبيون من هذه المعارك الداخلية، والخصومات بين السلاطين التي ما تنفك تقطع مجرى الأحداث، وتسقط أسعار الحرير والتوابل من يومٍ لآخر، خاصة وأن ابن نور الدين مات على حين كانت شخصية صلاح الدين تترسخ، ولم يعد في نظرهم ذلك التابع الجاحد الذي اغتصب السلطنة من صاحبها الشرعي الزنكي.. بل كان مجده يكبر في المشرق، من وادي النيل إلى وادي الفرات،

ومن حدود النوبة إلى جبال أرمينية، كما برزت مآثره في القدس على وجه التحديد، ولم يعد بمقدور أحد أن ينكر عظمته التي كان الإسلام ـــ في آخر المطاف ـــ المستفيد الوحيد منها. وكان عقم نزاعات العاملين للاستئثار بالسلطة قد أضرّ حتى الآن بوحدة الإسلام السوري.

لكل ذلك قام الوجهاء الحلبيون بالضغط على حاكم مدينتهم، فأدرك أن الأجدى له أن يتخلى عن سلطته، وكان قراره هذا بالغ الحكمة. خاصة وأن مبعوثين سريين من لَدُنْ صلاح سبروا له غور الحامية والشعب، واشتروا جزئياً خضوعهما. ودخل صلاح الدين حلب دخول المنتصر، وهتف له الجمهور، وطفق الشعراء يدبجون قصائدهم بمدحه، حتى إن قاضي دمشق محيي الدين بن الزكي امتدحه بقصيدة من الشعر العاطفي قال له فيما قال:

وفتحكُمْ حلباً بالسيف في صفرٍ   مبشِّرٌ بفتوح القدس في رجب



حواشي الفصل العاشر

١ ، ٣ ــ مما جاء في رحلة ابن جبير عن مغامرة رينو دي شاتيون وعزمه على دخول المدينة المنورة ، وإخراج رفاته عليه السلام من ضريحه المقدس وكيف أخذ رجاله أسرى إلى الإسكندرية :

« وذلك أنّا لمّا حللنا الإسكندرية في الشهر المؤرخ أولاً عاينّا مجتمعاً من الناس عظيماً بُروزاً لمعاينة أسرى من الروم أُدخلوا البلد راكبين على الجمال ووجوههم إلى أذنابها وحولهم الطبول والأبواق . فسألنا عن قصّتهم ، فأُخبرنا بأمرٍ تتفطّر له الأكباد إشفاقاً وجزَعاً . وذلك أن جملةً من نصارى الشام اجتمعوا وأنشأوا مراكب في أقرب المواضع التي لهم من بحر القُلْزُم ، ثم حملوا أنقاضها على جمال العرب المجاورين لهم بكِراء اتفقوا معهم عليه ، فلما حصلوا بساحل البحر سمّروا مراكبهم وأكملوا إنشاءها وتأليفها ودفعوها في البحر وركبوها قاطعين بالحجاج ، وانتهوا إلى بحر النعم فأحرقوا فيه نحو ستة عشر مركباً . وانتهوا إلى عَيْذاب فأخذوا فيها مركباً كان يأتي بالحجاج من جُدّة ، وأخذوا أيضاً في البرّ قافلة كبيرة تأتي من قوص إلى عيذاب ، وقتلوا الجميع ولم يُحْيوا أحداً . وأخذوا مركبين كانا مُقبلين بتُجّار من اليمن ، وأحرقوا أطعمة كثيرة على ذلك الساحل كانت مُعَدّة لميرة مكة والمدينة أعزّهما الله ، وأحدثوا حوادث شنيعة لم يُسمعْ مثلها في الإسلام ، ولا انتهى روميّ إلى ذلك الموضع قطّ .

ومن أعظمها حادثة تسدّ المسامع شناعة وبشاعة ، وذلك أنهم كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول (ﷺ) ، وإخراجه من الضريح المقدس أشاعوا ذلك وأجروا ذكره على ألسنتهم ، فأخذهم الله باجترائهم عليه وتعاطيهم ما تَحولُ عنايةُ القَدَر بينهم وبينه . ولم يكن بينهم وبين المدينة أكثر من مسيرة يوم . فدفع الله عاديتهم بمراكب عُمّرَت من مصر والإسكندرية دخل فيها الحاجب المعروف بلُؤلُؤ مع أنجاد من المغاربة البحريّين . فلحقوا العدوّ وهو قد قارب النجاة بنفسه فأُخذوا عن آخرهم . وكانت آية من آيات العنايات الجبّاريّة ، وأدركوهم عن مدة طويلة كانت بينهم من الزمان نيّف على شهر ونصف أو حوله . وقُتِلوا وأُسِروا ، وفُرّق من الأسارى على البلاد لِيُقتَلوا بها ، ووُجّه منهم إلى مكة والمدينة . وكفى الله بجميل صنعه الإسلام والمسلمين أمراً عظيماً ، والحمد لله رب العالمين » . (رحلة ابن جبير ص ٣٤ ــ ٣٥) .

٢ ــ ذكر مطاردة القوات الإسلامية القوى الصليبية التي قادها رينو دي شاتيون (أرناط) ، وكيف أن المسلمين

طفقوا يتحدثون عن اقتراب الساعة ؛ في رسالة بعثها صلاح الدين إلى الخليفة العباسي في بغداد نقلاً عن كتاب الروضتين :

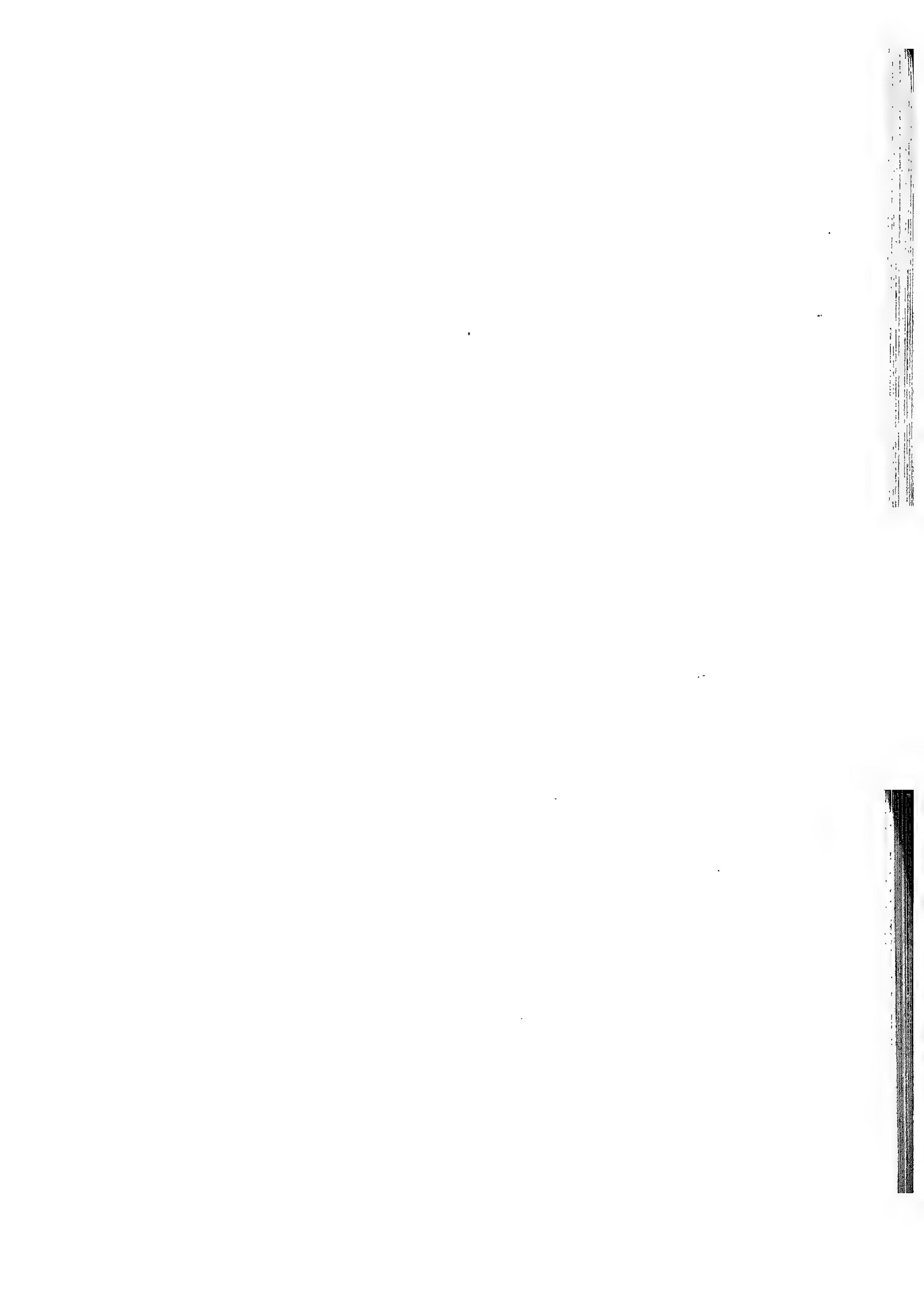
«كان الفرنج قد ركبوا من الأمر نكراً ، وافتضوا من البحر بكراً . وعمروا مراكب حربية شحنوها بالمقاتلة والأسلحة والأزواد ، وضربوا بها سواحل اليمن والحجاز ، وأثخنوا وأوغلوا في البلاد . واشتدّت مخافة أهل تلك الجوانب ، بل أهل القبلة لما أومض إليهم من خلل العواقب . وما ظن المسلمون إلّا أنها الساعة وقد نشر مطوي أشراطها ، والدنيا وقد طوي منشور بساطها . وانتظر غضب الله لفناء بيته المحرم ، ومقام خليله الأكرم ، وتراث أنبيائه الأقدم ، وضريح نبيه الأعظم (ﷺ) . ورجوا أن تشحذ البصائر آية كآية هذا البيت إذ قصده أصحاب الفيل ، ووكلوا إلى الله الأمر وكان حسبهم ونعم الوكيل . وكان للفرنج مقصدان أحدهما قلعة إيلة التي هي على فوهة بحر الحجاز ومداخله ، والآخر الخوض في هذا البحر الذي تجاوره بلادهم من ساحله . وانقسموا فريقين ، وسلكوا طريقين . فأمّا الفريق الذي قصدَ قلعة إيلة فإنّه قدَّر أن يمنع أهلها من مورد الماء الذي به قوام الحياة ، ويقاتلهم بنار العطش المشبوب الشباه . وأما الفريق القاصد سواحل الحجاز واليمن فقدّر أن يمنع طريق الحاج عن حجه ، ويحول بينه وبين فجه ، ويأخذ تجار اليمن ، وأكارم عدن ، ويلم بسواحل الحجاز فيستبيح والعياذ بالله المحارم ، ويهيج جزيرة العرب بعظيمة دونها العظائم . وكان الأخ سيف الدين بمصر قد عمر مراكب وفرقها على الفرقتين ، وأمرها بأن تطوي وراءهم الشقتين . فأمّا السائرة إلى قلعة إيلة فإنّها انقضت على مرابطي الماء ، انقضاض الجوارح على بنات الماء ، وقذفتها قذف شهب السماء ، مسترقي سمع الظلماء . فأخذت مراكب العدوّ برمتها ، وقتلت أكثر مقاتلتها ، إلّا من تعلق بهضبة وما كاد ، أو دخل في شعب وما عاد . فإنّ العربان اقتصوا آثارهم ، والتزموا إحضارهم . فلم ينج منهم إلّا من ينهى عن المعاوده ، ومن قد علم أن أمر الساعة واحده . وأمّا السائرة إلى بحر الحجاز فتمادت في الساحل الحجازي إلى رابغ سواحل الحوراء فأخذت تجاراً ، وأخافت رفاقاً ، ودلها على غوارب البلاد من الأعراب من هو أشدّ كفراً ونفاقاً . وهناك وقع عليها أصحابنا ، وأخذت المراكب بأسرها ، وفرّ فرنجها بعد إسلام المراكب ، وسلكوا في الجبال مهاوي المهالك ومعاطن المعاطب . وركب أصحابنا وراءهم خيل العرب يشلونهم شلاً ، ويقتنصونهم أسراً وقتلاً ، وما زالوا يتبعونهم خمسة أيام خيلاً ورجلاً ، نهاراً وليلاً ، حتى لم يتركوا عنهم خبراً ولم يبقوا لهم أثراً ، وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ، وقيد منهم مائة وسبعون أسيراً» (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص٣٧) .

٤ ـــ ومن كتاب فاضلي : عند دخول صاحب الموصل حلب واستيلائه عليها وكانت داخلة في تقليد السلطان السابق جاء فيه :

«دخل حلب مستولياً ، وحصل بها معتدياً ، وعقود الخلفاء لا تحل ، والسيوف في أوجه أوليائهم لا تسل . وإنّه إنْ فتح باب المنازعة أدنى من ندامه ، وأبعد من سلامه ، وخرق ما يعيي على الراقع ، وجذب الرداء فلم تغن فيه إلّا حيلة الخالع . وليس الاستيلاء بحجة في الولايات لطالبها ، ولا الدخول إلى الدار بموجب ملك غاصبها ؛ إلّا أنْ تكون البلاد كالديار المصرية حين فتحها الخادم وأهله حيث الجمعة مستريبة والخلافة في غير أهلها غريبة ، والعقائد لغير الحق مستجيبة . فتلك الولاية أولى من منحها من فتحها ، وكان سلطانها من أدخل في كان شيطانها ، وأما حلب فإن الكلمة فيها عالية والمنابر فيها بالاسم الشريف حالية ، فإنّما تكون لمن قلدها لا لمن توردها ، ولمن بالحق تسلمها لا لمن بالباطل تسنمها . ولو كانت حلب كما كانت مصر لدخلها الخادم ولم يشاور ، ولولجها ولم يناظر ، ولكنه أتى البيوت من أبوابها ، واستمطر القطار من سحابها» .

«ثم ذكر أن المواصلة راسلوا الملاحدة الحشيشية واتخذوهم بطانة من دون المؤمنين، وواسطة بينهم وبين الفرنج الكافرين، ووعدوهم بقلاع من يد الإسلام تقلع، وضياع من في المسلمين توضع، وبدار دعوة بحلب ينصب فيها علم الضلالة فيرفع. ويااللعجب من الخصم يهدم دولة حق وهي تبنيه، ومن العبد يبني ملكها بنفسه وماله وذويه، وهي تراقب أعلاه فيه. ودعواه في رسائلهم وغوائلهم ليست بدعوى لا يقوم شاهدها، ولا هي بشناعة لا يهتدي قائدها. بل هذا رسولهم عند سنان صاحب الملاحدة ورسولهم عند القمص ملك الفرنج، وهذه الكتب الواصلة بذلك قد سيرت، ولاستيجاب الولاية طرق، أما السبق إلى التقليد فللخادم السبق، وأمّا العدالة والعدل فلو وقع الفرق لوقع الحق، وأما بالآثار بالطاعة فله فيها ما لولا معونة الخالق فيه لقصرت عنده أيدي الخلق ومتى استمرت المشاركة في الشام أفضت إلى ضعف التوحيد وقوة الإشراك، وترامت إلى أخطار يعجز عنها خواطر الاستدراك، وأحوجت قابض الأعنة إلى أن يعليها الجدد، ويرسلها العراك، وطريق الصلاح والمصالحات الأيمان. والمشار إليهم لا يلتزمون ربقتها ولا يوجبون صفقتها. وكفى بالتجريب ناهياً عن الغره، ولا يلدغ المؤمن إلّا مره. وإذا اجتمعت في الشام أيد ثلاث، يد عادية ويد ملحدة ويد كافرة، نهض الكفر بتثليثه، وقصرت عن الإسلام يد مغيثه، ولم ينفع الخادم حينئذ تصحيح حسابه وتصديق حديثه. وما يريد الخادم إلّا من تكون عليه يد الله وهي الجماعة، ولا يؤثر إلّا ما يتقرب به إليه وهو الطاعة، ولا يتوخى إلّا ما يقوم به الحجة اليوم ويوم تقوم الساعة». (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص٢٣ ــ ٢٤).

٥ ــ أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص٤٦.



الفصـــل الحـادي عشــر

سيّد الكرك

استيلاء الفرنجة على حبس جلداق

بينما كان صلاح الدين على أبواب الموصل، لم يكن الفرنجة في موقف المتفرج بل ظلوا على عهدهم ماضين في سياسة الإنهاك، وغَزْو الأراضي الإسلامية، والإخلال بنظام طرق القوافل. واستأنفوا أعمالهم الهجومية مضاعفين الغارات حتى أبواب دمشق. مرهبين الشعب بل يردون كيل الصاع صاعين.

وفي ايلول (سبتمبر) ١١٨٢ نهبوا منطقة بُصرى مفسدين مياه الآبار على طريق الحج بما راكموه فيها من مختلف أنواع الجيف وانقضوا كالجراد على أراضي السوتيين الخصبة التي سبق أن انتزعت منهم، والتي يصف غيّوم الصوري وصفاً بليغاً كرومها وزيتونها ومروجها كمراعٍ خصبة للمواشي. واستعادوا قصر حبس جلداق الذي فقدوه قبل شهر.

وقمين بالذكر أن ننقل هنا المعلومات التي سجلها غيّوم الصوري عن هذا الموقع الذي تبودل عدة مرات، قال: «وصل الفرنجة مع قاطعي الحجارة الذين حفروا قمة الجبل، وكان ثمة عمال آخرون يلقون في قعر الوادي كتلاً كبيرة من الصخور التي تقطع من مكانها بجهدٍ

جهيد. وكان يعرقل العمل مكامن الصخر البلّوري التي تقطع هذا السهل الكلسي، وذلك لأن معاول العمال كانت تتلم على هذه الصخور. بينما كان عمال آخرون إلى جانبهم يصلحون فوراً الآلات المعطلة، متناوبين العمل ليل نهار. وأقام قسم من المقاتلين المعسكر على قمة الجبل لحماية قطّاع الحجارة؛ بينما رابط الآخرون في الوادي لمنع أية محاولة لخروج العدو. وغامر بعض الفرسان الشبان زحفاً إلى الممر الضيق، واقتربوا من مدخل الكهوف. بينما كان المحاصَرون وعدتهم سبعون مملوكاً اختارهم صلاح الدين من بين خيرة جنوده منهكي القوى بالغي الإعياء لعدم تمكنهم من التمتع بأية نأمة استراحة تحت مستمر ضربات المعاول التي تدق الصخر فوق رؤوسهم، وقد شلّ الذعر تفكيرهم في أن يسحقهم انهيار القناطر، أكثر مما يرعبهم احتمال ظهور الفرنجة في أية لحظة. وليقينهم بعدم جدوى انتظار أية نجدة يمدهم بها صلاح الدين الذي ذهب بعيداً مع جيوشه، قرروا تسليم الحصن بعد حصار دام ثلاثة أسابيع».

صلاح الدين ينهد لملاقاة الفرنجة

ولما علم صلاح الدين بسقوط حبس جلداق أثناء عودته من حلب إلى دمشق التي وصلها في ٢٤ آب (اغسطس) ١١٨٣، استأنف مسيره لملاقاة العدو. فعبر الأردن مرة أخرى ونهب وأحرق قرية بيسان التي سارع مستوطنوها فنزحوا عنها. وفاجأ بالقرب من عين جالوت قوة فرنجية بقيادة الجميل غير اللامع أونفروا الرابع دي تورون ابن إيتنيت دي ميلي أميرة أراضي عبر الأردن سيدة الكرك الشهيرة في مملكة القدس، وقتل المسلمون جموعاً غفيرة من الفرنجة وأسروا حوالي مائة بيعوا في سوق النخاسة بدمشق. ولم يفقدوا في هذه المعركة سوى رجل واحد خلّد اسمه بهاء الدين، مؤرخ صلاح الدين.

وعلم صلاح الدين في أول تشرين الأول (اكتوبر) ١١٨٣ بزحف الفرنجة على حصن الفُولة المشرف على سهل أسدلرون فهاجم طلائعهم عند الينابيع المسمّاة عين الطبَّانيَّة. واشترك رينو دي ساجيت ــ الذي كان يلعب دوراً مهماً في إدارة شؤون المملكة ــ في هذه المعركة الدامية. لقد قاتل الرجال في معركة التحامية مصارعةً، الجسد على الجسد والعين بالعين[١] كما يقول بهاء الدين[٢]. وكانت القرى تُمْحى حيثما مر صلاح الدين حتى حاول أن

يدمر دير القديس ايليا اليوناني على جبل الطور. وبسبب اقتراب فصل الشتاء سرّح من رجاله، أولئك الذين كانوا يريدون العودة إلى منازلهم للتمتع فيها بثمرات أسلابهم. وعاد إلى دمشق في ١٤ تشرين الأول (اكتوبر).

حصار الكرك

أما رينو دي شاتيون الشجاع المشؤوم، فبعد ملحمته المزرية أمام مكة، وتيهه عدة أشهر كتعيس بائس، إثر نجاته بفضل تطابق ظروف لم يسمع بمثلها، رجع إلى أراضيه واستعاد صحته وقواه وراح يقيم الحفلات الماجنة في حصنه الرهيب: الكرك، في حاشية كثيرة العدد متربصاً بقوافل المسلمين الطائلة الثراء التي كان يمكر بها إذا ما جازفت ومرّت قرب ممتلكاته ولكونه غدا سيداً عظيماً، أسطورياً عرف كيف يستقبل بهذا البذخ القروسطي الذي يسحر ألبابنا؛ وشرع الناس يفدون إليه من بعيد لمشاهدة ذلك الذي تصوّر أن بمستطاعه تغيير كل شيء في الأماكن الإسلامية المقدسة. وما أسرع ما كان يُنسى — إلى جانب ذلك — ما اتخذه من مواقف وقحة حيال بودوان لي ميسل، هذا الأمير التاعس الحظ الذي أعماه الجذام.

وقرر رينو دي شاتيون آنذاك أن يحتفي بعرس صهره أونفروا الرابع دي تورون وإيزابيل أخت ملك القدس. وحين علم صلاح الدين بالأمر وجد مناسبا أن يشارك في الحفل لأنه لم يَنْسَ السجاجيد الجميلة المسروقة ولا الإهانات التي كالها له سيد أراضي عبر الأردن، فضلاً عن أن حصن الكرك هذا أحد أهم ممتلكات ملك القدس لسيطرته على الشريان المصري — السوري الذى تسلكه القوافل. وكانت هذه الطريق سبب قلق صلاح الدين الدائم، وذلك لأنه منذ أن تولى رينو دي شاتيون حكم الكرك تأثرت حركة التجارة بين دمشق والقاهرة نتيجة حالة فقدان الأمن المستمرة على أيدي أسير حلب القديم، وغدا المرور عسيراً بالغ الخطورة مالم يصحب قوافل التجار حرس عسكري، وأضرّت تلك الفوضى بمصالح التجار السوريين والمصريين معاً. ولذا قام صلاح الدين يرافقه أخوه الملك العادل وقواته المصرية، وابن أخيه تقي الدين، وقوة من الأكراد الشديدي الشكيمة، وآلة حرب مهيبة بضرب الحصار على قلعة الكرك، حيث كان جمهور مبتهج من البارونات والنبلاء والسيدات، والمهرجين، والموسيقيين

والشعراء، وبالعي السكاكين القادمين من القدس، يحتفلون بألعابهم وحركاتهم ومديح أقوالهم بعرس الأميرة.

وأسهم الفن والطبيعة معاً في جعل هذه القلعة منيعة (لا تؤخذ). فقد بنيت عام ١١٤٢ بصخور بركانية قاسية حمراء وسوداء، ولم يستطع بايان لوبوتيية Payan le Boteiller تشذيبها إلا بجهد جهيد. لقد كانت إحدى أفضل دفاعات المملكة، منتصبة على هضبة واسعة (جبل الثلج). بمنأى عن أي مركز، مشرفة على صحراء شرق الأردن، وأراضي البحر الميت القاحلة. كانت هذه القلعة المهيبة تتصل عبر دهليز واحد بمدينة الكرك التي يرقى تاريخها إلى زمن متناهٍ في القِدم، فمن هنا انطلقت روث المؤابية إلى بيت لحم حيث تزوجت بوز Booz جد داود.

وإلى الكرك (كير مو آب أو كير حارسة التوراتية)، قدم داود بأهله ليحميهم من اضطهاد شاول. وفي قلعتها اختبأ ميسا Mesa ملك مؤاب وهزم حيرام ملك اسرائيل ويوث فاط ملك يهوذا، كما تحدث كل من أشعيا وإرميا عن الكرك في نبوءاتهما الخالدة.

ولما رأى كشافو رينو دي شاتيون الجيش الإسلامي يتبدى من بعيد، احتمى أصحابه في ملجأ منع أن يدخله أي من الفرنجة الفارين سواء سكان المدينة السفلى، أو الأطفال والنساء. واستطاع صلاح الدين وبعض المماليك أن يفتحوا مدخل الحصن عنوةً وأن يفتكوا ببعض الحرس والسكان، ولولا شجاعة فارس فرنجي واحد لبلغوا قلب القلعة فبينما خف المدافعون لرفع الجسر المتحرك تصدى ذلك الفارس وحده لهجوم المماليك الذين وصلوا إلى هناك؛ ويدعى الكونت ايفين الذي شرع يوجه ضرباته الموفقة ذات اليمين وذات اليسار متخطياً في مشيته على جثث القتلى وأجساد المشرفين على الموت، دافعاً حياته ثمن عمله البطولي الذي أنقذ القلعة. ولقد كتب السيد بول ديشام في مؤلفه المدهش: «الدفاع عن القدس». كتب قائلاً: «هنا يجد مكانه عمل ساحر من أعمال العشق والفروسية، عمل يؤكد جيداً العلاقات الغزلية التي يمكن أن يقيمها الأمراء الفرنجة والمسلمون حتى في أزمنة الحرب.. فقد أرسلت إيتينيت دي ميلي العروس الصبيّة إلى صلاح الدين الذي كان يحاصر المكان شيئاً من وليمة العرس، وأبلغته سلامها مع مبعوثيها مذكرةً إياه بالزمن السالف أيام

طفولتها (وكيف كان يحملها بين ذراعيه وهي مع ذويها سجينة) وتأثر صلاح الدين بالغ التأثر بهذه الذكرى، وسأل عن البرج الذي يقيم فيه العروسان فدلوه عليه، فأمر بالامتناع عن قصفه بأي حالٍ من الأحوال».

كان صنيع صلاح الدين هذا ساحراً، ولكنه لم يمنع المماليك من بقر بطون سكان مدينة الكرك الواطئة المزدحمين أمام باب الحصن وقطع رؤوسهم حتى كلّت أيديهم، ثم أمر بنصب ثمانية مجانيق ضخمة راحت ترمي ليل نهار قذائفها الثقيلة على القلعة، وحاول المحاصَرون أن يقيموا قاذفة حجارة ضخمة لكي يُفشلوا مجانيق صلاح الدين، ولكن نبالته هاجموا العمال المكلفين بنصبها فاضطروا إلى العدول عن إتمام العمل. وكان المحاصرون مزوّدين بكميات من الذخيرة بلغت من الغزارة بحيث كان مستحيلاً أن يطل أحد برأسه من إحدى الكوى. دون أن يتلقى من فوره وابلاً من القذائف. وكان لدى رينو دي شاتيون جمع غفير من المدعوين والمُسلّين داخل القصر، وسرعان ماأتت هذه الأفواه ــ التي لا فائدة منها إبان الحرب ــ على جميع الأغذية المخزونة. وصار الجائعون بثيابهم المزركشة يثبطون الهمم بهاجس ولائمهم الماضية وبكائهم، وهم يتضرعون إلى سيد الكرك بأن يتصالح مع صلاح الدين. ولكن رينو دي شاتيون الواثق بصلابة دفاعات قلعته الخائف من أية مقابلة مع صلاح الدين بسبب قضية قافلة حجاج دمشق، ومغامراته أمام مكة كان ينوي الصمود للنهاية حتى لو بقي وحده، وأرسل في الوقت نفسه بطلب النجدة من الخارج، وقد تمكن أحد عملائه من الإفلات فخف إلى الملك يلتمس قوة غوث، كما أمر بآن معاً بإضرام نارٍ هائلة على أحد أعلى أبراج الكرك لعدة ليالٍ متتابعة علامة المصيبة... نار يمكن مشاهدتها من بعيد رغم أن القدس تبعد عن الكرك مسافة ثمانين كيلو متراً على خط مستقيم (خط طيران العصفور).. وكان ممكناً إبان الصحو مشاهدة جبل الزيتون وراء امتداد زرقة البحر الميت. وحينما علم صلاح الدين باقتراب الجيش الفرنجي دمّر آلاته ورفع الحصار عن القلعة. واستقبل حماة الكرك الذين ظلوا على قيد الحياة بلدوين الرابع الأعمى المشلول بابتهاج غامر. وأمر الملك بتموين القصر وإصلاح ما حصل فيه من أضرار ورجع إلى القدس.. وأما صلاح الدين «فعاد ظافراً إلى دمشق» كما كتب بهاء الدين، تماماً في الوقت المناسب إذ تلقى خلعة أتحفه بها خليفة بغداد، بيد أنه عاد في الصيف التالي وضرب الحصار أمام الكرك مع التصميم هذه المرّة

للاستيلاء عليها مهما كلّف الأمر، إذ بدأت صيحات التذمر ترتفع في أسواق دمشق من عدم أمان طريق القاهرة الذي كان يهدد الأعمال. ولدينا معلومات كافية ودقيقة حول هذا الحصار الثاني، من خلال رسالة وجهها بلدوين الرابع إلى البطريرك هيراقليوس وكبار قادة الهيكل والاسبتار، الذين كانوا حينذاك في الغرب طالباً فيها القيام بحملة صليبية جديدة. ويقدم لنا المؤرخون العرب: ابن الأثير وبهاء الدين وأبو الفرج وأبو شامة تفاصيل كثيرة. واحتل صلاح الدين في ١٠ تموز (يوليو) ١١٨٤ مدينة الكرك السُّفلى. إذ تدفقت جيوشه من دمشق، ومصر، وحلب وآمد وماردين وسنجار، ولم يُرَ البتة مثل هذا الحشد البشري في المنطقة، وقد دافع الفرنجة عن أنفسهم بعناد أكثر من المرة الماضية، ولم يكتفوا بالبقاء وراء الأسوار بل بدوا عدوانيين مرهقين العدوّ. ودام الحصار شهراً دامياً. ولكي يضع صلاح الدين نهاية لرينو دي شاتيون بنى إنشاءات عسكرية ومجانيق وأبراجاً متحركة وأبهاء مغطاة تصل حتى خندق القصر. وتوضح رسالة بديعية سطرها القاضي الفاضل الأهمية التي كان المسلمون يعلقونها على سقوط هذا الموقع، يقول: «هو شجا في الحناجر، وقذا في المحاجر، قد أخذ من الآمال بمخنقها، وقعد بأرصاد العزائم وطرقها، وصار ذئباً للدهر في ذلك الفج، وعذراً لتارك فريضة الله من الحج، وهو وحصن الشوبك يسّر الله الآخر كبيت الواصف للأسدين:

ما مـــــرّ يومٌ إلا وعنـدهمـــــا   لـحـم رجـالٍ أو يـولـغـان دما[٣]

ويروي أبو شامة: «إنّ الحجارة المنطلقة كانت تقع مجتمعة على قمة الأبراج وعلى رؤوس الأشرار، كانت تصيب الأفاريز وحماتها. ولا يطل أحد برأسه إلا ويقع نصل حديدي في عينه ولا يمتشق سيف الإسلام من غمده إلّا ليتخذ من عنق الكفار غمداً آخر، وكانت الحجارة تصل بسخاء ولا يعيقها شيء، وكان لمع الحراب يحدث بين غبار النقع المثار من ركض فرساننا فجراً في قلب الظلام. لقد دحرنا العدو حتى شفير الهاوية وبدأت أسوار الكرك تتهدم، وتنقضّ المصيبة على الكفار. ولم تعد دروعهم التي مزقت سيوفنا حلقاتها تغطي غير الجراح»[٤].

ولكن الأسوار لم تتهدم، وظل المحاصرون صامدين، رغم حماسات أبي شامة الشعرية وتنبؤاته الفهلوية، وكما حدث في المرة الأولى ظهر جيش ملك القدس الذي تحرك بخطىً حثيثة

صوب الكرك العصية. ومرة أخرى رفع صلاح الدين الحصار ليلاقي بلدوين المريض المتحصن في تعرجات الطريق إلى الشمال الشرقي من البحر الميت. كان يريد أن يجره إلى ساحة قتال مؤاتية، إلى حَسْبَان ومَاعَين. ولكن الفرنجة لم يقبلوا التغرير بهم. وبقي الجيشان يراقب أحدهما الآخر من بعيد، ثم يتوارى كلاهما خلف الآفاق الجليلية.

الخلاف الشائك بين الدولتين الزنكية والأيوبية

وفيما كان صلاح الدين يرهب سكان الجليل انتقاماً لفشله أمام قلعة رينو دي شاتيون، كان سلطان الموصل المُريب يتابع طرق أبواب الأمراء المجاورين رامياً إلى إثارة الخصومات العائلية القديمة وإقامة تحالف ضد سيد الإسلام الجديد.

ورغب الخليفة العباسي الناصر في التوسط بين الموصل ودمشق لحل الخلاف بينهما بالتي هي أحسن. وحين أصر الزنكيون على عدم الاعتراف بشرعية صلاح الدين على سورية الشمالية ومابين النهرين أوكل الخليفة إلى الطبيب المشهور بدر الدين مهمة إيجاد الحل المناسب؛ وكان هذا وحده القادر على الاضطلاع بحل هذه القضية الشائكة بفضل ما يتحلى به من لباقة، وماكان له من عظيم التقدير لدى سائر الأوساط. وكان بهاء الدين يرافقه في مهمته هذه، واستقبل المبعوثان استقبالاً ترحيبياً في دمشق التي وصلاها في ٢٤ شباط (فبراير) ١١٨٤، ولم يدخر صلاح الدين وسعاً في تكريمهما التكريم اللائق بمركزهما. وتمنى عليهما بعد عودتهما إلى بغداد أن يطمئنا الخليفة إلى احترامه وإجلاله شخص أمير المؤمنين. لقد خرج لاستقبالهما عند أبواب دمشق، وأعدّ لهما استقبالاً حارّاً في العاصمة. وغمرهما بالتكريم والتجـلّة خلال إقامتهما في قصره الخاص.

وحينما انتهت مراسم الاستقبال والحفاوة تطرق القادمان لمناقشة بنود الصلح الذي سيسوّى بموجبه الخلاف الشائك على مناطق النفوذ، وظل صلاح الدين حاسماً في موقفه، فيما كانت الموصل تتمسّك بحقوق زنكية شرعية على سورية الشمالية ووادي الفرات. وهدف صلاح الدين إلى الاحتفاظ بحلب ووادي الخابور ومحمياته فيما بين النهرين، واشترط لفتح مباحثات الصلح أن يُحل سلطان الموصل أمراء المنطقة وعمالها من يمين الولاء. كان يقدم نفسه بصفته مدعياً وليس مفاوضاً فهل كان ينوي وهو يحرم سلطان الموصل من رعاياه أن

يحرمه من جنده؟ أم هل كان يسعى فقط إلى إفشال وساطة الخليفة لعلمه بأن الشرط غير مقبول؟ فهو يعلم أن أغلب المدن الصغيرة فيما بين النهرين كانت إقطاعات للموصل، وأنها في حال استقلالها ستنجذب حتماً إلى القطب السياسي لدمشق، وهذا ما أدركه مبعوث سلطان الموصل الوزير قيماز الذي قطع المباحثات قطعاً مهذباً، وعاد مفوضا الخليفة المطلقا الصلاحية إلى بغداد دون أن يتوصلا إلى ثني إرادة صلاح الدين.

حواشي الفصل الحادي عشر

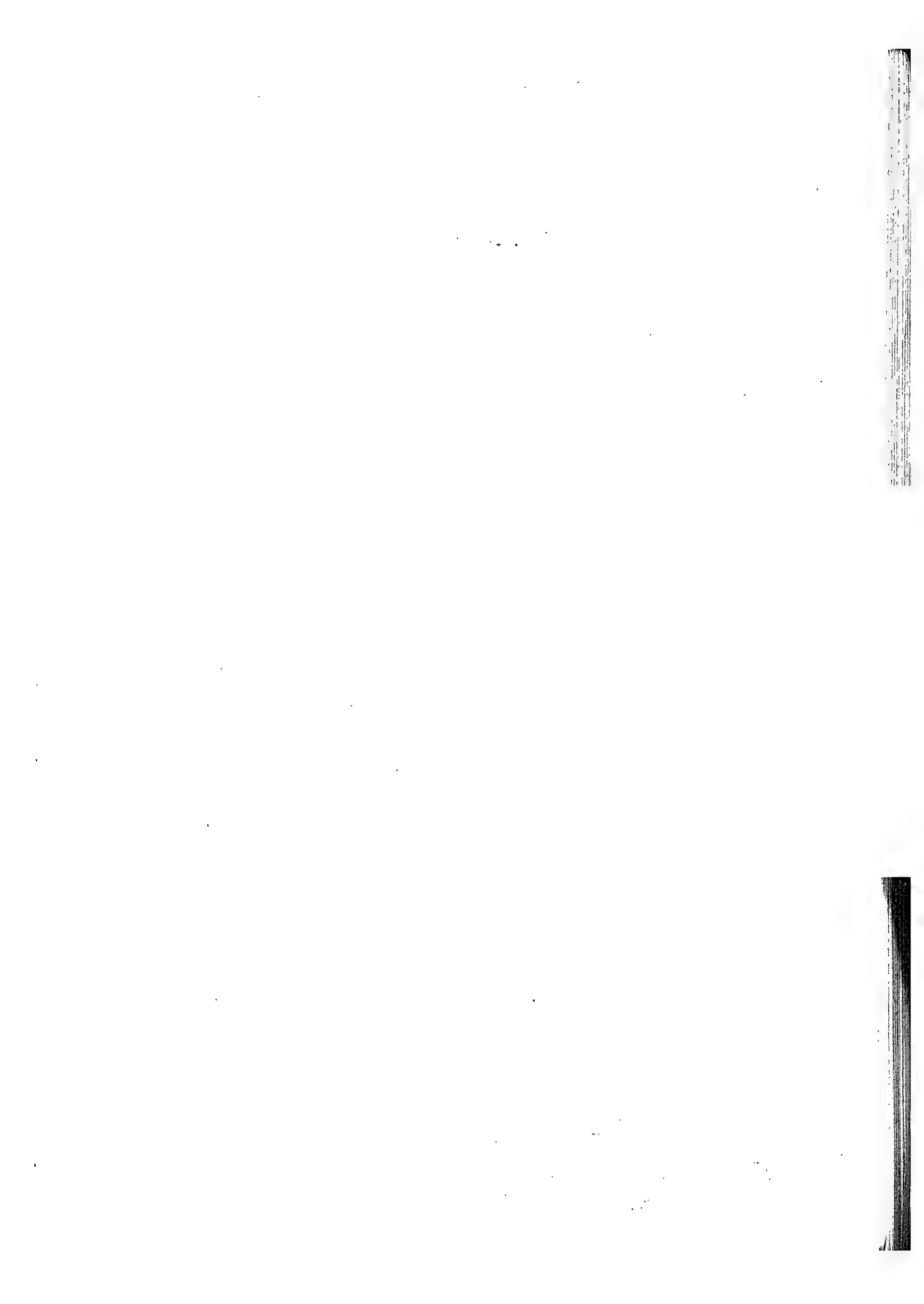
١ ـ ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ص ٦١ .

٢ ـ ابن شداد: بهاء الدين أبو المحاسن (١١٤٥ ـ ١٢٣٤)

مؤرخ معاصر لصلاح الدين الأيوبي، وعلم من أعلام علماء الموصل المرموقين، برز دوره السياسي في مساعيه لتقريب وجهات النظر بين الزنكيين والأيوبيين..

يعد مؤلفه النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، من أهم المصادر التاريخية وأوثقها التي درست سيرة صلاح الدين، وقصة نضاله لتوحيد بلاد الشام وأرض الكنانة في وحدة كفاحية ضد الوجود الصليبي في المشرق العربي؛ وذلك اعتماداً على مشاهداته الشخصية، ومتابعاته للأحداث الجارية وما سمعه شخصياً عن صلاح الدين الذي ولاه قضاء العسكر عام ١١٨٨م..

٣، ٤ ـ جاء في كتاب الروضتين لأبي شامة عن مسيرة صلاح الدين للكرك وضرب الحصار حوله.. ووصف القاضي الفاضل ذلك الموقع كشجا في حناجر المسلمين ما نقلناه مباشرة عن النص العربي الذي ترجمه المؤلف للفرنسية. كتاب الروضتين ج ٢ ص ٥٥ .



الفصـــل الثـانـي عشــر

مسألة الموصل

الاضطرابات الداخلية في إمارة الموصل

دفع الوزير قيماز المسكين، الذي دافع جهد ما استطاع عن مصالح الموصل كما لو كانت مصالحه الخاصة، دفع من شخصه ثمن فشل مفاوضات دمشق.

فما إن رجع إلى الموصل حتى جُرِّد من منصب الوزارة ومن أملاكه ونسائه، وأثقل بالقيود دون أن يوجه إليه أي اتهام بذنب.. إلا أنه كان ذا أنصارٍ مخلصين، وتكشف ظلمُ السلطان واضحاً للعيان ولم تلبث الموصل أن غرقت بالنيران والدماء، وامتدت الاضطرابات إلى مدن الإمارة الريفية، وأعلن الأمراء هنا وهناك العصيان، واستولى خليفةُ بغداد نفسه على إحدى اقطاعات الموصل؛ معلناً بذلك الحرب على أميرها، في حين كان يلتمس من صلاح الدين أن يصالحه. وأمام اتساع هذه الفتنة وخشية مغبة ذيولها السياسية، أصدر أمير الموصل عز الدين مسعود العفو عن وزيره، وأعاد إليه سلطاته، وأمر بتعذيب الأمراء الذين استقتلوا في المطالبة بنهاية قيماز.

ولم يلبث هذا الأخير أن انتقم من الأمراء الذين شقوا عليه عصا الطاعة من أولئك

الملوك الصغار الذين يعملون بالخفاء لخلق النزاعات السلالية، وحبك المؤامرات السرّية للمحظيين، ولكي يشعرهم بغضبه أحرق أملاك أحدهم: مظفر الدين أمير أربيل الذي قام من فوره بتوجيه رسول إلى صلاح الدين طالباً دعمه بصداقته وتأييده بأسلحته؛ عارضاً عليه بالمقابل دفع مبلغ خمسة آلاف دينار مساهمةً منه في تمويل حملة جديدة على الموصل.

الجيش السوري في وادي الفرات

ولم يتأخر صلاح الدين عن أخذ طريق الفرات، مقدراً الفوائد التي يمكن أن يجنيها من الخلافات المزمنة بين الموصل والسلطنات الدائرة في فلكها. وفي ٢٥ أيار (مايو) ١١٨٥ بلغ حرّان؛ وبعد أربعة أيام أمر بتوقيف أمير أربيل بحجة أنه تفوّه بكلام مقذع بحقه وحق الأيوبيين. ولكن الحقيقة أن الخمسة آلاف دينار مهما تكن شدة إغرائها لم تكن أكثر من سراب السحاب الخلّب الذي يكثر في تلك المناطق... فجرّده من سلطته ومن واردات حرّان والرها.. ولكن سرعان ماعاد فأطلق سراحه وغمره بالتكريم وربط مصيره بمصيره، وقد يكون الذهب وصله خلال تلك الفترة، ومن ثم صادف في رأس العين سفيراً من أحد محمييه في بلاد ما بين النهرين، يعلمه بقلق أمراء الروم وفارس وكردستان وأرمينية ومدية من وجود الجيش السوري في وادي الفرات؛ وأنهم أقسموا على أن يزحفوا لملاقاته على رأس قواتهم المشتركة ما لم يتخلَّ عن مشاريعه ضد الموصل.

أمام أسوار الموصل

كان الأمراء يخشون أن يكون سقوط هذه المدينة مقدّمة لغزو ديارهم، لكن تهديداتهم لم تكن ذات جدوى، إذ أحرق صلاح الدين المراحل ليظهر من جديد أمام أسوار الموصل. وحاول عز الدين مسعود أن يثير رحمة صلاح الدين فوَجّه إليه أمّه تصحبها نخبة مختارة من الصبايا لاستدرار عطفه والحصول على السلام، فأظهر صلاح الدين الكثير من اللياقة، وغمر الوفد النسائي بمظاهر الترحيب واللطف، لكنه لم يمنحه شيئاً مما كان يلتمسه. وحينما حاولت أم أمير الموصل أن تؤثر فيه بقولها: «نحن لا نطالب مطلقاً بحقوق في سورية أو مصر. وسّع حدودهما من جهة الفرنجة أعداء ديننا، ولكن ليبق الفرات حداً شرقياً لك على الأقل.. أعد إلينا مدن ما بين النهرين واسمح بأن يحكم الأمراء الزنكيون أسيادك فيما مضى، وأرباب نعمتك

في هذه المناطق ». فبدا صلاح الدين متصلباً لا يتزعزع، فصرف هؤلاء النسوة ونصب آلات الحصار حوالي الموصل، ولكي يحرم سكانها الماء أراد أن يحوّل مجرى دجلة.

استغاثة ملك أرمينية بصلاح الدين

وفيما كان جنود صلاح الدين منهمكين بهذه الأعمال الضخمة حصل حدث غير مرتقب أمّل من ورائه أن يستولي على أرمينية؛ ففي تموز (يوليو) ١١٨٥ مات ملك الدولة المسيحية، وخلفه على العرش أحد قواده المدعو بكتمور. ولكن ملك أذربيجان ــ إحدى أجمل ولايات فارس ــ طمع في إرث الملك بكتمور الذي وصفه بالغاصب وباشر زحفه نحو خلاط المدينة الأرمنية الصغيرة الواقعة على نبع الفرات، مستهدفاً عزل بكتمور والاستيلاء على أراضيه.. فاستنجد الأخير رغم مسيحيته بصلاح الدين، معلناً له بلهجة لا لبس فيها أنه يفضل تسليمه أرمينية، وأن يصبح هو أحد خدمه على أن يرى دياره تقع تحت نير الفرس.

وتأثر سلطان دمشق بهذا العرض، وحيث أنه غدا الحَكَم في النزاعات، وحامي مصالح العديد من الأمراء الصغار بيّت أن يستخدم كل هذه الخصومات التي اقتضتها الأقدار لصالح عمله السياسي.. وعلى ذلك بادر إلى إرسال الفقيه عيسى إلى عاصمة أرمينية يصحبه عدد من الكتبة، ليسجل خطياً هذه المقترحات الرائعة، ورفع بنفاد صبر الحصار عن الموصل لكي يتسلم هذه المملكة الجديدة، لكن ملك أذربيجان سبقه وبلغ أبواب خلاط قبل مبعوثي صلاح الدين. واضطر بكتمور الذي كان قد تزوج إحدى بناته أن يختار بين حميه (والد زوجته) وصلاح الدين، وكان هذا الأخير ما يزال بعيداً، ولذا لم يكن مجال للتردد، فالحمو هدد بقطع رأس صهره ما لم يستسلم. ولهذا أعطى بكتمور ملك أذربيجان كل ما طلبه. ولم يصل المبعوثون السوريون إلا بعد فوات الأوان، وقد وجدت أرمينية سيدها.

الصلح بين الزنكيين والأيوبيين

وعلم صلاح الدين بهذا الأمر في ميافارقين، التي أخذها بعد معارك طاحنة فرجع على أعقابه للمرة الثالثة، ورتب قواته أمام الموصل، والوقت إذ ذاك في منتصف الصيف والحرارة بالغة الشدّة في تلك المناطق، فمرض صلاح الدين مرضاً خطيراً وأخذت حالته تسوء من يوم إلى يوم، فنصحه الأطباء الذين هرعوا إليه وقد يئسوا من إنقاذه بأن ينتقل من فوره إلى حرّان

حيث يمكن للمناخ المعتدل والهواء النقي أن يلطّفا نهايته. وحمل على نقّالة، وقد بدأ يهذي وغاب عدة مراتٍ عن وعيه في الطريق، ولم يعتقد أصحابه بأنه سيصل حيّاً إلى أبواب المدينة. وسرعان ما انتشر خبر احتضاره في سورية والموصل، وبدهي أن يبتهج سكانها واحتفلوا بهذا الحدث. لكن الوزير قيماز وحده الذي ظل يفكر تفكيراً مناسباً في مصالح الدولة، فأقنع عز الدين مسعود بألّا يأبه لتظاهرات الدهماء، ويجدر به أن يفيد من الصحوات الأخيرة للمحتضر، فينتزع منه التوقيع على الصلح. قال الوزير لسيده: «إذا مات صلاح الدين فلن يكون لتوقيعه أية قيمة، لأنه ما إن يوارى ثراه حتى يسارع الأيوبيون إلى اقتسام مملكته. وسيفترس الأخوة الأولاد، وسيهرع أبناء العمومة كذلك. وعند ذلك يمكنك الإفادة من هذه النزاعات العائلية وتستعيد ما كنت مجبراً على التخلي عنه تحت ضغط الضرورات. وإذا لم يسلم صلاح الدين الروح إلى ربّه، وهذا مايبدو مستحيلاً فلن تجد فيه عند ذاك عدواً متهالكاً على هلاكك، بل حليفاً قوياً يخطىء من ينكر مزاياه، وهكذا تحافظ على ما تبقى من ولاياتك وتؤمن لرعاياك ــ الذين أرهقتهم الحرب المستمرة ــ الراحة التي يتوقون إليها».

وحظي هذا الرأي بموافقة السلطان فأرسل سفارةً إلى صلاح الدين مهمتها التفاوض على الصلح في أقصى سرعة. وتغلب صلاح الدين على ضعفه الجسدي فاستقبل البعثة بحزم ووافق على الصلح وهو على عتبة الموت. بيد أنّ الشروط كانت من القسوة بحيث لم يكن في وسعه أن يفرضها حتى لو سيطر على الموصل، ووضع عز الدين مسعود في الأغلال.. إذ طالب بعاصمة كردستان وبلاد ما بين النهرين وبفرض السيادة الأيوبية على المناطق التي كان ينوي إبقاءَها تحت الرقابة الإدارية للموصل. وأن يذكر اسمه في خطبة الجمعة في الموصل. ووقع عز الدين هذا الصلح وهو واثق بأن صلاح الدين لن يلبث حتى يتوفاه الله، وأنه عند ذاك يحيل هذا الاتفاق إلى مجرد قصاصة ورق؛ هذا الاتفاق الذي جعل منه عاملاً لدمشق.

أمير حمص يدفع حياته ثمناً لقراره الاستيلاء على سورية

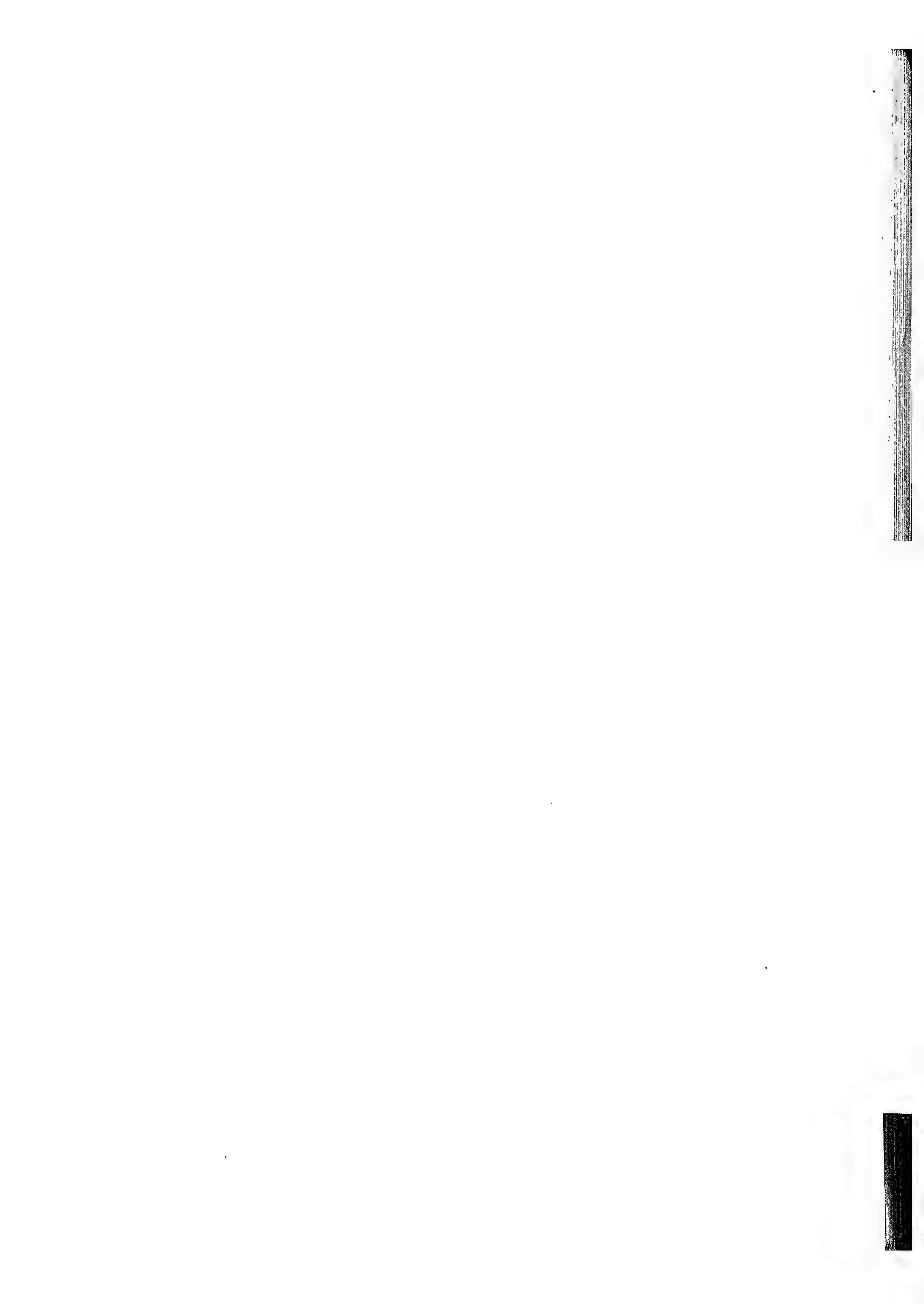
لكن صلاح الدين الذي كان المحيطون به لا يتحدثون إلّا همساً، تماثل شيئاً فشيئاً للشفاء أمام دهشة المقربين منه، وإن كان نبأ وفاته كان قد شاع في طرق القوافل قبل الأوان فاجعاً الشعب السوري، فبكاه الأبناء والأخوة، وصاروا يفكرون في ميراثه السياسي. فقرر

أمير حمص ناصر الدين محمد بن شيركوه الشهير الذي اصطحب ابن أخيه المشاكس في طريق مصر وسبيل المجد، قرر أن يستولي على سورية، وأن ينادى به سلطاناً. وحاول أن يضم إلى جانبه حكام المدن الرئيسية،.. فدفع غالياً ثمن قلة حذره، فقتل مسموماً بأمر من صلاح الدين الذي أوكل حكم حماة إلى أسد الدين شيركوه حفيد عمه، والبالغ من العمر اثني عشر عاماً. ويروي المؤرخون العرب أن صلاح الدين أحبّه كثيراً. وقد سأله يوماً عن دروسه وخاصة معارفه القرآنية فأجابه الولد «ياسيدي إنني وصلت الآن إلى هذه الآية: ﴿إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً، إنما يأكلون في بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً﴾ ويضيفون أن صلاح الدين ابتسم وتظاهر بعدم فهم مقاصد الفتى الذي كان يعبر عن رأي كل من كانوا يعتقدون أن ثروة صلاح الدين السياسية كانت سلباً من ابن نور الدين.

سيد المشرق الإسلامي وصراعات المستقبل

في ٢٣ أيار (مايو) ١١٨٦ عاد صلاح الدين إلى دمشق. وقد أصبح سيد حلب ــ التي أوكل إدارتها إلى ابنه الملك الظاهر ــ والموصل، وما بين النهرين، وسورية ومصر. كان قوياً أكثر منه في أيّ وقت مضى. واستُقبل المنتصر وسط مظاهر الابتهاج العام. فلقد أعاد إلى الإسلام قوته. وكانت مجموعة من الدول العربية تحيط بثلاثة أرباع مملكة القدس الفرنجية. ومن الآن فصاعداً أصبح صلاح الدين ــ صانع هذا العمل ــ قادراً على استشفاف المستقبل وإكمال بناء هذه الإمبراطورية التي ستمتد من ضفاف النيل إلى ضفاف دجلة، وذلك بإنزاله الضربة القاضية بالولايات الفرنجية التي هزّتها خصومات أمرائها الذين أمعنوا في غيهم، بل لم يشاؤوا أن يروا أن الأرض كانت تميد تحت أقدامهم.

هذا، وإن طاقات الدولة الإسلامية ستستنفر، والإرادات ستتّحد في أكثر الحروب المقدسة دموية، وستظهر حروب صلاح الدين الماضية بأزائها مجرد نزهات عسكرية. وسيكون هناك صراعٌ يمكن اعتباره مقدمةً لصراعات المستقبل بين الإسلام والغرب، بين عالمين لا يرحم أحدهما الآخر.



الفصـــل الثالـــث عشـــر

النقطة الحاسمة في الحروب الصليبية

الانقسام داخل صف الفرنجة

كيف كان وضع الفرنجة في المشرق في تلك المرحلة. لقد غدت غابرةً عهود البطولات الصليبية الشعبية التي قادها رجال من أمثال بطرس الناسك وغوتييه سانزافوار وجيرار دي مارتيغيز وغودفروا وبلدوين وفولك الإنجوي الذي استطاعوا ــ رغم الصعوبات الجمّة ــ قيادة الجماهير المتحمسة نحو المشرق التوراتي والإنجيلي. مشرق البطاركة والرسل، نحو أرض فلسطين، نحو القدس التي تتدفق منها الأنوار التي طالما حلموا بها، وهم في أعماق الغرب.. لقد انطوى في الماضي الغابر (نحو قرن كامل) مجمع كليرمون وانضباط الحملات الصليبية الأولى.

والملك الشاب، الذي بمقدوره وحده أن يفعل شيئاً في همة تكفي لحماية القدس، كان يذوي شيئاً فشيئاً، فداؤه العضال يتأكله، فكان ــ رغم ما يتلظى به قلبه ــ يشاهد تفاقم الأمور حوله، والتدميرات التي يحدثها مرض آخر غير مرضه، فتجتاحه الرغبة في أن يكون على رأس جيشه في الساعات الحرجة المأساوية التي أخذ يشعر مسبقاً بانبثاقها. لقد

اضطر إلى التخلي عن السلطة لتأمين ميراث عرش القدس فزوج أخته الكبرى غي دي لوزينيان دافعاً إليه بمقاليد الحكم وصاية، ولكن هذا الاختيار لم يحظ برضا ريمون الثالث كونت طرابلس فرأَسَ حزب الناقمين زاعماً لنفسه حقوقاً في الوصاية أكثر من غي دي لوزينيان. وغادر البلاط وحمل السلاح ضده وانحاز إلى جانبه جمع غفير من الاقطاعيين العصاة. وسرعان ما تكشفت مناوراته عن عدم جدارة غي دي لوزينيان العسكرية، إذ عدّ هذا الأخير المسؤول عن نجاحات صلاح الدين وأخذت الأمور تتفاقم جديّاً، ولم يكن بلدوين الرابع، يريد بأي ثمن أن يكون صانع دمار المجتمع الفرنجي في سورية، ولذا رضخ أمام تحالف عماله، فجرد صهره من السلطات التي أولاه إياها نازعاً عنه الوصاية، وفاسخاً زواجه بأخته.

وحينئذ جاء دور غي دي لوزينيان ليثور، فغادر ناقماً واعتصم وراء أبواب عسقلان، وسلّح حامية المدينة ضد الملك، فأنذره بلدوين الرابع ودعاه للمثول أمام مجلس من الفرسان وكبار الكهنة ليحاكَم على خيانته. وكان ردّ فعل غي دي لوزينيان تدمير منطقة الداروم وقتل البدو المسالمين الذين كانوا يرعون قطعانهم تحت الحماية الملكية، فزحف ملك القدس على عسقلان فوجدها موصدة الأبواب دونه، محكمة الأقفال، فنادى من في الداخل وأمرهم بأن يفتحوا له ــ حسب رواية غيّوم الصوري ــ وطرق الباب الرئيسي ثلاث مرات، ولكن أحداً لم يجب. بينما اعتلى بورجوازيو المدينة الأسوار وهم في حالة تأهب.

وكان حظ بلدوين الرابع أفضل في يافا التي انتزعها من صهره السابق، وجمع البرلمان في عكا ليحكم على الكونت الثائر الذي لاقت قضيته السيئة ــ على غير المتوقع ــ من يدافع عنها في شخصيات بطريرك القدس وسيدي فرسان الهيكل والاسبتار الكبيرين.

وكانت نهاية هذا الملك الكبير توشك على خاتمتها، ولكونه غير راغب في أن تتسبّب وفاتيه باندلاع معارك عنيفة بهدف الاستيلاء على العرش أوكل الوصاية على المملكة إلى كونت طرابلس على أن يخلفه بلدوين الخامس، وهو طفل في الخامسة من عمره، وابن اخته سيبيل من زوجها الأول المركيز دي مونفرّا الثاني. وتقرر أمام المحتضر أنه في حال وفاة الولد قبل العاشرة من عمره يحتفظ ريمون الثالث بالوصاية عشر سنوات، لكي يتاح للبابا وللإمبراطور ألمانيا وملكي فرنسا وانكلترا أن يحكموا في الحقوق المتقابلة، حقوق إحدى ابنتي آموري،

سيبيل وإيزابيل. ومات الملك المجذوم في آذار ١١٨٥ بعيد اتخاذه القرارات الحاسمة فيما يؤمن الشرعية للسلالة الأنجويّة، وكان أوّل الأعمال التي قام بها الوصي ــ كسباً للوقت ــ توقيع هدنة لأربع سنوات مع صلاح الدين.

بعثة القدس إلى أوربا والدعوة إلى صليبية جديدة

ولم يلبث الوصي أن وجّه بعثة إلى أوربا مؤلفة من سيدي الهيكل والاسبتار الكبيرين، وبطريرك القدس لطلب المعونة ووصف الخطورة القصوى لوضع الدول اللاتينية في المشرق. وركب المبعوثون البحر من يافا ووصلوا بأمان إلى مرفأ برنديزي في إيطاليا.

وكان البابا لوسيوس الثالث وفريدريك باربروس في فيرونة حينذاك. ووعد الجرماني بأن يرسل ما يطلب منه، لكنه لم يرسل رامحاً واحداً. أما خليفة المسيح فوزّع عدداً من صكوك الغفران وكتب التوصية، بعد أن أقام جنازاً لسيد الهيكل الأكبر الذي مات في فيرونة، مصاباً بأحد الأوبئة. ولم يفقد المبعوثان الآخران شجاعتهما وسافرا إلى فرنسا التي كان يحكمها عهد ذاك الملك فيليب أوغست، فقابلاه في باريس وقدّما له مفاتيح مدينة القدس وبرج داود، والقبر المقدس مع رسائل الحبر الأعظم. وتأثر فيليب أوغست تأثراً حقيقياً بما سمع، وأراد أن يتلفظ بنذر الصليبيين وييمم شطر الأراضي المقدسة، بيد أن المقربين منه أشاروا عليه بعدم اتخاذ مثل هذا القرار المتسرّع. وسافر مبعوثا القدس بعد ذاك إلى انكلترا ليقابلا هنري الثاني، فاستقبل هذا الأخير بطريرك القدس ورفيقه بكثير من التكريم.

ولكن بطريرك القدس هيراقليوس الثاني خطرت له السانحة السيئة بأن ينحى على الملك بقاسي اللوم ويقرعه على سلوكه تجاه الكنيسة الكاثوليكية، ولدرجة تجرأ فيها على اتهامه باغتيال أسقف كونتربري، كما لم ينس أن يلومه على القوانين الأساسية لكلارندون التي تحدّ من اختصاص المحاكم الكنسية. ولكون الملك بطبعه حاد المزاج، فقد لفت نظر بطريرك القدس بطريقة غير دبلوماسية إلى أنه دهش كثيراً لرؤيته ينشر مثل هذه الأفكار، ولكنّ الحبر الوقح الذي أوصلته عشيقته إلى بطريركية القدس، أجابه: «يمكنك أن تطلق عليّ حماقاتك العادية، وأن تعاملني كما سبق أن عاملت أخي توماس بيكيت؛ وفي محصلة الأمر سيان لديّ

بين أن أموت في القدس بأيدي المسلمين أو أن أقتل هنا بيدك أنت، فأنت الأسوأ من أيّ واحدٍ من أولئك البرابرة».

ويمكن أن نخمن دونما كبير عناء أن ملك إنكلترا الذي لم يكن البتة قديساً لم يشعر مطلقاً أنه مستعد لمنح مثل هذا المبعوث المساعدات التي جاء يطلبها حسب توصية الرسالة البابوية. وهكذا عاد بطريرك القدس كما ذهب بعد أن كان يفتخر بأنه سيقود وراءَه ملكي فرنسا وإنكلترا، عاد كما ذهب وفقدت مملكة القدس كل أمل بمعونة الغرب، باستثناء صكوك الغفران البابوية، وأذهل فشل سفارة البطريرك المجتمع الفرنجي في المشرق.

الاضطرابات الجديدة في مملكة القدس

ووقع حادث غير مرتقب أغرق فلسطين مجدداً في اضطراباتٍ عتيدة: ففي عام ١١٨٦ مات بودينيه فجأة في عكا، ووري جثمانه قرب جثمان غودفروا، وكان قبره آخر قبر ملكي أسفل الجلجلة، وزعمت بعض الألسنة المفترية أن سيبيل دسّت السمّ لابنها، لكي تنصب زوجها الثاني غي دي لوزينيان على العرش. بينما اتهم آخرون كونت طرابلس باغتيال الطفل الملكي. ومهما يكن أمر هذه الشائعات فإن قضية واحدة كانت تطرح نفسها على فكر المرشحين الرئيسيين للتاج: من الذي سيصبح ملكاً؟.. وتآمرت سيبيل، وسارعت من فورها بالانتقال إلى القدس حيث جلست على عرش آبائها، قاطعة الطريق على كونت طرابلس، الذي هرع بدوره مرخياً أعنة جياده، إلّا أنه وبناء على نصيحة جوسلين الثالث دي كورتناي، عم بلدوين الرابع، والوصي على الملك الراحل، جمع صنائعه في نابلس، وناور للحصول على أصواتهم ليصبح ملكاً. وفيما كان البارونات يتذاكرون وصل رسول سيبيل يعلمهم بأنها البنت البكر للملك آموري، وأنها أخت وأم الملكين الأخيرين، وبذلك فإنها قطعاً الوريثة الشرعية للعرش، مطلعاً إياهم على رغبة ملكة القدس المقبلة، التي ترجو منهم أن يحضروا احتفالات تتويجها، فأجاب كونت طرابلس بأنه هو والسادة الرئيسيون من حزبه يقبلون الاعتراف بها ملكةً إذا طلّقت غي دي لوزينيان، وتزوجت بعد ذلك رجلاً قادراً على قيادة الجيش الفرنجي والدفاع جديّاً عن مملكة القدس. فقبلت سيبيل الحاذقة هذا الشرط، وحلَّفت السادة البارزين بأن يقبلوا ملكاً الرجل الذي ستختاره زوجاً لها. ولفظ هيراقليوس

الذي كان يعرف خبيء نواياها الحقيقية قرار الطلاق . فإذا غي دي لوزينيان مطلّق . وراحت سيبيل التي حملت لقب ملكة القدس تعدّ للاحتفالات باعتلائها العرش، وتقبلت التاج، في كنيسة القبر المقدس من يدي البطريرك الذي أقسم لها على الولاء والطاعة باسم الإكليروس والشعب، وطلب إليها أن تقتسم شرف الملك مع الرجل الذي تعتبره الأجدر فقالت: «لقد تم اختياري»، ورفعت التاج واضعةً إياه على هامة غي دي لوزينيان، وأضافت مخاطبة هذا الأخير: «إنني أختارك ملكي وسيدي، وملكاً وسيداً للقدس، لأن على الإنسان ألّا يفرّق ما جمعه الله» . فأثار يوم الخديعة هذا فضيحةً، يمكن العثور على صداها في الجواب الذي تلفظ به أخو غي دي لوزينيان عندما أطلع على هذا النبأ: «هؤلاء الذين نصبوا أخي ملكاً كان يمكنهم أن يجعلوني إلّهاً لو عرفوني . » . ولم يتأخر كونت طرابلس في إظهار غضبه، فانسحب إلى إمارته، وباتت الحرب، منذ الآن، معلنةً سراً بينه وبين غي دي لوزينيان العديم المواهب، والذي لا يمتُّ بأية آصرة تربطه بالنُّبالة السورية، ومع ذلك يوضع في خط النار تجاه عدو مخيف وطموح استطاع أن يعيد لمشرق العالم الإسلامي وحدته، بينما كان الفرنجة منقسمين إلى معسكرين حاقدين يستعد أحدهما للانقضاض على الآخر، تحت أنظار المسلمين المبتهجين، وغدا من حق صلاح الدين أن يعلن عن فرحه حينما علم بهذا الخبر الجيّد، وترتب عليه كسياسي بعيد النظر أن يحرص بالغ الحرص على بقاء هذا العداء مستمراً، ولم يتوان في أن يعرض على كونت طرابلس التحالف معه واعداً إياه، كثمن لخيانته، بعرش القدس؛ ولكي يقدم له الطعم وضع ابنه الأفضل على ضفة الأردن على رأس سبعة آلاف رجل. وأدرك غي دي لوزينيان أن من الأفضل وتحقيقاً للصالح العام، الاتفاق مع عامله الخطر، وبعث إليه يسأله الصلح وفق مشيئته هو، وطال انتظار إبرام الاتفاق.

رينو دي شاتيون يتصدر الواجهة السياسية مرة أخرى

وسواء أكان فرنجة القدس مع غي دي لوزينيان أم مع كونت طرابلس، فقد وجب عليهم أن يواجهوا هموماً أخرى، ذلك أنّ رئيس العصابة الذي لا يُنسى: رينو دي شاتيون قام بأحد أعماله المشهورة، وتصدر بالتالي الواجهة السياسية، إذ عمل على تسريع الأمور التي كانت تختمر، وذلك بموافقته على نهب قافلة شامية جديدة هامة مارة فوق أرضه، في طريق عودتها من مصر . وذهب أبعد مذهب في الفظاظة وعدم اللباقة عندما أجاب التجار الأغنياء

الذين قادهم أسرى إلى وكره في الكرك، بعد أن احتجوا على موقفه متذرعين بالصلح القائم بين المسلمين والفرنجة بقوله: «لينقذكم الآن محمد». وكان في عداد الأسرى حسب رواية مُكمل تاريخ غيّوم الصوري، شقيقة صلاح الدين نفسها[١].

وبعث صلاح الدين بموجب قاعدة الأخلاقية الإسلامية التي تقضي بالحكم على الخيانة حتى لدى غير المسلمين، بعث من فوره برسالة زاجرة إلى رينو دي شاتيون يأمره بإطلاق سراح تجار دمشق وإعادة أموالهم إليهم فوراً. وردّ سيد الكرك الذي كان ثملاً دونما ريب، بأنه سيحتفظ بأسراه حتى يخرج ذهبهم من أبدانهم عَرَقاً. فطلب صلاح الدين من ملك القدس إصلاح هذا الإخلال بشروط الصلح؛ فسارع الأخير إلى إلقاء الحرم على عامله الذي لم يكن يحفل بالله، ولا يهتم بالشيطان، ويدعي أنه سيد أرضه، كما أن الملك سيد مملكته؛ وهو من جهته لم يوقع على هدنة مع المسلمين.

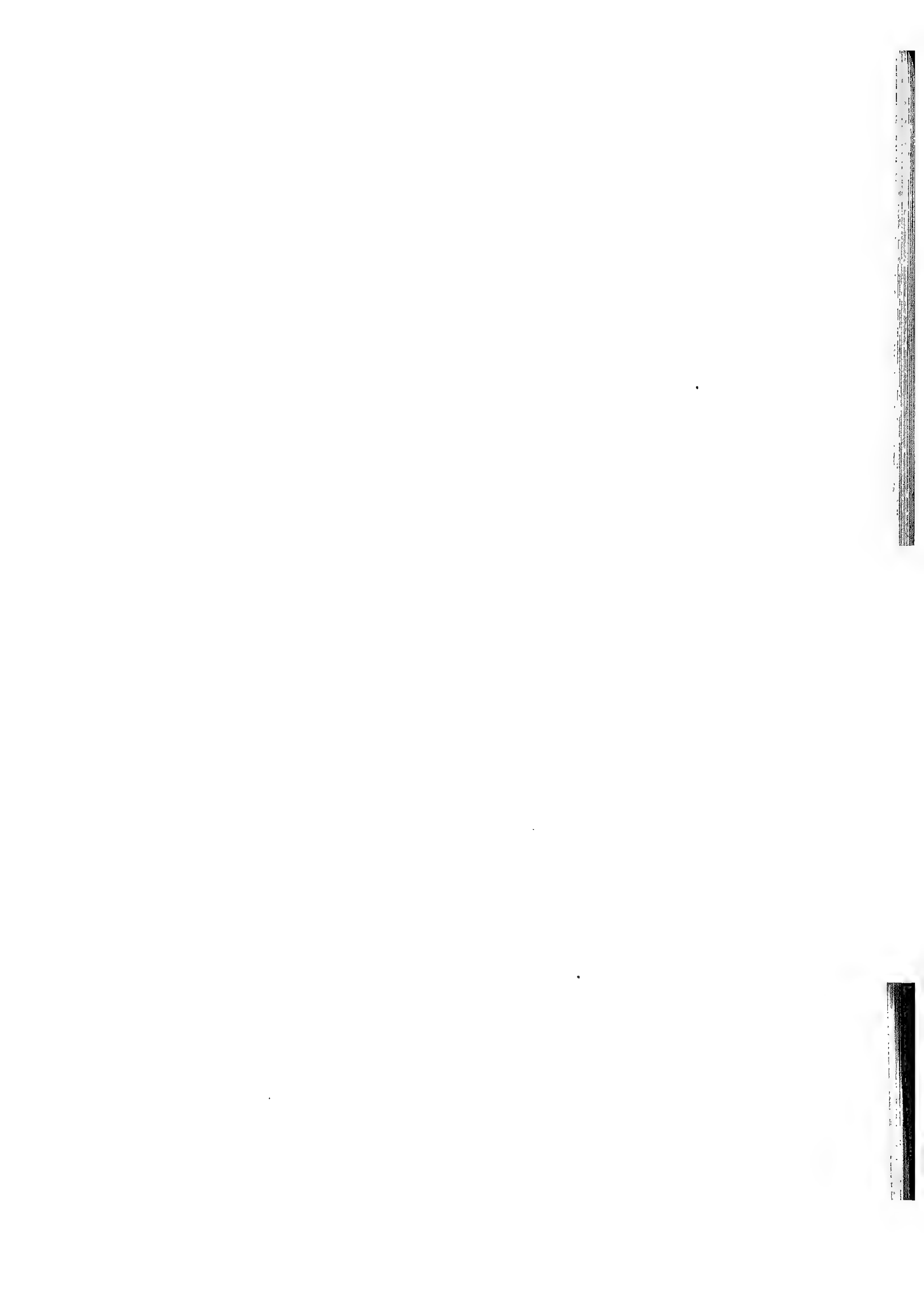
الدعوة إلى الجهاد المقدس في دار الإسلام

ومع الأسف فإن نهب هذه القافلة ــ كما يقول مكمل تاريخ غيّوم الصوري فيما بعد ــ كان سبب ضياع مملكة القدس؛ لأن صلاح الدين دعا بناءً على أمر من خليفة بغداد، إلى الجهاد المقدس في جميع الديار الإسلامية. واعتبرت أراضي الفرنجة دار حرب. ومنذ إعلان الجهاد المقدس فكّ أمير انطاكية بوهيموند الثالث ارتباطه بالولايات اللاتينية في المشرق، كيلا يكون على علاقة بتدمير مملكة القدس، كما وقع اتفاقية حياد مع صلاح الدين، تلك الاتفاقية التي ظلّ وفياً لها. وحينما اطمأن سلطان دمشق إلى هذه الناحية، أعد أهبته لغزو فلسطين.

أمارات انهيار الممالك اللاتينية في الشرق

وهكذا كان الوضع مؤسفاً لفرنجة المشرق في هذه السنوات المظلمة (بالنسبة إليهم طبعاً) من أواخر القرن الثاني عشر. لقد كان على عرش القدس امرأة هي سيبيل التي فرضت ملكاً أميراً تافهاً اختارته لمواهبه السريريّة. بينما كانت إيزابيل الشقيقة الأخرى للملك ستتزوج أميراً فاسداً سيء الرأي، وكانت الملكة الأم الطائشة، الجشعة، عاشقة البطريرك

لا تتدخل إلّا لصالح حاشيتها من رجال البلاط المعطَّرين فاقدي الرجولة ، وكان رينو دي شاتيون الذي تشكل اقطاعاته أحد أفضل دفاعات المملكة لا يحلم إلّا بالغنائم ، واختطاف القوافل المترفة . وأما كونت طرابلس . فكان ــ وهو في أعماق ممتلكاته في عسقلان ويافا ــ لا يفكّر إلّا بضربة الخنجر التي ستنقذه من خصمه بوهيموند الثالث الأنطاكي الذي تخلى عن جماعته ونسي دينه ، وأسلم قياده لعاهرةٍ هي سيبيل دوبرزي التي ما برحت تخون الفرنجة لصالح صلاح الدين فتطلعه على تحركات القوات الفرنجية ومعدّاتها وعددها . وكان العدو على أبواب المملكة ، وكل شيء ينذر بالدمار الوشيك لمملكة القدس التي أسستها حماسة الصليبيين الأوائل ، وشجاعتهم وتقواهم . إن امارات انهيار السلطة الملكية وفساد الأخلاق لم تتضاعف مجاناً فعدو الجنس البشري القديم ــ أي الشيطان كما كتب أحد مؤلفي الحوليات ــ قد حمل في تلك الحقبة روح الغواية إلى كل مكان ، وسيطر سيطرة خاصة على القدس . كانت جميع الشعوب التي قبست الدين عن بلاد النور هذه تتلقى منها الآن مثلاً على مختلف ضروب الظلم . ولهذا احتقر المسيح إرثه ، وسمح لصلاح الدين بأن يكون عصا غضبه .

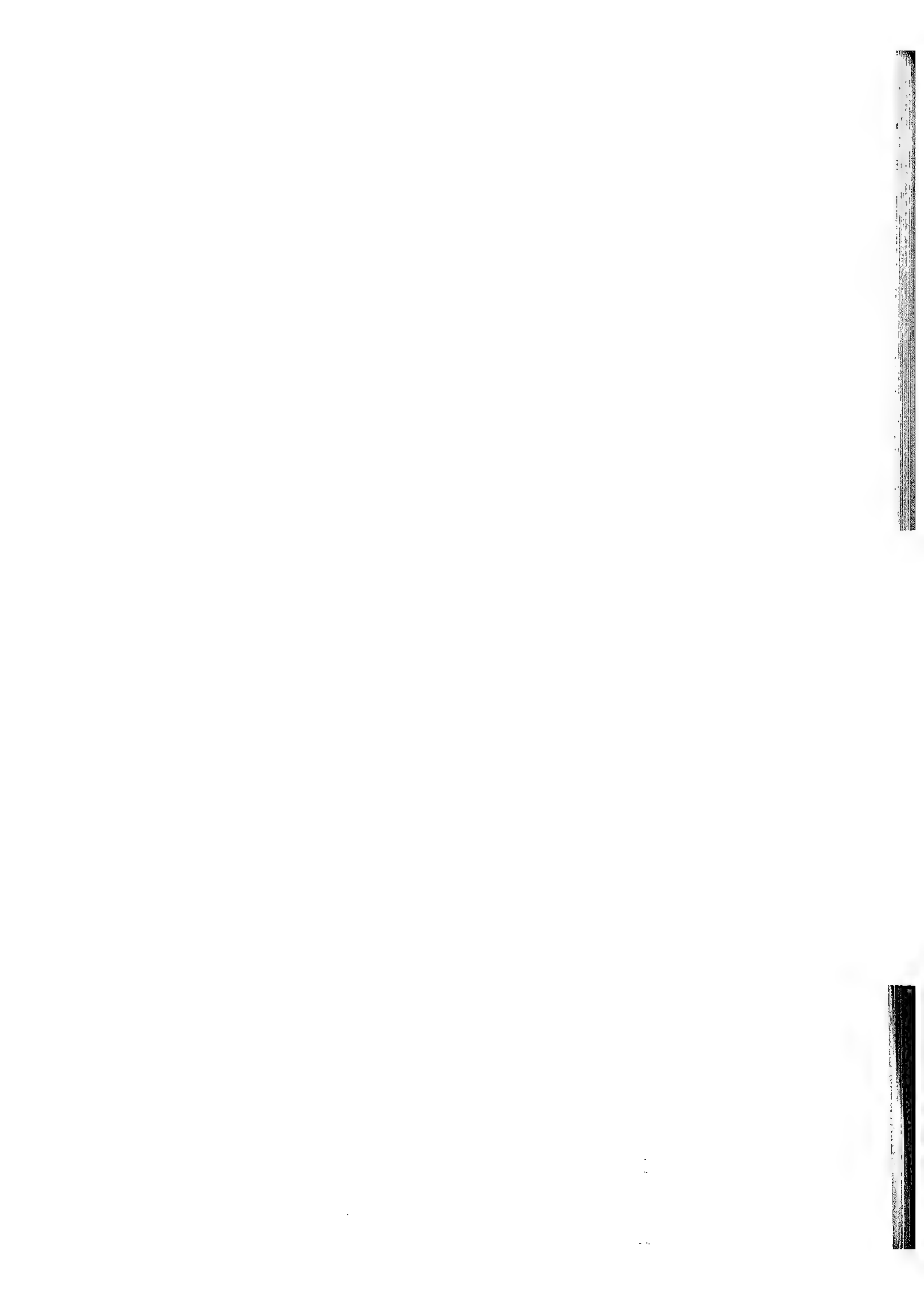


حواشي الفصل الثالث عشر

١ ــ لقد ذهب المؤرخون الغربيون وفي طليعتهم، مكمل تاريخ غيوم الصوري؛ إلى أن شقيقة صلاح الدين كانت في عداد الأسرى حينما استولى رينو دي شاتيون على القافلة المتوجهة من القاهرة إلى دمشق، وأن من أسباب معركة حطين ما اعترى صلاح الدين من غضب شديد دفعه للانتقام، لكن المصادر التاريخية العربية لم تشر ــ لا من قريب ولا من بعيد ــ إلى وقوع أخت صلاح الدين بالأسر...

ولقد عرض أبو شامة في كتاب الروضتين، نقلاً عن المصادر العربية الأساسية، نقض صاحب الكرك دي شاتيون الذي يلقبه المؤرخون العرب بـ «أرناط» الهدنة حين نصب الكمين للقافلة المتجهة من القاهرة إلى دمشق، ونذر صلاح الدين أن يهدر دمه جزاء فعلته:

«وكان إبرنس الكرك أرناط أغدر الفرنجية وأخبثها وأفحصها عن الردى والرداءة، وأبحثها وأنقضها للمواثيق المحكمة والأيمان المبرمة، وأنكثها وأحنثها. ومعه شرذمة، لها شر ذمة، وهي من شر أمة، على طريق الحجاز، ومن نهج الحج على المجاز. وكنا في كل سنة نغزوه، وبالبوائق نعروه. ويصيبه منا المكروه، فأظهر أنه على الهدنة، وجنح للسلم، وأخذ الأمان لبلده وأهله وقومه وروحه، وبقي الأمن له شاملاً، والقفل من مصر في طريق بلده متواصلاً. وهو يمكن الجائي والذاهب، حتى لاحت له فرصة في الغدر، فقطع الطريق، وأخاف السبيل، ووقع في قافلة ثقيلة، معها نعم جليلة، فأخذها بأسرها. وكان معها جماعة من الأجناد فأوقعهم في الشرك، وحملهم إلى الكرك. وأخذ خيلهم والعدّة، وسامهم الشدّ والشدّة. فأرسلنا إليه وذممنا فعاله، وقبحنا احتياله واغتياله. فأبى إلّا الإصرار والإضرار. فنذر السلطان دمه ووفى في إراقة دمه بما التزمه. وذلك في السنة الآتية ــ كما سيأتي إن شاء الله تعالى ــ وأقام السلطان بدمشق بقية هذه السنة، وهو في الاستعداد للجهاد. وقد أرسل في طلب العساكر من البلاد المشرقية والمصرية، فانتظمت أموره على أحسن قضية.» (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٥).



الفصـــل الـرابـع عشـــر

حطين ..
النصر الأعظم للمسلمين على الفرنجة[1]

تحت راية الجهاد

إنّ الجهاد المقدس الذي أعلنه الخليفة ــ خليفة رسول الله العباسي ــ فجّر الحماسة في سورية، وتجمعت القبائل حالمة بالغنائم التي تجمع مساء من ساحات القتال، فهرعت من أعماق الصحراء متألبة تحت رايات الجهاد التي حملها رجال صادقو العزم. وانحدر البدو عقبان الصحراء في سهوب عبر الأردن المقيمون قرب الحضر. والذين يكسبون منهم موارد شبه مشروعة، انحدروا زرافات ووحدانا نحو فلسطين. وحمل الشعراء النبأ من قبيلة إلى قبيلة، ومن صحراء إلى صحراء، وهم يروون تحت الخيام في ساعات الغسق حكايات ملحمية من شأنها أن تثير مخيلات الفرسان، حتى انتهى البلاغ إلى أعماق العربية السعيدة فامتلأت تخوم الجليل بسحب من القوافل شبيهة بزمن التجمعات العربية عشية فتح الشرق البيزنطي والساساني.

وفي آذار (مارس) ١١٨٧ تجمعت قوات صلاح الدين شمالي حوران بقيادة الملك الأفضل الذي كلفه أخوه بتأمين المؤن اللازمة لمعركة عسكرية طويلة الأمد.

الصليبيون والدعوة إلى الوحدة المقدسة

وبلغت أصداء هذه الاستعدادات القدس حيث نجح الملك غي دي لوزينيان في مصالحة خصمه كونت طرابلس بدعوته إلى الوحدة المقدسة، وبعد تبادل القبل المعتادة عقد مجلس في العاصمة لاتخاذ الإجراءات الكفيلة بالدفاع عن المملكة. وانتصر الرأي القائل بالتجميع الفوري للقوات المتاحة في الجليل، فاستدعي جميع الرجال القادرين على حمل السلاح وكل الميليشيات الهجينة وطُلب من البارونات أن يحضروا إلى مكان التجمع، واستنفر البورجوازيون (سكان المدن). وأرسلت الحصون حامياتها. وهكذا استطاع ملك القدس أن يحشد ٢٠٠٠ فارس و١٨٠٠٠ راجل في سهل صفورية. مسقط رأس يواكيم (عمران) والد مريم البتول على مسافة ثلاثة أميال ونصف الميل شمال الناصرة. وطلب إلى بطريرك القدس بدوره أن يحضر مع الصليب الحقيقي الذي من شأن وجوده بين المحاربين أن يثير أصفى الحماسة للدفاع عن المملكة التي يهدد المسلمون وجودها. ولم يكن البطريرك هيراقليوس ليأنس في نفسه تلك الشجاعة التي يتحلى بها أولئك الرهبان الجسورون القادمون من أعماق أديرتهم الهادئة لتسربل الدرع والموت في سبيل عقيدتهم، فأوكل إلى اثنين من أولاده الذين أنجبهم من علاقاته الآثمة، شرف حمل راية الدين في ساحة القتال... أولهما أسقف اللد والثاني أسقف عكا.. وبما أن هيراقليوس متملص من الاضطلاع بواجبات منصبه فقد فكر بما يتوسله من أسباب تحمله إلى أوربا حيث ينعم بعيداً في ملاذِه بطائل ثرواته تصحبه سيدات نبيلات إذا ما آلت أمور المملكة إلى مصير سيء.

الاستنفار المرتجل وحشد جيوش الفرنجة في صفورية

والأمر الذي علينا تذكره عن هذا الاستنفار المرتجل للقوات الفرنجية، أنه لم يبق في مدن فلسطين أو حصونها سوى العاجزين عن القتال من النساء والشيوخ والأطفال، وكان بوسع ملك القدس الادعاء بأنه حشد في صفورية أحد أهم الجيوش على مدار الحروب الصليبية.

ولكن ــ في المقابل ــ لم يُسْتَبْقَ في المؤخرة أحد قادر على سدّ الطريق في وجه الفاتح الكردي عند مسيس الحاجة، إذا تمكن من هزيمة ملك القدس، وذاك هو الخطأ الفادح الذي ارتكبه هذا الأخير إذ لم يأخذ بعين الاعتبار ما قد يتمخض عن الأحداث من احتمالات.

كان خطأً لا يغتفر أن يتقرر في ساح القتال حصراً مصير مملكة الفرنجة المزدهرة هذه في المشرق .

تحركات صلاح الدين لتأمين حدوده الشمالية

وعرف صلاح الدين أن يؤمن لنفسه صداقات في معسكر العدو قبل أنْ يحضر لقيادة قواته . لقد سبق لنا القول إنه عقد اتفاقاً سياسياً مع أمير أنطاكية بوهيموند الثالث ، فضمن أمن حدوده في شمال سورية ، واستطاع بهذا أن يحصر كل اهتماماته بالمسائل الفلسطينية .

احتشاد القوات الإسلامية

وفي ٢٧ أيار (مايو) ١١٨٧ نصب صلاح الدين خيمته عند نبع عشترا شرقي بحيرة طبرية ، حيث انتظر قدوم حلفائه مما بين النهرين ، ومن مصر بقيادة الكثير من الأمراء ، نخبة المشرق كلها . وقد قام باستعراض قواته حال تكاملها ، فكانت ــ حسب قول المؤرخ العماد[٢] ــ « قوة باهرة إذ عجت التلال والهضاب بفرسان الرحمن ، فكان معسكرنا يمتد عده فراسخ تعج بستين ألفاً استعرضهم السلطان صلاح الدين في ليلة عاصفة »[٣] .

صلاح الدين يعبر أراضي كونتية طرابلس

وفي ذلك الوقت ، استطاع كونت طرابلس ريمون الثالث ، الذي لم ينس أن صلاح الدين طلب أن ينضم إليه مقابل حصوله على مملكة القدس ، استطاع أن يقيس مذعوراً عمق الفخ الذي كان ينفغر تحت قدميه ، فراح يتساءل هل كان قد تبقى له بعض الشعور بالشرف ، وراح يلعن هدنة السنوات الأربع التي أبرمها لينقذ ممتلكاته في الجليل .

لقد لعب صلاح الدين معه لعبة حاذقة ، فطلب منه الإذن بأن يعبر أراضيه لكي يقوم حسب زعمه بمجرد تظاهرة فقط في الأراضي المقدسة . وأصاب ريمون الثالث الهلع لكن بعد فوات الأوان من انتشار قوات صديقه الجديدة . فاضطر أن يأذن بهذا العبور مكتفياً ــ بغية إراحة ضميره ــ بأن يأخذ وعداً من المسلمين المسلحين باجتياز حدوده عند الفجر وبأن يعودوا منها في المساء ذاته . فكانت مساومة بلا معنى ، ودونما أية جدوى .

وعبر صلاح الدين نهر الأردن ، وسار نحو جبل الطور (الطابور) والناصرة .

عملية فرسان الهيكل الانتحارية

وقام مائة وخمسون هيكلياً استنفرهم اقتراب المسلمين، دونما علم منهم بالتدابير التي أنفذها كونت طرابلس، قاموا بعمل جنوني بمهاجمتهم سبعة آلاف خيال مسلم، وكان على رأس المهاجمين الفارس الفلامندي الشاب جيرار دي ريدفور، فكان أن ذهبوا لملاقاة الموت بشجاعة انتزعت احترام أعدائهم وأشاد مؤرخو الحوليات بذكر هؤلاء الأبطال الذين قبلوا الموت ثابتين بمواقعهم بمعارك قاسية لا ترحم.

وحمل المسلمون رؤوسهم على أسنة رماحهم حينما عبروا نهر الأردن مساء. وأمضى صلاح الدين ليلة ٢٧/٢٦ حزيران (يونيو) في خسفين، وعسكر خمسة أيام في السهل الواقع قرب مخرج نهر الأردن من بحيرة طبرية.

الاستيلاء على مدينة طبرية وحصار قلعتها

وفي ٣٠ حزيران تمركز صلاح الدين فوق تلة كان يستطيع منها رؤية مدينة طبرية الصاخبة، عاصمة المنطقة الأردنية التي بناها هيرودس انتيمياس على شرف طيبيريوس المشهور بمدرسته الربانية التي صدر عنها تلمود القدس، والماسورة المعدّة لحفظ النص العبري للتوراة نقلاً عن المخطوطات الأصلية. واغتنت من تجارة القوافل الضاربة ما بين دمشق وعكا، حين غدت عاصمة لإمارة الجليل لمناصفتها المناطق المجاورة مواردها، وأخذت أهميتها الاقتصادية تنمو باطّراد تحت الإدارة الفرنجية. وكان على مقربة منها قرية عمواس الشهيرة بحماماتها الحارة المعروفة بحمامات تيبير التي يتدفق في بهو هيكلها الفخم اثنا عشر ينبوعاً كل منها مخصص لشفاء أحد الأمراض.

واستولى صلاح الدين على طبرية في ساعة واحدة، ونهب مماليكه المدينة وأحرقوها. وعلى ضوء اللهب الساطع الذي أخذ يلتهم الأحياء الخارجية، حاول صلاح الدين عبثاً الاستيلاء على القلعة التي دافعت عنها امرأة ريمون كونت طرابلس التي رفضت الاستسلام واستطاعت أن تبعث رسالة إلى ملك القدس طالبة منه نجدة فورية ... وكان الفرنجة قد تجمعوا قرب ينابيع صفورية، وعدتهم نحو ثلاثين ألف مقاتل.

ضجة في صف الفرنجة

وحين علم الملك بكارثة طبرية، عقد اجتماعاً، وكانت الجلسة صاخبة. فقد هب رينو دي شاتيون يريد الشخوص فوراً لإنقاذ طبرية، على حين بدا ريمون كونت طرابلس أشد حذراً في ردود فعله، لأن طبرية هي من اقطاعته، لكنه ارتجل نداءً عاطفياً نوه فيه بما تقتضيه الحكمة من عدم التخلي، في هذا الطقس الخانق بشديد حرارته عن منطقة الينابيع، وعدم عبور الصحراء بلا ماء في جيش لن يلبث أن يرهقه الظمأ، وقال مستنتجاً «إياكم أن تبرحوا الآن ينابيع صفورية. ثقوا برعونة المسلمين الذين أعماهم نجاحهم السهل بحيث سيدفعهم إلى التقدم نحونا هنا، وهذا مايجب أن نتمناه، فبينما سنكون نحن نشيطين ومستعدين سيكونون هم منهكين ظمأ، مجهدين تعباً، إذا ماعبروا الصحراء التي تفصل مابيننا وبينهم، وسنهاجمهم دون أن ندع لهم وقتاً لإرواء ظمئهم. ولسوف نسحقهم بالغاً مابلغ عددهم، سنسحق أولئك الذين يدمرون بلادنا ويحرقون مدننا...» بينما كان رينو دي شاتيون ـــ الذي طالما وضعت أعمال نهبه وحنثه بعهودِهِ الفرنجة في مأزق أكثر من مرة ـــ على نقيض هذا الرأي، وتجرأ على ريمون طرابلس متهماً إياه بالجبن، وتوجه إليه بالخطاب: «لقد أفضت بالقول لتخيفنا، ولاشك في أنك تحتفظ في سويداء قلبك ببعض الصداقة نحوهم، ولذا تهدف إلى منعنا من الزحف لمقاتلتهم». وتصاعدت بعد ذلك لهجة الحدة وطفق البارونات يتخاطبون مباشرة غير آبهين بالملك الذي لم يعد يجرؤ على اتخاذ قرار. وأنحى أحد الهيكليين باللائمة والتقريع على ريمون كونت طرابلس لخمود حماسته متهماً إياه بالتفاهم مع العدو. ولكن الأخير ظل متمسكاً بعنيد موقفه، ينذر قومه بعواقب وخيمة ومصائب رهيبة، وتضرّع إلى الملك ألا يغادر ينابيع صفورية، وعدم إلقاء جيش الفرنجة في كارثة محققة.

وصرخ محتداً «إن طبرية ملكي، ومازال زوجتي محاصرة في قلعتها ولكن لا يضيرني شيء لو استولى عليها صلاح الدين شرط أن يختفي من الأرض المقدسة. الحقيقة التي أصارحكم بها هي أنه سبق لي أن شاهدت عدداً من الجيوش الإسلامية، لكنني لم أر البتة جيشاً كهذا الذي يصطحب السلطان الآن، فإذا ماسرتم إلى طبرية فسيكون في ذلك نهاية مملكة القدس».

وغادر مجلس الحرب منسحباً إلى خيمته، وقد هزت صراحته أغلب البارونات الحاضرين.

ملك القدس يزحف بقوات الفرنجة إلى حتفها

أما الملك الذي مازال متردداً فترك تدبير الأمور للعناية الإلّهية وحدها. كان يود التريث بضعة أيام قبل اتخاذه القرار المناسب، وها قد انتصف الليل وانسحب كل إلى خيمته، بيد أن سيد منظمة الهيكليين الأكبر جيرار دي ريدفور، هذا الذي قاتل بمنتهى البسالة قبل أيام قلائل مع جاكلان دي مايي، رأى من الذل الشخصي أن ينضم الملك في نهاية المطاف إلى عدوه ريمون الثالث. ولذا قصد على غير ما هو متوقع غي دي لوزينيان بمفرده، وبذل قصارى جهده لكي يدفعه للعدول عن قراره، وقال مخاطباً إياه: «لا تحقد عليّ، إذا ما صارحتك الحديث، فكونت طرابلس خائن، وإنك تملك منذ زمن قصير، ولديك جيش جيد. أليس عاراً عليك أن تدع مدينة فرنجية تسقط دون أن تحاول نجدتها؟ وكيف يمكن أن تسوّغ مثل هذا التخلي؟. لقد اتخذنا نحن الهيكليين خيارنا. وسننزع أرديتنا البيضاء ونبيع أملاكنا بدلاً من أن نتحمل العار الذي يراد سربلة شعب يسوع المسيح به... أيها الملك، دع قيادتك تستنهض الجميع ليكونوا على أهبة الزحف فجراً تحت راية الصليب المقدس». فانصاع الملك، وبعد بضع ساعات كان الجيش الفرنجي يتخلى مع أولى خيوط الضياء عن ينابيع صفورية، والزحف للقاء الموت.

خطة صلاح الدين الحربية

لقد رمى صلاح الدين ــ حينما حاصر قلعة طبرية ــ إلى إكراه الفرنجة على التخلي عن المنطقة الغنية بينابيع صفورية الثرّة وخضرة مراعيها، وليحول بينهم وبين بلوغ بحيرة طبرية، وحصرهم في منطقة من الأراضي الملتهبة التي لا يمكنهم معها أن يجدوا أي مصدر للمياه.

وفي أول تموز (يوليو) أصبح الجيشان وجهاً لوجه، وقال صلاح الدين حينما رأى ملك القدس ينتهي إلى الموقع الذي اختاره هو للقتال: «إن الله يقدمهم لي»(٤).

بدء المعركة

وفي اليوم التالي حصلت أولى المناوشات قرب لوبيا على مسافة تسعة أميال شرق صفورية . وكان القتال ضارياً بلا رحمة من الجانبين ، وكتب بهاء الدين قائلاً : « لم يحدث قط في تاريخ ماسلف من الأجيال أن سجّل مثل هذه الأعمال الحربية التي شهدناها ذلك اليوم »[٥] .

وحين حلّ الليل بقي كل فرد شاكي السلاح في معسكره ، وشارف الموقف حد المأساة إذ أخذ الرجال والحيوانات يعانون وطأة الظمأ . وكان النهار شديد وطأة الحرارة ، وأوشك مخزون المياه على النفاد ، ومع إطلالة فجر اليوم التالي لم يبق للفرنجة سوى بارقة أمل وحيدة : فتح ممر لهم عبر الجيش الإسلامي ، والتخلص مهما كلف الأمر من قبضته التي لا ترحم ، ولكن المماليك الذين كانوا في منتهى الراحة أطاشوا أحلامهم وبددوا آمالهم ، تحت الشمس الجهنمية ومثار النقع ، فكانت هجماتهم تتلاحق طوال النهار ، على سحب الغبار ، ويتابع بهاء الدين قائلاً « وملأ قلوب الكافرين رعباً »[٦] وكان الجيش الفرنجي محاصراً تحدق به القوى الإسلامية ، وتحكم حوله الطوق شيئاً فشيئاً ، ولم يكن صلاح الدين قد زج بكل قواته ، لأنه احتفظ بقوى احتياطية للعملية الشاقة ، بعدما يستنزف الظمأ طاقة عدوه . وكان مهرة رماة السهام ينهكون جناحي العدو تارة ويهيضون القلب طوراً ، ويوقعون في صفوفه فادح الخسائر . وفقد الفرنجة شجاعتهم . وحاولت إحدى كتائبهم الهرب فمزقت شر ممزق ، وتناثرت إرباً إرباً ... أما ماتبقى من الجيش الباسل فتسلق تسلقاً فوضوياً تل حطين ، على مقربة من قبر النبي شعيب . وعبثاً حاول ملك القدس أن يعيد تجميع قواته ، وبدا خيرة جنوده فاقدي الثقة يتشبثون بهذا التل دون أن يفكروا في أنهم سيحاصرون فيه حتى الموت جوعاً وعطشاً وحرّاً . وأمر غي دي لوزينيان وحده حفنة من الفرسان الأشداء بشن هجوم يائس ، وأوشك هذا الهجوم البطولي أن يغيّر في إحدى اللحظات مجرى الأحداث فيقلب مصير المعركة ، يقول ابن صلاح الدين ، الأفضل : « كنت إلى جانب أبي في ذلك المصاف ، وهو أول مصاف شاهدته ، فلما صار ملك الفرنج على التل في تلك الجماعة حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدي . قال : فنظرت إليه ، وقد علته كآبة ، واربدّ لونه ، وأمسك بلحيته ، وتقدّم وهو يصيح : كذب الشيطان . قال فعاد المسلمون على الفرنج ، فرجعوا

فصعدوا إلى التل، فلما رأيت الفرنج قد عادوا، والمسلمون يتبعونهم، صحت من فرحي: هزمناهم، فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى حتى ألحقوا المسلمين بوالدي، وفعل مثل ما فعل أولاً، وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل، فصحت أنا أيضاً: هزمناهم. فالتفت والدي إليّ وقال: اسكت. ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة، قال: فهو يقول إليَّ، وإذا بالخيمة قد سقطت، فنزل السلطان وسجد شكراً لله تعالى، وبكى من فرحه»(٧).

وتؤكد هذه الرواية محاولة ملك القدس أن يخترق مرتين الخطوط الإسلامية، ولما أخفق نظّم الصفوف على عجل، ورفع الصليب على قمة التل، وطلب من جنوده أن يصطفوا حول الراية المقدسة ليستمعوا إلى القدّاس ويصلّوا في حرارة. ويالها من لحظة ذات شجون، فهذا القداس يقام بين الأموات على هذا التل المنعزل الذي يبدو وكأنه ينفجر من الأرض في هذا الغسق الشديد الحرارة من يوم ٣ تموز (يوليو) ١١٨٧. كان التل أشبه بصخرة حمراء فوق بحر عباب من الجيوش الإسلامية. وبدأ الفرنجة التعساء يعانون آلام الهلوسة لما يقاسون من الظمأ. وقليل منهم الذين استطاعوا النوم تلك الليلة لأن صلاح الدين استبقاهم مستنفرين حتى الفجر.

حطين: الكارثة الأفدح للصليبيين والنصر الأعظم للمسلمين

وأخيراً أطل صباح اليوم الرابع من تموز ١١٨٧، اليوم المطبق الشؤم على النصرانية. وتريث صلاح الدين لبدء هجومه العام حتى هبت ريح حارة من طبرية فأتاحت لقواته أن يحرقوا ما غطى الأرض من الأشواك ويابس الأعشاب فأجت النار منتشرة بسرعة حول التل، وكتب عماد الدين، يقول: «إن الفرنجة القائلين بالتثليث ابتلوا في الاصطلاء والاصطلام، نار الضرام ونار الأوام ونار السهام»(٨)، وامتدت ألسنة اللهيب زاحفة تسوقها الرياح إلى معسكر الفرنجة، حتى بلغت أقدام الرجال وسنابك الخيول، واستطاع ريمون الثالث كونت طرابلس وسط هذه المعركة غير المتكافئة التي بدأت في هذه الظروف أن يفلت هارباً مع فرسانه الطرابلسيين.. ما الذي حدث حقيقة؟ لا أحد يدري. هل كان على اتفاق مسبق مع صلاح الدين ففتح له بالسر منفذاً داخل صفوف جيشه؟ أم إنَّه استطاع أنْ يشق لنفسه ممراً؟ لكن هذا الأمر الأخير بعيد الاحتمال. إذ كيف يمكن تصور ذلك، وقد عجزت عن تحقيقه خيّالة

أفضل من خيّالته. ومهما يكن من أمر فإنّ ظلاً ثقيلاً من الشك يبهظ ذكرى كونت طرابلس، الذي التجأ إلى صور حيث سيغتاله بعد بضعة أيام الإسماعيليون المتزمتون. وبينما كان الفرنجة التعساء، الذين أنهكتهم معارك الأمس وليل من الأرق، وخنقهم الدخان وأحرقتهم الشمس، يجأرون ويصلّون، تترى عليهم هجمات الفرسان بوتائر متسارعة. وكان المماليك يظهرون من كل جهة «بين أبخرة السراب وعذابات الظمأ وهيب الجو» — كما نقرأ في كتاب الروضتين — ويضيف المؤلف العربي بخبث: «كان هؤلاء الكلاب الفرنجة يخرجون ألسنتهم المتيبسة ويجأرون ألماً وحرقة، بأمل أن يبلغوا الماء، ولكن كانت تحدق بهم جهنم بسعيرها»[٩]. وبعد قليل لم يعد الفرنجة قادرين حتى على الدفاع عن أنفسهم. وقطعاً، لم تحدث هزيمة أتم ولا أفدح خسائر، فعشية المعركة كان ثلاثون ألف فرنجي يرقدون فوق الرماد الذي ما برح حاراً في هذه الأرض المعادية. لقد ماتوا بشجاعة غاسلين بدمهم الخطأ الذي لا يغتفر لغي دي لوزينيان الذي ساقهم بأفين رأيه إلى هذه المجزرة. وتؤيد رواية أحد الحجاج الذي حضر هذه المعركة الخالدة ما قلناه آنفاً عن يوم حطين، هذا الذي كان أعظم نصر لصلاح الدين. ونعتقد أنه مفيد أن ننقل هذه الرواية: «غادر الجيش معسكر صفورية صبيحة اليوم الثالث من تموز (يوليو)، وكان كونت طرابلس يسير مع قواته في الطليعة، تتبعه عدة فرق يقودها بارونات الأرض المقدسة وأسيادها على الميمنة والميسرة، وحملت قوة مختارة الصليب الحقيقي في القلب، بينما كان ملك القدس يقود المؤخرة، يحيط به اخوان الهيكل والاسبتار وكان الفرنجة السائرون على خط مستقيم نحو طبرية قد انتهوا إلى قرية تبعد ثلاثة أميال عن البحيرة، ولم يعد الملك حينذاك يجرؤ على التقدم، إذ أحبط فلم يعد يدري مايصنع، فأمر بنصب الخيام، وسمع في الوقت ذاته وهو يصرخ: «يا للأسف، لقد خسرنا كل شيء... سنموت غداً، لقد انتهت مملكة القدس». وأطاعه الناس في يأس، أي ليل سيمضيه الجيش في هذا المكان. لقد احتشد المسلمون حول (شعب الله) وأحرقوا السهل. وبات الفرنجة ليلتهم ترهقهم النار وكثيف أعمدة الدخان وسحب السهام، والجوع، والعطش. وفي صبيحة اليوم التالي خرج السلطان من طبرية وتقدم لإنهاك الفرنجة. وشرعت كتائب الصليب تستعد لعبور الممرات والمرتفعات ذات الأخاديد التي تفصلها عن بحر الجليل «لأننا — حسب زعمهم — سنجد هنا ماء ونستطيع أن نعمل سيوفنا.» وأخذت وقتذاك طليعة الكونت ريمون تتوجه نحو تل شرع الأتراك يحتلونه، وكان على المشاة أن يحموا الفرسان من الأعداء رماة

السهام، وعلى الفرسان بدورهم أن يحموا المشاة. لكن لم تطبق قاعدة الأمان هذه، وحالما اقترب المسلمون شكّل مشاة الفرنجة زاوية، وهرعوا ليحتلوا قمة تل متخلين بذلك عن الفرسان. وحين أبصر الملك والأساقفة وكبار القادة المشاة يبتعدون، أرسلوا يبلغونهم أن يكروا راجعين للدفاع عن الصليب الحقيقي، فكان ردهم لا نستطيع هذا لما يرهقنا من الظمأ، ولم يعد لنا طاقة على القتال. فبعثوا إليهم برسالة ثانية ولكنهم لم يستجيبوا، لأن الوضع فوق ما يحتملون. وكان رجال الهيكل والاسبتار يقاتلون ببسالة لكن دونما إحراز أي تفوق على المسلمين الذين كان عددهم يزداد ساعة فساعة، وما انفكوا ينشرون الموت أنّى كانوا، وحين غلبتهم الكثرة استصرخوا الملك لنجدتهم، ولكن الملك، وقد رأى مشاته يرفضون الكر، وهو نفسه دون حماية ضد النّبالة المسلمين، أسلم ذاته لرحمة الأقدار، وأمر بإعادة نصب الخيام عساه يوقف ــ إن استطاع ــ هجمات العدو الصاعقة. وهكذا عادت الكتائب للتجمع حول الصليب، تائهين مختلطين. ولما رأى كونت طرابلس أنّ الملك والهيكليين والاسبتاريين وكل الجيش الفرنجي لم يعودوا سوى كتلة هي خليط غير متميز المعالم، تنقضُّ عليها كتائب المسلمين من كل جهة مالئة الجو بسحب نقعها، وقد بات منفصلاً عن سائر القوات، شق لنفسه طريقاً عبر صفوف الأعداء وانسحب مع طليعته.

ومن كل جهة كانت آلاف المسلمين يتدفقون ويقتلون الفرنجة. وأصيب أسقف عكا ــ الذي كان يحمل صليب المسيح ــ بطعنة نجلاء فسقط تاركاً الذخيرة الأعظم لأسقف اللد، وحينذاك بهت المشاة الذين احتموا بالتل هاربين وهم يرون المسلمين ينقضون عليهم ويعملون فيهم السيف.. فقتل من قتل وأسر من أسر، وعبر باليان النابلسي بالناجين جسراً من الجثث ليفوزوا فراراً بأرواحهم. وخفّ ثقل الجيش الإسلامي إلى المكان الذي كان فيه الصليب الحقيقي وملك القدس، وسهل على المرء أن يروي بالنشيج ما حدث في نهاية ذلك اليوم.» وأمر صلاح الدين الذي كان يكره من الصميم فرسان الهيكل والاسبتار، وما زال يذكر أنّ السيد الأكبر للهيكليين أرنولد دي توروغ هو أحد صانعي الصليبية الأخيرة ــ أمر عشيّة معركة حطين هذه بقطع رؤوس مائتين وثلاثين منهم بعد أنْ عرض عليهم اعتناق الإسلام، وتم أسر جميع من حاولوا الهرب بعد المعركة.. حتى إنّ جنديا مسلماً واحداً استطاع أنْ يقود ثلاثين منهم ــ أوثقوا بحبل واحد. وسلّم الصليب الحقيقي إلى تقي الدين

ابن أخي صلاح الدين، وهكذا ــ كما يكتب أحد المؤرخين اللاتين في تلك الحقبة ــ «فُقد صليب خلاصنا في مكان كان يسوع المسيح يحب التردد إليه، وعلى التل ذاته الذي اختار فيه حوارييه».

وحينما عرض تقي الدين عمر على صلاح الدين الذخيرة المقدسة الثمينة، قال هذا الأخير: «إنّه، ليبدو كما هو ظاهر من حزن الفرنجة، ان هذه الخشبة ليست الأدنى في حصيلة انتصارنا». ومع حلول الظلام، وبينما أخذ المماليك يدحرجون رؤوس آخر المنهزمين، كانت مجزرة الفرنجة مستمرة، إذ أحدقت بالسلطان مجموعة من المتطوّعة، وهم أناس مشهورون بالتقوى والزهد: صوفيون أو فقهاء أو علماء متبحرون في كل درجات المعرفة، والتمس كلٌ من هؤلاء أنْ يجندل رأس أحد الأسرى...

بطل حطين يلتقي بالأسرى من قادة الصليبية[١٠]

وأمر السلطان بنصب خيمته الحربية وسط حومة المعركة، وبتقديم كبار الأسرى إليه، وكان بينهم غي دي لوزينيان والسادة جيبلي وبوترون، ومار آكلي، وجيرار دي ريدفور، وغيّوم الثالث دي مونترا وأونفروا الرابع دي تورون، والمركيز الشيخ غيّوم الثالث دي مونفروا، والكونستابل آموري دي لوزينيان، وابن ريمون كونت طرابلس ورينو دي شاتيون. واستقبلهم صلاح الدين في خيمته التي كانت ترفرف فوقها راية سوداء، طرّز عليها بخيوط الذهب: «صلاح الدين ملك الملوك، وقاهر القاهرين، هو مثل سائر البشر، تحت رحمة سلطان الموت».

نهاية رينو دي شاتيون[١١]

واستقبل صلاح الدين ملك القدس التعيس إستقبالاً لائقاً، وعزّاه بفقد مملكته، وأجلسه إلى يمينه وتحدّث إليه. وقدّم إليه شراباً مبرداً بثلج حرمون ممزوجاً بماء الورد. وبعد أن جرع منه بضع جرعات قدم الكأس إلى رينو دي شاتيون. فخاطب صلاح الدين الترجمان قائلاً: «قل للملك أنت الذي سقيته وأما أنا فما سقيته..». وتوجه بعنيف خطابه إلى رينو دي شاتيون الذي خان أكثر من مرة العهد المبرم ما بين المسلمين والفرنجة، وأخلَّ بشروط الهدنة بسبب جشعه، قال: «إن السماء التي تنتقم من مقترفي السيئات، قد أوقعتك في

يديّ . فتذكّر خيانتك ، تذكّر ما اقترفت من فظائع ضد المسلمين إبّان السلم . تذكّر وأنت في ساعتك الأخيرة هذه ، أيها السيد الشقي ، أعمال السلب والاغتصاب التي قارفتها ، والشتائم التي وجهتها إلى نبينا عليه السلام . لعنك الله ، تذكّر في ساعتك الأخيرة هذه محاولاتك تدنيس أقدس مدينتين في مدننا : مكة والمدينة . ومن العدل أن يقاصص مقترف كل هذه الجرائم ، وأن أنفذ قسمي ... لقد أقسمت أن أقتلك بيدي » .

واستل سيفه وضرب به رينو دي شاتيون فبان ذراعه من الكتف ، وقام القادة الحاضرون فأجهزوا عليه أمام ملك القدس الذي كان يرتعد فرقاً ، ثم طرحت جثته خارجاً ، وبعدها توجه صلاح الدين بخطابه إلى غي دي لوزينيان الذي كان يسائل نفسه هل سيلقى المصير ذاته فقال : « لم تجر عادة الملوك أن يقتلوا الملوك وأما هذا فقد تجاوز حدّه فجرى ما جرى » .

لقد قلنا آنفاً إنّ مائتين وثلاثين من فرسان الهيكل والاسبتار قطعت رؤوسهم ، ووضعت على أسنة الحراب وطيف بها طوال الليل في المعسكر .

الفرح الغامر يعم معسكر المسلمين

وأقام المنتصرون بعد فوزهم في حطين الأفراح سحابة ذلك الليل ، ورفع كل جندي آيات الحمد والشكر لله . وظل نداء : الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله تردده تلك البطاح حتى الصباح . وأرسل ملك القدس والقادة الذين شملهم العفو إلى دمشق . وكثر عدد الأسرى المعروضين للبيع في سورية بسوق النخاسة نتيجة هذا اليوم العظيم حتى انتهت الأسعار إلى أدنى دركات هبوطها . ونقرأ في كتاب الروضتين : « ان الرجل والمرأة والأولاد بيعوا بالمزاد العلني دفعة واحدة ، وهبط سعر الأسير في دمشق إلى ثلاثة دنانير . حتى ان فقيراً استطاع أن يستبدل بنعليه أسيراً » . وسيقت النسوة الفرنجيات جماعات جماعات إلى منازل الحريم في المشرق ، لا يعرفن شيئاً عن أزواجهن ، مفصولات عن أطفالهن ، لقد ساقهن المماليك خلال احتلال فلسطين ليواجهن مصيراً هو أقسى من الموت ، ولم يبق في القدس سوى فارسين .(١٢)

مسألة ريمون كونت طرابلس

ويبدو لنا مناسباً أن نعرض هنا مسألة ريمون كونت طرابلس ، ونجمع الوثائق المتناقضة

لملفّه، ونفتح باب المرافعة في قضية هي من أشد القضايا غموضاً في الحروب الصليبية: هل عجلت خيانة كونت طرابلس في نهاية مملكة القدس؟ خاصة وأنّ بعض تصرفاته ــ إذا كانت روايتها حقيقية ــ تثقل جداً هذا الأمير الفرنجي الذي حذّر ملك القدس خلال ذلك المجلس التاريخي الذي سبق معركة حطين، ــ ولو متأخراً جداً ــ حذره من الجنون الذي كم ودَّ أعداؤه أنفسهم أن يقع فيه.

ترى هل تحالف سراً مع صلاح الدين؟ وهل كرّس هذا التحالف بشرب الدم البشري؟ هل قتل بيده السيد الكبير دي مولان إبّان قتاله المسلمين؟ هل تصالح مع غي دي لوزينيان ليتمكن من خداعه؟ وهل نصح صلاح الدين بمهاجمة طبرية لإيقاع الجيش الفرنجي في كمين ما دام يعرف أنه لن يلزمه بعد ذلك أكثر من نصح الفرنجة بالإعراض عن التوجه إلى طبرية في أراض معادية وقت اشتداد الحرّ حتى يسارع أعداؤه أمثال (رينو دي شاتيون وجيرار دي ريدفور) فوراً لإقناع الملك بالرأي المعاكس؟ هل عمد قصداً ــ مادام على رأس طليعة الجيش خلال زحفه نحو حطين ــ إلى قيادة تلك الطليعة في ممرات يعرف سابقاً أنها غير سالكة وليس فيها ماء؟ هل صحيح أن المماليك تلقوا الأمر بإخلاء الطريق له قبل المعارك الأخيرة بوقت قصير، لتعود فترص الصفوف وراءه؟ وأخيراً، هل صحيح أنه اعتنق الإسلام كما يؤكدون؟ كتب بهاء الدين الذي غالباً ماتعتبر معلوماته صحيحة يقول: «إن كونت طرابلس مات من ذات الصدر». أمّا مُكمل تاريخ غيّوم الصوري الذي يجب دائماً عدم الثقة به، فيزعم أن الإسماعيليين اغتالوه، بأمرٍ من صلاح الدين. هل فضّل هذا الأخير التخلص من حليفه المزعج الذي قد يكون وعده بعرش القدس؟ يبدو لنا هذا قليل الاحتمال لأن صلاح الدين كان دائماً وفيّاً بعهوده، صادقاً بكلامه. صحيح أن علاقته بكونت طرابلس ليست موضوع شك، إذ أرسل كونت طرابلس رسولاً إلى صلاح الدين ــ كما يكتب ابن الأثير ــ وأقام معه علاقات، وحظي بتشجيع منه ليحقق غاياته، وقد فرح صلاح الدين والمسلمون بذلك، ووعده السلطان بأن يساعده ويؤيده في كل ما يسعى إليه ويجعله سيداً مطلقاً للفرنجة. ولذا فإن صلاح الدين الذي وقع في قبضته ــ بين الأسرى ــ عدد من الفرسان الطرابلسيين أطلق سراحهم. وبناء على ذلك أبدى له ريمون الثالث وعدد من الفرنجة امتنانهم، وعند ذاك بدأ الشقاق بين الفرنجة، وكان هذا أحد أهم الأسباب التي أدت إلى

احتلال بلادهم. وأكد العماد بدوره ذلك فقال: «من الأمور التي قدرها الله لصالح الإسلام الأمور التالية: رغبة كونت طرابلس بإقامة علاقات صداقة مع السلطان، وأن يلجأ إليه وإلى محالفته ضد أبناء دينه. وأصبح كونت طرابلس نصيراً لصلاح الدين، وحينما أطلق السلطان عدداً من رجاله الأسرى، زاد تحمس الكونت للمسلمين، ولم يَعُدْ يقسم إلّا بتوفيق صلاح الدين وعظمته»(١٣). وماذا يمكن أن تكون الخدمات التي أداها ريمون الثالث لصلاح الدين ثمناً لهذا التحالف؟ ومع ذلك فالمرء يدرك بصعوبة مدى مصلحة كونت طرابلس في أن يدع أراضيه في الجليل تتحول إلى رماد على أيدي القوات الإسلامية. ما الذي حمل المنتصر ليعامل بقسوة الحديد والنار بعيد حطين أريافَ حليفه ومدنه؟ هل كان يدخل في تصورات ريمون الثالث وصلاح الدين أن يجعلا هذه الأراضي العائدة لأحدهما غير صالحة للسكن؟

ولم يتحدث سيد الهيكليين الأكبر والعدوّ الشرس لكونت طرابلس عن أية خيانة على الإطلاق حينما يصف للبابا تفاصيل ذلك اليوم المشؤوم إذ كتب يقول: «وفي صعوبة استطاع ريمون وأمير صيداء، وبعض الآخرين النجاة من الكارثة الشاملة».

ويزعم المؤرخون العرب ــ الذين كان يمكن الشك في أقوالهم لو أن ريمون الثالث اعتنق الإسلام حقاً ــ أنَّ ممتلكاته دُمرت عقاباً له على خيانته الإسلام، وينوهون بخداعه وإخلاله بالتحالف المبرم معهم. ويتبادلون التهاني صراحة بموته، ويكتبون «بعد هذا، لم يعد الإسلام يخشى مناورات هذا الرجل وخداعه، وخبثه». فأين الحقيقة في كل ذلك؟

استسلام قلعة طبرية وتحرير عكا

ولم يُضع صلاح الدين ثمرات هذا النصر، فبعد أن منح رجاله راحة يوم كامل في الميدان، وبنى على قمة حطين معبداً صغيراً سمّاه «قبة النصر» كذكرى لانتصاره، نزل نحو طبرية في ٦ تموز (يوليو)، ودخل القلعة التي سلّمته إياها زوجة ريمون الثالث الكونتيسة إيشيف الطرابلسية، بعد أن حصلت على الإذن بالخروج سالمة مع متاعها وحاشيتها، وأن تنسحب إلى ولايات زوجها. وأصحبها صلاح الدين ــ عملاً بروح الفروسية ــ بقوةٍ من الفرسان خشية أن يصيبها رشاش أية إهانةٍ خلال رحلتها على يد البدو الذين كانوا يطوفون الريف. وهدم المدينة كلها تقريباً، ووضع حاميةً في قلعتها، ثم عاد فخيّم في صفورية،

ووصل في اليوم التالي ٨ تموز (يوليو) أمام عكا. وفي اليوم التالي دخل المدينة بعد أن سلمه مفاتيحها فوراً جوسلان الثالث دي كورتناي. وترك للسكان حرية خيار البقاء فيها أو مغادرتها، واعداً إياهم في الحالين بالأمان الكامل. وبعد أن أطلق سراح أربعة آلاف مسلم كانوا أسرى سجونها، أقام مراكز على الأبواب وفي الساحات العامة لمنع أية فوضى وأيّ نهب. وبعد مغادرة الفرنجة الذين فضلوا مزايلة المدينة على البقاء تحت سيطرة المنتصر لم يستطع صلاح الدين أن يمنع جنوده من اقتسام ما خلفه الفرنجة وراءهم بسبب خروجهم المتسرّع. فقد وجدوا في أسواق هذه المدينة التجارية كميات وفيرة من الذهب والمنتجات الآسيوية: الحرائر الفخمة المُدمشقة، وأقمشة البندقية ومدخرات من السكّر والأسلحة. وأوكل صلاح الدين حكم عكا إلى ابنه الأفضل. وعين القضاة والأئمة وأهدى الفقيه عيسى الأموال التي كانت تخص الفرسان.

إخضاع الساحل الفلسطيني وتساقط مدن الفرنجة وحصونهم

ولم يلبث السلطان في عكا بل نصب خيمته بجوارها وأرسل أمراءه على رأس قوات مختلفة لإخضاع الساحل الفلسطيني، فانتشروا في الأرض المقدسة ووجدوا أكثر المواقع خالية. أما الأماكن الأخرى فكانت تفتح أبوابها وتستسلم دونما قيد أو شرط. وكان الجند أقل رحمة من سيدهم، فدمروا القرى وأحرقوا الأرياف وقتلوا الرجال. وفي بضعة أيام احتلوا الناصرة وحيفا وقيصرية وأرسوف نعيم، وجنين وسمارية ونابلس وأريحا وفوله ومعالشة على ضفة الأردن وصندليو التي بنى قلعتها الاسكندر الأكبر، وتبنين في الجليل الأعلى التي بنى قصرها عام ١١٠٧ هوغ دي سانتومر، سيد طبرية. ولم تصمد في الجليل سوى ثلاث قلاع هي: هونين شاتوناف و صفد و كوكب لقد تمسك فرسان الهيكل في صفد وفرسان الاسبتار في كوكب (بلفوار) بموقعهم أكثر من سنة رغم محاولات الجيوش الإسلامية. وعندما استسلمت هذه المواقع إلى صلاح الدين بعد أن دمرتها النيران، أعجب بعنادهم وشجاعتهم وأطلق سراحهم. وحينما علم صلاح الدين بنجاحات أمرائه الذين كانوا يجتاحون دون رحمة مملكة القدس، ضرب الحصار على صيداء، هذه المدينة الشهيرة في التاريخين المسيحي والوثني؛ وكانت فقدت ازدهارها، لكنها ما تزال تحتفظ بتحصينات متينة وبميناء يغنيها بتسهيل تجارتها. ولم يجرؤ السكان على قبول الحصار فاستسلموا دون قيد أو شرط.

استسلام بيروت وإتمام تحرير الأراضي الفلسطينية

وفي اليوم التالي لوصوله أمام أسوار صيداء دخل صلاح الدين المدينة بعد أن عيّن حاكماً لها وترك فيها حامية، ثم توجه شمالاً نحو بيروت فوصلها في ٣٠ تموز (يوليو) ١١٨٧، وصمدت المدينة اللبنانية الكبرى ستة أيام لهجمات صلاح الدين، ولكن ونتيجة لتدمير جزء من أسوارها طلبوا تسليماً مشرّفاً وحصلوا عليه. وفي ٦ آب (أوغسطس) دخلها السلطان، بينما كان قسم من قواته يحتل جبيل (بيبلوس القديمة)، وبضعة مواقع مجاورة، واندفعت إحدى الطلائع نحو طرابلس. وفيما كانت هذه النار تلتهم الشمال اللبناني، لم يكن الجنوب بمنجاة منها، فقد وصل الملك العادل أخو صلاح الدين القادم من مصر، فأنهى احتلال فلسطين كلها تقريباً، محولاً إلى رماد الكثير من القرى حتى أبواب القدس. وبعد استيلائه على يافا جاء فانضم إلى ثقل الجيش الإسلامي جاراً وراءه قافلة ضخمة من الغنائم والأسرى.

حصار صور

ثم سار صلاح الدين إلى صور التي وصف حزقيال هيمنتها وغناها، والتي يرقى تاريخ بنائها إلى ألف وستمائة سنة قبل الميلاد كمستعمرة مصرية، والتي أوجدت امبراطورية افريقية حوالي قرطاجة. كان الامبراطور الآشوري سلمنصرّ قد حاصرها عبثاً مدة خمس سنوات، وأمضى نبوخذ نصر ثلاث عشرة سنة ليُخضعها. كانت تهدّم كل مرة وتصرّ بعدها على البقاء، فتعيد بناء هياكلها وأسوارها وتستعيد بعد كل هزيمة نفوذها السياسي، وتدفع كرة أخرى أساطيلها ماخرة الطرق الملاحيّة، غير عابئة بمنافستها الاسكندرية التي بناها الاسكندر الأكبر. وكانت تحصيناتها التي اشتهرت بأنها لا تقهر، قد أثارت دهشة الرحالة الذين زاروها في القرن الثاني عشر.

وخلف لنا ابن جبير الذي أقام فيها في أواخر ١١٨٤ الوصف التالي: «إن هذه المدينة محصنة تحصيناً هو من القوة بحيث ينطبق عليها المثل بأنها تأبى الطاعة والخضوع على من يحاول الاستيلاء عليها عنوة. ومناعتها ناتجة عن أن ليس لها سوى بابين الأول على اليابسة

والثاني على البحر الذي يحيط بها إلّا من ناحية واحدة، يفضي إلى الباب الأول بعد عبور أربعة أبواب صغيرة تحيط بها الأسوار. أما الباب الذي يفتح على الميناء فيحميه برجان محصنان، ويتميز وضع مرفئها عن جميع المرافىء في المدن الأخرى؛ فجدران المدينة تطوقه من ثلاث جهات، وتكمل السور أقواس مبنية تؤلف الجهة الرابعة بحيث يمتد البناء حتى تحت الأسوار بل تحت الماء. وتربط سلسلة البرجين فيستحيل عندها أيّ دخولٍ أو خروج من البحر وإليه»[١٤] **ويؤكد هذا الخبر بنجامان دي توديل الذي زار صور عام ١١٧٣ مستشهداً** بأسوارها الجديدة الضخمة، حيث شاهد القصور والأبراج والساحات العامة لصور المصرية مغمورة تحت المياه. ويدرك المرء لماذا لم ينصب صلاح الدين إلا بحذر معسكره أمام الأسوار المنيعة القديمة لصور. هذه الأسوار التي طالما هدمت ثم أعيد بناؤها، كان رينو كونت صيدا قد حوصر داخلها، فأرسل إليه السلطان مبعوثاً ينذره بالتسليم، وقد تمنى السكان الذين أرهبهم وصول الجيش الإسلامي أن تستسلم المدينة.

وصول كونراد دي مونفرا واستقباله كمنقذ لمدينة صور

وحينما كان حاكم صور يتأهب لإرسال بعثة مكلفة بتسليم صلاح الدين مفاتيح المدينة، أقبل مركب فرنجي تخفق أشرعته مسرعاً بأقصى سرعته نحو المرفأ، وعلى متنه رجل سيكون في هذا الردح من الزمن الخصم الأكثر شراسة لصلاح الدين، إنه كونراد دي مونفرّا، وكان يرافقه الكثير من الفرسان. وقد ترتب على هذا الوصول نتائج غير مرتقبة. فكونراد دي مونفرّا مركيز من بييمونت وصهر (زوج أخت) الامبراطور إسحق الثاني. كان رجلاً مخيفاً، شيطاناً (حسب قول ابن الأثير) حذراً، يقظاً وشجاعاً. فبعد أن قاتل في إيطاليا عدداً من أقاربه لصالح البابا، وبعد أن سجن أسقف مايانس الأكبر، حمل الصليب وأبحر مع رجال على شاكلته، وانطلق ليجرب حظه في الشرق.

كان ينوي النزول في سورية، ولكن عاصفةً ألقت بمركبه جهة القسطنطينية؛ حيث نزل وسط ثورة في البلاط. وكان سيفه معروضاً للبيع، فأعاره لإسحق لانج الذي استولى على تاج الامبراطورية بقلبه سلالة آل كومين؛ وقد كوفىء مكافأة لائقة إذ زوجه إسحق أخته ومنحه لقب قيصر وحقّ انتعال الحذاءين القرمزيين.

ولكن كونراد أصيب بضعف بالغ وسط أعياد ورهبان بلاط بيزنطية، ولذا سرعان مانصب أشرعته بحجة القيام بنزهة بحرّية ما وأبحر نحو فلسطين مصطحباً معه بعض فرسانه ولفيفاً من اليونانيين مخلفاً وراءه نسيبه وزوجته. كان يجهل ما آل إليه وضع الفرنجة في سورية، وكارثة حطين التي قضت على مملكة القدس قبل ثمانية أيام من وصوله عكا التي كان يعتقد بأنها ما تزال تحت حكم الفرنجة. ولذلك فوجىء بعدم سماعه قرع الأجراس ساعة دخوله الميناء كما جرت عليه العادة لدى ظهور مركب رافعاً أشرعته وعلم الفرنجة. وبلغ خوفه الذروة حينما رأى سفينة صغيرة يغص متنها بالمسلمين، فسوّى أشرعته بسرعة وألقى مراسيه في الميناء. وأخفى فرسانه آمراً بحارته بلزوم الصمت وإبداء الصمم حينما يصعد القائد إلى سفينته ويستجوبه. لم يدهش لأي شيء وأقسم بأنه ينقل بضائع، وأنه على يقين بأن صلاح الدين لا يعيق تجارة الأوربيين مع رعاياه، وقبل أن يدخل الميناء طلب ترخيصاً خاصاً لبضائعه ومركبه ورجاله من حاكم المدينة الذي كان حينذاك الملك الأفضل، وبينما كان المسلمون يعودون إلى المدينة لتقديم هذا الطلب هبت ريحٌ مؤاتية اغتنمها كونراد كما لو كانت معونة إلٓهية فرفع المرساة ومخر عباب البحر متجهاً نحو صور، ونزل اليابسة في الظروف التي وصفناها آنفاً، ساعة كان رينو الصيداوي يجري مفاوضة تسليم الموقع.

وطبيعي أن كونراد استقبل كمنقذ للمدينة، وعرضت عليه قيادة موقع صور. كانت العظمة هزيلة، فطلب مقابل إعارته سيفه حكم المدينة. ولكون السكان فاقدي الأمل بأية نجدة تأتيهم من ملك القدس (والسبب معروف) أقسموا له يمين الطاعة والولاء. وهرب رينو الصيداوي إلى طرابلس.

صمود صور أمام القوات الإسلامية

ولم يضع كونراد دي مونفرًا الذي أصبح ماركيز صور وقته في النواح، بل أسند لكل فرد عملاً، وأمر بحفر الخنادق والتأكد من صلاحية التحصينات، حتى غدا مستعداً لملاقاة صلاح الدين.

ولما وصل بطل الإسلام كانت دهشته بالغة إذ لم يجد الأبواب مشرعة دونه، بل وجد رجالاً فوق الأسوار يطلقون بوجهه الصيحات المعادية، ويلوحون بأسلحتهم، ويظهرون بالغي

الثقة بأنفسهم، ولما علم صلاح الدين بهذا التحول الطارىء في استعدادات الفرنجة، وأدرك استحالة أخذ المدينة عنوة، لجأ إلى طريقة أخرى، فهو يحتفظ في مخابئه بدمشق بوالد كونراد دي مونفرّا غيّوم الثالث دي مونفرا الذي سبق له أن حمل الصليب في سن يحق للرجال فيها أن يستريحوا؛ وبما أنه تبع سائر البارونات إلى معركة طبرية فقد وقع في الأسر. كان له أربعة أبناء كلهم مشهورون: بونيفاس الذي كان ملك تيسَّالونية، وغيوم المعروف باسم ذي السيف الطويل الذي تزوج سيبيل، وكان يمكن أن يصبح ملكاً للقدس لو بقي في قيد الحياة، وريْنْييَهْ الذي مات في خدمة الدين، وأخيراً كونراد.

وعرض صلاح الدين على كونراد دي مونفرّا إطلاق سراح والده وإعطاءه اقطاعةً في سورية إذا هو سلّمه صور. فأجاب كونراد بعجرفة إنه يحتقر هدايا المسلمين ولن يسلم حجراً واحداً من حجارة صور لإنقاذ حياة أبيه، مضيفاً ألّا قيمة لحياة شيخ فانٍ إزاء خدمة القضية العامة. فهاجم السلطان عبثاً دفاعات صور، وفي ليل ١ ــ ٢ كانون الثاني (يناير) ١١٨٨ رفع الحصار مرجئاً إلى وقت آخر الاستيلاء على الموقع.

خطأ صلاح الدين الاستراتيجي أمام صور

وكان هذا خطأً فادحاً ارتكبه صلاح الدين، لأنه كان عليه أن يدرك أن صور بوّابة مفتوحة على الغرب. ويمكن أن تجيء عبرها جيوش المساندة، بل ترتب على هذا الخطأ أن يدفع الإسلام ثمنه باهظاً. فصور ستكون نقطة الانطلاق لإعادة احتلال الفرنجة. وعرف دي مونفرّا كيف يستغل هذه السانحة التي تركها له المسلمون، وجعل من صور صخرة تملؤها الحصون.

سقوط المدن الفلسطينية

وعاد صلاح الدين مع أخيه الملك العادل إلى فلسطين حيث سقطت المدن بين يديه الواحدة تلو الأخرى. فأخذ اللد والرملة وكذلك جفنة التي تبعد أربعة فراسخ عن القدس ومثلها عن يافا، جفنة التي احتمى فيها أسقف القدس الأكبر بعد تدمير المدينة. كما استولى على بيت لحم والخليل ــ حيث تُقدس فيها ذكرى ابراهيم الخليل ــ وخالب وبيت جبرين ــ التي حصنها الملك فولك عام ١١٣٤ ــ والنطرون..

حصار عسقلان وتحريرها

وظهر صلاح الدين أمام عسقلان ؛ وهي إحدى المدن الفلسطينية الملكية الخمس، تلك المدينة التي استولى عليها وجمّلها تباعاً الاسكندر والبطالسة والسلوقيون، وشهدت الصراعات الدامية بين اليهود والرومان ؛ وكانت خاضعة للخلفاء الفاطميين حينما غزا الصليبيون فلسطين..

وحين رفض قائد الموقع التسليم ضرب صلاح الدين على المدينة الحصار، وبعد استيلائه على التحصينات المتقدمة، نصب عشرة مجانيق وطمر الخنادق وهدم الأسوار وراح يرمي المدينة بالقذائف، فصمد الفرنجة، وأبدوا مقاومة ضارية، فعرض عليهم صلاح الدين شروطاً مشرفة للاستسلام فأعادوا مبعوثيه رافضين سماعهم.

وراحت الهجمات والهجمات المضادّة تتوالى. فقدم صلاح الدين عرضاً جديداً للعسقلانيين، مكلفاً ملك القدس الذي كان يصطحبه معه أن يعرض عليهم إنهاء القتال، فقبل غي دي لوزينيان هذه المهمة التي لا تشرّفه كثيراً؛ متذرعاً بحجة أن من الإجرام أن نخسر كل شيء ذريعة عنادٍ لا طائل تحته، ومن مصلحة الفرنجة أن يغتنموا حسن نية المنتصر، وباستطاعتهم أن يحصلوا مقابل مفاتيح المدينة على حرية ملك القدس وباروناته الرئيسيين الذين كانوا يرزحون تحت نير الاستعباد. فاحتقر العسقلانيون عروض ملك القدس ولكنهم بالمقابل أيقنوا أن لا أمل أمامهم، فطلبوا مقابلة صلاح الدين نفسه وقالوا له: «إن الله وحده مالك الأحداث أعطاك النصر على الفرنجة التعساء. إن قيمتك وقدرك وعدد جيوشك أمور معروفة لدينا؛ لكنها لا تخيف رجالاً صمموا على الموت. لا تأمل في أن تأخذ عسقلان عنوة ولن تدخلها إلّا إذا حولتها إلى رماد وقتلت جميع المدافعين عنها. لقد قررنا ألّا ندع إرادة الصمود تلين، وأن ندافع عن أنفسنا حتى داخل بيوتنا. ولكن بيننا عدد كبير من النساء والأطفال يخيفنا مصيرهم، نخاف أن يستغل الجندي ــ وهو لا يتصف بما تتصف به من الإنسانية ــ ضعفهم استغلالاً سيئاً ليفسدهم ويكرههم على التخلي عن دين المسيح؛ واجتناباً لهذه المصيبة فإننا نقبل بالتسليم وفق الشروط التالية: تعطينا هدنة أربعين يوماً لتنظيم أمورنا، وبعدها تقودنا نحن وأموالنا إلى مكان أمين وتحرص على مصير مائة عائلة تريد أن تبقى في المدينة،

وتدرأ عنها كل إهانة أو عنف. وتطلق سراح ملكنا وعشرين من السجناء نختارهم نحن». وبما أن صلاح الدين لم يكن يرغب في تجميد جيشه على عتبة فصل الشتاء أمام أسوار عسقلان فقد قبل العرض وحرص على أن يوضح أن الملك والأربعين أسيراً لن يطلق سراحهم إلّا في الربيع القادم. وفي الخامس من ايلول (سبتمبر) ١١٨٧ دخل المدينة. كان أمراً محزناً للفرنجة التخلي عن عسقلان التي وإن لم تكن بمناعة صور لكنها كانت ذات أهمية بالغة، وكان مؤسفاً للفرنجة أن يشهدوا خيانة ملك القدس بأم أعينهم... أمّا صلاح الدين فكان على عجلة من أمره ليتوجه إلى القدس قبل فصل الشتاء.

تحرير غزة والتوجه صوب القدس

واستولى صلاح الدين على غزة التي كانت بيد الهيكليين وترك فيها حامية، وفيما كان يقود جيشه نحو القدس كان حاكم مصر يُعدّ اسطولاً لمحاصرة صور بحراً، وقطع الطريق على جميع السفن القادمة من الغرب. وهكذا مثلما جعلت معركة حماة صلاح الدين سيدَ سورية، فإن معركة حطين جعلته سيدَ فلسطين.



حواشي الفصل الرابع عشر

١ ــ حطين في المصادر العربية :

لقد اعتمد مؤلفنا شاندور على العديد من المصادر العربية في دراسة معركة حطين ، وعلى وجه الخصوص : النوادر السلطانية لابن شداد وكتابي « البرق الشامي » و « الفتح القسي » للعماد الأصفهاني ، كما أورد نصوصاً من كتاب الروضتين لأبي شامة ، إضافة إلى المصادر اللاتينية التي منها تاريخ وليم الصوري وذيله المعروف باسم « تاريخ هرقل » ، وتجدر الإشارة هنا إلى أن أبا شامة في كتابه الروضتين ، عمد إلى وصف معركة حطين استناداً إلى كتابي العماد « البرق » و « الفتح » وصفاً مختصراً ، وأردفه برواية القاضي ابن شداد عن المعركة المذكورة ، إضافة إلى إيراد عدد من الرسائل أرسلت إلى بغداد التي أوردها محمد بن القادسي في تاريخه ، منها كتاب عبد الله بن أحمد المقدسي ، مع رسالة فاضلية ، هنأ بها صلاح الدين بالنصر العظيم .. (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٥ ــ ٨٣) .

وقد جمع صديقنا الباحث الدكتور سهيل زكار في كتابه : « حطين مسيرة التحرير من دمشق إلى القدس » وقائع معركة حطين في المصادر العربية الأساسية إضافة إلى المصدر اللاتيني « تاريخ هرقل » ، ذيل تاريخ وليم الصوري .

٢ ــ عماد الدين الأصفهاني ، محمد بن محمد (١١٢٥ ــ ١٢٠١)

أديب ، مؤرخ ولد بأصفهان ، ومات بدمشق ، درس الفقه والحديث والأدب ، ورحل إلى بغداد في الخامسة عشرة ، والتحق بالمدرسة النظامية ، ثم عاد إلى بلدته ، وغادرها (١١٥٦) إلى بغداد ، فولاه الوزير يحيى بن هبيرة النيابة عنه بواسط ، ثم بالبصرة . ولما مات الوزير قبض عليه ثم أطلق ، فانتقل إلى دمشق ١١٦٧ وكتب لنور الدين زنكي بالعربية والفارسية ، وصار صاحب سره ، وعهد إليه بالتدريس بالمدرسة النورية التي سميت بعد ذلك باسمه « العمادية » ، وجعله رئيس ديوان الرسائل . ولما مات نور الدين اضطربت حاله ، فقصد الموصل فمرض بها وسمع بخروج صلاح الدين الأيوبي لضم سورية ومصر ، فلحق به ، وكتب له ، وصار في مرتبة وزرائه . ولما مات حاول أن يكتب لخلفائه ، ولكنه لم ينجح ، واضطربت أحواله ، وعاش متنقلاً بين سورية ومصر . وعرف بالشعر والكتابة ، وكان فيهما من أصحاب السجع والجناس والطباق والتلاعب اللفظي ، غير أنها في شعره أقل . وكان له ديوان شعر

كبير، فقد كان طويل النفس في قصائده. وأعظم شعره ما صور فيه الحروب الصليبية. وله ديوان من الدوبيت خاصة، وديوان رسائل. ترجم عن الفارسية كتابي «فتور زمان الصدور وصدور زمان الفتور» لأنو شروان بن خالد في تاريخ السلاجقة، و «كيمياء السعادة للغزالي» أرخ لنفسه في «البرق الشامي»، ولشعراء القرن الثاني عشر في «خريدة القصر وجريدة العصر»، ولأحداث عصره في عدة كتب أهمها: «الفتح القسي في الفتح القدسي»، وهو تاريخ مسجوع موشى بالمحسنات اللفظية، لفتح بيت المقدس، و «نصرة الفترة وعصرة القطرة» في تاريخ السلاجقة، و «عتبى الزمان في عقبى الحدثان»، و «نحلة الرحلة وحلية العطلة» وغيرها. (الموسوعة الميسرة ١٢٣٢ ــ ١٢٣٣).

٣ ــ احتشاد المسلمين عند نبع عشترا:

جاء في كتاب البرق الشامي للعماد الأصفهاني، قوله:

«فسار السلطان، ووصل السير بالسرى، وخيّم بعشترا، والقدر يقول له تعيش وترى، وقد غصّت بخيل الله الوهاد والذرى، وامتد العسكر فراسخ عرضاً وطولاً، وملأ الملأ حزوناً وسهولاً.. وكان يوم عرضه مذكراً بيوم العرض.. وعرض العسكر في اثني عشر ألف مدجج، في ليل العجاج مدلج». (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٦).

٤ ــ قال العماد:

«ووصل الخبر بأنّ الفرنج ركبوا ووثبوا فقال السلطان جاء ما نريد، وإذا صحت كسرتهم فطبرية وجميع الساحل ما دونه مانع، ولا عن فتحه وازع» (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٦).

٥، ٦ ــ وصف ابن شداد مسيرة المعركة بقوله:

«وجرى في ذلك اليوم من الوقائع العظيمة، والأمور الجسيمة، مالم يحكَ عن من تقدم»..

«وكان الله قد قدّر نصر المسلمين ويسره، وأجراه على وفق ما قدّره. فحملت الأطلاب الإسلامية من الجوانب، وحمل القلب، وصاحوا صيحة الرجل الواحد، فألقى الله الرعب في قلوب الكافرين ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾». (ابن شداد: النوادر السلطانية ٧٦ ــ ٧٧).

٧ ــ وصف الملك الأفضل ابن صلاح الدين مجرى أحداث المعركة وتقلباتها (انظر ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١١ ص ٥٣).

٨ ــ جاء في كتاب البرق الشامي للعماد الأصفهاني عن حالة جيش الفرنجة الذي أنهكه العطش، وإشعال النار تحت أقدامه، قوله:

«وأصبح الجيش على تعبيته والنصر على تلبيته، وذلك يوم السبت الخامس والعشرين من ربيع الآخر، وهو يوم النصرة ووقوع الكسرة، وبرّح بالفرنجة العطش، وأبت عثرتها أن تنتعش. وكان النسيم أمامها. والحشيش تحت أقدامها. فرمى بعض مطوعة المجاهدين النار في الحشيش. فتأجج استعارها. وتوهج إوارها. فبلوا وهم أهل التثليث من نار الدنيا بثلاثة أقسام: في الاصطلاء والإصطلام: نار الضرام، ونار الأوام، ونار السهام». (أبو شامة كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٧).

٩ ــ « حتى إذا أسفر الصباح ، خرج الجاليشية تحرق بنيران النصال أهل النار . ورنت القسي وغنت الأوتار ، إذ ذاك ، واليوم ذاك والجيش شاك . وللقيظ عليهم فيض ، وما للغيظ منهم غيض . وقد وقدَ الحرّ ، واستشرى الشر ، ووقع الكر والفر . والسراب طافح ، والظماء لافح ، والجو محرق ، والجوى مقلق ، ولأولئك الكلاب من اللهث لهث ، وبالعيث عيث . وفي ظنهم أنهم يردون الماء ، فاستقبلتهم جهنم بشرارها ، واستظهرت عليهم الظهيرة بنارها ، وذلك في يوم الجمعة ، بجموع أهلها المجتمعة . ووراء عسكرنا بحيرة طبرية . والورد عد وما منه بعد . وقد قطعت على الفرنج طريق الورود ، وبلوا من العطش بالنار ذات الوقود . فوقفوا صابرين مصابرين ، مكابرين مضابرين . فكلبوا على ضراوتهم ، وشربوا مافي أداوتهم ، وشفهوا ماحولهم من موارد المصانع ، واسترفهوا حتى ماء المدامع ، وأشرفوا على المصير إلى المصارع » . (أبو شامة كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٧) .

١٠ ، ١١ ــ في استقبال صلاح الدين أكابر أسارى الفرنجة ونهاية رينو دي شاتيون نقلاً عن رواية ابن شداد :
« ولما فتح الله تعالى عليه بالنصر والظفر ، جلس السلطان في دهليز الخيمة ، فإنها لم تكن نُصبت ، والناس يتقربون إليه بالأسرى وبمن وجدوه من المقدمين .

ونصبت الخيمة . وجلس فرحاً مسروراً شاكراً لما أنعم الله عليه ، ثم استحضر الملكَ جفري وأخاه والبرنس أرناط ، وناول الملك جفري شربة من جُلّاب بثلج ، فشرب منها ، وكان على أشد حال من العطش ، ثم ناول بعضها البرنسَ أرناط ، فقال السلطان للترجمان :
قل للملك : أنت الذي تسقيه وإلا أنا ماسقيته .

وكان على جميل عادة العرب وكريم أخلاقهم أن الأسير إذا أكل أو شرب من مال من أسره أمِنَ ، فقصد بذلك ، الجري على مكارم الأخلاق .

ثم أمرهم بمسيرهم إلى موضع عُيِّن لنزولهم ، فمضوا وأكلوا شيئاً ، ثم عاد فاستحضرهم ولم يبقَ عنده أحد سوى بعض الخدم ، واستحضرهم وأقعد الملك في الدهليز ، واستحضر البرنس أرناط ، وأوقفه على ما قال .
وقال له : هاأنا أستنصر لمحمد عليه الصلاة والسلام .
ثم عرض عليه الإسلامَ ، فلم يفعل .

ثم سلَّ النّمجّاة (الخنجر المقوس) وضربه بها ، فحلَّ كتفه ، وتمّم عليه من حضر ، وعجَّل الله بروحه إلى النار ، فأخذ ورُمي على باب الخيمة .

فلما رآه الملك وقد خُرج به على تلك الصورة . فلم يشك في أنه يثني به فاستحضره السلطان وطيَّب قلبه .
وقال : لم تَجْر عادةُ الملوك أن يقتلوا الملوك ، وأما هذا فإنه تجاوز حدَّه ، فجرى ما جرى . » (ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٧٨) .

١٢ ــ عن أسرى الفرنجة نقلاً عن كتاب الروضتين لأبي شامة :
« قال وورد كتاب آخر فيه هذه الفتوح ، التي ماسمع بها قط ، هذا ذكر بعضها مختصراً مع أنه لا يقدر أحد يصف ذلك ، لأن الأمر أكبر من ذلك الذي يبشر به المسلمون ، أن مدينة طبرية فتحت بالسيف وأخذت

قلعتها بالأمان، واجتمع عسكر الإفرنج جميعهم والتقوا بالمسلمين عند قبر شعيب النبي (ﷺ)، وقتل من الإفرنج ثلاثون ألفاً. وكان عدد الإفرنج ثلاثة وستين ألفاً بين فارس وراجل. وأسر منهم ثلاثون ألفاً. وبلغ ثمن الأسير بدمشق ثلاثة دنانير، واستغنى عسكر الإسلام من الأسرى والأموال والغنائم بحيث لا يقدر أحد يصف ذلك. وما سلم من عسكر الفرنج سوى قمص طرابلس مع أربعة نفر، وهو مجروح ثلاث جراحات. وأخذ جميع أمراء الفرنج. وكم قد سبي من النساء والأطفال، يباع الرجل وزوجته وأولاده في المناداة بيعة واحدة. ولقد بيع بحضوري رجل وامرأته وخمسة أولاد ثلاث بنين وابنتان بثمانين ديناراً. ودخل القاضي ابن أبي عصرون إلى دمشق وكل يوم يرى من رؤوس الفرنج مثل البطيخ، وأخذ من البقر والغنم والخيل والبغال مالم يجيء من يشتريها من كثرة السبي والغنائم. قال وفي كتاب آخر (وكان الفرنج خمسة وأربعين ألفاً فلم يسلم منهم سوى ألف، وقتل الباقون واستأسروهم وكذلك الملوك) قلت وبلغني أن بعض فقراء العسكر، وقع بيده أسير وكان محتاجاً إلى نعل فباعه بها، فقيل له في ذلك، فقال: أردت أن يذكر ذلك. ويقال بلغ من هوان أسرى الفرنج وكثرتهم أن بيع منهم واحد بنعل». (أبو شامة كتاب الروضتين ج ٢ ص ٨٢).

١٣ ــ جاء في كتاب الروضتين نقلاً عن العماد الأصفهاني:

«مما قدره الله تعالى من أسباب نصرة الإسلام، ووهن الكفر، أنّ قمص طرابلس رغب في مصافاة السلطان والالتجاء إليه والمساعدة له على أهل ملته، بسبب أنه كان تزّوج بالقمصية صاحبة طبرية. وكان أخوها الملك المجذوم لما هلك أوصى بالملك لابن أخته هذه وهو صغير، فتزوج القمص أمه، ورباه فمات الصغير وانتقل الملك إلى أمه، ثم إنها مدّت عينها إلى بعض المقدّمين من الغرب فتزوّجته، وفوّضت الملك إليه فشرع يطلب حساب البلاد من القمص، فوقع الاختلاف بينهم لذلك، فالتجأ القمص إلى ظل السلطان، فصار له من جملة الأتباع، فقبله السلطان وقوّاه، وشدّ عضده بإطلاق من كان في الأسر من أصحابه، فقويت مناصحته للمسلمين حتى كاد لولا خوف أهل ملته يسلم، وصار بدولة السلطان وملكه يقسم. ومال إليه من الفرنج جماعة، وظهرت له منهم للطماعية طاعة. ودخلت إلى بلادهم من جانبه السرايا، وخرجت بالغنائم والسبايا. وأعطى الدنية في دينه بما استدناه من العطايا. فصار الفرنج يدفعون شره، ويحذرون مكره، فتارة يدارونه، وآونة يمارونه، وللقمص قوم صدق يساعدونه، في كل حق وباطل، فبلي منهم أهل الساحل بشغل شاغل.» (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ٧٤ ــ ٧٥).

١٤ ــ جاء في كتاب رحلة ابن جبير عن ذكر مدينة صور قوله:

«مدينة يُضرَب بها المثل في الحصانة، لا تُلقي لطالبها بيد طاعة ولا استكانة، قد أعدّها الإفرنج مَفْزَعاً لحادثة زمانهم، وجعلوها مثابَة لأمانهم، هي أنظف من عكا سككاً وشوارع، وأهلها ألين في الكفر طبائع، وأجْرَى إلى برّ غرباء المسلمين شمائل ومنازع، فخلائقهم أسْجَحُ، ومنازلهم أوسع وأفسح، وأحوال المسلمين بها أهون وأسكن، وعكا أكبر وأطغى وأكفر.

وأما حصانتها ومناعتها فأعجب ما يُحدَّث به، وذلك أنّها راجعة إلى بابين: أحدهما في البر، والآخر في البحر، وهو يحيط بها إلا من جهة واحدة، فالذي في البرّ يُفْضَى إليه بعد ولوج ثلاثة أبواب أو أربعة، كلها في

ستائر مشيدة محيطة بالباب . وأمّا الذي في البحر فهو مدخل بين برجين مشيدين إلى ميناء ، ليس في البلاد البحرية أعجب وضعاً منها ، يحيط بها سور المدينة من ثلاثة جوانب ويحدق بها من الجانب الآخر جدار معقود بالجصّ . فالسفن تدخل تحت السور وترسو فيها ، وتعترض بين البرجين المذكورين سلسلة عظيمة تمنع عند اعتراضها الداخل والخارج ، فلا مجال للمراكب إلّا عند إزالتها . وعلى ذلك الباب حُرّاس وأمناء ، لا يدخل الداخل ولا يخرج الخارج إلّا على أعينهم . فشأن هذه الميناء شأن عجيب في حسن الوضع ، ولعكا مثلها في الوضع والصفة لكنها لا تحمل السفن الكبار حمل تلك وإنّما ترسو خارجها والمراكب الصغار تدخل إليها ، فالصورية أكمل وأجمل وأحفل . » (رحلة ابن جبير : ص٢٧٧ ــ ٢٧٨) .

١٥ ــ لقد ناقش عدد من مؤرخي الشرق والغرب مسألة رفع صلاح الدين الحصار عن مدينة صور ، التي غدت حسب قول شاندور نقطة انطلاق للفرنجة في حملتهم الصليبية الثالثة ، ملتقياً بذلك مع كل منتقدي صلاح الدين حول هذه النقطة من شرقيين وغربيين ، الذين عرض الباحث الأستاذ قدري قلعجي جلّ آرائهم ، وناقشها مناقشة الحكيم الشاعر ، لا المؤرخ العسكري ، يقول :

« ويلقي بعض المؤرخين المسلمين تبعة الإخفاق الذي مني به السلطان في صور ، وتحوّل هذه المدينة الحصينة إلى قاعدة للحملة الصليبية الثالثة ، على صلاح الدين وما أبداه من تسامح وتساهل مع الصليبيين في المدن والقلاع التي احتلها منذ موقعة حطين ، والسماح لهم بالهجرة منها آمنين ، إلى مدنهم وقلاعهم على الساحل ، ولاسيما مدينة صور التي كانت تمتاز بالمناعة الجغرافية ، فأضافت إلى ذلك المناعة البشرية ، وعدَّ أولئك المؤرخون ذلك منه تهاوناً وتفريطاً وغلواً في الشهامة والنبل أدى إلى أسوأ النتائج .

يقول محمد كرد علي : وذكر المؤرخون أن اطلاق أمراء الفرنج من الأسر وحملهم إلى صور كان من أعظم أسباب الضرر وقوة الفرنج ورواج عكا . » (محمد كرد علي ــ خطط الشام ج ٢ ص ٥١) .

أما ابن الأثير فحمل على صلاح الدين قائلاً : « ولم يكن لأحد ذنب في أمرها (صور) غير صلاح الدين ، فإنه هو الذي جهز إليها جنود الفرنجة ، وأمدّها بالرجال والأموال من أهل عكا وعسقلان والقدس وغير ذلك كما سبق ذكره . كان يعطيهم الأمان ويرسلهم إلى صور ، فصار إليها من سلم من فرسان الفرنج بالساحل بأموالهم وأموال التجار وغيرهم ، فحفظوا المدينة وراسلوا الفرنج داخل البحر يستمدونهم ، فأجابوا بالتلبية لدعوتهم ووعدوهم بالنصرة ، وأمروهم بحفظ صور لتكون دار هجرتهم ، يجتمعون بها ويلجأون إليها ، فزادهم ذلك حرصاً على حفظها والذب عنها » (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١١ ص٣٦٨) .

ويلتقي مع ابن الأثير بعض المؤرخين الغربيين الذين يعتقدون بأن الخطة التي انتهجها صلاح الدين ، بدعوة المدن والقلاع إلى التسليم مقابل الأمان بدلاً من الفتح بالسيف ، قد أدت إلى نجاة عشرات الألوف من القتل والأسر ، وانطلاقهم أحراراً إلى مراكز تجمعهم الجديدة ولاسيما مدينة صور التي غدت منطلق الحرب الصليبية الثالثة !.. حتى إن لامونت يرى أن هذه السياسة النبيلة بلغت حد الحماقة ، ولعله يعني حد السذاجة ، وإليك تفصيل ما قال : « لم يظهر صلاح الدين ، طوال حربه ضد الدول اللاتينية ، بمظهر المتعصب الديني . وكان حلمه وشهامته مثار إعجاب معاصريه ، وموضوع مدح المؤرخين منذ عصره فطالعاً . وقد أبدى في معاملته لشعوب

البلاد المفتوحة من ضبط نوازع النفس واحترام الناس ما كان مبايناً كل المباينة للقسوة المتعارف عليها في حروب العصور الوسطى . وكانت سياسته القاضية بإيصال اللاجئين من بلاد النصارى المحتلة إلى معقل النصرانية في صور سياسة نبيلة إلى حد الحماقة ، لأنها أدت إلى تحشد أعدائه ، ومن ثم منعته من احتلال مدينة صور نفسها . لقد تصرف صلاح الدين ، طوال حروبه ، وكأنه يحاول محاولة واعية أن يجعل نفسه مقبولاً عند رعاياه المقبلين ، وأن يضع أساس دولة تعيش فيها الديانتان جنباً إلى جنب تحت ظل السلطان ... وكان هدف صلاح الدين سحق قوة الصليبيين السياسية ، ولم يكن إبادة المسيحيين » (دراسات إسلامية ص ١٢٢ ـــ ١٢٤) .

ويتابع الباحث قدري قلعجي التأكيد على الجانب الإنساني لدى صلاح الدين الذي غفل عنه بعض الباحثين ، يقول :

« والواقع أن ابن الأثير ينسى الجانب الإنساني في الموضوع ، فهو يحاكم صلاح الدين كقائد حربي « لا ينبغي ـــ كما يقول ـــ أن يترك الحزم وإن ساعدته الأقدار ، فلأن يعجز حازماً خير له من أن يظفر مفرّطاً مضيعاً للحزم !.. » وفي اعتقادنا أن صلاح الدين لم يكن محارباً إلا بالضرورة ، فهو ليس فاتحاً بل محرراً ، والفرق بينهما كالفرق بين الشر والخير ، وبين الموت والحياة . ولأن كان الفاتح يقاتل بطمعه ، فإن المحرر يقاتل بإيمانه ، وإذا كان من أخلاق الفاتحين أن يصونوا أمجادهم بالحديد والنار ، فإن من شمائل المحررين ألا يحملوا الحقد والضغينة حتى لأولئك الذين يضطرون إلى شهر السيف في وجوههم . أليس صلاح الدين هو القائل وقد لامه أصحابه لأنه صفح عن جريرة أحد الجناة عليه : « لأن أخطىء في العفو . أحبّ إليّ من أن أصيب في العقوبة ! » .

لقد كان صلاح الدين رجل سلم وبناء ومحبة ، وليس رجل حرب وهدم وضغينة ، وبعد كل معركة كان يعي أكثر فأكثر وحشية الحرب وغباءها ، ولكن الأحداث التي عاصرها والظروف التي لابسها ، كانت تدفع به مضطراً إلى ساحة القتال ، دفاعاً عن الأرض التي امتزج ترابها بدمه ، واختلط نسيمها بأنفاسه ، وارتسمت طبيعتها في عينيه ، ويا ويل الحرب ، آفة البشرية وعار التاريخ ، إذا لم تكن دفاعاً عن الذات .

ولعل صلاح الدين كان يعاني من جراء ذلك أعظم مأساة يعانيها الإنسان ، حين يريد السلم وتفرض عليه الحرب ، وينشد الرحمة وتطلب منه القسوة ، ويسير في الطريق الملوث بالوحل والمخضب بالدم بمشاعر الملائكة وأخلاق القديسين .

إذا كانت جميع الطرق ملأى بالأشواك ، فلابد من أن نسلك طريقاً شائكة . وإذا فرضت الحرب نفسها ، وغدا الشر خبز الحياة اليومي ، وحلق شبح الدمار مثل طائر أسطوري رهيب لا يستطيع أحد أن يهرب من تحت جناحيه ، فبحسب المرء أن يُبعد عن قلبه ظل الحقد ، لعل زهرة واحدة للحب تتفتح في مستنقع البغضاء !..

هكذا شاءت الأقدار ، بل هكذا شاءت الأطماع التي دفعت جحافل الفرنجة إلى الشرق ، متدفقة مثل سيل لا نهاية له . وإذا كان المعتدون قد غالوا في التخريب وأمعنوا في الغارة الجاهلة ، فإن سر عظمة صلاح الدين أنه لم يقابل تلك العاصفة الباغية ، إلا بعفو الكريم وتسامح النبيل ، فكان أسوة حسنة ومثلاً يُضرب للناس ، وكسبَ للعرب والإسلام بقلبه أكثر مما كسب لهم بسيفه ، وهذا ما جعل تشرشل يقول عنه : إنه من أعظم ملوك الدنيا ، ودفع الكاتب الانكليزي ريدر هجارد إلى القول : بأنه أعظم رجل على وجه الأرض ! (راجع كتاب قدري قلعجي صلاح الدين الأيوبي ٢٦٤ ـــ ٢٦٧) .

الفصل الخامس عشر

تحرير القدس[1]

أمام أسوار القدس

في السادس عشر من شهر رجب ٥٨٥ هجرية الموافق ٢٠ ايلول (سبتمبر) ١١٨٧ ميلادية أي بعد معركة حطين بشهرين ونصف الشهر، ظهر صلاح الدين أمام أسوار القدس، ولم تلبث المدينة أن سقطت (حررت). وكان هذا تاريخاً لا يُنسى في العالم الإسلامي.

التفاوض على الاستسلام

كان باليان الثاني ديبلين آمر القلعة ــ وعرض صلاح الدين ــ قبل أن يستولي على المدينة عنوة بقوة السلاح على المحاصَرين التفاوض على الاستسلام، وبحث مصير المجتمعات الفرنجية. ولقد وعد، بكثير من اللباقة بعدم إرهاق مدينة القدس بالضرائب مثل كثير من المدن الأخرى، التي احتلّها لإعلاء كلمة الله.. ووعد بالاكتفاء بمبلغ رمزي مقداره ثلاثون ألف قطعة ذهبية، وعدم مساس حقوق المسيحيين الذين يختارون البقاء في القدس بعد استرجاع المسلمين إياها. لكنّ البارونات وقادة المنظمات لم يقبلوا المهاودة. كانوا يريدون إطالة

أمد المفاوضات والاحتيال على صلاح الدين، أملاً بأن يصل أسطول جنويٌّ ما إلى الشواطىء اللبنانية، حاملاً معه قاذفات حجارة وصليبيين شجعاناً. وكان ردهم على صلاح الدين: «لا يمكننا أن نسلّمك مدينة مات فيها ربنا، كما ليس بمستطاعنا أن نبيعك إياها». وتظاهروا بأنهم يشعرون بالإهانة فغضب صلاح الدين وقال: «ستلعنون عنادكم وستستجدون رحمتي، وسأدخل القدس خلال أيام معدودة، ولا أدري حينذاك كيف سأمنع جنودي المنتصرين من أن يعرضوا على السيف الفرنجة الناجين من الموت، كما فعلتم أنتم بالمسلمين حينما دخلتم القدس سنة ٤٩٢ للهجرة. أتذكرون أنكم ذبحتم سبعين ألفاً من المسلمين في المسجد الأقصى؟».

حصار القدس ودك السور الشمالي

هذا، وقد روى مؤرخو تلك الحقبة، أنه كان في القدس حينذاك ستون ألف رجل قادرين على القتال، بينما يذكر بهاء الدين مؤرخ صلاح الدين أنهم كانوا ستة آلاف. ومهما يكن من أمر فإن باليان الثاني ديبلين عرف كيف يؤجج في رجاله روح الشجاعة التي كانوا بحاجة إليها في هذه الأيام العصيبة؛ رغم ذكرى الهزائم القريبة العهد والعجز الظاهر لدى كبار فرنجة المشرق. ومنح لقب فارس عدداً من البورجوازيين (سكان المدينة) والتجار الذين عليهم أن يدافعوا عن أسواقهم ودينهم حتى النصر أو الهلاك في هذه المعركة الضخمة، التي يتوقف على نتيجتها مصير المدينة المقدسة؛ كما قد يكون متوقفاً عليها مصير الإسلام والنصرانية جميعاً. لقد صهروا ألواح الفضة التي كانت تغطي كنيسة القبر المقدّس لدفع مرتبات الجنود، واستطاع حاكم القدس أن يجعل من مدينة داود القديمة قلعةً حصينة منيعة، حتى ذُهل المسلمون لدى رؤيتهم هذا العدد اللجب من الجند والفرسان منهمكين فوق الأسوار التي كانت تهدمها شيئاً فشيئاً حجارة آلاتهم الخشبية. وبما أن صلاح الدين لم ينجح في اقتحام المدينة عبر باب دمشق بثقل جيشه، فقد بحث عن نقطة أضعف شماليّ المدينة قرب باب يوشافاط، على أمل أن يفتح، بصورة أسهل، ثغرة في إحدى زوايا التحصينات المواجهة لوادي سدرون. وجمع في هذه الناحية كل الحجارة المتاحة، وبعد القذف جرت عملية دك أسس هذا الجزء المحصن من سور القدس بصبر وأناة.

وتمّ خلال يومين دكّ نحو ثلاثين متراً من التحصينات التي هدمت وأحرقت، فحاول المحاصَرون عبثاً أن يخرجوا من باب يوشافاط، وقاتلوا بضراوة وخسروا عدداً من القتلى، فاضطروا إلى التراجع مدركين أن قضيتهم خاسرة. فهرع الشعب للركوع أمام الهياكل، وقامت الراهبات بطواف حول الأسفار وهنّ حافيات منشدات المزامير، وشرعت النسوة يخلطن الممارسات الخرافية بأعمال التقوى وذلك بتغطيس بناتهن حتى الأعناق في أوان مملوءة بالماء البارد أمام القبر المقدس، وقصصن شعورهن معتقدات أنهنّ بصنيعهن هذا يُهدئن غضب الرب. وكان الخطباء يذكّرون مستمعيهم بما سيحدث لهم إذا سقطت القدس في أيدي المسلمين.

نص عهدة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لمسيحي دار الإسلام

وكيلا ينسوا نص عهدة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لدى فتح القدس، هذا النص الذي تكرّر في المراسلات التي تبودلت بين المجموعات المسيحية المختلفة في المشرق والسلطات الإسلامية:

«لقد تعهدنا نحن المسيحيين بعدم إقامة أي بناء جديد في مدننا كالدير والكنيسة وصومعة الرهبان، وبعدم ترميم أي من هذه الأبنية الموجودة في أحياء المسلمين، وبعدم منع أي مسلم من التوقف في كنائسنا في ليل أو نهار، وبإضافة المسلمين العابرين وإطعامهم مدة ثلاثة أيام، وبالمجاهرة باحترامنا المسلمين إمّا بالوقوف لهم والتخلي لهم عن مقاعدنا في اجتماعاتنا إذا أرادوا الجلوس وبالامتناع عن لبس العمامة، وعدم انتعال الأحذية المزدوجة وألا نفرق شعورنا مثلهم، وألا نمتطي خيولاً مُسرجة ولا نتحدث بلغتهم ولا نتمنطق بالسيف ولا ننقش على أختامنا حروفاً عربية، ولا نبيع خمراً، ولا نزين كنائسنا بالصليب من الخارج ولا نظهر صلباننا ولا كتبنا في الطرق أو في الأسواق ونمتنع عن الصخب بطبولنا في كنائسنا»[٢].

وكان المسلمون يستندون إلى هذه العهدة حتى تاريخ الحروب الصليبية، فهل علينا أن نعود ثانية لنصبح من الرعاع؟

استئناف المفاوضات واستسلام المدينة

وذهب وفد من المحاصَرين يرأسه باليان الثاني ديبلين إلى صلاح الدين، فاستقبلهم مُغضباً ولامهم على عدم رغبتهم في التفاوض حقناً لدماء المحاربين وهددهم قائلاً: «انظروا جدران القدس وهي تتهدم، انظروا إلى جنودي الذين سيدخلون من جميع أبواب المدينة. سأدخل القدس شاهراً سيفي وسأطهر بدم الفرنجة هذه الأماكن المقدسة التي دنستموها بذبحكم المسلمين دونما مبرر يوم دخلتم أول مرة عام ٤٩١ للهجرة».

وعرض باليان باسم السكان مائة ألف دينار. ويروي بهاء الدين أن صلاح الدين لفت نظر مخاطبه إلى أن الرايات ترفرف منذ الآن قرب برج داود، وأنه ليس من العادة المطالبة باستسلام مشرف في مدينة هي على وشك السقوط. وردّ حاكم القدس قبل أن ينسحب بهذا الجواب الأبيّ: «لا تتصور أن القدس ينقصها المدافعون، سنقاتل في كلٍ من أحياء المدينة. ولدينا خمسة آلاف رهينة سنقتلهم بأيدينا كما سنقتل نساءنا وأطفالنا فلا تكن غير مهاود؛ فإنك بإلجائنا إلى اليأس، تقوي تصميمنا، كما أن التجاوزات الخطيرة تولّد أسوأ أنواع العنف. نحن لا نريد أن نرى القدس تغيب في اللهب، ولا أن نرى أجمل مساجد الإسلام تدمر إلى الأبد في معارك يائسة. ماذا ستفعل أمام الخرائب؟ وأين ستجد مثل قبة الصخرة والمسجد الأقصى؟ ومثل هذه الكثرة من الأماكن المقدسة في القدس التي تقدسونها ونحترمها؟ ألا تعتقد أنه غير مناسب أن نساوم على مصير مدينة عزيزة علينا جميعاً؟ وإذا لم يشأ لنا الله النصر الآن فنحن على يقين بأنه تعالى سيمنحنا ميتةً مجيدة ومغفرةً عن كلّ ما اقترف من تدنيس في هذه الأماكن». ويروي المؤرخون أن صلاح الدين الذي هزّته هذه الصورة المعروضة عليه طلب من المفاوضين الفرنجة بأن يعودوا غداً ريثما يتمكن من استشارة الفقهاء. فأفتى هؤلاء بأن قسم صلاح الدين أن يدخل القدس شاهراً سيفه لا يعتبر حانثاً فيه إذا استسلم الفرنجة بلا شروط، ولأنه لم يكن قاسياً ــ بطبعه ــ ولكي يجنب القدس مآسي الحرب ــ وهذا ما يتساوى ورغبته الخفيّة ــ اتفق مع حاكم القدس على أن تفتدي التجمعات الفرنجية حريتها بالشروط التالية: يدفع الرجال عشرة دنانير صوريّة (نسبة إلى صور) والنساء خمسة والأطفال دينارين، وعن العشرين ألفاً من المعدمين العاجزين عن فكاك رقابهم يدفع مبلغ مقطوع قدره ثلاثون ألف دينار[٣]. وأبرم هذا الاتفاق يوم الجمعة ٢٧ رجب سنة

٥٨٣ للهجرة. ولم ينس المسلمون أن يتذكروا نبوءة الشاعر الذي مدح صلاح الدين حين أخذ حلب بأنه سيفتح فتحاً أعظم في شهر رجب، هو فتح القدس وزاد في عظمة هذا اليوم الذي لا ينسى في تاريخ الإسلام حدوثه في ذكرى الإسراء والمعراج.

استسلام قلعة القدس

وفي ٢ تشرين الأول (اكتوبر) ١١٨٧ تسلم صلاح الدين قلعة القدس قُبيل صلاة الظهر في عهد ناصر الدين الخليفة العباسي في بغداد، واسحق لانج امبراطور المشرق، وفريدريك باربروس امبراطور ألمانيا، وفيليب أوغست ملك فرنسا، وهنري الثاني ملك انكلترا. وكان ابتهاج المسلمين بالغ الروعة في هذا اليوم، وقد هرع حشد من القضاة والشعراء والفقهاء والدراويش والفقراء من مصر وسورية لتهنئة أعظم السلاطين.

أثر سقوط القدس على الفرنجة

أمّا الفرنجة فقد آلمهم في الصميم فقدان الأماكن المقدسة؛ وكانت بالغة الدلالة تلك الرسالة التي وجهها في اليوم التالي تييري المعلم الأكبر لمنظمة الهيكليين إلى ملك انكلترا: «اعلم أيها الملك، أن صلاح الدين غدا سيد مدينة القدس وبرج داود ولم يعد للمسيحيين حق حماية القبر المقدس إلّا بعد اليوم الرابع من عيد القديس ميخائيل المقبل وسمح للإخوة الاسبتاريين بالبقاء سنة أخرى في مركزهم للعناية بالمرضى، على حين كان فرسانهم يقومون يومياً انطلاقاً من مركزهم في كوكب (قصر بولفوار) بعمل جديد ضد المسلمين، وقد استولوا أخيراً على اثنتين من قوافل هؤلاء، فوجدوا مع الأولى أسلحة ومعدات حربية كان ينقلها الأتراك من قلعة البيرة بعد أن هدموها، أما الكرك المجاورة للشوبك (مونتريال)، والشوبك وصفد، وكرك أخرى ومرجة التي تعود للاسبتاريين والقصر الأبيض (القسطل الأبيض) وطرابلس وانطاكية فما تزال صامدة رغم كل محاولات المسلمين للاستيلاء عليها. وأمر صلاح الدين بإنزال الصليب المرفوع على قبة الكنيسة المبنية فوق هيكل سليمان. وتطهيراً للأماكن المقدسة أمر صلاح الدين بغسل داخل هذه الكنيسة وخارجها بماء الورد لأنها كانت قديماً جامع عمر» ـــ ويكتب مجير الدين الذي كان يعيش في القرن الخامس عشر في حولياته ـــ «لم يُبْتَلَ الفرنجة بمثل هذه الكارثة منذ قدومهم إلى سورية عام ١٠٩٧ حتى الآن».

أريحية صلاح الدين ونبله

ولم يشأ صلاح الدين أن يحتفظ لنفسه بشيء من الغنائم التي قسمها بين الأمراء والجند والفقهاء الذين رافقوه إلى القدس. وأظهر في مناسبات عدة أريحيته ــ نحو أبأس المسيحيين محاولاً تجنيبهم قسوة وضعهم الجديد؛ فأمر بإبقاء المرضى في المستشفيات التي كان يعالجهم فيها الاسبتاريون. وتخلى عن كنيسة القبر المقدس للروم والسريان، وأُعفي بناءً على أمره وأمر أخيه الملك العادل ألف وخمسمائة من الفرنجة الفقراء من دفع الفدية.

وشكل مجموعات من الحرس في المدينة لمنع أي عنف، وكان يرمي بصنيعه هذا إلى الحيلولة دون أي عمل انتقامي، وفرض الرحمة على أتباعه بعد النصر، وصدقهم في الحرب.

خروج الفرنجة المهزومين من باب داود

وبعد اتخاذه هذه الاحتياطات لحماية خروج الذين فضلوا الرحيل أمر بإغلاق أبواب القدس باستثناء باب داود؛ ومر أمامه صف المهزومين الطويل. وكان هيراقليوس بطريرك القدس في المقدمة يتبعه الاكليروس الزمني والروحي، وكان ينوء بحمل الآنية المقدسة والمصوغات الذهبية والأقمشة وكنز القبر المقدس. ولفت المؤرخ العماد نظر السلطان إلى أنّ هذه الثروات كان يجب اعتبارها من الأموال غير المنقولة وبالتالي أن تبقى مكانها بحكم المعاهدة، لأنها، بهذه الصفة، من حق المنتصر. واقتنع صلاح الدين بوجهة النظر هذه، لكنه فضّل عدم المنازعة بملكية أموال القبر المقدس وتركها تمرّ؛ لأنّ الطهر الأكبر يكمن في عقيدة المؤمنين الحقيقيين أكثر مما يكمن في ذهب الآنية المقدسة. ومن ثم مر حاكم القدس على رأس النّبالة السورية والفرنجية. ووجهاء المدينة.

صلاح الدين يخفف آلام نسوة الفرنجة ويغمرهن بالهدايا والمؤن

وجثت بعض النسوة على قدمي السلطان مبتهلات: «لقد فقدنا كل شيء: منازلنا وأموالنا وديارنا، وسنتيه في بلادٍ أصبحت غريبة ومعادية بالنسبة إلينا، وبإمكانك أيها السيد أن تخفف آلامنا بأن تعيد إلينا أزواجنا وأخوتنا وأولادنا الراسفين بأغلال الأسر عندك». فأمر صلاح الدين بالبحث عن أزواج هؤلاء النسوة بين الأسرى وأطلق سراحهم، بل عمل أكثر من ذلك. فقد غمر هؤلاء النسوة بالهدايا والمؤن.

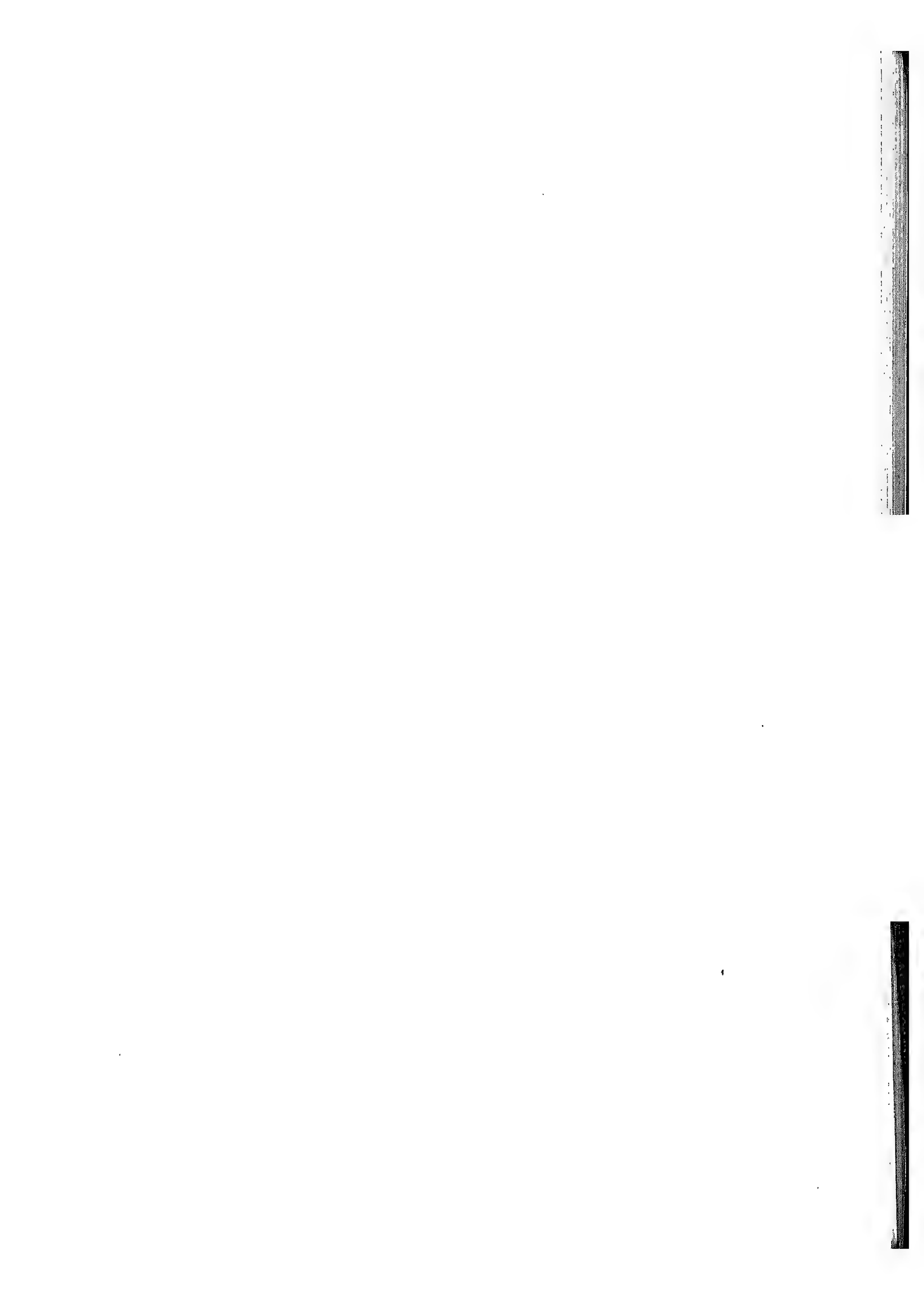
رحمة صلاح الدين بفرنجة القدس وتنكر أبناء دينهم لهم

وصحب المسلمون الفرنجة حتى أراضي بوهيموند حاكم انطاكية. ويروى أن فرنجة انطاكية وفرسان كونت طرابلس استقبلوا بفتور أخوتهم القادمين من القدس. ويذكر بعض المؤرخين أنهم كانوا في بعض الحالات يقتلونهم ويجردونهم من أحمالهم ماأمكنهم ذلك، ويمنعونهم من دخول مدنهم. وبعملهم هذا كشفوا عن حقيقتهم تجاه أولئك المحتقرين الذين أرهقوا بالآلام، بينما عاملهم أكبر عدوٍ لعرقهم ودينهم بهذا القدر من الإنسانية!..

وعاد أولئك البؤساء أدراجهم نحو الجنوب بعد أن طردوا من كونتية طرابلس وإمارة انطاكية، فأمر صلاح الدين بأن توزع عليهم الخيام، و أن يُطعموا مجاناً، حتى يتمكنوا من الإبحار إلى الغرب؛ وأمر بنقل عدد كبير منهم إلى الاسكندرية للتعجيل بترحيلهم. ولكن اعترضهم هناك كذلك كل أنواع العقبات؛ إذ رفض قادة مراكب جنوة، وبيزة، والبندقية أن يقلّوا إلى أوربا إلّا الذين يدفعون أجرة السفر، ويتزودون قبل ركوبهم بما يكفيهم من الأطعمة طوال مدة الرحلة. وحسب العادة حينما جاء قادة السفن يطلبون من حاكم الميناء أن يردّ إليهم دفّة السفن، دهش الأخير من قلة عدد فرنجة القدس العائدين إلى بلادهم بين الركاب رغم طول انتظارهم السفر، فتجرأ البحارة بالرد بأن أولئك الذين يتركونهم على اليابسة هم من الفقراء، وليس بمستطاعهم أن ينقلوهم مجاناً؛ وطبيعيٌ أن أقل حزمة من التوابل هي أكثر مواءمةً لمصلحتهم. عندها اضطر الموظفون المسلمون أن يزودوا أولئك الفرنجة بالمؤن ممن وجدوا أماكن للركوب، وإلى إصدار أوامرهم إلى قادة السفن بعدم إنزال أولئك العتقاء الذين غدوا في ذمة المسلمين إلّا في موانىء فرنسا وإيطاليا تحت طائلة مواجهة الغضب المحقّ لصلاح الدين..

«سيف الإسلام» يعيد سلطة المسلمين على القدس

وحينما غادر الفرنجة القدس دخلها صلاح الدين دخولاً رسمياً، وهُرع المبعوثون من جميع أنحاء الشرق لتهنئته بالنصر على الفرنجة وليحيّوا في شخصهِ «سيف الإسلام». وبعد انقضاء أيام الاحتفالات والمهرجانات أعاد سلطة المسلمين على القدس. ودفع المسيحيون الذين اختاروا البقاء في المدينة الجزية التي تحقق لهم الأمن، ونظّم الفقيه الشهير عيسى وضع الأقليات الكاثوليكية المختلفة. ورخّص لأربعة كهنة من كنيسة القيامة بالبقاء في القدس دون دفع أية جزية أو ضريبة(٤).



حواشي الفصل الخامس عشر

١ ـــ عنوان الفصل في النص الفرنسي هو سقوط القدس، لأن تحرير القدس من وجهة نظر الغرب على يد صلاح الدين أكبر خسارة عرفها طوال مرحلة الحروب الصليبية.

٢ ـــ تلك هي عهدة عمر أو كتاب الصلح الذي أعطاه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لأهل إيلياء (البيت المقدس)، لا ما ورد في النص الفرنسي المُعرَّب:

«وعن خالد وعبادة، قالا: صالح عمر أهل إيلياء بالجابية، وكتب لهم فيها الصلح لكلّ كُورة كتاباً واحداً، ما خلا أهل إيلياء.

بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبدُ الله عمر أمير المؤمنين أهلَ إيلياء من الأمان؛ أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم، ولكنائسهم وصلبانهم، وسقيمها وبَريئها وسائر ملّتها؛ أنه لا تسكن كنائسهم ولا تُهدم، ولا يُنتقص منها ولا من حيّزها، ولا من صليبهم، ولا من شيء من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا يضارّ أحد منهم، ولا يسكنُ بإيلياء معهم أحد من اليهود، وعلى أهل إيلياء أن يعطُوا الجزية كما يُعطي أهل المدائن، وعليهم أن يخرجوا منها الرّوم واللصوت؛ فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم؛ ومَن أقام منهم فهو آمن؛ وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجِزْية، ومن أحبّ من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الرّوم ويخلي بيَعهم وصُلُبهم فإنّهم آمنون على أنفسهم وعلى بِيَعهم وصلبهم، حتى يبلغوا مأمنهم، ومَن كان بها من أهل الأرض قبل مقتل فلان، فمن شاء منهم قعدوا عليه مثل ما على أهل إيلياء من الجِزْية، ومن شاء سار مع الرّوم، ومن شاء رجع إلى أهله فإنه لا يؤخذ منهم شيء حتى يُحصد حصادهم؛ وعلى ما في هذا الكتاب عهد الله وذمّة رسوله وذمّة الخلفاء وذمّة المؤمنين إذا أعطوا الذي عليهم من الجزية. شهد على ذلك خالد بن الوليد، وعمرو بن العاص، وعبد الرحمن بن عوف، ومعاوية بن أبي سفيان. وكتب وحضر سنة خمس عشرة. (الطبري ج ٣ ص ٦٠٨ ـــ ٦٠٩).

فأما سائر كتبُهم فعلى كتاب لُدّ. بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل لُدّ ومَن دخل معهم من أهل فلسطين أجمعين، أعطاهم أماناً لأنفسهم وأموالهم ولكنائسهم وصلبُهم وسقيمهم وبريئهم وسائر ملّتهم؛ أنه لا تُسْكن كنائسهم ولا تُهدم ولا ينتقص منها ولا من حيزها ولا مللها، ولا من صلُبُهم

ولا من أموالهم، ولا يُكرهون على دينهم؛ ولا يُضارُّ أحد منهم؛ وعلى أهل لُدّ ومَن دخل معهم من أهل فلسطين أن يُعطوا الجزية كما يعطي أهلُ مدائن الشأم، وعليهم إن خرجوا مثلُ ذلك الشرط إلى آخره». (الطبري ج ٣ ص ٦٠٩ — ٦١٠).

٣ — ذكر تحرير القدس الشريف حرسها الله تعالى نقلاً عن كتاب النوادر السلطانية لابن شداد:

«ولما تسلّم عسقلان والأماكن المحيطة بالقدس شمّر عن ساق الجد والاجتهاد في قصده، واجتمعت عليه العساكر التي كانت متفرقة في الساحل بعد انقضاء لبانتها من النهب والغارة، فسار نحوه معتمداً على الله، مفوضاً أمره إليه، منتهزاً فرصة فتح باب الخير الذي حُثَّ على انتهازه إذا فتح، بقوله عليه السلام: «من فُتح له بابُ خير فلينتهزه، فإنه لا يعلم متى يُغلق دونه».

وكان نزوله عليه يوم الأحد الخامس عشر من رجب سنة ثلاث وثمانين المباركة، فنزل بالجانب الغربي، وكان مشحوناً بالمقاتلة من الخيّالة والرجّالة، ولقد تجاوز أهلُ الخبرة عدة مَنْ كان فيه من المقاتلة بما يزيد على ستين ألفاً ماعدا النساء والصبيان.

ثم انتقل — رحمه الله — لمصلحة رآها إلى الجانب الشمالي، وكان انتقاله يوم الجمعة العشرين من رجب، ونصب عليه المجانيق، وضايقه بالزحف والقتال وكثرة الرماة، حتى أخذ النقب في السور مما يلي وادي جهنم في قرنة شمالية.

ولما رأى أعداء الله ما نزل بهم من الأمر الذي لا يندفع عنهم، وظهرت لهم أمارات نصرة الحق على الباطل وكان قد ألقي في قلوبهم الرعب مما جرى على أبطالهم ورجالهم من السبي والقتل والأسر، وما جرى على حصونهم من الاستيلاء والأخذ، علموا أنهم إلى ما صاروا إليه صائرون، وبالسيف الذي قُتل به إخوانهم مقتولون، فاستكانوا وأخلدوا إلى طلب الأمان، واستقرت القاعدة بالمراسلة بين الطائفتين.

وكان تسلّمه القدس — قدّس الله روحه — في يوم الجمعة السابع والعشرين من رجب، وليلته كانت ليلة المعراج المنصوص عليها في القرآن المجيد، فانظر إلى هذا الاتفاق العجيب كيف يسّر الله عوده إلى أيدي المسلمين في مثل زمان الإسراء بنبيهم (ﷺ) إليه، وهذه علامة قبول هذه الطاعة من الله تعالى، وكان فتوحاً عظيماً شهده من اهل العلم خلقٌ عظيم، ومن أرباب الخِرَق والطرق؛ وذلك أن الناس لما بلغهم ما يسّر الله على يده من فتوح الساحل، وشاع قصده القدسي قصده العلماء من مصر والشام بحيث لم يتخلف معروفٌ من الحضور، وارتفعت الأصوات بالضجيج والدعاء والتهليل والتكبير، وخُطب فيه وصُليت فيه الجمعة يوم فتحه وحُطّ الصليب الذي كان على قبة الصخرة، وكان شكلاً عظيماً، ونصر الله الإسلام نصر عزيز مقتدر.

وكانت قاعدة الصلح أنهم قطعوا على أنفسهم: عن كل رجل عشرة دنانير، وعن كل امرأة خمسة دنانير صورية، وعن كل صغير ذكر أو أنثى ديناراً واحداً، فمن أحضر القطيعة سَلِم بنفسه، وإلّا أُخذ أسيراً. وفرّج الله عمن كان أسيراً من المسلمين، وكانوا خلقاً عظيماً، زهاء ثلاثة آلاف أسير.

وأقام — رحمه الله — يجمع الأموال ويفرقها على الأمراء والعلماء، وإيصال من دفع قطيعته منهم إلى مأمنه وهو

صور

ولقد بلغني أنه ــ رحمة الله عليه ــ رحل عن القدس ولم يبق له من ذلك المال شيء ، وكان مائتي ألف دينار وعشرين ألف دينار ، وكان رحيله عنه يوم الجمعة الخامس والعشرين من شعبان سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة . (ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٨١ ــ ٨٢) .

٤ ــ موقفان متعارضان مابين سقوط القدس وتحريرها :

إن ما بين سقوط القدس بيد الصليبيين وتحريرها على يد العرب المسلمين ، بوناً شاسعاً ما بين موقف الصليبية وأساسها الهمجية والقتل ، والموقف العربي الإسلامي المتسم بالإنسانية والتسامح .. ولا يسعنا تجاه هذه الرحمة والنبل الإنسانيين اللذين عامل بهما صلاح الدين الفرنجة ، إلّا أن نقف على مأساة سقوط القدس ومجزرة المسجد الأقصى التي ارتكبها الصليبيون ناقلين وقائعها عن مؤرخ الحروب الصليبية الباحث ستيفن رنسيمان ، الذي قال :

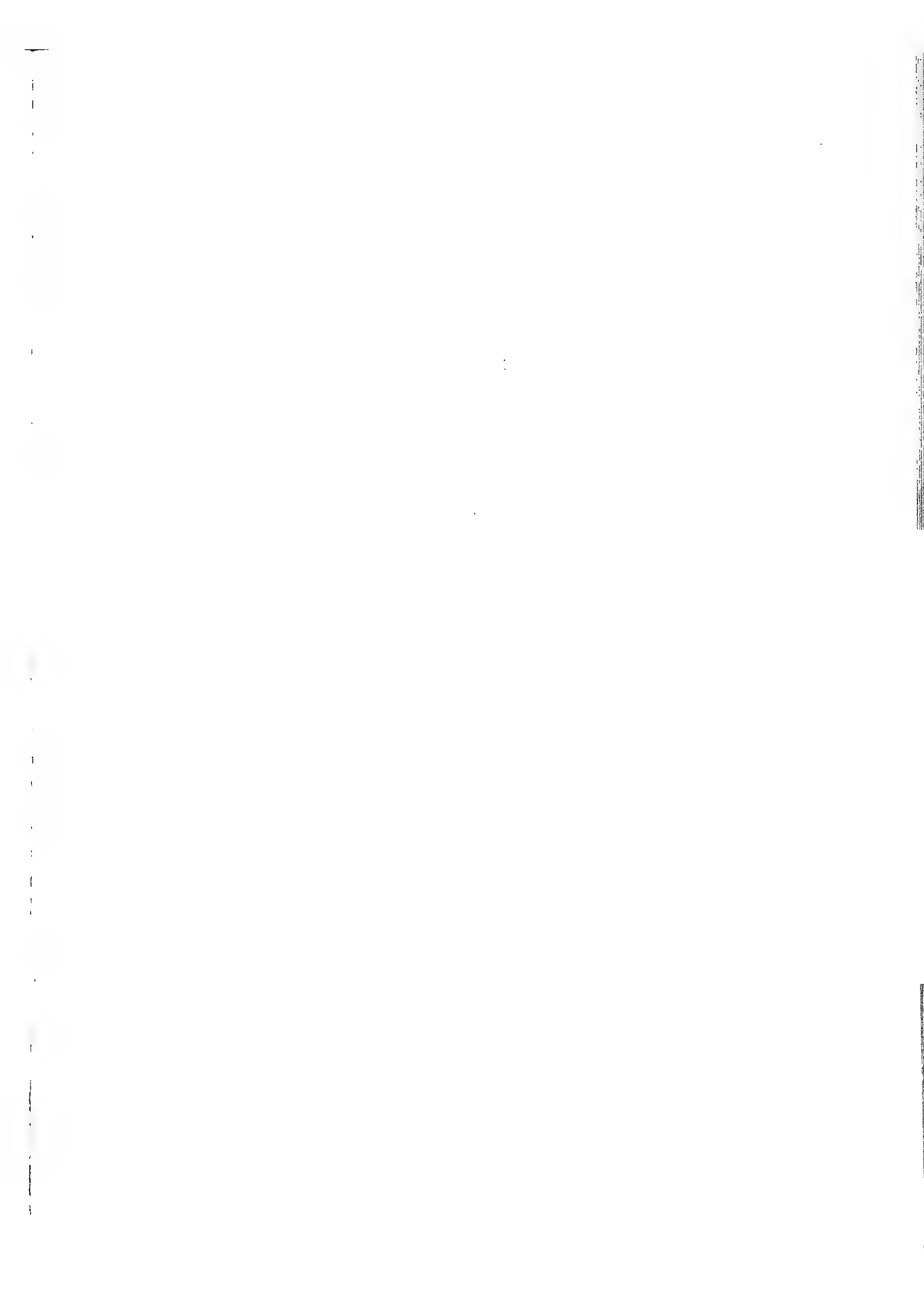
« ولما تبين للمسلمين انهيار أسباب دفاعهم ، ولوا الأدبار نحو الحرم الشريف ، ساحة المعبد ، حيث قامت قبة الصخرة والمسجد الأقصى ، وقد وطدوا العزم على أن يتخذوا من المسجد الأقصى معقلهم الأخير ، غير أنه لم يكن لديهم من الوقت ما يكفي لأن يجعلوه صالحاً للدفاع . على أن تانكرد انقض عليهم ، أثناء احتشادهم بداخل المسجد وفي أعلاه . فبادروا بالتسليم والإذعان له ، ووعدوا بأن يبذلوا له فدية كبيرة ، وأخذوا علمه ورفعوه فوق المسجد .. » .

ويتابع الباحث ، ذكر المذبحة التي اقترفها الصليبيون قائلاً :

« على أنه لم ينج من المسلمين بحياتهم إلا هذه الفئة القليلة . إذ إن الصليبيين ، وقد زاد في جنونهم ما أحرزوه من نصر كبير بعد شقاء ، وعناء شديدين ، انطلقوا في شوارع المدينة ، وإلى الدور والمساجد ، يقتلون كل من يصادفهم من الرجال والنساء دون تمييز . استمرت المذبحة طوال مساء ذلك اليوم ، وطوال الليل . ولم يكن علم تانكرد عاصماً للاجئين إلى المسجد الأقصى من القتل . ففي الصباح الباكر من اليوم التالي ، اقتحم باب المسجد ثلة من الصليبيين ، فأجهزت على جميع اللاجئين . وحينما توجه ريموند آجيل في الضحى ، لزيارة ساحة المعبد ، أخذ يتلمس طريقه بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه » .

وفرّ يهود بيت المقدس جميعاً إلى معبدهم الكبير ، غير أنه تقرر إلقاء القبض عليهم ، بحجة أنهم ساعدوا المسلمين ، فلم تأخذ بهم الرحمة والرأفة ، فأشعلوا النار في المعبد ، ولقي اليهود بداخله مصرعهم محترقين .

وتركت مذبحة المقدس أثراً عميقاً في جميع العالم . ليس معروفاً بالضبط عدد ضحاياها ، غير أنها أدت إلى خلو المدينة من سكانها المسلمين واليهود . (ستيفن رنسيمان : تاريخ الحروب الصليبية ج ١ ص ٤٠٣ ــ ٤٠٥) .



الفصــل الســادس عشــر

كونراد دي مونفرًا.. الخصم النَّد لصلاح الدين

صور ودعم تحصيناتها، وأسوارُها الحصينة

إن صور التي كانت فيما سلف مدينةً مترفة، والتي وصف حزقيال هيمنتها، وكيف أسّس تجارها مصارف بلغت من البعد أعمدة هرقل حتى إنها ـ حسب رأي المؤرخ بلين ـ أسست امبراطورية حول قرطاجة،.. إن صور تلك لم تبق اليوم سوى مجرد قرية كبيرة يثير اسمها وحده ذكرى ماضيها المهيب. وكانت ما تزال في عهد صلاح الدين مدينة ذات ترف أسطوري حسب أقوال ابن جبير؛ وقام حاكمها كونراد دي مونفًرا بمضاعفة السور الثلاثي لتحصيناتها، وبإعلاء أبراج حصنيها: الحصن الصيداوي والحصن القديم الذي ما تزال أركانه العملاقة تدهش حتى يومنا الراهن المختصين بهذا النوع من الأعمال، وخزن فيها أكداساً من المؤن، وملأ أحياءها ذخائر، وعوّد سكانها والجنود متاعب الحراسة.

محاصرة صور براً وبحراً

ولما ظهر صلاح الدين أمام المدينة في ٨ كانون الأول (ديسمبر) ١١٨٧ استنتج بأنها لا تؤخذ براً وأن الوسيلة الوحيدة الكفيلة بإخضاعها هي إجاعتها بإغلاق المنفذ الوحيد الذي

كانت تستقبل منه الإمدادات والمؤن، أي المنفذ البحري، فقرر محاصرتها، وجهز لذلك أربع عشرة سفينة من ذوات الأشرعة والمجاذيف معاً، مسلحة بالخطّافات لتعلق بالجدران، بهدف النزول، ومزوّدة بالمحارق لإحراق مراكب الأعداء. ومرّ هذا الاسطول الإسلامي القادم من مصر أمام ميناء المدينة البحرية الكبرى، وبحث عن نقطة ضعف في التحصينات البريّة، ولكنه لم ينجح في أن يستحوذ عنوة على ممرّ لجنوده فأذعن للواقع.

دفاع المحاصَرين المستميت عن صور

كان المحاصرون يدافعون كالمجانين والنساء يساعدن الرجال حاملات القذائف وقوارير النفط والأغذية حتى الأسوار، وأقسم كونراد دي مونفرًا بالكتب المقدسة بألّا يدع مسلماً واحداً يدخل المدينة حيّاً، وظل متمسكاً بوعده. فكانت الهجمات الإسلامية ترد على أعقابها الواحدة تلو الأخرى دون أن تسبب للفرنجة خسائر ذات بال، فلم تهن معنوياتهم أو تضعف.

ظهور جيش إسلامي جديد أمام صور

وطلب صلاح الدين من ولده الملك الظاهر الموجود في حلب الشخوص لينضم إليه تحت أسوار صور مع قوات جديدة من قبائل شمالي سورية وسنجار. ومرّ شهران على بدء الحصار حين ظهر جيش إسلامي جديد أمام صور، وبدأ الفرنجة يقلقون للانعطاف السيء الذي بدأت رياح الأحداث تهب باتجاهه.

خدعة كونراد دي مونفرًا الناجحة

ولم يلبث كونراد دي مونفرًا أن اكتشف البوادر الأولى لفقدان شجاعة رجاله. ولكي يعيد إليهم الثقة في أنفسهم عمد إلى حيلةٍ نجحت كل النجاح: كان في صور شاب مسلم هارب من جِرْم أهله (لأنه أهان أباه) فارتدّ عن دينه، فطلب منه كونراد أن يبعث رسولاً إلى أبيه الضابط في الجيش الإسلامي يطلب منه الصفح، وأنه سيزوده مقابل عفوه عنه بمعلومات عن الوضع المادي والمعنوي للفرنجة المحاصرين في صور. فقام الرسول بمهمته تلك خير قيام. وحسب ما رواه، فإن المحاصَرين داخل صور البائسين للغاية سوف يهربون ليلاً على المراكب

متخلين عن صور وثرواتها. وكان لهذه الأخبار تأثيرها في نفوس المسلمين. وقام أمراء صلاح الدين بتعبئة نخبة من جنودهم في السفن الأربع عشرة التي كانت تروح وتجيء أمام الميناء؛ وحينما حلّ ظلام الليل رأى المسلمون فعلاً أن الفرنجة يحتشدون في الميناء صارخين صاخبين يتدافعون بغية الحصول على مكان في المراكب التي كانت سترحل بهم، وكانت القوات الفرنجية تختبىء في بيوت المدينة، وحينما بدأت أشعة الفجر الأولى خفضت السلسلة التي كانت تسدّ الميناء، وتوقف الصخب واختبأ أولئك الذين كانوا سيبحرون في أي مكان متاح لهم. وفي الحقيقة أصبحت صور فجأة مدينة خالية. وقد أفرح هذا الأمر رجال الاستطلاع اليقظين على سفن صلاح الدين التي لم تلبث أن دخلت الميناء، بسرعة زاد في الجرأة عليها عدم رؤية المسلمين أي أثر للحياة. ولكن ما إن صار الأسطول كله داخل الميناء، وقبل أن تطأ قدم واحدة الأرض أمر كونراد دي مونفرّا بمدّ السلسلة الكبيرة التي أغلقت منفذ الميناء، وظهر رجاله من كل مكان وراحوا يقفزون إلى سفن المسلمين الذين كانوا يحاولون النزول في فوضى كبرى. ويكتب أحد المؤرخين المعاصرين: أن الفرنجة صعدوا السفن الإسلامية والمراكب التي كانوا أعدّوها هم أيضاً وأصبح البحر أحمر من دم القتلى. وطارد كونراد السفن الباقية واشتبك معها بمعركة رهيبة. وكان بعض المهاجمين يخرجون إلى البر سباحةً. كان ذلك في ٣٠ كانون الأول (ديسمبر) ١١٨٧.

صلاح الدين يرفع الحصار عن صور

وكانت الأمطار البالغة الغزارة قد بدأت، وكالعادة رفع صلاح الدين الحصار عن صور في فصل الشتاء، وأجاز جنوده ليستريحوا في بيوتهم. وعاد أخوه العادل إلى مصر وولده الظاهر إلى حلب. أما هو فنصب مخيمه الشتوي في عكا حتى شهر آذار (مارس) ١١٨٨. واستقبل نبأ فشل صلاح الدين في صور بفرح غامر لا يمكن تصوره في سائر أرجاء المجتمعات المسيحية في الشرق، مثلما كان وقع سقوط القدس محزناً.

صور قاعدة الفرنجة الحصينة وبوابة الحملة الصليبية القادمة

واستطاعت المسيحية أن تثبت على الشاطىء اللبناني في أفضل مواقعها الاستراتيجية، لتغدو بفضل كونراد دي مونفرّا الداهية والمقاتل الحقيقي.. قاعدة حصينة لإعادة الغزو،

وسيكون بمقدورها أن تستقبل ملوك الصليبية وجيوشها القادمة من سائر بلاد الغرب، وكذلك أن تجلب المؤن والذخائر، وسيكون بالمستطاع بفضل تلك المدينة، صور وشقيقتها عكا استعادة الشاطىء الفلسطيني، وأن تركز القوى في مملكة آموري دي لوزينيان.. وستكون صور منعطفاً خطراً في تاريخ الأيوبيين، لأن فشل صلاح الدين أمامها كان حساساً للغاية، وبما أنه كان مع أمرائه ــ يستعد للعودة للقتال، وتجهيز حملات عسكرية جديدة في الربيع القادم، كانت أوربا في الطرف الآخر من البحر تنظم نفسها ضد تهديد الإسلام، وتشكل فرقاً جديدة، وتقيم ضد صلاح الدين التحالف الأعظم من القوى، التي ستصطدم أمواجها على أراضي الشرق الأوسط.

الفصـــل الســـابـع عشـــر

صلاح الدين يعمل على إلقاء فرنجة المشرق في البحر

الدعوة إلى الجهاد واستئناف القتال

ومنذ مطلع آذار، عاد صلاح الدين إلى القتال، فحاصر من ٢ إلى ١٢ منه كوكب (قصر بلفوار) العائد إلى الاسبتاريين والمنتصب عمودياً على علو ثلاثمائة متر فوق وادي نهر الأردن عند خروجه من بحيرة طبرية. وكان العرب يطلقون عليه اسماً شعرياً هو «قصر نجمة الرياح»، ولم تثبط همة صلاح الدين بقايا البرد والأمطار الطوفانية، ولكن المحاصَرين صمدوا، وكان لديهم الكثير من المؤن والعتاد. فعدل صلاح الدين عن متابعة الحصار ويمم وجهه نحو دمشق، التي بلغها في ٥ أيار (مايو) ١١٨٨، وفيها أعدّ العدّة آخذاً أهبته لإلقاء الفرنجة المشرقيين في البحر. وبعث من هناك الرسل حتى تخوم صحارى ما بين النهرين داعياً جميع الرجال القادرين على حمل السلاح إلى جهاد جديد. فسار عماد الدين والمظفر إلى حلب بجيش حشد من الموصل؛ وفي ٣٠ أيار (مايو) ١١٨٨ بدأت معركة جديدة، فظهر صلاح الدين أمام قلعة الاسبتاريين الشهيرة بحصن الأكراد؛ المشرفة على سهل واسع يمتد حتى البحر، وذات الموقع الممتاز على سفوح جبل لبنان بين حمص وطرابلس، وكان مؤرخو العصر يشبّهونها بالشّجا الناشب في حلق المسلمين. ولعجز صلاح الدين عن احتلال هذه القلعة ـــ

التي ما تزال تعتبر مثالاً جميلاً للبناء العسكري لدى الصليبيين أمر بنهب أراضي الكونت دي بوهيموند المشهورة بغلاتها من القمح والزيت والنبيذ، والتي كان غزوها يعود دائماً بغلال وافرة وموارد ممتازة.

سقوط طرطوس

وظهر صلاح الدين في مطلع تموز (يوليو) ١١٨٨ أمام طرطوس. فاضطرب سكان هذه المدينة المهيبة بأبنيتها الفخمة التي شيدها الفرنجة، وكنيستها الجميلة التي يعود تاريخها إلى القرن الثاني عشر، وبادر لمحاصرتها، وقاد الهجوم بنفسه، ففتح ثغرة عبر منها إلى داخل المدينة، وطارد الحامية التي لجأت إلى البرجين اللذين يؤلفان جزءاً من تحصيناتها الصغيرة.

ولم يستغرق احتلال طرطوس ــ حسب قول بهاء الدين رفيق صلاح الدين بالسلاح ــ سوى الوقت اللازم لنصب الخيام خارجها. ونهبت جميع بيوت المدينة، وغنم المسلمون غنائم وافرة. إذ قال السلطان: سنتعشى الليلة في طرطوس فجلب له كبار طهاته طعام الأعداء. فدكّت الأسوار وهدمت الكنيسة رأساً على عقب. وأحرقت المدينة، وبعد أعمال النهب أتت النيران في لحظة على جميع منازلها. وبقي البرجان وحدهما قائمين، فاستولى صلاح الدين بيسر على أحدهما، وصمد الآخر لأن بناءه كان الأفضل، ولأنه أحيط بخندق واسع أترع ماء، وزود بآلات ضخمة للحصار كانت ترمي المهاجمين بحجارة ضخمة جداً، وكان يدافع عن هذا البرج حاكم المدينة وضباطها الأساسيون وخيرة فرسان المنظمتين المستميتون الذين لجؤوا إليه، فصمدوا أمام هجمات المسلمين، حتى يئس صلاح الدين من الاستيلاء عليه.

سقوط بانياس وجبلة واللاذقية

وتابع صلاح الدين مسيرته على طول الساحل فاحتلّ تِباعاً بانياس وجبلة في ١٦ تموز (يوليو) وبقيت اللاذقية وحدها؛ فعسكر بعد أسبوع أمام أسوارها فظلت موصدة الأبواب دونه؛ لكنه هاجمها هجوماً عنيفاً وتمكن من دخولها حيث دارت في شوارعها معارك ضارية دامت عدة ساعات. وأمن له تفوّقه العددي النصر. ونهبت اللاذقية مثل طرطوس، وبقي حصنها وحده صامداً بعض الوقت، ولكن الحامية لما رأت عنف الهجوم الإسلامي، وتأكد لها عقم المقاومة التي ستنهار ــ ولا ريب ــ فضلت الاستسلام. وسمح صلاح الدين للمدافعين

بأن يخرجوا مع عائلاتهم وأموالهم . ولم يدعوا غير مدخراتهم من القمح وأسلحتهم . وفي آخر النهار رفرفت راية المسلمين الظافرة فوق أسوار القلعة . ولم تنهض اللاذقية أبداً من الدمار الذي خلفه فيها صلاح الدين؛ يقول أبو شامة مؤلف كتاب الروضتين «رأيت اللاذقية؛ كانت مدينة عامرة بالمباني الجميلة، وكان يصادف في كل مكان منها منازل من الحجر المنحوت وبوابات من الرخام معقودة الأقواس . وكان لكل منزل حديقته، وأسواقها واسعة، لكن الأمراء هدموا المدينة ونقلوا البوابات الرخامية إلى قصورهم في سورية الداخلية»[1] .

ويكتب عماد الدين : «لقد رأيت هذه المدينة فيما مضى بعد فتح صلاح الدين إياها كانت مدينة فيحاء عامرة بالمباني الفارهة، الرحبة، ولم يكن فيها منزل بلا حديقة، ولا مكان غير مبني، وكان يُشاهد فيها في كل مكان منازل مبنية بحجارة صقيلة النحت وبوابات رخامية متينة الأقواس وأسواق واسعة . فخرب جيشنا هذه المدينة المزدهرة، وقضى على أبهتها واستولى القادة على ما فيها من رخام ونقلوه إلى منازلهم في سورية»[2] .

الاستيلاء على حصن صهيون

وبعد استيلائه على اللاذقية، أخذ صلاح الدين الطريق شمالاً قاصداً محاصرة انطاكية . واستولى على حصن صهيون الذي كان يحميه جغرافياً عدد من الأخاديد الموحشة العميقة . وكانت هذه الأعجوبة من البناء العسكري تخص الفرسان الاسبتارية، وتعتبر ممتنعة على الفتح . وكان ثمة خندق محفور بالصخر عمقه ستون ذراعاً يجعل بلوغها مستحيلاً، ناهيك من السور الثلاثي الذي يحمي القصر[3] . ومع ذلك ففي ساعة واحدة فتح الحصن . ويقول لنا بهاء الدين : «إن حماسة الجنود المسلمين كانت من الشدة بحيث استولوا داخل البيت على طعام كان الأعداء قد انتهوا لتوّهم من طبخه . «وكانوا يأكلون دون أن يتوقفوا عن القتال»[4] . ولجأ السكان إلى الحصن، ولمّا استولى عليه صلاح الدين لم يطلق سراحهم إلا مقابل دفع عشر قطع ذهبية عن كل رجل وخمس قطع عن كل امرأة وقطعتين عن كل طفل، كما جرى في القدس .

انهيار شبكة التحصينات الصليبية حامية مملكة انطاكية

وبعد أن ترك أمراء صلاح الدين حامية في صهيون استولوا على مواقع صغيرة مثل

بكاس المبنية على إحدى ضفتي العاصي والشغور والعيد، والفيحاء وبلاتانيس الواقعة على تل كاسيوس قرب الجبل الأقرع. كانوا يقولون إن هذه القلعة كانت تتصل بأحد موانىء الساحل بنفق يتسع لمرور خيّال على جواده. واستولوا على سرمين وسرنون على مسافة مسيرة يوم تقريباً إلى الجنوب من حلب على طريق حماة... وهكذا انهارت بوقت قصير هذه الشبكة من التحصينات التي أقامها الصليبيون لحماية مملكة انطاكية والحدود الفاصلة بين الممتلكات الفرنجية والولايات الإسلامية.

القضاء على أهم حصون الفرنجة الشمالية

وحسب ماكتب بهاء الدين: «لم يبقَ لأمير انطاكية، سوى ثلاثة حصون: قصير كرسات وبغراس (غاستون) ودربساك». وحيثما كان يظهر فرسان الإسلام كانت المدن تسقط كالثمار اليانعة. ففي برزية إلى الشمال الشرقي من أفاميا كانت الأمور أشد مشقة. فالفن والطبيعة تعاونا ــ كما يكتب بهاء الدين ــ ليجعلا أخذها مستحيلاً.(٥) كان ثمة تلال عالية ضيقة تؤلف خندقاً طبيعياً أو بالأحرى هوّات عمقها خمسمائة وسبعون ذراعاً، وسط هذا المحيط من التلال كانت تقوم صخرة بنيت على قمتها هذه القلعة التي تحمي منطقة أفاميا. ونظر إليها صلاح الدين عن كثب وقرر اقتحامها رغم معارضة أمرائه الذين كانوا يرون في ذلك مجازفة. ولكن صلاح الدين كان يرى أنه كلما كانت المهمة أشق كان القيام بها أمجد. وانضم السلطان إلى جيشه، وأمر بنصب الآلات وبصنع جسور من الخشب وسلالم وقصفت القلعة عبثاً عدة أيام، ثم أمر بإعداد كل مايلزم للهجوم، وقسم قواته ــ طبقاً لطريقه تقليدية ــ إلى ثلاث فرق مهمتها القيام بالهجوم الواحدة تلو الأخرى. كان عماد الدين أمير سنجار يقود الفرقة الأولى، والسلطان الثانية، وابنه الثالثة وحالما أعطيت إشارة الهجوم، عبر أمير سنجار الخندق على جسرٍ من الخشب واقترب من السور، وحاول تسلقه، ولكن بعد محاولته عبثاً عدة ساعات تثبيت سلالمه، اضطر إلى التراجع. وجاء صلاح الدين ليحل محلّه فهجم شاهراً سيفه متقدماً جنوده صارخاً: «الله أكبر!» فردد صرخته الجيش كله، وفي حملة لا تقاوم مرتدياً درعه الخفيفة اتقاءً لرشق السهام المتساقطة من جميع الجهات، كان صلاح الدين أول من وصل إلى السور وقفز داخل الحصن، وأحاط به الفرنجة في إحدى اللحظات إحاطة جد قريبة، ولدرجة تعرض فيها لخطر محقق، لكن مماليكه خفوا لإنقاذه في الوقت

المناسب . ــ ويتابع مؤرخ صلاح الدين قائلاً ــ «وتملك نفوسَ المحاصَرين الذعر والإعجاب معاً فجثوا على ركبهم طالبين الأمان».

وانتصر صلاح الدين مرة أخرى بتصميمه وعناده مُعْرِضاً عن نصائح أمرائه الذين بدت عليهم امارات الإعياء التي ستظهر عليهم بحدّة فيما بعد، وتفادياً لما أحدثه في طرطوس من حرائق أراد صلاح الدين أن يوفر على المغلوبين مآسي جديدة، فأمر بمعاملتهم برفق مطلقاً سراح حاكم القلعة، ومرسلاً إياه ــ يصحبه سبعة عشر فارساً ــ إلى أمير انطاكية. وانتقل لمحاصرة دربساك التي تشرف قلعتها على طريق القوافل الممتدة من حلب أكبر مدينة تجارية في سورية الشمالية. وقد أثنى بهاء الدين الذي شارك في هذه العملية على شجاعة الفرنجة ــ وهم بأغلبيتهم من صيادي السمك المتواضعين ــ الذين دافعوا ببسالة عن الموقع، فكانوا يسدّون ثغرات الأسوار التي فتحها المسلمون غير مكترثين بالسهام التي كانت تخترق أجساد رفاقهم إذ كانوا تقريباً عزلاً بلا أسلحة وبلا دروع شبه عرايا ويشكّلون ما يشبه الجدار، ويحملون حجارة كبيرة لسد مايحدث من الثغرات في التحصينات، وكلما قتل منهم واحد حلّ مكانه آخر متابعاً ما بدىء بعمله، وهكذا تعرضوا للقتل بالسيف خلال ربع ساعة. وفي ١٦ ايلول (سبتمبر) ١١٨٨ سقطت دربساك بأيدي المسلمين. وبعد عشرة أيام جاء دور حصن بغراس للهيكليين، ويقع في منتصف الطريق بين انطاكية واسكندرون، وكان موقعه يشرف على ممرّ بيلان على الطريق الاستراتيجية التي تربط انطاكية بالإمارة الأرمنية في كيليكيا. ومن هناك، أرسل صلاح الدين عدداً من المماليك زرعوا الموت حتى أبواب انطاكية. فطلب الكونت بوهيموند، الذي أرعبه هذا العدد من الهزائم، هدنة. وكان البطريرك الذي كان يشاطره حكم المدينة يشاطره الرأي كذلك، وحاول بدوره أن يتفاوض مع صلاح الدين، بهدف إنقاذ ما يمكن إنقاذه بانتظار وصول المساعدات من الممالك الفرنجية في الغرب. فعامل صلاح الدين المبعوثين معاملة حسنة ومنحهم هدنة مدتها سبعة أشهر، بعد مساومات صعبة تتعلق بمسألة دنانير.

سقوط الكرك وإعادة الاتصالات بين الشام ومصر

وبعدما قضى صلاح الدين خلال بضعة أيام على أشهر القلاع الصليبية سرّح قواته

وعاد إلى دمشق. وفيها بلغه خبر سارّ: إنّ قلعة الكرك التي بناها بايان لوبوتاي عام ١١٤٢ فوق جبل الثلج، والتي كانت ترى منها على بعد ثمانية عشر كيلو متراً زرقة المياه الشديدة الصفاء للبحر الميت،... لقد سقطت آخيراً هذه القلعة بعد حصار حول كامل على يد شقيقه الملك العادل. وكان ذلك في تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٨٨ بعد أن تغلب الجوع على المدافعين عن هذه المدينة الصغيرة التي ازدهرت أيما ازدهار في العهد اليوناني، والتي انطلقت منها روث المؤابية إلى بيت لحم حيث تزوجت بوز جد داود.

وبسقوط الكرك آعيدت الاتصالات بين مصر والشام. ولم يعد مستطاعاً قطع طريق دمشق ـــ مكة على المسلمين الذين كم أرغموا قبل ذلك على القيام بدورات كبرى على الطرق الصحراوية في الأردن، بهدف الوصول إلى مكة اجتناباً لدفع الفديات والتعرض للمضايقات المزعجة. ولهذا استقبل نبأ سقوط الكرك في كل ديار الإسلام كما استقبل نبأ سقوط القدس، وبالدرجة ذاتها من الابتهاج والمهرجانات. ويخبرنا مؤرخ عربي معاصر أن جميع الدمشقيين الذين لم يتمكنوا من أداء فريضة الحج سابقاً بدؤوا يستعدون لأدائها الآن. ونظموا على أبواب دمشق أكبر قافلة للمؤمنين لم يشهد مثلها منذ زمن بعيد، وقد أثلجت صدور الجميع وهم يشاهدون انطلاقها نحو المدينة المقدسة التي لم يقترب منها ذميٌّ قط.

سقوط صفد وكوكب

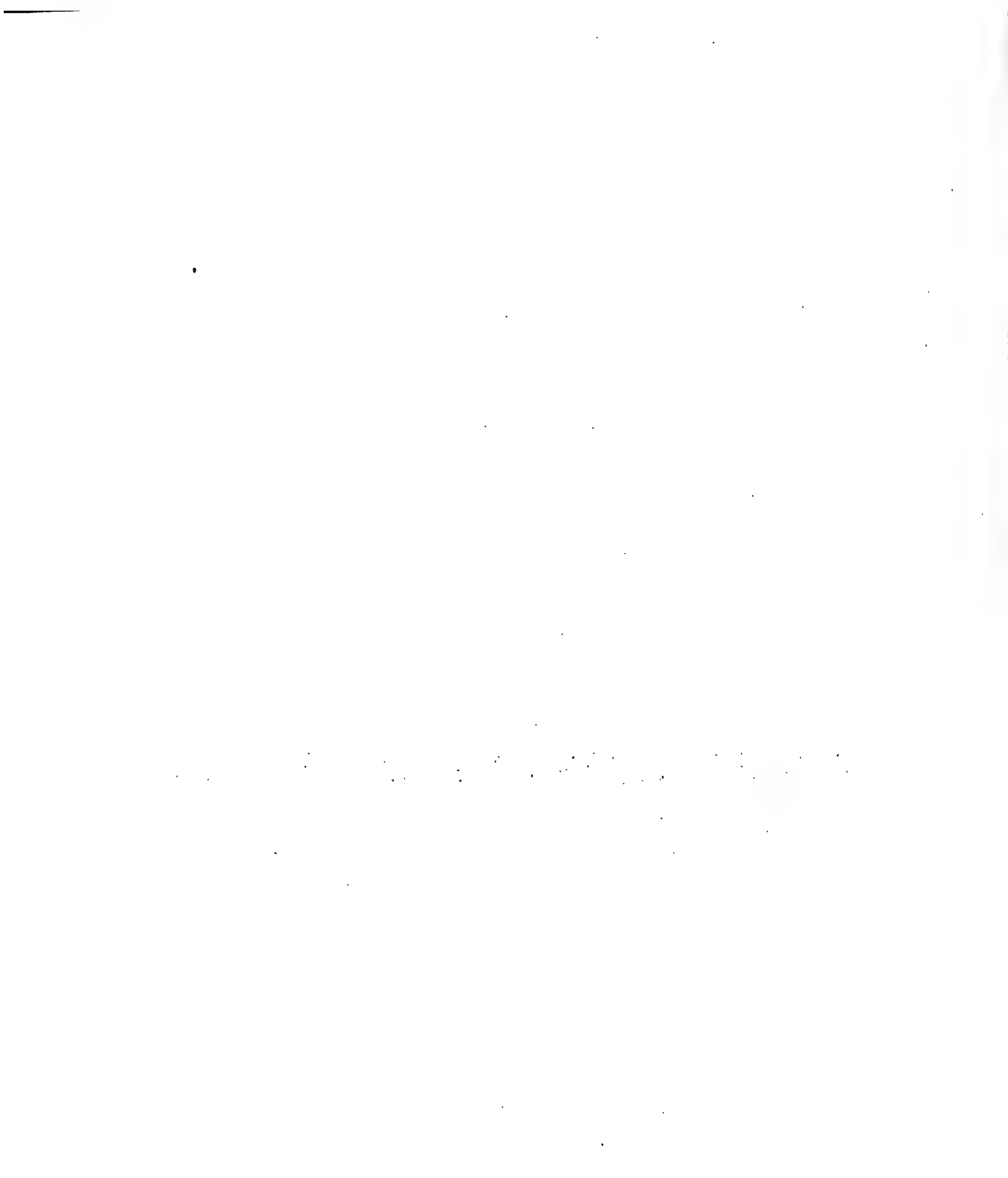
وفي تشرين الأول (اكتوبر) ١١٨٨ هاجم صلاح الدين صفد شمالي بحيرة طبرية، وكانت مدينة صغيرة رائعة الجمال بمنازلها الموزعة على ثلاثة تلال وقلعتها المشرفة على منطقة بحيرة طبرية، واستمر الحصار شهراً، واضطر السلطان نفسه أن يستثير الشجاعة المتراخية لدى رجاله، الذين كانوا يحاربون كجنود نظاميين لهم مرتباتهم المقررة لا غير.. وعرّض نفسه للخطر وأسهم في الأعمال التي تطلبتها إقامة الدبابات والمجانيق وقاذفات الحجارة والأبراج الخشبية المتحركة، مصرّاً على إخضاع هذ المدينة، رغم الأمطار المستمرة التي أحالت الأرض مستنقعات، صفد الشهيرة في تاريخ الآشوريين، صفد التي شهدت تحت أسوارها زحف بينوي تغلات فلاسر ملك آشور. وفي ٦ كانون الأول (ديسمبر) ١١٨٨ ألقت الحامية السلاح مستسلمة،.. وقاد صلاح الدين رجاله إلى كوكب ذلك الموقع الذي لم يستطع احتلاله

قبل عشرة أشهر، رغم الطقس السيء ورغبة رجاله في نيل قسط من الراحة. وتمكن من دخول الموقع الحصين بعد عدة أيام من المعارك الضارية تحت الأمطار الغزيرة الدائمة التهطال، ووابل الحديد والرصاص والنيران الإغريقية. وفي ٥ كانون الثاني (يناير) ١١٨٩ رفرفت رايات صلاح الدين فوق بقايا هذه القلعة الأبيّة التي سمح لآخر مدافع عنها بالانتقال بحريّة إلى صور، كعلامة إكبار وإعجاب ببسالة أولئك المدافعين عن موئلهم، واحتقارهم الموت وإصرارهم حتى النهاية على عدم الاستسلام.

وانتقل السلطان إلى القدس مع أخيه بعد أن أقام حامية إسلامية في كوكب (قصر بلفوار)، وتوجه من عسقلان إلى عكا التي أمر قراقوش ــ أمين المباني الرسمية ومعيد بناء قلعة القاهرة ــ بتفتيش تحصيناتها.

الأرض المقدسة مسرح الحروب المقبلة

وأخيراً في ٢١ آذار (مارس) وبعد أن سرّح حلفاءه من ما بين النهرين، انتقل صلاح الدين إلى دمشق، عاصمته الإدارية. والتي لن يتاح له أن يتمتع فيها طويلاً بثمار انتصاراته.. ذلك أن أوربا التي أرهقها مالحق بها من هزائم في الشرق الأدنى راحت تحشد جيوشاً متعصبة في جميع الأراضي المسيحية، وتجهز الكثير من السفن في الموانىء، لتقل هذه الجيوش نحو الأرض المقدسة التي انقلبت مسرحاً للكثير من المعارك.



حواشي الفصل السابع عشر

١ ، ٢ — جاء في كتاب الروضتين لأبي شامة نقلاً عن العماد الأصفهاني خبر وصول صلاح الدين إلى اللاذقية ، وفيه وصف للمدينة : قلاعها وعمارتها ..، يقول :

« رحل السلطان إلى اللاذقية يوم الأربعاء الثالث والعشرين من جمادى الأولى فبات بالقرب منها وصبحناها يوم الخميس ، وقد لاذ أهلها بقلاعها ، وهي ثلاث قلاع متلاصقات على طول التل ، متناسقات كأنهن على رأس جبل راسخ ، وذروة اشم شامخ . فسهل لنا فرعها ، وشرعنا نستأصل أصلها وفرعها ، فطلبوا السنجق الناصري ونصبوه على السور عشية يوم الجمعة ، فلما أصبحوا صعد إليهم قاضي جبلة وأنزلهم بالأمان ، وتسلمت تلك القلاع بما فيها من عدّة وذخيرة ، وأسلحة وميرة ، وخيل ودواب كثيرة . وأمنوا على أنفسهم وأموالهم ، وانصرفوا بنسائهم ورجالهم ، وذريتهم وأطفالهم ، وخفوا من أثقالهم . ودخل جماعة منهم في عقد الذمة ، وتمسكوا بحبل العصمة . وانتقل الباقون إلى انطاكية . ثم ولّى السلطان بها مملوكه سنقر الخلاطي ، وركب السلطان إلى البلد وطافه ، وهز إلى إحسانه أعطافه ، وأمنه بعد ما أخافه . قال : ورأيتها بلدة واسعة الأفنية ، جامعة الأبنية ، متناسقة المغاني ، متناسبة المعاني . في كل دار بستان ، وفي كل قطر بنيان . أمكنتها مخرّمة ، وأروقتها مرخمة ، وعقودها محكمة ، ومساكنها مهندسة مهندمة . وسقوفها عالية . وقطوفها دانية ، وأسواقها قصية ، وآفاقها مضية . وأرجاؤها فسيحة ، وأهواؤها صحيحة . لكن العسكر شعث عمارتها ، وأذهب نضارتها . ووقع من عدّة من الأمراء الزحام ، على الرخام ، ونقلوا منه أحمالاً إلى منازلهم بالشام . فشوهوا وجوه الأماكن ، ومحوا سنا المحاسن . قال : وبظاهر اللاذقية كنيسة عظيمة ، نفيسة قديمة ، بأجزاء الأجزاع مرصعة ، وبألوان الرخام مجزعة ، وأجناس تصاويرها متنوعة . وأصول تماثيلها متفرّعة . وهي متوازية الزوايا ، متوازنة البنايا . قد تخيرت بها أشباح الأشباه ، وصوّرت فيها أمواج الأمواه . ولما دخلها الناس أخرجوا رخامها ، وشوّهوا أعلامها ، وجروا لثامها ، وكسروا أجرامها . وأهدوا الأسى لهدّ أساسها ، وأفاضوا عليها لباس إبلاسها ، وحكموا بعد الغنى بإفلاسها ، فأقفرت وأقفرت ، وخربت وتربت . ثم لما طابت النفوس ، وتجلى عن البلد بفتحه البوس ، عاد إلى هذه الكنيسة بالأمان القسوس ، وهي متشوهة متشعثة ، متمسكة بأركانها وبقواعدها متشبثة . قال : ولقد كثر أسفي على تلك العمارات كيف زالت ، وعلى تلك الحالات الحاليات كيف حالت . ولكنها زاد سروري بأنها عادت للإسلام مرابع ، ولشموسه مطالع . فلو بقيت بحليتها وحالتها ، بعدما تبدلت رشدها

من ضلالتها، لشاقت وراقت، وكما أفاقت فاقت. ورغب في أعطاء الجزية سكان البلد من النصارى والأرمن حباً للوطن. ولما أراد السلطان الرحيل، دخل المدينة، وردّ إلى سكانها السكينة، ودار خلال ديارها، وخرق أسواقها في سائر أقطارها، ووقف على البحر للنظر إلى موانيها وشوانيها، وأقاصيها وأدانيها، وشكر الله على تمكينه من ملكها وتخصيصه بملكها». (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٢٨).

٣ـــ وقد وصف العماد الأصفهاني الطريق إلى قلعة صهيون بقوله:

«كان الطريق إلى صهيون في أودية وشعاب، ومنافذ صعاب، وأوعاث وأوعار، وأنجاد وأغوار. فقطعنا تلك الطريق في يومين، ووصلنا ليلة الثلاثاء بليلة الاثنين، وخيمنا على صهيون يوم الثلاثاء وهي قلعة على ذروة جبل بين واديين عميقين، يلتقيان عليها، ويدوران حواليها. والجانب الجبلي مقطوع منه بخندق عظيم عميق، وسور وثيق ما إليه لسوى القضاء والقدر من طريق. والقلعة ذات أسوار خمسة كأنها خمس هضاب، ممتلئة بذئاب سغاب، وأسد غضاب. وأحاط العسكر بها يوم الأربعاء من نواحيها الأربع، وهي ممتنعة علينا بالركن الأمنع والسموّ الأمتع». (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٢٩).

٤ـــ جاء في فتح صهيون نقلاً عن القاضي بهاء الدين بن شداد قوله:

«ورحل السلطان عن اللاذقية ظهيرة الأحد المذكور طالباً صهيون المحروسة، وكان نزوله عليها يوم الثلاثاء تاسع عشرين جمادى المذكورة، واستدار العسكر بها من سائر نواحيها بكرة الأربعاء، ونصب عليها ستة مناجيق، وهي قلعة حصينة منيعة في طرف جبل، خنادقها أودية هائلة واسعة عظيمة، وليس لها خندق محفور إلا من جانب واحد، مقدار طوله ستون ذراعاً ولا يبلغ، وهو نقرٌ في حجر، ولها ثلاثة أسوار، سور دون رَبَضِها، وسور دون القلة، وسور القلة، وكان على قلتها عَلَمٌ طويل منصوب، فحين أقبل العسكر الإسلامي شاهدته وقد وقع، فاستبشر المسلمون بذلك، وعُلم أنه النصر والفتح، واشتد القتال عليها من سائر الجوانب، فضربها ولده الملك الظاهر ـــ صاحب حلب ـــ وكان قد لحقه قبيل جَبَلة بجحفله وعسكره وحضر فتوحها، وكان نصب على صهيون منجنيقاً قبالة قرنيه من سورها قاطع الوادي، وكان صائب الحجر، فلم يزل يضربها حتى هدم من السور قطعة عظيمة يمكن الصاعد في السور الترقي إليه منها.

ولما كان بكرة الجمعة ثاني جمادى الآخرة عزم السلطان ـــ رحمة الله عليه ـــ على الزحف، وركب وتقدم، وأمر المنجنيقات أن تتواتر بالضرب، وارتفعت الأصوات، وعظم الضجيج بالتكبير والتهليل، وما كان إلا ساعة حتى رقى المسلمون على أسوار الرَّبَض، واشتد الزحف، وعظم الأمر، وهاجم المسلمون الرَّبَض.

ولقد كنتُ أشاهد الناس وهم يأخذون القدور، وقد استوى فيها الطعام فيأكلونها وهم يقاتلون القلعة، وانضم مَنْ كان في الربض إلى القلعة وحملوا ما أمكنهم أن يحملوا من أموالهم، ونُهب الباقي، واستدارت المقاتلة حول أسوار القلعة، ولما عاينوا الهلاك استغاثوا بطلب الأمان، ووصل خبرهم إلى السلطان، فبذل لهم الأمان، وأنعم عليهم، على أن يسلموا بأنفسهم وأموالهم، ويؤخذ من الرجل منهم عشرة دنانير، وعن المرأة خمسة، وعن الصغير ديناران، وسلمت القلعة ـــ ولله الحمد ـــ وأقام السلطان عليها حتى تسلم عدة قلاع، كالعيذو، وبلاطنس وغيرها من القلاع والحصون وتسلمها النواب، فإنها كانت تتعلق بصهيون». (ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٩٠ ـــ ٩١).

٥ ـــ فتح برزية نقلاً عن القاضي بهاء الدين بن شداد .

« ثم سيَّر السلطان جريدة إلى قلعة برزية ، وهي قلعة حصينة في غاية القوة والمنعة على سن جبل شاهق يُضرب بها المثل في جميع بلاد الإفرنج والمسلمين ، يحيط بها أودية من سائر جوانبها ، وذرع علوها كان خمسمائة ذراع ونيفاً وسبعين ذراعاً ، ثم جدَّد عزمه على حصارها بعد رؤيتها ، واستدعى الثقل وكان وصول الثقل وبقية العسكر تحت جبلها يوم السبت الرابع والعشرين من الشهر .

وفي بكرة الأحد الخامس والعشرين منه صعد السلطان جريدة مع المقاتلة والمنجنيقات وآلات الحصار إلى الجبل ، فأحدق بالقلعة من سائر نواحيها ، وركب القتال من كل جانب ، وضرب أسوارها بالمنجنيقات المتواترة الضرب ليلاً ونهاراً . وقاتلها حتى كان يوم الثلاثاء السابع والعشرين ، فقسم العساكر ثلاثة أقسام ، ورتب كل قسم يقاتل شطراً من النهار ، ثم يستريح ويسلّم القتال للقسم الآخر بحيث لا يفتر القتال عنها أصلاً .

وكان صاحب النوبة الأُولى عماد الدين ـــ صاحب سنجار ـــ فقاتلها قتالاً شديداً حتى استوفى نوبته ، وضرس الناس من القتال ، وتراجعوا عنه .

واستلم النوبة الثانية السلطان بنفسه ، وركب وتحرك خطوات عدة ، وصاح في الناس ، فحملوا عليها حملة الرجل الواحد ، وصاحوا صيحة الرجل الواحد ، وقصدوا السور من كل جانب ، فلم يكن إلا بعض ساعة حتى رقى الناس على الأسوار ، وهاجموا القلعة ، وأخذت القلعة عنوة ، فاستغاثوا الأمان ، وقد تمكنت الأيدي منهم « فلم يك ينفعهم إيمانهم لما رأوا بأسنا » ونهب جميع ما فيها ، وأسر جميع من كان فيها ، وكان قد آوى إليها خلق عظيم ، وكانت من قلاعهم المذكورة ، وكان يوماً عظيماً .

وعاد الناس إلى خيامهم غانمين بحمد الله تعالى ، وعاد السلطان إلى الثقل فرحاً مسروراً ، وأحضر بين يديه صاحب القلعة ، وكان رجلاً كبيراً منهم ، وكان هو ومن أُخذ من أهله سبعة عشر نفساً ، فمنَّ عليهم السلطان ورقَّ لهم ، وأنفذهم إلى صاحب أنطاكية ، استمالةً له ، فإنهم كانوا يتعلقون به ومن أهله . » (ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٩٢ ـــ ٩٣) .

الفصـــل الثـامــن عشــر

تحالف أوربا المسيحية ضد الإسلام

أوربا والإعداد للحملة الصليبية الثالثة

لقد أقضت خسارة القدس المضاجع في جميع البلاطات الأوربية،.. وبناءً على أمر كونراد دي مونفرًا الذي تكشّف في المناسبة عن مطامع سيؤكدها المستقبل، قام بطريرك صور بعبور البحر لإطلاع قداسة البابا أوربانوس الثالث على المصيبة الكبرى التي حلت بالنصرانية؛ فأسهم هذا النبأ في التعجيل بوفاة الحبر الأعظم الذي أصيب إصابة بالغة الخطورة، فلم يقو على تحمل وقع ألم النبأ ــ الصدمة: «سقوط القدس»، فمات بفرّاري في ٢٠ تشرين الأول (اكتوبر) ١١٨٧ وخلفه الراهب البندكتي غريغوريوس الثامن الذي أعدّ العدة، منذ اليوم التالي لاعتلائه عرش البابوية، للحملة الصليبية الثالثة. فحث جميع المسيحيين القادرين على القتال على حمل السلاح بغية خلاص الدين!.. وأمر بالصوم والصلاة جهراً، وأمر بهدنة إلّهية أمدها سبع سنوات. وقد كتب لويس بريهيه في كتابه (الكنيسة والمشرق في العصر الوسيط): «وقد نذر الكرادلة أن يعيشوا على الصدقات، وألا يركبوا الخيل قبل إعادة احتلال القدس، وأن يطوفوا الدول المسيحية سيراً على الأقدام وهم يحملون الصليب. ولكن لم يكد يمرّ شهران على تتويج البابا غريغوريوس الثامن حتى توفي، وخلفه

كليمانت الثالث. فجدّد الغفرانات والامتيازات التي منحها أسلافه للذاهبين إلى الأرض المقدسة.

وكان وعّاظه يطوفون الممالك المسيحية يستنزلون اللعنات أمام مستمعيهم على صلاح الدين، ويوزّعون رسوماً تظهر القبر المقدس يدنّسه جواد أحد المماليك والمسيح يسوقه محمد، وكانت أخبار الآلام التي يقاسيها الفرنجة في المشرق تحفز جموعاً لا تحصى من المتطوعين. وخلع قساوسة وكهنة ورهبان مسوحهم الدينية ليتسربلوا الدروع. وقرر كرادلة أن يسعوا إلى القدس سيراً على الأقدام وهم يستجدون الحسنات، والامتناع عن بيع صكوك غفران الحبر الأعظم إلّا لمن تطوع صليبياً. وتلقى بطريرك صور والكاردينال هنري من البابا لقب مبعوثين مفوّضين، وبعد أن طافا إيطاليا وألقيا فيها المواعظ، اجتازا جبال الألب ليثيرا في فرنسا الحماسة ذاتها للحملة الصليبية الثالثة. ولكن الوضع السياسي في باريس كان غامضاً، وأخذت مطالبات ملك انكلترا بوراثة العرش تتسم بشيء من الوقاحة. وكانت القضية على وشك أن يُحتكم فيها للسلاح، وأن يحيق ضررها الفادح بالمملكتين معاً.

ملكا فرنسا وانكلترا يتسلمان الصليب من يد بطريرك صور

وحينما وصل مبعوثا البابا المفوضان ــ وكان الناس ما يزالون يبدون كل تبجيل للكرسي الرسولي ــ قَبِل ملكا انكلترا وفرنسا أن يلتقيا قرب جيزور في ٢١ كانون الثاني (يناير) ١١٨٨ لسماع رسالة الحبر الأعظم. واستطاع المبعوثان بكثير من اللباقة التي رويا بها معاناة مسيحيي المشرق أن يؤثرا في الملكين هنري بلانتاجني وفيليب أوغست حتى نسي هذان العاهلان خلافاتهما، وتصافحا وتعانقا وهما يبكيان، وتسلّما الصليب من يد بطريرك صور. وحذت النّبالة الحاضرة حذوهما، وكان صليب كل فريق بلون علمه، الأحمر للفرنسيين والأبيض للانكليز والأخضر للفلامانيين. وبدأت تتجمع حشود الصليبيين الزاحفين من كل الجهات. وفرضت ضريبة خاصة لتأمين هذه الرحلة الضخمة هي ضريبة «العِشْر الصلاحديني» أو «الصلاحدينية» دون لفظة العشر. فقد تقرر أن يدفع كل من لا يحمل الصليب عِشْر وارداته كحد أدنى. واستثنيت من هذه الضريبة بعض الجمعيات الدينية، وحرّف قسم من وارداتها الاستثنائية عن غرضه الحقيقي. وتجدد النزاع بين ملكي انكلترا

وفرنسا اللذين نسيا تدفق العواطف وحارّ القبلات والمصافحات، فانتزع فيليب أوغست بعض المواقع من الانكليز.

امبراطور جرمانيا يحلم بانتزاع قصب السبق في المشرق

وبينما كانت هذه الأحداث تترى في فرنسا وانكلترا — حسب ماوصفنا — كان امبراطور الامبراطورية الجرمانية المقدسة فريدريك الأول دي صواب الملقب بفريدريك باربروس يحلم بأن ينتزع في المشرق قصب السبق لشعبه. وكان الحظّ قد أغدق عليه امتيازات متنوعة، فهو موطد الأمن في ألمانيا، وقد توّج ملكاً على إيطاليا وبافيا كما توّجه البابا أدريان الرابع امبراطوراً، فدمر ميلانو انتقاماً من المدن اللومباردية التي سبق أن ثارت عليه. وأمضى شطراً من عهده في شجار مع الكرسي الرسولي. ومع ذلك لبى وهو في الرابعة والستين من عمره دعوة مبعوث البابا المفوض الذي جاء يقابله بعد لقاء جيزور. وفي ٢٧ آذار (مارس) ١١٨٨ عقد في مايانس اجتماعاً عاماً للجمعية الوطنية (دييت)، وتقبل الصليب من يدي أسقف ورزبرغ بحضور ممثلي جميع جرمانيا التي حمل زعماؤها الصليب على أثره: ابنه الثاني فريدريك دوق دي صواب، وليوبولد دوق النمسا، وبرتولد دوق مورافية، وهرمان ماركيز بادن، وكونتتات تورنج وهولندا، وقساوسة بيزانسون وكامبري ومونستر، وفي يوم واحد لفظ في مايانس ثلاثة عشر ألفاً نذر الصليبيين.

باربروس يضع قواعد صارمة للحملة الصليبية الجديدة

وسبق لفريدريك أن قام برحلة إلى القدس بصحبة عمه الامبراطور كونراد الذي اشترك — كما رأينا — في الحملة الصليبية الثانية، فكان واسع الاطلاع على مشقات السفر. ولكي يتفادى تكرار الفوضى والمصائب التي سبق أن شهدها، حرص على عدم إهمال أي شيء في الإعداد لهذه الصليبية الجديدة.

وكتب أحد المؤرخين: كانت الحماسة شاملة بالغة الحرارة، ولكن احتواها الملوك، وسعى القادة قبل أن ينطلقوا باتجاه فلسطين للاتفاق مع الأمراء الذين سيعبرون أراضيهم. وهذا ما فعله فريدريك باربروس. ولم يشأ أن يصطحب معه سوى الشبان الأقوياء القادرين على تحمل مشاق هذه الرحلة، والذين يحملون في أكياس نقودهم ثلاثة ماركات من الفضة كحد

أدنى، كما منع النساء من متابعة جيشه وإرباك جنوده وإضعافهم بالسير معهم إلى الأرض المقدسة كما حدث في الحملتين الصليبيتين السابقتين. ووضع قواعد بالغة الصرامة للانضباط والصحة. وبينما كان جيشه يتجمع شيئاً فشيئاً تحت أسوار رايتسبون أرسل مبعوثيه إلى سائر الملوك الذين سيعبر دولهم ليطلب منهم المعونة والحماية. فوعد ملك هنغاريا (المجر) بعدم اعتراض مسيرته وبتموين قواته. أما امبراطور بيزنطية اسحق لانج، وقلج ارسلان ملك ايقونية ففضّلا ولاشكّ أن يريا على أية حال سيصل إلى ديارهما جيش فريدريك باربروس قبل أن يلتزما، وترددا قبل أن يتورطا؛ لأن صلاح الدين لم يكن عظيم القوّة وحسب، ولكنه على الأخصّ جارهما.

امبراطور جرمانيا يتوعد منذراً صلاح الدين

ودفع امبراطور الامبراطورية الجرمانية المقدسة الأمور بعيداً جداً. فقد توعد السلطان منذراً إياه بإعادة سائر الأراضي الفرنجية التي سبق أن استولى عليها. وأمام رفض صلاح الدين أعلن باربروس عليه الحرب دون أن يأخذ رأي مستشاريه. وفي هذا الإنذار الأخير الذي وجهه إلى صلاح الدين احتاط للأمور، إذ ذكر أنه يعلن الحرب باسم الأباطرة الرومان. وهذا هو نص الرسالة حسبما أورده.ماتيو باريس:

«من فريدريك امبراطور الجرمانيين الدائم العظمة المنتصر الأفخم على الأعداء.

إلى صلاح الدين زعيم المسلمين، بما أنك دنست أرضنا المقدسة، فمن اهتمامنا الامبراطوري وواجبنا أن نعاقب مثل هذه القحّة.. ونعلمك أنه مالم تُعِد الأراضي التي هي فرنجية فسنسير إليك لنجرب ببركة الصليب حظّ السلاح معك. ولا بدّ أن التاريخ بقديمه وحديثه قد علّمك بأن الأثيوبيتين، وموريتانيا وفارس، وسورية وبلاد البارتيين ويهودا والسامرة وبلاد العرب وبلاد الكلدان ومصر، الخ... هي أراضٍ تخضع لسيطرتنا. وإن سكان هذه البلدان يدركون ذلك، فقد خُضبت سيوف الرومان بدماء ملوكهم وستفهم أنت نفسك قريباً، وبالتجربة ما تستطيع أن تفعله نسورنا الظافرة وجحافلنا المؤلفة من شعوب مختلفة. وأنك ستبتلى بغضب أولئك التوتون الذين يحملون السلاح حتى أيام السلم، وستعرف ــ بالتجربة التي ستدفع أنت ثمنها ــ سكان ضفاف الرين وشبيبة استرية التي لا تعرف الهزيمة أبداً، وكذلك البافاريين وسكان الصواب الأبيين المراوغين، وسكان فرنكونية والسكسونيين

الذين اشتهروا بلعبة السيف، وشعوب التورنج ووستفاليه والبرابانسونيين واللورينيين الذين لا يعرفون لطعم السلم مذاقاً، والبورغينيين الدائبي التوثب وسكان جبال الألب والفريزونيين النّبالة البارعين، والبوهيميين الذين يجيدون لعبة الموت ضاحكين، والبولونيين الأشرس من حيوانات غاباتهم؛ والنمساويين والأيليريين واللومبارديين، وستعرف في اليوم المحدد لانتصار المسيح أننا مانزال قادرين على امتشاق الحسام واستعماله؛ وإن تكن الشيخوخة، حسب زعمك، قد صرعتنا»[1].

صلاح الدين يردّ على تهديدات ملك جرمانيا

وبعد أن قرأ صلاح الدين هذه الرسالة بدا مهذباً مع سفير فريدريك باربروس الذي سلّمه إياها، كما لو أن حامل هذا الإنذار جاء يحدثه عن طبقٍ من راحة الحلقوم أو الكعك العسليّ اللون، أو عن آخر ما أبدعه شعراء أصفهان. ولكنه كان متفهماً جيداً، وحمّل السفير في اليوم التالي جوابه مصحوباً بهدايا لطيفة مراعاة للمظاهر. وهذا هو الجواب:

«إلى فريدريك العظيم، صديقنا المخلص، ملك الألمان.

بسم الله الرحمن الرحيم والحمد لله الواحد الأوحد، المنتصر الأعظم، الصمد الذي لا نهاية لملكه، حمداً أبديّاً للذي أسبغ نعمته على العالمين، إياه ندعو بجاه أنبيائه، وخاصة صاحب شريعتنا نبيّه محمّد، الذي أرسله إلى الناس كافة.. بشيراً ونذيراً؛ وان الدين عند الله الإسلام.

ليعلم الملك العظيم صديقنا المخلص ملك الألمان، أنه قد جاءنا رجل يدعى هنري يزعم أنه سفيرك وقد سلمنا رسالة يقول إنها منك، وقد أجبنا بصوت جهير على أحاديثه. وإليك جواب الرسالة: إنك تذكر أسماء ملوك، وأمراء، وكونتات، وبطاركة ومركيزات وفرسان وعدة شعوب ستهاجمنا معك. فاعلم أن كتابنا هذا لا يتّسع حتى لذكر أسماء جميع الشعوب التي تتألف منها ممالكنا فلا بحر ولا عقبة يمكن أن تعيق زحفهم. إنهم مستعدون للسير تحت راياتنا. ومعنا الآن جنودنا الذين استولينا معهم على كثير من البلدان. وإذا كنت عازماً على الشخوص إلينا بكل هذه الحشود التي سميتها في رسالتك وذكرها لنا رسولك فإننا لا نخشاك وسوف نسير للقائك وسينصرنا الله بقدرته العظمى. وعندها سنعبر نحن البحر ونزحف

لتدمير مملكتك. لأننا ندرك ـــ لكي تحشد كل هذه الجيوش التي سميتها لابدّ أنك قد أفرغت ولاياتك من السكان، ولم تُبق فيها مدفعاً واحداً، ولن يحول أي شيء بيننا وبين أن نصبح سادتها، بعد أن نكوّن قد سحقناكم في فلسطين كما سحقنا الذين سبقوكم بفضل الله الواحد الأحد. لقد هبّ الفرنجة مرتين لمهاجمتنا في مصر، مرةً في دمياط ومرة في الاسكندرية، وإنك لا تجهل ما أسفرت عنه نتيجة المعركتين. ومنذ ذلك الحين أذهب الله ريحكم وزاد في قدرتنا فوهبنا مصر وممالك دمشق والقدس وحلب وسواحل سورية، ومابين النهرين وكثيراً من المناطق الأخرى. وجميع الأمراء المسلمين هم إما عُمّالنا وإمّا رعايانا. وسائر السلاطين يطيعون أوامرنا، حتى لو طلبنا من خليفة بغداد أغدق الله عليه نعمه، أن يقود جيوشه إلينا لنزل عن عرشه العظيم ليسارع إلى ضم جهوده لجهودنا في الجهاد المقدّس. ولم يبق للفرنجة سوى ثلاث مدن هي: صور وطرابلس وانطاكية، التي سنسير لتحريرها.

فإذا أردت الحرب، وإذا كتب الله لك الهزيمة في لوحِهِ المحفوظ فتقدم وسنسير للقائك، أما إذا أردت السلم، فمُرْ حكام تلك المدن الثلاث بفتح أبوابها لنا، وعلى أساس هذا الشرط نعيد إليكم صليبكم ونحرر أسراكم ونسمح لأحد قسسكم أن يقيم في كنيسة القيامة، ونعيد إليكم أديرتكم ونحسن إلى رجال دينكم ونسمح لحجاجكم بزيارة المدينة المقدسة ونحافظ وإياكم على سلمٍ لا يعكّر.

فإذا كانت الرسالة التي نقلها إلينا المدعو هنري صحيحة فليكن هذا هو جواب رسالتنا.

حرر في سنة ٥٨٤ للهجرة بنعمة الله الواحد الأحد. الصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله أجمعين، وعليكم سلام السلطان الأعظم المنتصر المدافع عن كلمة الحق، زينة راية الإيمان صلاح الدنيا والدين ملك المسلمين، حامي الحرمين الشريفين وبيت المقدس المشرّف أبي المنتصرين يوسف بن أيوب»[٢].

ومن جديد أعلن الجهاد في الجوامع عند صلاة الجمعة، فيما كانت ترتفع في كل مكان في المشرق صيحات العداء.

عبقرية صلاح الدين السياسية ومعاهدة التحالف مع بيزنطية

كان عالمان يتأهبان للمجابهة ولتحمل تجربة رهيبة؛ ولكنّ عبقرية صلاح الدين السياسية ستتيح له أن يحقق أعظم نجاح دبلوماسي في حياته: فمعاهدة التحالف التي وقعها، بعيد انصراف سفراء فريديك باربروس، مع إسحق لانج الإمبراطور البيزنطي والمسيحي العريق الذي بفضله انضمت بيزنطية إلى المسلمين عشية الحملة الصليبية الثالثة التي عمت مواعظها سائر أرجاء أوربا.

حول سياسة إمبراطور بيزنطية اسحق لانج

ولنحاول أن نفهم شيئاً وسط هذا الغموض البيزنطي حوالي نهاية القرن الثاني عشر. كم من الدناءات وخِدَع أصحاب المواخير، ورجال السياسة الأخساء كانت تدار في محيط إمبراطور المشرق وحتى سريره. هذا الإمبراطور العديم الهيبة وفاقد روح الحياة. فمعلوم أن المدعو ألكسي الثاني اعتلى عرش أباطرة بيزنطية منذ السنة الثانية عشرة من عمره، وحفلت السنوات الثلاث من ملكه بمؤامرات أمه، وبثورات الخدم، وبالتطلعات الطامعة لأندرونيك كومين، الذي لم يلبث أن حل محله، ووطد نفسه لتسنم العرش عن طريق تسميم أفضل أصدقائه وباغتيال الذين يشك في ولائهم له.

ولم تبق الحياة الخاصة لهذا المجنون آثاراً مجيدة في مباذخ حياة بيزنطية. ويروي مؤرخو سيرته أنه نهب كنوز المعابد والأديرة، واغتصب العذارى المكرّسات لله. وأن شخصاً بهذا القدر من القذارة، قمين — ولا ريب — بأن ينتهي نهاية بائسة؛ فكان يعاني كوابيس الرعب في لياليه المؤرقة بذكرى ضحاياه. فلجأ إلى علوم السحر لكي تحميه من وساوسه، وشرع يستنطق الكرات العالمة وكتابات الخزف ليعرف اسم الخدين الذي يُعد العدة لاغتياله، ولما أبلغه منجّمه أن من ينشد كشف اسمه يدعى اسحق لانج، سارع إلى الأمر بسجنه وإغراقه في مياه البوسفور المرحة. ولكن اسحق أبى أن يعذّب بهذه السهولة، فبدلاً من أن يدعهم يضعونه في كيس مع حجر يُعلّق بعنقه، طعن بخنجره الشرطي القادم لتوقيفه، وراح يعدو في أزقّة بيزنطية خاضعاً لفكرة عبقرية، وهو يصرخ كالمعتوه: أيها الناس! تعالوا جميعاً لقد قتلت الشيطان، وأستطيع أن أريكم جلده. فتجمع حواليه الناس البسطاء، يشدون أزره، وعمت

صرختـه المدوية أنحاء بيزنطية فانتهز فرصة ماتمتع به من شعبية، لإثارة الفوضى والفتنة، ولم يكن الغسق قد صبغ بعد المياه المتوهجة التي تصل ما بين القارتين حتى كانت بيزنطية قد اتخذت لنفسها سيداً جديداً معلنة إمبراطوراً ذاك الذي آثر أن يتحدّى سلطان السلطة على أن يرى نفسه موضوعاً في كيسٍ مع قطط جرباء.

وانقضّت الدهماء على أندرونيك كومين الذي ألقي عليه القبض وشد إلى عمود في صحن قصره، وسملت عيناه وقطعت إحدى يديه قبل أن يربط عارياً تماماً على ظهر حمار ووجهه إلى الوراء.. وهكذا طيف في بيزنطية بالإمبراطور الذي خلعه الشعب عن عرشه. ورجم بالحجارة وقذف بالقاذورات وبقوارير الزيت المغلي. وأخيراً عُلّق من قدميه وهو في حالة الاحتضار، وتُرك بين أيدي النساء المسكونات بالشيطان؛ اللواتي انتزعن أعضاءه التناسلية ومزقن جسده بأسنانهن. ونقرأ في كتاب تاريخ قديم: لقد أكلت هذه الساقطات في خضم سَعَرِهنَّ لحم الملك التعس وتنازعن إربه وكسرن ظهر المحتضر، ولاشيء يمكن أن يصوّر قرفنا أمام مشهد فظاعة كهذه. لقد وقعت هذه الأحداث في عام ١١٨٥. وكان قد مضى سنتان على اعتلاء اسحق لانج عرش الإمبراطورية البيزنطية حينما ظهر، على حدودها المائة ألف جرماني المدججون بالسلاح، المتقدو حماسة بالسير وراء فريدريك باربروس، والذين اجتازوا أوربا من الشمال إلى الجنوب لا يحلمون إلّا بالمعارك وبكنوز الأراضي الإسلامية.

اسحق لانج ينحاز لصلاح الدين خوفاً من القوات الصليبية

وفي الوقت ذاته كان مبعوثو صلاح الدين يدخلون قصر الإمبراطور ويعرضون عليه باسم الإسلام ميثاق صداقة دائمة، ولم يتردد اسحق لانج، واختار أن ينحاز إلى صلاح الدين ليحمي إمبراطوريته خوفاً من قوات فريدريك باربروس التي كلما اقتربت من آسيا الصغرى أخذت تدب فيها الفوضى شيئاً فشيئاً. وتعهد اسحق لانج بموجب المعاهدة التي أبرمها مع فاتح القدس بالتنازل للمسلمين عن إحدى أشهر كنائس بيزنطية لتصبح جامعاً. ووعد بأن يستنزف مؤخرة جيش فريدريك باربروس، وأن يحوّل الدروبَ ما استطاع إلى ذلك سبيلاً إلى طرق مقطوعة، وأن يلجىء باربروس إلى مساومات لا تنتهي، كلما أراد أن يشتري المؤن. صحيح أنّ تحالفه لم يكن ــ ولحسن السياسة ــ إلّا تحالفاً ظاهراً علانية، وأن مساعدته

ظلت سرّية، على الأقل حتى تتوارى الجيوش الجرمانية وراء جبال أرمينيا. وكان المرغوب فيه أن يستقبل اسحق لانج نفسه بقليل من الفرح وكثير من الكلام الذي يذهب جُفاءً، فريدريك هذا، حامل الصاعقة، الذي سيعسكر في هدوء تحت أسوار بيزنطية.

سفارة صلاح الدين الاستثنائية لدى القسطنطينية

ولم يَرَ صلاح الدين بأساً في إنقاذ المظاهر. ولكي يدلل على حسن صداقته نصّ في المعاهدة على أن يعهد بكنيسة القيامة إلى الأساقفة الروم، وسمح للبيزنطيين بحُريّة دخول الأراضي المقدسة. ولقد كتب السيد ريني كروسيه (M.René Grousset) يقول: «إن مثل هذا البند كان يلبي المطالب النظرية الأبدية للسياسة البيزنطية ويسوّغ في الوقت ذاته التحالف مع أمير مسلم في أعين الأرثوذكس. وحينما وقع الطرفان بنود المعاهدة، أرسل صلاح الدين سفارة علنية إلى القسطنطينية، قوامها أمير ومؤذن وقاض وعدد من الفقهاء حاملين معهم هدايا شرعيّة: منبراً ونسخة من القرآن الكريم مزخرفة زخرفة فخمة. واحتفل في العالم الإسلامي بيوم وصول هذه السفارة إلى بيزنطية مثل احتفالهم بيوم تحرير القدس. وتجمع التجار المسلمون المقيمون في المدينة على شاطىء البوسفور وراء جنود الإمبراطور، ليستقبلوا سفارة صلاح الدين الاستثنائية ويرافقوها، وسط الابتهاج العام وعلى أنغام الموسيقى. وسارت وراء السفراء قافلة طويلة محملة بثروات أسطورية، وحينما كان الأمراء بثيابهم المزركشة الشبيهة بثياب الخلفاء، يرون الأبواب الذهبية لقصر الإمبراطور المنيف تشرع لهم، على أنغام الموسيقى ودق الأجراس في بيزنطية، كان بارون ويسّمْبَاخ مبعوث فريدريك باربروس يصل على جواده الراكض بسرعةٍ قصوى، ليطلب السماح بمرور جيش الإمبراطور الجرماني مروراً حراً عبر الإمبراطورية البيزنطية. وطلب فور وصوله مقابلة الإمبراطور. ولابد أنه تلقّى درساً مفيداً في غمرة المهرجانات واحتفالات الاستقبال. وركز المؤرخون العرب ــ أمثال بهاء الدين ــ الذين لا يرقى الشك إلى كتاباتهم على الصداقة المتنامية التي كانت ستربط بين صلاح الدين واسحق لانج.

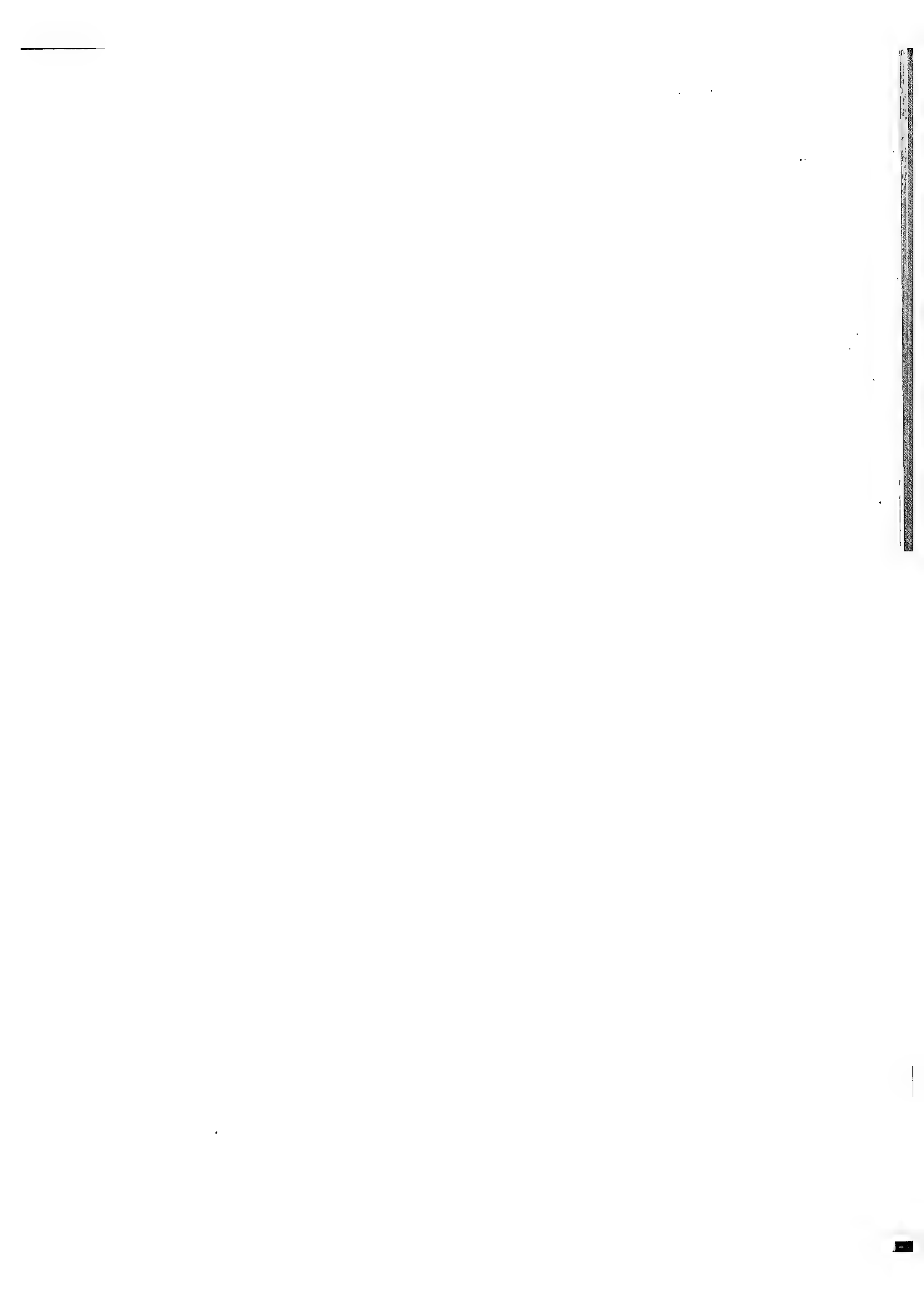
المئة ألف جرماني والمغامرة الخائبة

ومع ذلك ففي ١١ أيار (مايو) ١١٨٩ غادر راتيسبون مائة ألف جرماني، ليعيشوا

أشد المغامرات خيبةً في تاريخ وطنهم. وكان الانكليز والفرنسيون والإيطاليون يُبحرون عهد ذاك على سفن كثيرة، وتتأهب الأساطيل للإقلاع من جميع موانىء البحر الأبيض المتوسط باتجاه الأرض المقدسة. وكان صراع ــ لا رحمة فيه-ستتابع مفاجآته العديدة ــ يبدأ بين الدول الأوربية والإسلام المنتصر.

الفصل الثامن عشر

١ ، ٢ ــ لم يرد في المصادر العربية أي ذكر لرسالة فردريك باربروس إلى صلاح الدين أو لردّ صلاح الدين على فردريك باربروس .



الفصـــل التـاســع عشــر

رينو دي ساجيت وصلاحِ الدين

تساقط سلسلة حصون الفرنجة جنوبي لبنان

بين النهاية الجنوبية للبنان، وهضبة الجليل، على الجبال المهيمنة على وادي الليطاني، بنى الصليبيون سلسلة من الحصون يغطّي بعضها بعضها الآخر، وتهدد أرض أتابك دمشق وتسيطر على الطرق الساحلية المؤديّة إلى صور وصيداء.

صلاح الدين يتحفز لحصار حصن شقيف أرنون

وكان أشهر هذه الحصون وأمنعها حصن بوفور الذي يسميه المؤرخون العرب شقيف أرنون؛ وبعد سقوط القدس تحصن فيه رينو دي ساجيت منتظراً أياماً أفضل. وكان هذا الحصن مبنياً على ارتفاع ستمائة وسبعين متراً عن سطح البحر يعلو صخرة يقوم جدارها على شفير هاوية. وكان يمكن لسيد شقيف أرنون أن يتحدى أفضل المتسلقين المسلمين ما دام في قعر آباره من الماء الوشل؛ ولكن بعدما رأى رؤية العين حواليه تهاوي عدد من الحصون الشهيرة بأنها أمنع من أن تؤخذ، اعتقد بأن من السياسة أن يخادع عدوه، والأجدى له أن

يتجنب الاشتباك معه في معركة، ولكن صلاح الدين كان عام ١١٨٩ يُحضر قواتٍ عديدة يدفعها إلى أسفل حصن بوفور محتلاً كل طريق يؤدي إلى جسر العبور.

رينو دي ساجيت يقابل صلاح الدين

وقبل أن تكمل استعدادات المحاصرة طلب رينو دي ساجيت مقابلة أكرم أعداء الفرنجة وأصدقهم وأعلمهم وكان صلاح الدين يرغب في أن يستقبل بكل احترام رجلاً كامل الرجولة صادق القلب ثاقب الفكر، ودعاه إلى مائدته. وخلال الطعام، تبودلت عبارات المجاملة والتهذيب الشهيرة لدى الشرقيين والتي لها أحياناً مذاق الأفاويه.

ثقافة رينو دي ساجيت الإسلامية ومعرفته دقائق العربية

وكان رينو يعرف دقائق اللغة العربية وكنوزها من الروائع الخيالية المؤثرة. واستطاع بيسر الاستيلاء على لب صلاح الدين المتأثر دائماً بأقوال الرجال المرموقين.

ويوضح مؤرخه بهاء الدين الذي كان حاضراً المقابلة، أن الحديث لم يتطرق بين تناول الزيتون الدسم للسفوح اللبنانية والمعجنات الدمشقية المحشوة بالفستق إلا إلى صفات الشعراء من جميع الأمم، والنعم التي تغدقها الديانتان الإسلامية والمسيحية على البشر.

كان اختياراً موفقاً لمواضيع الأحاديث في ظل الأشداق الفاغرة لمجانيق حصن بوفور والمماليك المتمنطقين بالخناجر. ونادراً ماكان يصادَف في المشرق فرنجيٌّ يتقن بطلاقة التعبير بالعربية السورية. واعتزَّ صلاح الدين بمعارف ضيفه الذي استطاع ــ كما قال ــ إلحاق عالم ببلاطه لكي يلقنه ساعة يشاء مضمون الدين الإسلامي؛ ولأن السلطان شديد الورع جمّ التقوى فقد أحب كثيراً المناظرات المذهبية، وخاصة عندما تكون ممزوجة بالتهذيب.

وكما يقول بهاء الدين: «كان يسر صلاح الدين لأول مرة أن يكون محدثَهُ فرنجيٌّ واسع الثقافة آسر التصرف»[1].

خدعة رينو دي ساجيت

وفجأة جثا الكونت الحذق ــ وقد شجعه ماأحدثه في نفس صلاح الدين من انطباع

مؤاتٍ ــ على قدمي السلطان وخاطبه بقوله: «مولاي». زاعماً أنه بعد كل ما قدمه من خدمات للفرنجة لم يلاقِ إلّا خيبة الأمل، وأنه أقسم على التخلي عن قضية هذا العدد من الجاحدين البرابرة؛ ثم طلب من صلاح الدين أن يعطيه ملاذاً منعزلاً في أحد القصور القريبة من دمشق كي يستطيع أن يقضي بقية حياته مع عائلته في طمأنينة ومتابعة دراساته الأثيرة على قلبه عن القرآن. وعلى هذا الشرط أبدى استعداده لتسليمه قصر بوفور، والتمس ــ فضلاً عن ذلك ــ أن يُمنح مهلة لإحضار أسرته من صور، لأن الفرنجة سوف ينتقمون منها حالما يعلمون بأنه طلب ملجأً من صلاح الدين. ولم يكن السلطان يقوم بمساومة مخادعة، ولذا قبل بأن يستبدل القلعة المهيبة بقصر دمشقي ذي بَهْوٍ داخلي، وبغية استمرار الصداقة بين سكّان الوادي وسكان القصر، أكثر صاحبنا رينو من التردد على صلاح الدين، والموضوع كان دائماً هو هو: القرآن. ولم يكن يدري كيف يعبّر له عن بالغ غبطته وامتنانه حينما يفكر بأنه سيحيا عما قريب مع أسرته تحت سماء دمشق الساحرة.

اكتشاف المسلمين خدعة دي ساجيت وسوقه أسيراً إلى دمشق

وبينما كان صلاح الدين يعتبر نفسه الأدهى، ويَعده بكل مايريد، كان رينو يشغل رجاله سرّاً بتقوية تحصينات شقيف أرنون (بوفور)؛ ولكن المسلمين عادوا فانتبهوا إلى أن الرجل يمكر بهم، وأنهم يضيعون وقتهم في هذه اللياقات غير المعتادة؛ فأمر صلاح الدين بمراقبة الحصن عن كثب، ورغم إحساسه المسبق لم يشأ أن يخلّ بقوانين الضيافة. كان بإمكانه أن يوقف دي ساجيت الذي اعتقد أن نواياه ظلت طي الكتمان، ولذا ما فتىء يتردد على معسكر المسلمين. ورفض صلاح الدين خلافاً لرأي أمرائه أن يوقف ضيفه، فكظم غيظه، وكان يبدو كل مرة أكثر تهذيباً مما سلف. ولكن اليوم المحدد لاستسلام بوفور كان يقترب؛ وقبل الموعد بمدة قصيرة نزل رينو كعادته من الحصن ليثرثر مع صديقه حول مشاريعه المقدسة، فلاحظ أن صلاح الدين يُبدي شيئاً من الاضطراب إذ كان الأمراء يتهامسون حوله، فأسرع إلى إنهاء مقابلة لم تعد تعني شيئاً، ودهش لأنهم سمحوا له بالعودة طليقاً إلى قلعته. واعتقد أن شكوكه لم تكن في محلها، وعاد في اليوم المحدّد ليعتذر عن عدم إمكانه تسليم القلعة فوراً لأن أسرته لمّا تغادر صور، ولأن الطرق لم تكن آمنة رأى ضرورياً إرسال عدد من رجاله المسلحين ليأتوا بعائلته ويحموها خلال الرحلة؛ مستمهلاً من جديد تسعة

أشهر فبدا صلاح الدين نافد الصبر وأنذر رينو بتنفيذ تعهداته، ولإدراك الكونت أن الأمور ساءت طلب أن يسمح له بالذهاب ليأمر بفتح أبواب الموقع، ولكن السلطان الذي لم يكن مستعداً هذه المرة لترك مخاطبه يتحصن داخل الأسوار، ولا أن يدعه يخدعه ويحاربه، أرسل معه حرساً حتى الجسر المتحرك؛ ولكن حين بلوغه إياه وبعد حديث قصير مع أحد ضباطه الذي قدم لاستقباله، ولعلمه أي مصير كان ينتظره، أمر هذا الفرنجي الكبير بإنزال الجسر المتحرك وصرخ برجاله ليستحثهم على المقاومة حتى الموت. ويمنعهم من الاستسلام، واعداً إياهم بأنهم سيتلقون عما قريب نجدة من فرنجة الساحل. وحرّضهم على الاستبسال بالدفاع دونما هوادة. وحين أعيد أمام صلاح الدين قيّد رينو دي ساجيت بالسلاسل، وسيق إلى دمشق سيراً على الأقدام بين هتافات المسلمين.

كان صلاح الدين يستشيط غيظاً، لأنه ظل مسمراً أمام الحصن مدة ثلاثة أشهر طمعاً في أن يحتله دون إراقة دم رجل واحد؛ ولما أضاعه من وقت في مطارحات دينية مع رينو دي ساجيت.

ظهور غي دي لوزينيان على المسرح السياسي من جديد

وظهر غي دي لوزينيان من جديد على المسرح السياسي على رأس سبعة آلاف رجل.

وكان صلاح الدين وعد عند استسلام عسقلان بأن يطلق سراح غي دي لوزينيان، وبعض رفاقه الأسرى، خلال ثمانية أشهر، وفي الأجل المحدّد، وقبل أن يطلقوا سراح ملك القدس السابق حلّفه صلاح الدين على الانجيل بأن يتخلى عن مملكته، وبأن يعود إلى أوربا، وبألّا يشهر سيفه أبداً ضد الإسلام. فحلف؛ وحسب قول الشاعر النورماندي امبرواز، لم يكن صلاح الدين يصدّق حرفاً واحداً من كل الأيمان التي أقسمها دي لوزينيان؛ ولكنه بفضل ما تحلى به من بعد نظر سياسيّ حكيم، كان يؤثر ترك دي لوزينيان للفرنجة في حال رغبتهم بإعادة ملك شرعي غير منازع على القدس، لأن صلاح الدين لم يكن البتة يحترم مزاياه العسكرية، وكان يعلم أن غي سيء الحظ، كما يقول الشاعر المشار إليه، وأنه لم يكن في الحرب قاسياً ولا مخيفاً. فهذا المطالب بعرش القدس كان أفضل له من أيٍّ سواه، ناهيك أنه ما يزال في صور ذلك المخيف كونراد دي مونفرًا الطامع بالتاج، والشجاع الذي أمسك بزمام

أمور الفرنجة منذ أن سمح له بأن يغادر سجن طرطوس حراً. وعمل دي لوزينيان لدى مجمع للمطارنة على أن يكون في حِلٍّ من يمينه فجمع عدداً من الفرنجة المتفرقين وسار إلى صور لامتلاك المدينة، ولكن كونراد دي مونفرًا أوصد في وجهه الأبواب، وسلّمه كلمة صغيرة.قال له فيها: إنه وكيل فقط لأمراء فرنجة ماوراء البحار، وأن هؤلاء لم يفوضوه بأن يسلمه صور.

غي دي لوزينيان يتجه صوب عكا بعد طرده من أمام صور

وهكذا تكون كارثة حطين عفَّت على آثار الماضي، ولم تبق الأسرة المالكة في القدس سوى مجرد ذكرى، وأن حقاً جديداً سيولد مع إعادة احتلال الأرض المقدسة. وهذا مايفسر لنا لماذا كان المركيز دي مونفرًا يصرّح بأنه ليس مديناً بصور إلّا لنفسه؛ بانتظار تحديد الحقّ على أيدي أمراء الغرب، أعني الإمبراطور الجرماني وملكي فرنسا وانكلترا الذين ينتظر قدومهم. وحينما طُرد غي دي لوزينيان من أمام صور، قام بمعركةٍ مجازفة لإعادة احتلال عكا التي حصنها المسلمون تحصيناً جيداً، وكانت لهم فيها حامية قوية. ومع مائتي فارس من فرسان غيّوم الثاني ملك صقلية النورماندي، كانوا قد وصلوا إلى طرابلس قبله بوقت قصير، باشر دي لوزينيان أكثر المعارك جنوناً وبطولة في الحرب الصليبية كافة، سالكاً طريقاً يهيمن عليها جميعاً الأيوبيون. وكانت هذه المسيرة من صور التي طرد منها إلى عكا المنيعة ضرباً من التحدّي. «فالفرنجة ــ كما يكتب ابن الأثير في كتابه: (الكامل في التاريخ) امتدوا محاذين شريط الساحل دون أن يزايلوه لاضرباً في السهول، ولا في الصخور، ولا في الممرات، ولا الأرياف الأوسع. وكانت مراكبهم تمخر جارية على خط موازٍ لخط سيرهم، مستعدة لنجدتهم عند وقوع أقلّ حادث، أو لحملهم على ركوب البحر إذا ما اعترضتهم عقبة كأداء»[٢] وتدل هذه المسيرة بخطى الذئب في قلب الأرض المعادية فيما تدله على جرأة نادرة، وتتصف بالعظمة، ومهما تكن أخطاء غي دي لوزينيان السابقة فادحة فقد أعادته هذه المسيرة أحد كبار الفرنجة. وكثيراً ما يستشهد المسلمون بحبة الرمل التي توقف عجلة الحظ عن دورانها، وكان غي دي لوزينيان تلك الحبة التي غيرت مجرى الأحداث كما سنرى.

مسيرة دي لوزينيان وبدء الصراع من جديد

عندما علم صلاح الدين بأن النورمانديين عبروا ــ على مسافة نحو ستة عشر كيلو

متراً من عكا ــ الجسر المقام على القسيميّة أو ليونتس، وأنهم اشتبكوا مع بضعة فرسان من المسلمين المكلفين بحماية الجسر وقتلوهم، أدرك أن الحرب لم تنتهِ بعد، ولكنه لم يكن بالتأكيد يفكر بأنه خلال السنوات الخمس المتبقية من حياته عليه أن يناضل ويحشد باستمرار قوات جديدة، وأن هذه الحرب ستنمّي من استياء أمرائه الذين ما برحوا منذ عشرين سنة يقاتلون إلى جنبه، والذين نالت من معنوياتهم هذه الحرب ضد الفرنجة نتيجة لانغمارهم في هذا الجهاد الذي يجب على الدوام أن يبدأ من جديد.

كان صلاح الدين يطلع يوماً فيوماً على مسيرة غي دي لوزينيان، والتي يروي بهاء الدين المطلع جيداً على الأحداث: في ٢٦ آب (أوغسطس) ١١٨٩ توقف ملك القدس السابق في عين البصّة، الواقعة على بعد ١٢ ميلاً شمالي عكا، وعلى بعد ميلين من البحر. بينما كانت طلائعه تتمركز في الزير على بعد عشرة أميال شمالي عكا على البحر، ولم يبرح صلاح الدين أن انتقل بجيشه إلى عكا. وفي ٢٧ آب (أوغسطس) انحدر في وادي الأردن وسلك الطريق المارة بطبرية، ثم اتجه المسلمون نحو الحولة. وفي الصباح التالي بلغوا المِنْية أو خان المِنْيَة، على الشاطىء الشمالي الغربي لبحر الجليل، فبلغهم أن الفرنجة انتهوا إلى أسوار عكا. وفي ٢٩ آب وصل صلاح الدين إلى الخرّوبة على بعد خمسة أميال ونصف الميل إلى الجنوب الشرقي من عكا، حيث اتخذ موقعه وراء الفرنجة، وكانت ميمنته تستند إلى تلّي العبادية والبروة، والقلب إلى تل كيسان، وتحتل الميسرة تل الداوك، وتبلغ نهر عكا أو نهر النعمين، بحيث صار المحاصِرون محاصَرين بدورهم من الشرق والجنوب الشرقي والجنوب[٣].

المواجهة الجديدة أمام أبواب عكا

كانت عكا فيما مضى مدينة بحرية مزدهرة للغاية، ويصفها الجغرافي اليوناني ايتين دي بيزنس قائلاً: إن اليونانيين القدماء أطلقوا عليها هذا الاسم «عكا» لأنَّ هرقل سبق أن لدغته أفعى، فلم يجد الشفاء إلّا في هذا المكان الذي دعي عكا اشتقاقاً من الفعل اليوناني الذي يعني شُفِيَ، وقد كثر عدد مالكيها؛ إذ انتزعها الخليفة عمر من الروم، وأخذها بلدوين الأول ملك القدس من المسلمين. وحررها صلاح الدين بعد معركة حطين الشهيرة. وهي مبنية على ساحل البحر الأبيض المتوسط غربي سهل فسيح.. وكانت، في الحقبة التي نؤرخ لها مدينة

تجارية مزدحمة بالسكان ؛ وميناؤها المناسب للإبحار واسع الحفر عميقها . ولها سور مزدوج تسنده أبراج ضخمة من مسافة إلى أخرى ، فتجعل منه أحد أمنع المواقع في فلسطين ، وكان شكل المدينة شبه مثلّث يتّسع من الجهة الشرقية ، ويضيق من الجهة الغربية ، ومن الجنوب إلى الشمال كان ثلث المدينة مغموراً بمياه البحر ، أما الميناء المبني عام ٢٥٠ للهجرة على يد أحد سلاطين مصر ، فكان يحرسه برج يدعى برج الذّبان ، لأنهم كانوا ينظفون هناك أمعاء الذبائح ، وكانت رائحتها تجذب الذّبان ، وكان شأنه شأن أكثر الموانىء ـــ عهد ذاك ـــ يغلق بسلسلة تخفض وترفع حسب الطلب ؛ وكانت خرائب معبد قديم يزعم الفرنجة أنه شيّد تكريماً للقديس يوحنا ، بينما يذهب المسلمون إلى أنه يخص النبي صالح ، .وهو يضفي نوعاً من القداسة على هذه المدينة . وإلى الشرق كان يقوم قصر يدعى البرج الملعون ، لأنّه في ذلك الموقع ـــ كما تذهب أسطورة ظلت رائجة بعض الزمن ـــ صكت الثلاثون من فضة التي باع بها يوضاس سيده المسيح .

وكان السهل يمتدّ أربعة فراسخ ، ويحده من الجنوب جبل الكرمل الذي اشتهر بسكنى فيثاغورس فيه ، ولجوء النبي إيليا إليه ؛ ويحده من الشمال جبل شارون أو سلسلة الصوريين ، ومن الشرق آخر سفوح جبال الجليل . ويصب نهر البلعوس المسمّى نهر الناعمين في البحر قرب المدينة من الشرق .

أمام هذه المدينة ، وعلى مدى ثلاث سنوات وجّه الإسلام والمسيحية أحدهما إلى الآخر ضربات رهيبة . كانا سيتواجهان في قتالٍ وحشي حيناً ، فروسيّ آونة أخرى ، كانا سيتذابحان وهما يرسلان صيحات الشتائم ، ويتهاديان في بعض المناسبات ثلوج لبنان التي تسكّن الحميّات . كانت مراحل المعارك الضارية ستتناوب مع المشاهد اللطيفة طوال هذه الحرب بين جميع أمم الشرق ومختلف أمم الغرب .

وبدلاً من أن يواجه صلاح الدين في عكا ـــ كما كان يعتقد ـــ بضع مئات من الفرنجة المتعصبين الذين لا يقلقه عددهم وجد نفسه وجهاً لوجه مع ألفي فارس ، وثلاثين ألف راجل تقريباً . وكانت قوات فرنجية جديدة تنزل من البحر على الساحل اللبناني ، ويعبر خمسمائة مركب مضيق جبل طارق قادمة من أوربا الشمالية في أول ايلول (سبتمبر) وعليها ١٢٠٠٠ من الدانماركيين والفريزيين . وكان هؤلاء الحلفاء غير المنتظرين ـــ كما يكتب مؤرخ

فرنجي ــ قوماً أكسبهم مناخهم القاسي سمة خاصة، وقوّتهم على ضراوة القتال صفة ثلاثية: القامة العملاقة، والشجاعة الجامحة، والإيمان المتوهج. وكان يرسو أسطول آخر بقيادة أسقف كنتربري ودوق دي غيز وجاك دافين، وعليه انكليز وفرنسيون متلهفون للنزال.

وجاء حاكم تورنج وألمانه يتبعهم دوق غلدر وروبرت الثاني كونت درو، وتيبو كونت شارتر، و إيتين كونت صانسرن، وراول كونت كليرمون، وفيليب أسقف بوفي، وايرار واندري دي بريان، وغيوم كونت شالون سورسون، وجوفروا دي جوانفيل مستشار شامبانية، وغي دي دمبيار، وأنسيريك دي مونتريال، وغي دي شاتيون سورمان، وأخوه غوشيه الثالث الذي اشتهر فيما بعد باسم القديس بولس. كل فرسان ومشاة شامبانيه كانوا أمام عكا، ولا ننسى أن هذه القوات لم تكن تمثّل سوى طليعة أنفذها الغرب اللاتيني، طليعة ستتبعها عمّا قريب جيوش ملكي فرنسا وانكلترا. وكان فريدريك باربروس ما يزال زاحفاً مع جرمانييه المائة الألف.

حصار عكا وفكرة إعادة احتلال القدس

وأقنع حاكم تورنج ودوق دي غلور بعيد وصولهما، أقنعا كونراد دي مونفرًا بأن ينسى مؤقتاً خصومته مع غي دي لوزينيان وكذلك اهتماماته الوراثية، وأن ينضم بلا أية نيّة دفينة إلى الجميع لكي يُسهم صادقاً في إعادة احتلال القدس. فقبل كونراد بعدم التمسك في الوقت الحاضر بترشيح نفسه للتاج. وفي ٢٤ ايلول (سبتمبر) كان هذا الأخير بدوره أمام عكا مع هيكلييه واسبتارييه ولومبارديه وبنادقته، وعلى رأسهم أسقفا بيزة، ورافين.

ومن جهته استدعى صلاح الدين حليفيه مظفر الدين والملك المظفّر أمير حماة.

حواشي الفصل التاسع عشر

١ ــ ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٩٧ ــ ٩٨ .
٢ ــ ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٣٣ .
٣ ــ ابن شداد : النوادر السلطانية ١٠٣ ــ ١٠٥ .
٤ ــ أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٤٣ .



الفصـــل العشـــرون

ملحمة عكا

الهجوم الإسلامي الأول على الفرنجة

لقد حرر أول هجوم إسلامي قسماً من أسوار عكا جهة برج قلعة الملك حتى باب قراقوش، وبفضل هذه الثغرة في خطوط الفرنجة أمكن تقوية الحامية وتموينها. وفي ١٦ ايلول (سبتمبر) عام ١١٨٩ بدأت مع إشراقة الفجر معركة أكثر جديّة، فهجم صلاح الدين مندفعاً على رأس فرسانه مما بين النهرين، فصمد الفرنجة متحملين ثقل الصدمة بلا تراجع. وحل الظلام، والمعركة ماتزال محتدمة، مشتدة الأوار. وكانت خسائر الجانبين بالغة الفداحة — وكما يقول بهاء الدين — «كانت سوق، باعَ كل واحد فيها نفسه بالجنة. كانت الرؤوس تتساقط كالمطر الغزير. كان السلطان في كل مكان يتوثب بين صفوف العدو لعله يجد فيها نقطة ضعف، فيثير همة رجاله بالتحريض وبالقدوة التي يقدمها هو نفسه غير آبهٍ بالخطر. ولكنه رغم كل شجاعته ومساندة رجاله لم يتمكن من اختراق صفوف العدوّ»[(١)].

انتشار جيش الفرنجة بتشكيل غير قابل للاختراق

واضطر صلاح الدين في اليوم الخامس إلى الانسحاب بعض المسافة لكي يتيح الراحة

لقواته المنهكة، فانكفأ إلى التلال المحيطة بالمدينة؛ فأخذ الفرنجة بدورهم زمام المبادرة في العمليات. فانتشروا في السهل وأقاموا تشكيلاً غير قابلٍ للاختراق، فوضعوا المشاة في القلب والمجنبة والفرسان على جناحيهم.

الصدام الرهيب.. والحرب سجال

وتقدم الفرنجة ببطء ذراعاً فذراعاً، ملتصقاً بعضهم ببعض بتلاحم جعل شهود العيان من المؤرخين العرب يحسبونهم جداراً يتقدم. وأغرقت هذه الموجة الصلبة التماسك المواقع الإسلامية الصغيرة التي صادفتها؛ ولما بلغت ثقل جيش صلاح الدين نشبت مجزرة رهيبة، وعاد الخصمان مساءً كلٌّ إلى معسكره والحرب سجال،.. إلّا أن صلاح الدين أدرك ذلك اليوم أنه لا ينازل في ساحة هذه المعركة فرساناً من فرنجة سورية أو بورجوازيين قليلي الصمود أمام مماليكه العسكريين المحترفين، وإنما قوّات صدامٍ مدربة تدريباً مدهشاً، منضبطة يزيد من قوتها المثل الأعلى الديني الذي يشحن نفوسها. ولما كان الفريقان مصممين على الانتصار مهما كلف الأمر استؤنفت المعركة. وكان غي دي لوزينيان قد تلقّى إمدادات جديدة بعد أن توجه نحو عكا على رأس ٢٠٠ رجل؛ فهاهو ذا يرى تحت قيادته ٤٠٠٠ فارس و٨٠٠٠٠ راجل. وكان فرسان المسلمين أكثر، بيد أن رجّالتهم أقل.

إحدى كبريات معارك الشرق

ويوم الأربعاء ٢١ شعبان ٥٨٥ للهجرة، الموافق ٤ تشرين الأول (اكتوبر) ١١٨٩ للميلاد، وقعت إحدى أكبر المعارك التي حدثت في المشرق. فترك الفرنجة صفوفهم وانتشروا في السهل من نهر البلعوس حتى البحر، وفي اليوم التالي أحصى كلٌّ من الفريقين قتلاه، فكانت الخسائر فادحة، ونتيجة المعركة صفراً سواء بالنسبة لصلاح الدين أو غي دي لوزينيان.

الفرنجة يحكمون الطوق على عكا براً وبحراً

كان قتلى الفرنجة خمسة آلاف، وبلغ نتن رائحة الجثث من النفاذ درجة أخذ فيها الوباء بالانتشار، لكن وجود جثث الفرنجة خدمهم، لأن المسلمين ابتعدوا بمعسكرهم قليلاً نحو تل

الخرّوبة فاقدين بذلك اتصالهم بعكا، تفادياً لتلك الرائحة الطاعونية، مما عزز استراتيجياً موقف الفرنجة؛ لأنهم لم يستطيعوا حتى ذلك الوقت تطويق المدينة، على حين تمكنوا الآن أن يعزلوها تماماً، ويحاصروها برّاً وبحراً. «وباشروا حفر الخنادق، مقيمين من التراب المتخلف عن الحفر ستاراً كما لو أنه سور، وفي كل يوم كانت طلائع المسلمين تشن عليهم المعارك— ولكنهم كانوا يتفادون الاشتباك معهم خشية رجوع صلاح الدين قبل أن ينهوا نظام تحصيناتهم»(٢). كما نقرأ في كتاب الروضتين.

صلاح الدين يحاصر بدوره الفرنجة

وهكذا— وبآن معاً— غدا المسلمون والفرنجة كل منهما محاصِراً ومحاصَراً، الأولون في عكا والآخرون في المدينة الجديدة التي كانوا ينشئونها للدفاع عن أنفسهم ضد صلاح الدين، لكنما بقي هو وحده محتفظاً بحريّة الحركة. وحلّ فصل الشتاء فغدت العمليات العسكرية مستحيلة.

المجلس الحربي الإسلامي ورأي صلاح الدين بمتابعة القتال حتى النصر

في ١٣ تشرين الأول (اكتوبر) ١١٨٩ عقد صلاح الدين مجلساً حربياً بدا فيه ميّالاً لمواصلة القتال دونما هوادة، موضحاً لأمرائه وحلفائه أنه لا ينبغي البتة انتظار عودة الفصل الجميل لسحق الفرنجة الذين سيستقبلون في الربيع— كما تقول المعلومات الأكيدة— امدادات ضخمة. قائلاً:

«بسم الله والحمد لله والصلاة على نبيه محمد. اعلموا أنّ عدو الله وعدوّنا دخل ممالكنا وتجرأ على تدنيس أرض الإسلام بأقدامه. ولكننا بفضل الله وإرادته رأينا جناح النصر يلمع مرفرفاً فوقنا، ولم يبق أمامنا سوى القليل حتى يكون نصرنا حاسماً. إن الله يأمر أن نوحّد جهودنا من أجل الهجوم الأخير لطرد الكفار من ديارنا ولمحو كلّ آثارهم. تعلمون أننا لا ننتظر مدداً جديداً إلّا من الملك العادل الذي لن يلبث حتى يصل على رأس جيش جديد؛ وتعلمون كذلك أنّ كل تأخير هو في صالح الأعداء. إنهم ينتظرون إمدادات منتظمة من أوربا. ويتحينون إقلاعها حالما يمكن السفر بحراً، بعد أن قطعه فصل الشتاء. إنني

مصممٌ ــ والحالة هذه ــ على قتالهم، ومع ذلك فليقل كل منكم رأيه صريحاً في قرارنا هذا»[٣].

صلاح الدين يأخذ برأي أمرائه بإرجاء المعركة ضد الفرنجة

وواضح أن الأمراء كانوا منزعجين؛ وأنّ القوات الإسلامية المحيطة بعكا مؤلفة بأكثرها من المجنّدين الشبان العرب المتميزين بعمليات الغزو والانتقام أكثر ممّا هم مهيؤون للحملات الطويلة الأمد التي تضعضعهم؛ فالجمود أمام العدو وقضاء الفصول تحت الخيام يبعث في نفوسهم فتور الهمة، ولم يكن يجمع هذه القوات الانسجام والتجرد والجرأة والانضباط التي تسود عادة جيشاً قومياً. وكان أمراء صلاح الدين يزعمون أن خسائرهم أمام عكا أثرت في معنوياتهم؛ وتذرعوا كذلك بحاجة السلطان إلى الراحة ليستعيد صحته التي تأثرت بسنوات الحرب الأخيرة، وأن الأوبئة التي تفشت في الجيش الإسلامي بسبب تحلل الجثث، أخذت تفتك كل يوم بعدد جديد من الضحايا، ومن المناسب بالتالي انتظار وصول قوات الملك العادل الذي سيكون لحضوره وآرائه فوائد جمة في الظروف الحرجة الراهنة، وأضافوا.. كما يجب إبلاغ أمراء الشرق الآخرين الذين لم يكونوا حتى الآن أمام عكا كي يحضروا ويشاركوا في هذه الحروب المقدسة (الجهاد). وأنه بمساعدتهم يمكن الصمود أمام الفرنجة حتى لو وصلتهم الإمدادات التي ينتظرونها من الغرب اللاتيني. ورأى صلاح الدين الحصافة في رأي أمرائه، وأن الجيشين المتقابلين يعجز أي منهما عن دحر الآخر، وستكون بينهما الحرب طويلة، منهكة، ودامية. وسيحاول الفرنجة بسيطرتهم على البحر أن يخضعوا الحامية الإسلامية بالمجاعة، بينما سيكونون هم مستنزفين يحصرهم جيش صلاح الدين، فيما هم يحاصرون المدينة. وهكذا استمرّ حصار عكا الذي بدأ في ايلول (سبتمبر) ١١٨٩ حتى ١٣ تموز (يوليو) ١١٩١، معلق المصير تتنازعه الفرص واحتمالات الحظوظ لكلا الفريقين معاً.

حواشي الفصل العشرون

١ ـ ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٠٦ ـ ١١٥ .

٢ ـ انتقال معسكر المسلمين إلى تل الخروبة : جاء في كتاب الروضتين نقلاً عن العماد الأصفهاني ، قوله :

« وشكونا نتن رائحة تلك الجيف ، فحملت على العجل إلى النهر ، ليشرب من صديدها أهل الكفر . فحمل أكثر من خمسة آلاف جثة ، حملت إلى النار قبل يوم البعثة . وأشير على السلطان بالانتقال إلى الخروبة ، عند خيم الأثقال المضروبة . فسار إليها رابع رمضان ، وأمر أهل عكا بإغلاق أبوابها ، وإحكام أسبابها . فوجد الفرنج بذلك الفرج . وشرعوا في حفر خندق على معسكرهم حوالي عكا من البحر إلى البحر ، وأخرجوا ماكان في مراكبهم من آلات الحصر . وفي كل يوم يأتينا اليزكية بخبرهم ، وبما ظهر من أثرهم . والجدّ في تعميق الخندق وتتميم محتفرهم ، فكان من قضاء الله أنّا أغفلناهم ، وأمهلناهم بل أهملناهم ؛ حتى عمقوا الحفور ، ووثقوا من ترابها السور . فكانوا يخندقون ويعمقون . ويعملون من تراب الحفر حولهم سوراً . فعاد مخيمهم بلداً مستوراً معموراً . فملؤوه بالستائر ، ومنعوه من الطير الطائر ، وبنوه وأسسوه ، وستروه وترسوه . ورتبوا عليه رجالاً ، ولم يتركوا إليه لواغل مجالاً . وتركوا فيه أبواباً وفروجاً ، ليظهروا منها إذا أرادوا خروجاً . ولما فرغوا من هذا الأمر ، اشتغلوا بالحصر . وانقطعت الطريق على المسلمين إلى عكا ، وبان ضعف رأي الانتقال ، فإنّه بعدما أضحك أبكى » . (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٤٦) .

٣ ـ المجلس الحربي الذي عقده صلاح الدين ورأيه في متابعة القتال : جاء في كتاب الروضتين .

« وعند انقضاء هذه الوقعة ، وسكون ثائرتها . أمر السلطان بالثقل حتى تراجع إلى موضع يقال له الخرّوبة خشية على العسكر من آثار الوقعة ، من الوخم وهو موضع قريب من مكان الوقعة إلّا أنه أبعد عنها من المكان الذي كان نازلاً فيه بقليل وضربت له خيمة عند الثقل . وأمر اليزك أن يكون مقيماً في المكان الذي كان نازلاً فيه . واستحضر الأمراء وأرباب المشورة في سلخ الشهر ، ثم أمرهم بالإصغاء إلى كلامه ، وكنت من جملة الحاضرين ، ثم قال : بسم الله والحمد لله والصلاة على رسول الله ، اعلموا أنّ هذا عدوّ الله وعدوّنا وقد وطىء أرض الإسلام ، وقد لاحت لوائح النصرة عليه إن شاء الله تعالى ، وقد بقي من هذا الجمع اليسير ، ولابد من الاهتمام بقلعه ، والله قد أوجب علينا ذلك . وأنتم تعلمون أنّ هذه عساكرنا ليس وراءنا نجدة ننتظرها سوى الملك العادل ، وهو واصل . وهذا

العدوّ إن بقي وطال أمره إلى أن ينفتح البحر، جاءه مدد عظيم. والرأي كل الرأي عندي مناجزته، فليخبرنا كل منكم بما عنده في ذلك. وكان ذلك في ثالث عشر تشرين الثاني من الشهور الشمسية فانفصلت آراؤهم على أنّ المصلحة تأخر العسكر إلى الخروبة. وأنْ يبقى العسكر أياماً حتى يستجم من حمل السلاح، وترجع نفوسهم إليهم، فقد أخذ منهم التعب، واستولى على نفوسهم الضجر وتكليفهم أمراً على خلاف ما تحمله القوى لا تؤمن غائلته. والناس لهم خمسون يوماً تحت السلاح وفوق الخيل، والخيل قد ضجرت من عرك اللجم، وعند أخذ حظ من الراحة ترجع نفوسها إليها. ويصل الملك العادل ويشاركنا في الرأي والعمل، ونستعيد من شذ من العساكر ونجمع الرجالة ليقفوا في مقابلة الرجالة. وكان بالسلطان رحمه الله التياث مزاجي قد عراه من كثرة ما حمل على قلبه وعاناه من التعب بحمل السلاح والفكر في تلك الأيام، فوقع له ما قالوه ورآه مصلحة، فأقام يصلح مزاجه ويجمع العساكر إلى عاشر رمضان. قال: وكان لما بلغه خبر العدوّ وقصده عكا جمع الأمراء وأصحاب الرأي بمرج عيون، وشاورهم فيما يصنع. وكان رأيه رحمه الله أنْ قال المصلحة مناجزة القوم ومنعهم من النزول على البلد وإلا إنْ نزلوا جعلوا الرجالة سوراً لهم، وحفروا الخنادق، وصعب علينا الوصول إليهم، وخيف على البلد منهم. وكانت إشارة الجماعة أنهم إذا نزلوا واجتمعت العساكر قلعناهم في يوم واحد» (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٤٦).

الفصل الحادي والعشرون

مصائب الإمبراطور
فريدريك باربروس في آسيا الصغرى

صلاح الدين يقرع ناقوس الخطر

في تشرين الأول (اكتوبر) ١١٨٩ علم صلاح الدين من صاحب بريد حلب بوصول فريدريك باربروس إلى أبواب بيزنطية على رأس جيشه، فكلف أمين سرّه بهاء الدين أن يشخص إلى بغداد ليطلب من الخليفة العباسي إمدادات فورية، ويشرح له ما يتهدد المسلمين من خطر لو توصل الفرنجة إلى طرد المسلمين من شواطىء البحر المتوسط، مذكراً إياه كذلك بأن الممتلكات الفرنجية في الشرق ــ حتى بعد المعارك الظافرة في الأرض المقدسة ــ ما تزال ذات شأن، إذ تمتد حدودها من مياه البحر غرباً حتى المجرى الأعلى لنهر الخابور في الشمال الشرقي من الجزيرة العليا. وبتعبير آخر، فإن هذه الحدود تمتد، كما يقول ر. تومان في كتابه «تاريخ سورية» من الشرق إلى الغرب على خطٍ يترك حلب جنوباً ويستدير حولها حتى المجرى الأدنى لنهر قويق؛ ومن هناك يغطي أفاميا ويتجه إلى قمم جبال النصيرية الشاهقة حيث تتاخم طرابلس سلسلة جبال مصياف موطن شيخ الجبل الرهيب حتى سفوح لبنان المشرفة على البقاع ونهر الأردن والصحراء العربية التي كانت أطرافها فيما مضى خاضعة لقلعة الكرك الشهيرة. وكانت هذه الأرض البالغة الاتساع تنقسم إلى أربع دول مستقلة: كونتية

الرها، على الفرات التي تجاورها من الشمال مملكتا السلجوقيين وأرمينيا وإمارة انطاكية الممتدة من الأمانوس حتى الجنوب على مسافة بضعة فراسخ من اللاذقية؛ ومملكة القدس التي كانت ما تزال تشمل قسماً من لبنان، ومن الساحل حتى يافا. وكان صلاح الدين يسمح لنفسه بأن يذكر الخليفة الغافل بأن المسلمين من سكان المدن كانوا يتفاهمون مع الفرنجة. ولا يمكن بالتالي إثارة الحماسة العسكرية في أوساطهم. وأنهم بعد كل شيء غير آبهين لو دفعوا الضريبة إلى أمير عربي أو تركي بدلاً من أن تدفع إلى الكونت الفرنجي. وكان هذا ما يثير قلق وزير بيت مال الخليفة ويشكل نقطة بالغة الحساسية لدى سلطة بغداد هي نقطة الواردات. وفي الوقت ذاته، كان صلاح الدين يستنهض همم الأتابكة الكبار في شمالي سورية الذين هم مكمن قوة السلطة الخليفية، بل يمكن تشبيههم بسادة البلاط لدى آخر الميروفنجيين. فاستقلالهم كان كاملاً شرط أن يعترفوا بالسيادة الفخرية للخليفة.

وصول الإمدادات الإسلامية إلى عكا

ومنذ آخر شباط ١١٩٠ كان يصل إلى أمام عكا كل من عماد الدين زنكي أمير سنجار، وابن عمه سنجار شاه سيد الجزيرة العليا، وعلاء الدين خُرّم شاه ابن ملك الموصل تساندهم قوات جديدة أغلبها من المتطوعة، وعدد من «رجال البلاط» الذين كانوا يتقاضون مرتباً، ويعيشون كما يلاحظ الطبري في حولياته على ما يأخذونه من الأعداء، ولم يكونوا من الجند البيروقراطيين الذين يُمضون أوقاتهم وهم يغنون على أنغام القيثارة. أما الخليفة العباسي فوعد بأن يدرس القضايا السياسية التي يفرضها طلب صلاح الدين إليه بالتدخل وانعكاساتها الدّولية. صحيح أنه كان الأقوى، ولكن مكاتبه كانت مثله قوية؛ فلم يكن بمستطاعه إعطاء شيء بلا موافقة الوزير (أناهُ الثانية) الذي لم يكن في مقدوره أن يغضب عماله من الموظفين المحليين، كأن يغضب القضاة الذين كان من سلطتهم وحدهم أن يصدّقوا شهادة الشهود لإثبات أهلة الشهر ولاسيما شهر رمضان، وهم الذين يفصلون في الدعاوى المدنية والجزائية حسب النصوص الشرعية، وبلا موافقة سيد البريد الذي كان يراقب الجميع حتى الخليفة نفسه. وكان الحفاظ على البريد كما يقول فردينان لوت في كتابه «نهاية العالم القديم» الخدمة العامة الحقيقية القائمة فعلاً، إذ كانت طرق الدولة الإسلامية في أواخر القرن الثاني عشر تخترق البلاد من العاصمة إلى الأقاليم مع مراكز تبديل الخيول والبغال والجمال

بحيث يستطيع سعاة البريد أن يتوقفوا فيها ليستريحوا ويبدلوا ركائبهم. كان البريد هو الذي يراقب الطرق وأمنها وصيانتها حتى أصبح ــ شأن نظيره في الإمبراطورية البيزنطية ــ سمعَ الخليفة وعظمته السافرة والسرّية معاً.

البيزنطيون والجرمان وجهاً لوجه

ومنذ أن ظهر الجرمانيون أمام حدود الإمبراطورية البيزنطية وجّه اسحق لانج قوّات إلى جميع الأقاليم التي سيعبرونها.

وفي ١٦ آب (اغسطس) ١١٨٩ واجه فريدريك باربروس أولى مصائبه، فحينما وصل إلى فيليبوبوليس وجد المدينة خالية من سكانها، وتلقى رسالة من الإمبراطور الذي بعد أن رفض الاعتراف له بلقب الإمبراطور الروماني منعه من متابعة رحلته قبل أن يسلّم بيزنطية رهائن، وأن يعده بإعطائه نصْف الفتوحات التي سيحققها في سورية مقابل الخدمات التي أدّاها له خلال عبوره آسية الصغرى. وبانتظار جواب فريدريك باربروس كان إمبراطور بيزنطية يعتذر عن أسْرِ السفراء الجرمانيين القادمين حديثاً إلى بيزنطية، وكيلا يغرق في المجاملات الفائقة الحد التي نقلوها عن بلاط خليفة بغداد كان بطريرك الروم يجرؤ في جلساته الخاصة أن ينعت اللاتين بـ «الكلاب» ويعد الذين يستطيعون أن ينحوهم بين الغسق والشفق، بآلاف الغفرانات دفعة واحدة، وتجاه هذا القدر من الوقاحة كان رد فعل فريدريك باربروس قاسياً جداً، فأغرق منطقة فيليبوبوليس بالنار والدم، وهدّد حتى بالزحف على بيزنطية ليديل من كبريائها ويكشف خداعها. وتنبه لهذا الوعيد ملوك صغار صربيون وبلغار يعرضون عليه مساعدتهم وعصاباتهم السلّابة، لأنهم كانوا راغبين في انتهاز سانح الفرصة ليصفوا حساباتهم مع الروم في قضايا شخصية، تفجيراً لبُؤَر الأحقاد البلقانية الكامنة تحت الرماد. وفي ١٦ تشرين الثاني (نوفمبر) كان الإمبراطور الجرماني يطلب من ابنه هنري الرابع أن يجمع على عجل أسطولاً في الموانىء الإيطالية المهمة، وأن يحصل من البابا على دعوته لتوجيه الحملة الصليبية ضد الروم. ثم تابع تقدمه فاجتاح أدرنة واستولى على جميع المراكز الواقعة بين بحر إيجة وبون اوكسان، وكان سيجرب حظه مع بيزنطية لو لم يقم إمبراطورها أخيراً ــ وقد تملكه الذعر ــ بالموافقة على كل مطالبيه، واعداً إياه بتأمين تموين جيشه كل آن، وأن ينقله إلى آسية؛ ويدله على أفضل الطرق. وتأكيداً لوعوده هذه وجه

إليه رهائن مختارين لصفاتهم وأطلق سراح سفراء فريدريك باربروس وغمرهم بهداياه. ولأنه كان على عجلةٍ من أمره ليرى الجرمانيين يغادرون بلاده طلب إلى فريدريك باربروس أن يخفَّ لعبور آسية لمفاجأة صلاح الدين بسرعة المسير.

إمبراطور الجرمان يقرر قضاء فصل الشتاء في تراقية

ولكن فريدريك باربروس أجاب بأن تحديد تاريخ انطلاقه يعود إليه وحده، وأنه قرر انتظار عودة الفصل الجميل لمتابعة زحفه؛ وردَّ على مبعوث إمبراطور بيزنطية، الذي كان يعده بعددٍ من السفن يفوق ما يحتاج إليه لعبور البوسفور، قل لسيدك: «إن الغالب هو الذي يملي شروطه على المغلوب. فقد استوليت على تراقية وسأتصرف فيها على هواي، لقد تقدّم موسم الأمطار، وسأقضي فيها فصل الشتاء مع جيشي. وسأعاقب سيّدك لأنه أخّر رحلتي عن سوء نيّة. ولكن إذا كان يرغب حقاً في أن أعفو عنه فليعدّ لي في عيد الفصح من السنة القادمة ما يلزم من المراكب للعبور إلى آسية».

وتمركز فريدريك باربروس في تراقية وطلب مُساهمات حربية ضخمة ومؤناً لمحاربيه، واختار أدرنة ليعيش فيها مع بلاطه، وعيّن لقواته مواقعها الشتوية، وتسلّم من بيزنطية مائة وأربعاً وعشرين رهينة، وأظهر أنّه مكتفٍ بها. وطفق اسحق لانج يتملّق هذا الذي كم تمنى أن يخدعه عما قريب، وبانتظار ذلك وافق بحماسة على الشروط الأكثر إذلالاً التي فرضها عليه فريدريك باربروس. صحيح أن الرومي سيعرف كيف ينتقم من البربري، ولكنه في الوقت الراهن لم يكن ليستطيع أن يظهر بغضه ولا أن يمتنع عن تسمينه وإغنائه...

مراسلات لانج صلاح الدين وعبور باربروس آسيا الصغرى

وبعد أن عاش فريدريك باربروس عيشة رخيّة خلال الشتاء عبر إلى آسية الصغرى مع جيشه بين ٢١ و ٣٠ آذار (مارس) ١١٩٠ فاخترق الأناضول البيزنطي على خط وَتَر القوس. وعلم صلاح الدين من الروم بما كان يجري في آسية الصغرى لأن اسحق لانج لم يشأ أن يعتقد حليفه بأنه لم يفِ بأيٍ من وعوده التي قطعها على نفسه، أي أن يلحق الضرر بالألمان؛ ولكي يبرر سلوكه بعث إليه برسالة احتفظ لنا بها بهاء الدين وهي مكتوبة على رقٍ مطوي من ناحية العَرْض ومقسوم إلى عمودين في الأول منهما النص الأصلي وفي الثاني الترجمة

العربية . وفي الفراغ ما بين العمودين خاتم إمبراطور بيزنطية مطبوعاً ليس بالشمع بل بنوع من الوسام الذهبي يحمل رسم الإمبراطور ويزن خمسة عشر ديناراً ذهباً . وهذه ترجمتها : « اسحق لانج المؤمن بالمسيح الذي هو الله ، المتوّج من الله ، الظافر ، الدائم العظمة البالغ القوّة الذي لا يُهزم ، إمبراطور الروم ، إلى النبيل جداً سلطان مصر صلاح الدين .

سلام وصداقة

تلقيت الكتاب المرسل من عظمتك إلى عظمتي ومنه علمت بموت سفيري (هذا السفير الذي وقع معاهدة الصداقة بين صلاح الدين واسحق لانج كان قد مات في سورية على طريق العودة) وآلمني أن يلقى نهايته في أرضٍ غريبة . وضروري الآن أن ترسل إليّ جثته ومتاعه لأسلمها إلى أسرته . أما فيما يتعلق بالشائعات المغرضة التي انتشرت حول الجرمان الذين عبروا إمبراطوريتي ، والتي لابدّ أنها بلغتك فلم تفاجئني لأن أعدائي يسرّهم أن يروجوا الأراجيف التي تخدم نواياهم ، ولكن إذا أردت أن تعلم الحقيقة فسيسرّك أن أحيطك علماً أن هذه الشعوب ذاقت هي من الآلام أكثر مما أذاقته رعاياي ، لقد خسروا مالاً وخيولاً ورجالاً . بعضهم مات من المرض والبؤس ، وبعضهم قتله جنودي ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا . وقليلٌ منه استطاعوا الإفلات من القوات التي نشرتها في أقاليمي مزودةً بأمر استنزافهم ، لقد بلغ الجرمان من الضعف حداً يصعب معه أن يدخلوا ممالكك ، وإذا وصلوا إليها فسيكونون منهكين لدرجة لن يكونوا معها قادرين على إلحاق الأذى بك وعلى مساعدة إخوانهم فرنجة المشرق . ولا أدري لم يبدو أنك تنسى صداقتنا فلا تطلعني على نواياك ومشاريعك ؟ »[1] .

مخاوف صلاح الدين على حدود سورية الشمالية

لم تكفِ تأكيدات الرومي لتهدئة مخاوف صلاح الدين ، لأن حدوده الشمالية كانت خالية من القوى الاحتياطية مادامت كل قواته وآلياته الجاهزة تقف أمام عكا أو هي في الطريق إليها . كان يتطلع قلقاً نحو حلب ، مفتاح سورية الشمالية ، ولكنّ رسالة اسحق لانج تؤكد أن تقدم الجرمان في آسيا الصغرى كان يصطدم يومياً بعقبات جديدة .

باربروس يدخل قونية عاصمة السلجوقيين

وقوبل فريدريك باربروس الذي كان يعتقد بأنه وجد في شخص قلج أرسلان حليفاً

موثوقاً به، بعداء متنام فيما هو يوغل تقدماً في الأناضول السلجوقي فأبناء سلطان قونية لم يؤيدوا سياسة والدهم بل أخذوا بالاتفاق مع زعماء القبائل التركانية يقطعون الدروب ويضايقون الجرمان ليخرجوهم عن الطرق السالكة، ولإحداث الفراغ أمامهم، حتى إن الابن الأكبر قطب الدين ملكشاه الثاني نهد يتحدّى فريدريك باربروس أمام قونية التي أصبحت منذ عام ١٠٧٤ عاصمة الإمبراطورية السلجوقية بعدما كانت فارسية، ومقدونية وررمانية. ورغم أن الكثرة سحقته ولكن هازميه لم يجنوا من انتصارهم أدنى فائدة ببلاد كل مافيها حتى الحَصَى معادٍ لهم. ومع ذلك ارتاحوا كثيراً إلى انفتاح أبواب قونية في وجوههم يمضوا فيها بضعة أيام تخففاً من العناء بعد ملحمتهم العاثرة الحظ عبر آسية الصغرى، وهذا الاحتلال اللاهث للقرى المقفرة التي لم يكونوا ليجدوا فيها حزمة علف لخيولهم أو قبضة طحين لرجالهم.

مصائب الجرمان في آسيا الصغرى

أجل كان اسحق لانج ينتم لفيليبوبوليس وللإهانات التي اضطر إلى اجترارها بمرارة، حينما كان هو الأضعف، وهاهو ذا الآن مسرور بمصائب فريدريك باربروس. ترى كيف انقلب هذا الجيش اللجب البالغ الثقة في نفسه؟ والذي كان يتصرف أنّى حلّ كما لو أنّه في أراضٍ مفتتحة، لقد نفدت مؤنه، تلازمه المجاعة في حله وترحاله ...، تلك المجاعة الرهيبة، في أرض مجهولة، والتي غدت يوماً عن يوم أكثر استعصاءً وأبلغ إماتة. وطفق الناس يتحدثون في مواخير بيزنطية عن اضطرار الصليبيين الجرمانيين إلى ذبح خيولهم وأكلها. فهل أصبح هؤلاء الفرسان الشجعان، فرسان فريدريك باربروس أشباحاً؟!.. أولئك الذين انطلقوا من بعيد، بعيد جداً ليحتلوا القدس. وعبروا أوربا من الشمال إلى الجنوب، والذين شرعوا بعد خمسة أيام في قونية للراحة وإعادة التجمع يتأهبون للانحدار نحو السهوب السورية! ولم يكن لهم من خيارٍ سوى طريقين جدّ سالكين. وإذا ألقينا نظرة على الخريطة رأينا أنه بدءاً من خليج أدنة حتى العراق العربي تتوضّع التضاريس على هيئة قوس ضخمة السلسلة، مكونة من جبال طوروس ومرتفعات كردستان التي ينفتح فيها معبران أحدهما إلى الجنوب، وهو الطريق الملكية القديمة من همدان إلى بابل، والثاني إلى الشمال عبر ثغرة الفرات الأعلى.

وعبر فريدريك باربروس في ٣٠ أيار (مايو) جبال طوروس قرب لارنده، متجهاً نحو

الحدود التركية ــ الأرمنية في الطوروس الكيليكي، ومن هناك انحدر عبر الإمارة الأرمنية ــ آنذاك ــ من إيزوريا الشرقية حتى سلوقية الواقعة تقريباً بمواجهة انطاكية. ومن راتيسبون على الدانوب إلى سلوقية قطع فريدريك باربروس مع مائة ألف جرماني أكثرهم مشاة مسافة تقارب ألفاً وخمسمائة كيلو متر، مات منهم في الطريق ستون ألفاً، تُركت عظامهم في أوربا المذعورة من أقصاها إلى أدناها شاهداً على تلك الحملة الصليبية الثالثة التي ساقت هذا العدد من الرجال من تخوم بافاريا حتى سلطنة قونية.

الجرمان على أبواب سورية والخطر الكبير

وكان عدد الناجين أربعين ألفاً حين أخذوا أهبتهم للعبور إلى سورية، ولكنّ عددهم مايزال كبيراً بحيث لم يستقبل بغير اكتراث نبأ ظهورهم من جهة انطاكية. كان اقتراب مثل هذه الكتلة من الرجال ــ كما يلاحظ السيد ريني غروسيه ــ يشكل أرهب خطر واجهه الإسلام السوري قبل الغزو المغولي.

نهاية باربروس المأساوية وانزياح شبح الخطر الداهم

لكن حادثاً صغيراً واحداً غيّر مجرى الأحداث التاريخية التي هي آنذاك قيد الإعداد بقضائه على حياة الإمبراطور الجرماني. كان فريدريك باربروس قبل اتجاهه نحو أضنة وانطاكية متوقفاً للاستراحة على ضفاف نهر الشليف بعد مسيرة طويلة، يتصبب جسمه عرقاً، فاستحمّ وغرق وهكذا انتهت حياة ذلك الجندي الشجاع الذي قاد وهو في السبعين من عمره جيشاً ضخماً ليعيد احتلال فلسطين. وأشاعت تلك النهاية غير المنتظرة الفرح في كل ديار الإسلام، وأثلجَ قلب صلاح الدين خاصة لهذا النبأ. ونقل ابن الأثير لنا صدى ذلك قائلا: « لو لم يظهر الله نعمته للمسلمين بإهلاكه ملك الجرمان ساعة كان يتأهب لعبور الحدود السورية لكنا كتبنا اليوم أنَّ مصر وسورية كانتا فيما مضى ملكاً للإسلام. »[٢].

هلهلة الجيش الجرماني وبلوغ فلوله صور

واسندت قيادة القوات الجرمانية لفردريك دي صواب ابن الهوهنزوفن الباسل ولكن نافخ الروح في الصليبية لم يعد هناك ليؤجج حميّة رجاله بالقدوة الشخصية. وليس ببعيد أن

يكون الجرمان الذين شهدوا تساقط هذا العدد الهائل من رفاقهم قد فتّ في عضدهم تلك المسيرات المنهكة؛ ومهما يكن من أمر فقد همدت فيه روح الشجاعة، وتحرر الجند من الانضباط غير المهادن الذي ما انفك يفرضه عليهم فريدريك باربروس الذي صمد بصلابة حيال الألم رغم سنه المتقدمة. فلم يعودوا — كما كانوا — يتلقون بفخر أوامر رؤسائهم، وأشار المؤرخون العرب أنفسهم إلى أنّ التغيّرات المعنوية التي حلّت بالفرنجة أثّرت في انسجام وقوّة هذه الكتلة من الرجال الذين كان يدعمهم عهد ذاك مثل أعلى عجيب. فكتب العماد «هؤلاء الجرمان المخيفون جداً سابقاً كانوا قد سقطوا إلى أسفل سافلين..» ويضيف قائلاً: «كانوا يستسلمون بيسر حتى إنهم لم يعودوا يساوون ثمناً يذكر في سوق النخاسة»[٣] فأصبح جيش راتيسبون أشبه ما يكون بجماعةٍ يتركها قادتها شيئاً فشيئاً لمصيرها.. فأين هي الآن حماسات الأيام الماضية؟ من لم يزل يتذكر قول القديس برنار الذي كم تمنى لو نظم الإكليروس الصليبية كانتصار للثوب الكهنوتي؟ ووصل جيش فريدريك الراحل أمام انطاكية في حالة بالغة السوء، وقد أصيب بالصميم بخيبة أمل.

وزيادة في مصائبه حلّ به وباء الطاعون، وأرهقته مشاقّ عبور الحدود السورية. واستقبل أمير انطاكية فريدريك دي صواب العاثر الحظ بحفاوة غامراً إياه بصاخب عبارات الصداقة، لكن زعمت بعض الألسنة الشريرة أنه كم ودَّ الاستيلاء على الكنز الحربي الذي كان الجرمان يحملونه معهم، ولو واتته الفرصة لخنق بيديه فريدريك دي صواب المتعطش للقتال في الأرض المقدسة.

ووضع أمير انطاكية أسطولاً تحت تصرف الجيش الجرماني، وأخيراً حينما وصلوا إلى صور، خفَّ كونراد دي مونفرّا لاستقبالهم وقيادتهم إلى معسكر عكا، ولم يكن بقي من هذا الجيش المؤلف من ١٠٠٠٠٠ رجل سوى ٧٠٠٠ — ٨٠٠٠ مشاة و ٧٠٠ خيالة.

تأسيس تنظيم الفرسان الاسبتاريين التوتونيين

ولما وصلوا إلى عكا أراد بضعة سادة من مدينتي بريم ولوبيك — وقد أخذتهم الشفقة على مواطنيهم المرضى والجرحى — أن يخففوا من آلامهم فقطعوا أشرعة المركب الذي أقلهم إلى الأرض المقدسة واستعملوها خيمة ضخمة استقبلوا فيها المرضى. وانضم إليهم أربعون سيداً

ألمانياً آخرون وأسسوا لرجالهم مستشفى في قلب المخيم الفرنجي؛ وصفّق لغيرة هؤلاء الاسبتار الأتقياء غي دي لوزينيان وبطريرك القدس والأحبار والأمراء الصليبيون الحاضرون. وطلبوا من الدوق فريدريك دي صواب أن يكتب لأخيه هنري دي صواب ملك جرمانيا ليطلب من البابا سلستين الثالث أن يكرّس غيرة هؤلاء الذين أقاموا المستشفى. فقدّم هنري الطلب، وصدر عن البابا مرسوم مؤرخ في ١٢ شباط (فبراير) ١١٩١ بتأسيس التنظيم الجديد تحت اسم الاخوة الاسبتاريين التوتونيين لسيدة صهيون، وهذا هو أصل التنظيم العسكري للفرسان التوتونيين. وفرض عليهم البابا نظام القديس أوغستين والأنظمة الخاصة بالقديس يوحنا. أمّا الانضباط العسكري فكان انضباط الهيكليين. وقبل أن يلبسوا الرداء (المعطف الأبيض) كان عليهم أن يثبتوا أنهم من أصل نبيل.

تقرير حاكم سميساط الأرمني لصلاح الدين عن الجيش الجرماني

وعلم صلاح الدين أن جيش فريدريك دي صواب غادر انطاكية، ولم تكن تقارير حكام المناطق الحدودية ــ على الإطلاق ــ مطمئنة، فأحدها ــ وقد حفظه لنا بهاء الدين ــ يبيّن لنا في أية حال وصل الجرمانيون إلى سورية، وقد حملته الأوساط السياسية الإسلامية على محمل الجد أو المناصرة للإسلام. إنه تقرير حاكم أرمنيّ لمنطقة سميساط. وإليكموه: «رسالة من غاثوغيكوس قائد قلعة الروم إلى مولانا وملكنا صلاح الدين السلطان المعظّم الذي رفع لواء العدالة والإحسان، حامي الإيمان صلاح الدنيا والدين أمير الإسلام والمسلمين أدام الله سعادته، وزاد عظمته وحفظ حياته وليتوّج آماله أخيراً بالمجد السماوي. سلام وطاعة.

بعدما غادر فريدريك باربروس مملكته غزا امبراطورية بيزنطية، ولم يرحل عنها إلّا بعد أن خضع إمبراطورها للشروط التي فرضها عليه، وقدم له ابنه وأخاه وأشهر قادة بلاطه رهائن، كما حمله على دفع خمسين وزنة من الذهب ومثلها من الفضّة، وتجهيز مراكب للإبحار إلى آسيا، ولم يطلق سراح الرهائن إلا بعد أن وصل إلى أراضي قلج أرسلان. وفي الأيام الثلاثة الأولى قدّمت لهم قبائل تركمانية خيولاً وأبقاراً وخرافاً ومؤناً أخرى، ولكن حبهم الغنيمة جعلهم يسرعون من كل مكان، وشجرت الحرب ما بين تلك القبائل وملك الجرمان. فأنهك طوال ثلاثة وثلاثين يوماً. وحينما اقترب من قونية، جمع قطب الدين ملك شاه الثاني ابن قلج أرسلان قوّاتٍ وبدأ ينازله؛ لكنه هُزم وتعقبه فريدريك باربروس الذي خيّم أمام قونية وهدّد

بمهاجمة المدينة . -فاحتكم قطب الدين ملك شاه الثاني ثانية للسلاح فأصابته المصيبة ذاتها وارتكب الملك الجرماني مجزرة رهيبة ودخل قونية شاهراً سيفه . وعرض كل السكان على السيف ، وأمضى خمسة أيام في هذا الموقع ، فطلب قلج أرسلان خلالها حياته وحريته مقابل الاستسلام . وحصل على ذلك . وسلّم عشرين من أمرائه رهائن ، وأقنع سلطان قونية فريدريك باربروس بأن يسلك طريق طارس ، وقبل أن يجتاز الأعداء حدود أرمينيا الصغرى ، قرر ابن لاون مختاراً أو مكرهاً أن يرسل إليه مملوكه الحاكم وغيره من القادة آمراً إياهم سراً أن يجعلوا الألمان ــ إذا أمكن ــ يسلكون طريق ممالك قلج أرسلان . ولكن حينما جاء هؤلاء السفراء للقيام بمهمتهم ، علموا بأن الأمور تقررت على نحو مختلف تماماً ؛ لأن فريدريك باربروس تقدم على رأس قواته في كيليكية ، وكان يستريح على شاطىء أحد الأنهر ؛ وهناك تناول الطعام ونام . وعندما استيقظ أراد أن يستحمّ في هذه المياه ولكن ماكاد يخرج حتى سبب له البرد ــ بمشيئة الله ــ مرضاً مات منه بعد بضعة أيام .

بعد هذا الحادث هرب سفراء ملك أرمينيا من الجيش وجاؤوا يخبرون ملك أرمينيا بوفاة فريدريك باربروس . عندئذٍ أوصد هذا الأخير باب القلعة على نفسه وقرر الدفاع ، لكن ابن ملك الألمان أمر بإعادة السفراء إلى معسكره ، وأعلمهم بأن والده لم يقم بهذه الرحلة إلّا ليحج إلى المدينة المقدسة ، وأنه بدوره تولّى القيادة وليس لديه أي هدف آخر . وهو ، بعد أن تحمل كل هذه الآلام ، لن يغفر لملك أرمينيا ، وسيستولي على ممالكه إن أقام بوجهه العقبات ، ولكنه سيعامله كصديق إذا سمح له صادقاً بالمرور ؛ وبالمؤن . وأكرهت هذه التهديدات ملك أرمينيا على توقيع معاهدة تحالف مع ملك الجرمان .

أخيراً عليّ أن أخبرك بأن هذا الأخير يقود جيشاً كبير العدد وحينما استعرض قواته وجد أنه ما يزال لديه اثنان وأربعون ألفاً من الفرسان ، ومن المشاة عدد هو من الضخامة بحيث يستحيل تحديده . إنهم أنواع مختلفة من البشر تحتويهم قاعدة من الانضباط بالغة الصرامة حتى لتوصف بالفظاعة . فمن أجل أقل هفوة يقتل المحارب دون أن يحميه أي شيء من العقاب . واتهم أحدُ ضباطهم بتجاوز الحدود في معاقبة أحد خدمه ، وأنه مذنب باقتراف القسوة البالغة فحكم عليه القُسس بالإعدام وأعدم فعلاً . هؤلاء الرجال يمتنعون عن أيّة لَذّة ، وإذا مارسها أحدهم تحاشاه الآخرون كمجرم ، ويفرضون عليه كفّارة . وهم يسلكون هذا

السلوك تحت تأثير الألم الذي أصابهم بفقدهم بيت المقدس. ومؤكد أن بعضهم نذروا ألّا يرتدوا منذ زمنٍ بعيد إلّا لباس الحرب؛ وإن يكن الزعماء يستنكرون هذه الغيرة المبالغ فيها. إن صبرهم على المتاعب والآلام والأشغال يفوق التصوّر. هذا ما أكتبه إليك عن هؤلاء القوم وسأطلعك ــ فيما بعد بمشيئة الله ــ على ما سأطلع عليه من جديد»[٤]. وبتسلم صلاح الدين هذا التقرير، يدرك المرء أنه لم يكن البتة متفائلاً. ومؤكد لو علم بأنه لن يصل أمام عكا سوى بضعة آلاف من الرجال المرهقين، لابتسم لتأثر حليفه البعيد، ولما كان هو نفسه أخاف أمراءَه خلال مجلس الحرب الذي عقده بعد اطلاعه على هذه الرسالة للتشاور في النهج الذي يجدر اتباعه.

حواشي الفصل الحادي والعشرون

١ ـ رسالة امبراطور الروم إلى صلاح الدين:

قال العماد: «ووصل من ملك قسطنطينية كتاب يتضمن استعطافاً واستسعافاً. ويذكر تمكينه من إقامة الجمعة في جامع المسلمين بقسطنطينية والخطبة فيه. وإنّه مستمر على المودّة، راغب في المحبة. ويعتذر عن عبور الملك الألماني، وإنه قد فجع في طريقه بالأماني. ونال من الشدّة، ونقص العدّة ما أضعفه وأوهاه، وانه لا يصل إلى بلادكم فينتفع بنفسه أو ينفع، ويكون مصرعه هناك ولا يرجع. ويموت بما به كاده، وإنه قد بلغ في أذاه اجتهاده. ويطلب رسولاً يدرك به من السلطان سولاً. فأجيب في ذلك إلى مراده، ووقع الاعتداد بما ذكره من اعتاده».

وقال القاضي ابن شدّاد: «كان بين السلطان وبين ملك قسطنطينية مراسلة ومكاتبة، وكان وصل منه رسول إلى الباب الكريم السلطاني بمرج عيون سنة خمس وثمانين في رجب في جواب رسول كان أنفذه السلطان بعد تقرير القواعد وإقامة قانون الخطبة في جامع قسطنطينية فمضى الرسول، وأقام الخطبة ولقي باحترام عظيم وإكرام زائد. وكان قد أنفذ معه في المركب الخطيب والمنبر، وجمعاً من المؤذنين والقراء. وكان يوم دخولهم إلى قسطنطينية يوماً عظيماً من أيام الإسلام شاهده جمع كبير من التجار ورقي الخطيب المنبر، واجتمع إليه المسلمون المقيمون بها والتجار، وأقام الدعوة الإسلامية العباسية، ثم عاد فعاد معه هذا الرسول يخبر بانتظام الحال في ذلك. فأقام مدّة. ولقد شاهدته يبلغ الرسالة ومعه ترجمان يترجم عنه وهو شيخ من أحسن ما يفرض أن يكون من صور المشايخ وعليه زيهم الذي يختص بهم ومعه كتاب وتذكرة، والكتاب مختوم بذهب». (أبو شامة: كتاب الروضتين ص ١٥٩ ـ ١٦٠).

وجاء في كتاب النوادر السلطانية لابن شداد:

رسالة امبراطور الروم إلى صلاح الدين حول عبور ملك الألمان بجيشه بلاده في طريقه إلى بلاد الشام:

من ايساكيوس الملك المؤمن بالمسيح الإله، المتوج من الله المنصور العالي أبداً، أفعقوس المدبر من الله القاهر الذي لا يغلب، ضابط الروم بذاته انكليوس، إلى النسيب سلطان مصر صلاح الدين:

هذه هي ديباجة الكتاب، وأما ما فسر من الكتاب فهو كما يلي:

المحبة والمودة، وقد وصل خط نسبتك الذي أنفذت إلى ملكي وقرأناه وعلمنا منه أن رسولنا توفي. وحزنا حيث إنه توفي في بلد غريب، وما قدر أن يتم كل ما رسم له ملكي، وأمره أن يتحدث مع نسبتك ويقول في حضرتك، ولابد لنسبتك أن تهتم إنفاذ رسول إلى ملكي ليعرف ملكي ما بعثت إليك مع رسولي المتوفى. وأما القماش الذي خلفه ووجد بعد موته ينفذ إلى ملكي لنعطيه أولاده وأقاربه. وما أظن أنه سمع نسبتك أخباراً ردية. وأنه قد سار في بلاد الألمان، وما هو عجب فإن الأعداء يرجفون بأشياء كذب على قدر أغراضهم، ولو تشتهي أن تسمع الحق فإنهم قد تأذوا وتعبوا أكثر مما آذوا فلاحي بلادي، وقد خسروا كثيراً من المال والدواب والرحل والرجال، ومات منهم كثير وقتلوا وتلفوا وبالشدة قد تخلصوا من أيدي أجناد بلادي، وقد ضعفوا بحيث أنهم لا يصلون إلى بلادك، وإن وصلوا كانوا ضعافاً بعد شدة كثيرة، لا يقدرون ينفعون جنسهم ولا يضرون نسبتك. وبعد ذلك كله العجب كيف قد نسيت الذي بيني وبينك؟ وكيف ما عرفت للملكي شيئاً من المقاصد والمهمات؟ ما ربح ملكي من محبتك إلا عداوة الفرنج وجنسهم، ولا بد لنسبتك، كما قد كتبت للملكي في كتابك الذي قد أنفذت إلينا من إنفاذ رسول حتى يعرفني جميع ما قد كتبت إليك في القديم من الحديث ويكون ذلك بأسرع ما يمكن، ولا تحمل على قلبك من مجيء الأعداء الذين قد سمعت بهم، فإن إدبارهم على قدر نيتهم وآرائهم. (ابن شداد: النوادر السلطانية ص ١٣٢ ـــ ١٣٣).

٢ ـــ ابن الأثير: الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٥٠.

٣ ـــ جاء في كتاب الروضتين لأبي شامة تقريراً عن الحالة التي تردى إليها الجيش الألماني بعد وفاة قائده الملك فردريك باربروس غرقاً، وجلوس ابنه مكانه، ومسيرته إلى الأرض المقدسة على سمت انطاكية، وتواتر الأخبار عن ضعف قواته...، والتدابير التي اتخذها صلاح الدين لحماية الثغور الشمالية:

«وساروا على سمت انطاكية في فرق ثلاث، كأنهم من المرض قد نبشوا من أجداث. وأكثرهم حملة عصيّ وركاب حمير، وكلٌّ بالأرض التي يسلكها غير خبير. فتبرم بهم صاحب انطاكية، وثقلت عليه وطأتهم المفاجية، وحسن لهم طريق بلاد حلب، فلم يروا لهم في ذلك الصوب من أرب. وطلب منه الملك قلعة انطاكية لينقل إليها ماله وخزائنه وأثقاله، فأخلاها له، وسلّمها إليه طمعاً في ماله، وأموال رجاله. وكان على ما حدسه، فإنّه لم يعد إليها، واستولى الإبرنس بانطاكية عليها. وجاءت فرقة منهم ليلاً إلى حصن بغراس، وظنوا أنه في أيدي أجناسهم الأنجاس. ففتح والي القلعة الباب، وأخرج الأصحاب، وتسلم تلك الأموال بأحمالها، والصناديق بأقفالها، وأسر منهم وقتل كثير، وخرج بعد ذلك أهل حلب وجندها إلى طرقهم، وفرقوا بين فرقهم؛ والتقطوهم من الخمر والغياض، وكان الواحد يستأسر منهم ثلاثة، ولا يرى من رفقائهم إغاثة. فهانت الألمانية بعد تلك المهابة في الأنفس، وباعوهم في الأسواق بالثمن الأبخس. ولما تكامل وصول السالمين إلى انطاكية، سلكوا إلى طريق طرابلس جبلة واللاذقية، فخرج عليهم رجالها فقتلوا منهم وأسروا فما وصلوا إلى طرابلس إلّا في خف، ولم يصف ممن جاء مع الملك غير ألف. وجاؤوا إلى النازلين على عكا فغرقوا في لجهم، وخمدوا في وهجهم، ثم هلكوا على عكا بعد انقضاء مدّة، وانقضاء شدّة. بتاريخ ثاني عشر ذي الحجة سنة ست وثمانين».

وقال القاضي ابن شدّاد: «مرض ولد ملك الألمان الذي قام مقامه مرضاً عظيماً، وأقام بموضع يسمى التينات من بلاد لافون، وأقام معه خمسة وعشرون فارساً وأربعون داوياً. وجهز عسكره نحو أنطاكية حتى يقطعوا

الطريق ، ورتبهم ثلاث فرق لكثرتهم ؛ ثم إنّ الفرقة الأولى اجتازت تحت قلعة بغراس ومقدّمها كند عظيم عندهم ، وإنّ عسكر بغراس مع قلته أخذ منهم مائتي رجل نهباً وقهراً. وكتبوا يخبرون عنهم بالضعف العظيم ، والمرض الشديد ، وقلة الخيل والظهر والعدد والآلات . ولما اتصل هذا الخبر بالنوّاب في البلاد الإسلامية ، أنفذوا إليهم عسكراً يكشفون أخبارهم ، فوقع العسكر على جمع عظيم ، قد خرجوا لطلب العلوفة ، فأغاروا عليهم وقتلوا وأسروا زهاء خمسمائة نفس . ولقد حضرت من يخبر السلطان عنهم ويقول هم عدد كثير لكنهم ضعفاء قليلو الخيل والعدة وأكثر ثقلهم على حمير وخيل ضعيفة . قال : ولقد وقفت على جسر يعبرون عليه لاعتبرهم ، فعبر منهم جمع عظيم ، ما وجدت مع واحد منهم طارقة ولا رمحاً إلا النادر ، فسألتهم عن ذلك ، فقالوا : أقمنا بمرج وخم أياماً ، وقلت أزوادنا وأحطابنا ، فأوقدنا معظم عددنا ، ومات منا خلق عظيم ، واحتجنا إلى الخيل فذبحناها وأكلناها . ومات الكند الذي وصل إلى أنطاكية وطمع لافون فيهم ، حتى عزم على أخذ مال الملك لمرضه وضعفه وقلة جمعه الذي تأخر معه . ولم تزل أخبارهم تتواتر بالضعف والمرض . قال : ولما تحقق السلطان وصول ملك الألمان إلى بلاد لافون وقربه من البلاد الإسلامية ، جمع أمراء دولته وأرباب الآراء ، وشاورهم فيما يصنع ، فاتفق الرأي على أن العسكر يسير بعضه إلى البلاد المتاخمة لطريق عسكر العدوّ الواصل ، وأن يقيم هو رحمه الله على منازلة العدوّ المقابل بباقي العسكر المنصور . فكان أوّل من سار صاحب منبج ناصر الدين بن تقي الدين ، ثم عز الدين بن المقدّم صاحب كفر طاب وبارزين وغيرهما ، ثم مجد الدين صاحب شيزر ، ثم الياروقية من جملة عسكر حلب . وسار إلى دمشق ولده الأفضل لمرض عرض له . وكذا بدر الدين شحنة دمشق . ثم سار الملك الظاهر إلى حلب لإيالة الطريق وكشف الأخبار وحفظ ما يليه من البلاد . وسار بعده الملك المظفر لحفظ ما يليه من البلاد وتدبير أمر العدوّ والمجتاز » . (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٥٦ ـــ ١٥٧) .

٤ ـــ صورة كتاب الكاغيكوس الأرمني

ولقد وصل إلى السلطان ـــ رحمه الله ـــ كتاب من الكاغيكوس ، وهو مقدّم الأرمن ، وهو صاحب قلعة الروم التي على طرف الفرات . (هذه ترجمته) .

« كتاب الداعي المخلص الكاغيكوس : مما أطالع به علوم مولانا ومالكنا السلطان الناصر جامع كلمة الإيمان ، رافع علم العدل والإحسان ، صلاح الدنيا والدين ، سلطان الإسلام والمسلمين ، أدام الله إقباله ، وضاعف جلاله ، وصان مهجته وكماله ، وبلّغه نهاية آماله ، بعظمته وجلاله : من أمر ملك الألمان وما جرى له عند ظهوره ، وذلك : أنه أول ما خرج من دياره ، ودخل بلاد الهَنْكر غَصْباً ، وغصب ملك المنكر بالإذعان والدخول تحت طاعته ، وأخذ من ماله ورجاله ما اختار ، ثم إنه دخل أرضَ مقدّم الروم ، وفتح البلاد ، ونهبها ، وأقام بها وأخلاها ، وأحوج ملك الروم إلى أن أطاعه ، وأخذ رهائنه : ولده وأخاه وأربعين نفراً من خلصائه ، وأخذ منه خمسين قنطاراً ذهباً وخمسين قنطاراً فضة ، وثياب أطلس مبلغاً عظيماً ، واغتصب المراكب ، وعاد بها إلى هذا الجانب ، وصحبته الرهائن إلى أن دخل حدود بلاد الملك قليج أرسلان ، وردَّ الرهائن ، وبقي سائراً ثلاثة أيام ، وتركان الأوج يلقونه بالأغنام والأبقار والخيل والبضائع ، فتداخلهم الطمع ، وجمعوا جميعاً من جميع البلاد ، ووقع القتال بين التركان وبينه ، وضايقوه ثلاثة وثلاثين يوماً وهو سائر ولما قرب من قونية جمع قطب الدين ولد قليج أرسلان العساكر وقصده وضرب معه مصافاً عظيماً ، فظفر به ملك الألمان ، وكسره كسرةً عظيمة ، وسار حتى أشرف على قونية ، فخرج إليه

جموع عظيمة من المسلمين، فردهم مكسورين، وهاجم قونية بالسيف، وقتل منها عالماً عظيماً من المسلمين والفرس، وأقام بها خمسة أيام، فطلب قليج أرسلان منه الأمان، فأمنه الملك، واستقرَّ بينهم قاعدة أكيدة، وأخذ منه الملك رهائن، وعشرين من أكابر دولته، وأشار على الملك أن يجعل طريقه على طرسوس والمصيصة، ففعل، وقبل منه. وقبل وصوله إلى هذه البلاد نفذ كتابه ورسوله يشرح حاله وأين قصده، وما لقيه في طريقه، وأنه لابد مجتاز هذه الديار اختياراً أو كرهاً، فاقتضى الحال إنفاذ المملوك حاتم، وصحبته ما سأل، ومعه من الخواص جماعةً للقاء الملك في جواب كتابه. وكانت الوصية معهم أن يحرِّفوه على بلاد قِليج أرسلان إن أمكن، فلما اجتمعوا بالملك الكبير وأعادوا عليه الجواب، وعرفوا الأموال، أبى الانحراف، ثم كثر عليه العساكر والجموع، ونزل على شطِّ بعض الأنهار، فأكل خبزاً ونام ساعة، وانتبه، فتاقت نفسه إلى الاستحمام في الماء البارد، فمكث أياماً قلائل ومات. وأما لافون (ابن لاون) فكان سائراً يلقى الملك، فلما جرى هذا المجرى، هرب الرسل من العسكر، وتقدموا إليه، وأخبروه في الحال، فدخل في حرب حصونه واحتمى هناك.

وأما ابن الملك فكان أبوه منذ توجه إلى قصد هذه الديار نصب ولده الذي معه عوضه واستقرت القاعدة وبلغه هرب رسل ابن لاون فأنفذ واستعطفهم وأحضرهم وقال: إن أبي كان شيخاً كبيراً وماقصده هذه الديار إلا لأجل حج بيت المقدس، وأنا الذي دبرت الملك وعانيت المشاق في هذه الطريق فمن أطاعني وإلا قصدت دياره.

واستعطف ابن لاون واقتضى الحال الاجتماع ضرورة وبالجملة فهو في عدد كثير.

ولقد عرض عسكره فكان اثنين وأربعين مجفجفاً وأما الرجالة فما يحصى عددهم، وهم أجناس متفاوتة على قصد عظيم وحد في أمرهم وسياسة هائلة حتى أن من جنى منهم جناية فليس له جزاء إلا أن يذبح مثل الشاة.

ولقد بلغهم عن بعض أكابرهم أنه جني على غلام له وجاوز الحد في ضربه، فاجتمعت القسوس للحكم فاقتضى الحال والحكم العام ذبحه، وشفع إلى الملك منهم خلق عظيم. فلم يلتفت إلى ذلك وذبحه وقد حرموا الملاذ على أنفسهم حتى إن من بلغهم عنه بلوغ لذة هجروه وعزروه كل ذلك كان حزناً على البيت المقدس.

ولقد صح عن جمع منهم أنهم هجروا الثياب مدة طويلة، وحرموا ما حل ولم يلبسوا إلّا الحديد، حتى أنكر عليهم الأكابر ذلك، وهم من الصبر على الشقاء والذل والتعب في حال عظيم. طالع المملوك بالحال وما يتجدد بعدُ يطالع به إن شاء الله تعالى.».

هذا كتاب الكاغيكوس ومعنى هذا اللفظ الخليفة ـــ، واسمه بركري كور ابن باسيل. (ابن شداد ـــ النوادر السلطانية ص ١٢٤ ـــ ١٢٦).

ولقد أرسل صلاح الدين رسالة إلى الديوان العزيز حول قرب وصول ملك الألمان بجيشه، والدعوة التي أطلقها للجهاد فريضة على كل مسلم، لإبعاد هذا الخطر القادم؛ وهي بقلم العماد الأصفهاني:

وقد وصل الخبر بالداهية الدهياء، والغمة الغماء، والنكبة النكباء، والشدة الدهماء، والليلة الليلاء، وهي أن ملك الألمان، ومعه ملوك الفرنجية وحشودها وقوامصها وكنودها، وأحزاب الشيطان وجنودها، وألوية اللأواء وبنودها وصل جاراً على السماء ذيول قتامه، مجرياً في الأرض سيول لهامه، ثائراً بأطلابه لطلاب ثاره، سائراً بخيله ورجله كالسيل إلى قراره.

وانه في عصائب صلبان في عصبيتها متصلبة، وأسراح سراحين على سرح الإسلام متوثبة، وأنه في مئين الألوف الألآف للمنون، وأقطاب الإعطاب الدائرة لدوائر سوئها رحى الحرب الزبون، وقد أوقدوا للشر شراراً، وأضرموا للشرك الداعي إلى النار ناراً، فإن حسرتهم على (قمامتهم) دائمة، وقيامتهم قائمة، والموت يدعوهم إلى المقبرة التي يدعونها، والآجال تلبيهم لمناياهم التي يدعونها. وكان خبر وصوله متداولاً على ألسنة الأراجيف، وتشيعه أعداء الله من قبل للترهيب والتخويف. واستعدت العساكر الإسلامية للتوجه إلى بلاد الروم في الربيع ليقع التساعد مع عساكرها على دفع تلك الجموع باتفاق الجميع، وانتُظر ورود خبر صحيح، ويقين بأمر صريح، حتى إذا صح الخبر سار العسكر ثم انقطعت الأخبار، وتمادى الانتظار، ومضت شهور الربيع آذار ونيسان وأيار.

وكانت كتب سلطان الروم قليج أرسلان وأولاده، ورسلهم متواصلة بما ينبىء عن التعاضد، ويبني أمر الوفاء والوفاق على التعاون والتعاقد، وهم بإنهاء ما يصح عندهم واعدون، ويزعمون أنهم في رد الواردين وإردائهم مساعدون. فأخلف ذلك الوعد وضيع ذلك العهد، ووصلت كتبهم بغتة في هذا الأوان بما تأخر به الخبر عن العيان.

وقالوا: إنهم قد توسطوا بلاد الإسلام، وإنهم على قصد الشام، ثم ورد الخبر بأنهم صالحوهم وصانعوهم وأخلوا لهم الطريق وواعدوهم، ووسعوا لهم في المضايق، وسعوا في أمن طرقهم من الطوارق، وهذا حادث كارثة وباعث فاجىء فاجع لأهل الحمية في الدين باعث، وناكب لعقود العقول في تعاظم ضرورة، وتفاقم خطره ناكث.

وقد تعين الجهاد على كل مسلم، وما في الوجود مؤمن يكون له هذا الملم غير مؤلم، والاهتمام بدفعه من أفرض المهام وأهم الفروض، والخادم منفرد في حمل عبء هذا الفادح الباهظ بالنهوض وهو واثق بأن بركات الدار العزيزة تدركه ولا تتركه، وأن الذي يستبعد من النصر القريب يتسق ويتسع به سلكه ومسلكه إن شاء الله تعالى. (العماد الأصفهاني الفتح القسي: ٣٩٧ ــ ٣٩٨).

الفصـــل الثـانـي والعشـــرون

صراع الشرق والغرب أمام أسوار عكا[1]

معسكر المسلمين أمام عكا

من سورية على امتداد أطرافها قدم الباعة، ليتمركزوا في المعسكر الإسلامي الذي لم يكن أقل اتساعاً ولا أدنى أهميّةً من المعسكر الفرنجي، ويجب أن نورد هنا ما كتبه مؤلف عربي هو ابن الأثير، بهذا الصدد: «في وسط المعسكر، كانت ساحة واسعة فيها مائة وأربعون دكّان بيطار. ولاحظت أن مطبخاً واحداً كان يحتوي على ثمانية وعشرين قِدراً ضخمة يتسع كلٌّ منها لنعجة كاملة. وأحصيت بنفسي عدد الدكاكين المسجّلة لدى مفتش السوق، وعددت منها حتى سبعة آلاف. ونلاحظ أن هذه الدكاكين لا تشبه دكاكيننا في المدن. فواحدة من التي في المعسكر قد تساوي مائة من دكاكيننا. كانت كلها محشوّة جداً بالبضائع، وقد سمعت أنه لما غيّر صلاح الدين مكان معسكره وانتقل إلى تلّ الخرّوبة، ومع قصر تلك المسافة تكلف بائع سمن واحد سبعين ديناراً ذهبياً للانتقال. أما سوق الملابس القديمة منها والجديدة فشيء يفوق حد التصور. كان في المعسكر أكثر من ألف حوض استحمام يقوم على الخدمة فيها زنوج، كل اثنين اثنين أو ثلاثة ثلاثة، كانت الأحواض من الخزف ويحيطونها بالأسيجة والحصُر كيلا يُرى المستحمون من الخارج. كان الاستحمام بدرهم».

ياله من معسكر سعيد هذا الذي يستطيع فيه الإنسان أن يستحمّ ويتدلّك ويتعطّر بعد المعركة. وبالمقابل، كان الفرنجة منشغلين خلال أوقات فراغهم الإجبارية أن يدعموا تحصيناتهم تحت أسوار المدينة التي يحاصرونها. وقد أتاح لهم تأخر وصول صلاح الدين إلى الخرّوبة أن يكسبوا بعض الأرض، وأن يشددوا قبضتهم، فركزوا أكثر قوتهم شرق البرج الملعون حتى البحر، فبنوا في هذه الجهة ثلاثة أبراج أعلى من السور يتسع كل منها، لخمسمائة رجل موزعين على ثلاثة طوابق. في أحد هذا الطوابق كانت الكباش المخصصة لاختراق التحصينات، وزود الثاني بمجانيق ضخمة تعمل بدقة على حبال ونوابض حجارة كبيرة وأقواساً ضخمة يستخدمها رماتها كما تستخدم المدفعية الآن. وكانوا يرمون بها بقضبان حديدية محمّاة حتى الاحمرار وغير ذلك من القذائف.

العلاقات بين المسلمين والفرنجة فترة وقف القتال

ولكن مع توقف الجيشين عن القتال بعد معركة ٤ تشرين الأول (اكتوبر) ١١٨٩، قامت شيئاً فشيئاً علاقات حسن جوار بين المسلمين والفرنجة، وكانت تقام ميادين الطراد بين المعسكرين العدوين، حيث كان بعضهم يتحدّى بعضهم الآخر برماح مرفوعة عالياً.

وكان الأمراء المسلمون والقادة الفرنجة في آنٍ معاً يحتفون بالمنتصر في هذه المعارك الأنيقة ويتبادل الفريقان الأحاديث ويغنون ويرقصون، بمثل الصدق الذي كان يسودهم حينما يبقر بعضهم بطون بعضهم الآخر[٢].

كونراد دي مونفرّا يستأنف الأعمال الحربية بحراً

وعاد الربيع. هذا الربيع اللبناني الذي يبتدىء في شهر آذار (مارس) في ضوء عذب غسلته الأمطار الأخيرة؛ ومع مجيء الطقس الجيد بدا سهل عكا أكثر اتساعاً بحيث تنتصب سفوح جبال الجليل بصورة أشد وضوحاً تحت سماء مدهشة. واستأنف كونراد دي مونفرّا المدافع الباسل عن صور العمليات الحربية، فهاجم بخمسين مركباً معدة لنقل الرجال والمؤن أسطولاً مصرياً أتى مدداً للحامية الإسلامية في عكا؛ وتحولت هذه المعركة لصالح المسلمين الذين استولوا على عددٍ من السفن الفرنجية، وأغرقوا الكثير منها.

الفرنجة يهاجمون المسلمين في سهل عكا

وفي هذا الوقت من حزيران (يونيو) ١١٩٠ تلقّى صلاح الدين رسالة غاثو غيفوس قائد قلعة الروم الذي ينبئه ــ كما قلنا ــ بوصول صليبيي فريدريك باربروس. وبما أن صلاح الدين أرسل قسماً من قواته إلى الشمال ليمنع عليه طريق حلب على الأقل، انتهزها الفرنجة فرصة ليهاجموا في سهل عكا قائد ميمنة المسلمين الملك العادل؛ وكان يمكن أن يصاب بأذى لو لم يحدث الجوع أثره في المعسكر الفرنجي.

الزنكيون يشاركون الأيوبيين الجهاد ضد الفرنجة

وكانت الإمدادات تتدفق على المعسكرين، إذ وصل عماد الدين زنكي في حزيران (يونيو) ١١٩٠، وتبعه بعد قليل سنجار شاه، وعلاء الدين خرّم شاه وزين الدين الذين كانوا عائدين من شمال سورية، حيث تمكنوا من قطع طريق حلب على قوات فريدريك دي صواب؛ وهكذا انضم الأتابكة الزنكيون أخيراً إلى الجهاد ناسين مؤقتاً ما كان بينهم وبين صلاح الدين من عداء.

صلاح الدين يستنجد عبثاً سلطان المغرب

وفي بحثه عن نقاط ارتكاز جديدة للإسلام المناضل الذي لم يكن يمكن لأي أحد فيه أن يبدو غير مكترث لهذه المعركة الضخمة ضد الفرنجة، أرسل صلاح الدين سفيراً إلى مراكش لطلب المدد من السلطان الموحّدي أبي يوسف يعقوب المنصور. واستقبلت هذه السفارة في مراكش في ١٨ كانون الثاني (يناير) ١١٩١، وعبثاً طلبت من السلطان المغربي إرسال أسطول لينازع الأسطول الإيطالي السيادة على البحر المتوسط. وقد كتب صلاح الدين: «على المغرب الإسلامي أن يساعد المسلمين أكثر مما يساعد الغرب المسيحي المسيحيين»[٣].

وصول إمدادات جديدة للفرنجة وسيطرتهم على البحر

وكان هنري دي تروا كونت شمبانية ينزل عند الفرنجة مع عشرة آلاف رجل في ٢٧ تموز (يوليو) ١١٩٠، ومثله تيبو دي بلوا، وإيتين دي سانسير وجان دي بونتييني، وراؤول دي

كلير مونت وبرنار دي سان فاليري وإيرار دي شاسني ، وروبير دي بوف ، وآلان دي فونتناي وغوتييه دارزيليير وغي دي شاتودان وجان دارسيس الخ . . » لقد وصلوا في الوقت المناسب ، لأن الفرنجة المرهقين جوعاً كانوا على وشك التفاوض مع صلاح الدين ، وقد جعلت هذه الإمدادات إضافة إلى إمدادات فريدريك دي صواب الفرنجة يضيقون الحصار على عكا ، التي كانت حاميتها بقيادة قائدين باسلين : حاكم المدينة بهاء الدين قراقوش ، والكردي حسام الدين أبي الهيجا . وشدد الحصار على المدينة من جهة البر ، بينما كانت سابقاً تتصل بقوات صلاح الدين التي كانت بدورها تحاصر الفرنجة الذين يحاصرون عكا .

وأعادت المراكب الإيطالية التي أقلّت الكونت دي شمبانية وقواته المبادرة في البحر إلى أيدي الفرنجة .

اتصال المسلمين بالمدينة المحاصرة

وعمد السلطان للاتصال بالمدنية المحاصرة بوساطة سبّاحين ماهرين كانوا يمرقون تحت السفن العدوة السادّة منفذ الميناء ، وكذلك بوساطة حمام الزاجل الذي استعمل لأول مرة أمام عكا لأغراض حربية ، لنقل الأوامر والأخبار ، تلك الأخبار التي لم تكن مُطَمْئِنَة لصلاح الدين ، فالمؤن كادت تنفد في عكا . وكل ما استطاع السلطان إيصاله إلى المحاصرين مركب فيه أربعمئة كيس من القمح والحمّص . وصغار جاموس البقاع السوداء ، والبصل والجبن والخراف ذات الألية العريضة المدهنة التي يحبها جداً العارفون من أهالي الصحراء .

والخدعة التي استعملها في هذه المسألة كانت بدائية ، ولكنها نجحت نجاحاً باهراً . لقد رفع على صارية سفينته علم الصليبيين وألبس البحّارة لباس الفرنجة ، وكانوا غير مُلْتحين لأنهم كانوا من المسيحيين المتعاونين .

فريدريك دي صواب والمعركة الفاشلة

وثارت ثائرة فريدريك دي صواب الذي وصل منذ قليل مع بقايا جيشه أي سبعة آلاف راجل من المائة الألف الذين غادروا راتيسبون وأنحى باللائمة على البارونات المتمركزين أمام عكا لجمودهم وما انصرفوا إليه من ألعاب ، وكانت رغبته عارمة في القتال ، تغتلي في عروقه

الحماسة فهاجم المماليك الذين تركهم صلاح الدين على التلال المجاورة، ولكن هذه المعركة لم تنته لصالحه.

تحركات الفرنجة وصدامهم مع المسلمين جنوبي عكا

كان الجميع يرون أن حصار عكا قد طال أكثر مما ينبغي فالحاجة والأوبئة الرهيبة تحت هذا المناخ الشديد الحرارة تنهك الجيش الفرنجي، الذي أخذت معنوياته تنهار. وكف القادة عن محاولة الحفاظ على روح القتال لدى رجالهم؛ لأن هؤلاء باتوا يحلمون خصوصاً بالأغذية التي قد يجدونها في معسكر الأعداء. وليس بميتة جميلة تحملهم إلى الخلد. ولما أدركت النّبالة الفرنجية أن هذا الوضع لا يمكن أن يستمر حتى أمطار الشتاء، قررت فتح ممر لها براً، والذهاب للتمون من جهة حيفا مهما كلف الأمر. وقد بدت لها الفرصة مؤاتية إذ علمت أن صلاح الدين سقط مريض الحمى، وعليه أن يلزم خيمته.

وفي ١٣ تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٩٠ تحرك الجيش الفرنجي مع انبلاج الفجر، وكان الرجال من الالتصاق أحدهم بالآخر بحيث كانوا يؤلفون جداراً صفيقاً ينطلق منه بَرَدٌ من السهام، تتقدمهم الراية الكبرى للصليبية، محمولة على عربة في قلب الجيش وكان الفرنجة يتبعون في سيرهم ضفة نهر البلعوس؛ ولكون صلاح الدين لا يستطيع اعتلاء صهوة جواده فقد أمر بأن يحمل على محفّة حتى تل الخرّوبة حيث كان يرى تحركات الأعداء، ويوجه قواته حسب الظروف. تقدم الجيش الفرنجي من الشمال إلى الجنوب من جوار تل العبادية حتى الداعوق. ومن الداعوق إلى تل الكردانة؛ ونبع نهر الناعمين الذي لم يكن سوى المستنقع الصغير المسمى بصمّة الكردانة إلى الشرق من تلك البلدة وفي رأس الماء فيما يدعى اليوم عيون البص على بعد ستة أميال جنوبي عكا حدث الصدام الرهيب؛ وبعد ثلاثة أيام من المعارك الضارية أسقط في يد الفرنجة فلم يتمكنوا من اختراق صفوف المسلمين. وبكى صلاح الدين حرقة وألماً إذ لم يكن يستطيع الوقوف، بله قدرته على أن يكون وسط رجاله في المعمعة ومشاركتهم مخاطر القتال كما يقول بهاء الدين فأمر أولاده الذين كانوا يسهرون على راحته بأن يشاركوا في المعركة قائلاً لهم: «إن واجبهم يقتضي أن يكونوا قدوة للمسلمين، هذه القدوة التي سيكونها هو ذاته لولا مرضه. وأضاف إن على أولاده أن يتذكروا على الدوام واجبهم بأن يكونوا في المواقع الأكثر تعرضاً للأخطار»(٤).

نكوص الفرنجة على أعقابهم ومعركة جسر الداعوق الدامية

صحيح أن أياً من الفريقين المتحاربين لم يحرز في أية لحظة نجاحاً حاسماً، ولكن يمكن القول إن الفرنجة هُزموا ماداموا قد اضطروا إلى النكوص على أعقابهم بعد ما تحملوا معركة دامية جديدة قرب جسر الداعوق دون أن يُبادوا، ولكن سقط قتلى من الفرنجة والمسلمين من الكثرة بحيث عمَّ نتن رائحة الجثث كل المنطقة.

حسن معاملة صلاح الدين أسرى الفرنجة

يقول المؤرخون العرب: إنه حينما عرض الأسرى على صلاح الدين رأى بينهم شيخاً طاعناً في السن فسأله من أي بلادٍ هو، فأجاب: إن بلادي بعيدة للغاية حتى إنك لتحتاج إلى عدة أشهر لتصل إليها. فقال له صلاح الدين: مادام الأمر كذلك: فما الذي حملك على الحضور إلى هذه البلاد لتقاتلني؟ فأجاب الشيخ الفرنجي: ماجئت إلّا طمعاً في الحج إلى الأرض المقدسة. فأمر صلاح الدين بإطلاق سراحه قائلاً له: اذهب وتمم الحج الذي عزمت عليه فأنت حرّ. ثم اذهب لقضاء ما تبقّى من أيام عمرك بين أهلك. وأوصل إلى أولادك هذه العلامات على إحساني. ودفع إليه عدداً من الهدايا وحصاناً ينقله إلى معسكر الفرنجة[٥]

ولم تكن معاملة صلاح الدين لسائر الأسرى أقل أريحية من هذه المعاملة، فقد كان بينهم قائد القوات الفرنسية وخازنها، فآواهما في خيمة مجاورة لخيمته وعاملهما كضيفين قبل أن يرسلهما إلى دمشق. وطلب إليه أحد صغار أولاده أن يسمح له بقطع رؤوس بعض أسرى الفرنجة، معتقداً بذلك أنه يثبت جدارته بدينه، فأجابه صلاح الدين: معاذ الله أن أسمح بفظاعة لا جدوى وراءها. لا أريد أن يتعوّد أولادي أن يتخذوا من إراقة الدم الإنساني لعبةً لهم. وهم لا يعرفون قيمة الدم الإنساني ماداموا لم يدركوا بعد الفرق بين المسلم وغير المسلم[٦].

وكان أحد جنوده قد اختطف طفلاً عمره ثلاثة أشهر من يدي والدته، فبحث صلاح الدين عن الطفل وأعاده إلى أمه[٧].

مصاعب المسلمين والفرنجة أمام أسوار عكا

قلنا: إن أمراء صلاح الدين بدؤوا يتعبون من البقاء الدائم على صهوات جيادهم، وكان رجالهم يتذمرون من ضآلة الغنائم التي يحصلون عليها جرَّاء هذه الحملة العسكرية، أمام عكا. وعاد الشتاء فأصبحت أية عملية حربية مستحيلة. ومن جديد اشتدت الفاقة في معسكر الفرنجة، فكان كيس القمح يساوي ستة وتسعين ديناراً صورياً، ولم يكن هذا المبلغ ميسوراً للجميع دفعه، ورغم هذا الثمن الباهظ نفد مخزون القمح، وشرع الفرنجة يذبحون جيادهم ليأكلوا. وحينما أتوا على الجياد كلها طفقوا يغلون سروج الجلد والجلود العتيقة التي كانت تباع بسعر غالٍ جداً.

فشل الصليبية الألمانية

وكانت الأوبئة تتلو الأوبئة فصار يموت مئتا رجل يومياً من المرض والحرمان. فابن فريدريك باربروس الذي عانى الكثير من الصعاب ليصل بجيشه أمام عكا مات في ٢٠ كانون الثاني (يناير) ١١٩١ متأثراً بحمّى خبيثة، ولم ينج من الألمان سوى ثلة ضئيلة العدد في تلك المذبحة التي هلك فيها حوالي مائة ألف رجل على الطريق الطويلة من رايتسبون إلى عكا، فغادرت هذه الأماكن الموحشة منكفئة في طريق العودة إلى بلادها. وهكذا فشلت الصليبية الألمانية.

تنازع الفرنجة على ملكية القدس

من جهة ثانية، كانت مصاعب جديدة تبرز بين أهم قادة الفرنجة: من سيكون ملك القدس؟ غي دي لوزينيان أو كونراد دي مونفرًا؟ كان قسم من الجيش يميل إلى الأول، ملك القدس، وانحاز شطرغيره إلى الثاني، مركيز صور. وكان النزاع، بعد المجاعة والطاعون يستقر في مخيم الفرنجة. من سيكون ملك القدس؟ وغدت هذه القضية همّ البارونات الذين كانوا يزجون أوقات فراغهم في وزن فُرص كل من المرشحين اللذين لم يعد في مستطاعهما أن يرى أحدهما الآخر، وكانا يحيكان الشبكة البالغة التعقيد لتدابيرهما المتعلقة بالمملكة الشّبح التي فقدها الأول، ويعجز الثاني عن استردادها. من سيكون ملك القدس؟ وكان حدث غير مرتقب إطلاقاً سيفجّر الدول.

ففي تشرين الأول (اكتوبر) ١١٩٠ قضت الملكة سيبيل وبناتها ضحايا الطاعون. وبما أن غي دي لوزينيان لم يكن يركن في المطالبة بحقه بالعرش إلا عن سبيل زوجته فقد استند خصومه إلى أنه حسب الدستور الأورشليمي يعود التاج إلى شقيقتها الأميرة ايزابيل، والأخت الثانية للملك آموري الأول. وبما أن الملكة سيبيل ماتت فيجب أن تؤول أرضها إلى أختها إيزابيل، وكان زوج إيزابيل أونفروا الرابع دي تورون، وقد سبق له أن رفض مملكة القدس حينما عرضت عليه عام ١١٨٦، وربما أن هذا الأخير لا شعبيةً له ولم يكن بالتالي يتحلّى بأيّة من الفضائل المؤهلة لرجل يريد أن يحكم، ولو فعل للاكته الألسن تسليةً في المشاحنات التي كانت تدور سراً في ظل مملكة مفقودة. إذاً والحالة هذه، كان الخصم الأشد رهبة لغي دي لوزينيان هو كرنراد دي مونفرّا؛ الوحيد الذي كان على الأقل يملكَ شيئاً ما إذا احتاط للأمر، فاحتفظ بصور التي ما يزال هو حاكمها، ولكونه لا يستطيع أن يدعي أي حق في التاج فقد التف أنصاره حول العقبة فعملوا على إبطال زواج إيزابيل باونفروا الرابع دي تورون ليزوجوها كونراد دي مونفرّا؛ وهكذا فإن إيزابيل وارثة عرش القدس المعترف بها شرعاً تورث التاج بدورها شرعاً مركيز صور الذي يصبح بذلك المطالب الشرعي، ملغياً من الحساب نهائياً، غي دي لوزينيان. وهكذا تزوج كونراد دي مونفرّا إيزابيل لأن زوجته الأولى ما برحت تعيش في بيزنطية.

وبعد احتفالات العرس أذاع في الفرنجة بأنه أصبح ملك القدس، مما يعني تولّيه قيادة الجيش. واحتج غي دي لوزينيان وأنصاره على هذا الغصْب. وزعم الهيكليون أنه مادام غي دي لوزينيان كُرس علناً ملكاً في المدينة المقدسة على يد هيراقليوس؛ فما زالت حقوقه قائمة لا تُمس.

ومن جهة ثانية، كان أسقف بوفي شأنه شأن بقية العناصر الفرنسية يتمسكون بمونفرّا، وأعلن أسقف كنتربري الموجود في عكا، والعناصر الأنكلو ــ نورمانديّة اختيارهم غي، ولدرجة حاول فيها الأسقف ــ ولكن عبثاً ــ أن يعارض طلاق أونفروا دي تورون من إيزابيل، هكذا وبهدف الاستئثار بالمملكة الشبح، وما اعتوره من المنازعات السّلاليّة أضعف الجيش الفرنجي وألف القادة والجنود عصابات مستقلة حسب اختياراتهم، وتبودلت الشتائم، وجرت مشاجرات، وتفاقمت الأمور لدرجة اقترح معها المفكرون البعيدو النظر ــ إدراكاً

منهم لداهم خطر هذا النزاع ـ هدنة بين الخصمين، وأخذوا وعداً بأن يقبلوا حلاً لهذا النزاع ـ بحكم ريكاردوس قلب الأسد وفيليب أوغست اللذين كانا مبحرين في طريقهما إلى الأرض المقدسة على رأس جيشين لإعادة الاحتلال، ممنّي الجميع بمؤن وافرة.

الموقف العسكري قبل وصول قوات الحملة الصليبية الجديدة

ولكي يتمكن من إعادة اللقاء مع جنوده في الربيع، سرّح صلاح الدين قسماً منهم قبل فصل الأمطار. فغادر عماد الدين زنكي ملك سنجار، وأمير جزيرة ابن عمر معسكر المسلمين في ١٥ تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٩٠، وبعدهما بقليل علاء الدين ابن أمير الموصل، والملك المظفر تقي الدين والملك الظاهر.

ولما كانت مراكب الفرنجة لم تعد تسدّ ميناء عكا بسبب حالة البحر، انتهز صلاح الدين الفرصة لتبديل حامية عكا؛ وفي ١٣ شباط (فبراير) ١١٩١ سُمّي الأمير سيف الدين علي المشطوب حاكماً للموقع بدلاً من الأمير حسام الدين أبي الهيجا.

والحادث الوحيد الذي يجب أن يشار إليه خلال هذا الشتاء هو فقدان سبع سفن مشحونة مؤناً لحامية عكا الإسلامية، إذ دهمتها صاعقة وطوّحت بها على صخور الشاطىء فتحطمت شظايا. كان ذلك هو موقف الجيشين أمام عكا حينما أبحر ملكا فرنسا وانكلترا متجهين نحو الأرض المقدسة.



الفصل الثاني والعشرون

---

١ ــ عنوان الفصل الأساسي بالفرنسية : «كان هناك أمام عكا جمع غفير من الشعوب كي تتقاتل، وينظم كل فريق نفسه متنبئاً بحرب طويلة الأمد».

٢ ــ عن العلاقات بين المسلمين والفرنجة فترة وقف القتال، يذكر القاضي ابن شداد هذه الطرفة، فيقول :
«وكان الرجال يوماً من الطائفتين قد سئموا من القتال، فقالوا إلى كم نقاتل الكبار وليس للصغار حظ، نريد أن يتصارع صبيان منا ومنكم. فأخرج صبيان من البلد إلى صبيين من الإفرنج، واشتد الحرب بينهم، فوثب أحد الصبيين المسلمين إلى أحد الصبيين الفرنجيين فاختطفه وضرب به الأرض، وقبضه أسيراً، فاشتراه بعض الإفرنج بدينارين، وقالوا : «هو أسيرك حقاً» فأخذ الدينارين وأطلقه» (ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٩٢).

٣ ــ عن إرسال صلاح الدين سفارة إلى سلطان المغرب للمشاركة في جهاد الصليبيين، نثبت هنا ماورد حول هذا الأمر نقلاً عن كتاب الروضتين لأبي شامة :

وثيقة

﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ (الأمير الأجل الاسفهسلار الأصيل العالم المحترم شمس الدين عدة الإسلام جمال الأنام تاج الدولة أمين الملة صفوة الملوك والسلاطين شرف الأمراء مقدم الخواص، أدام الله توفيقه، ويسر طريقه، وأنجح مقصده، وأعذب مورده، وحرس مغيبه ومشهده، وأسعد يومه وغده، يستخير الله سبحانه، ويتوجه كيفما يسر الله إلى الجهة الإسلامية المغربية حرس الله جانبها، ونصر كتائبها ومراكبها، ويستقري في الطريق وفي البلاد من أخبار القوم في أحوالهم وآدابهم وأشغالهم وأفعالهم، وما يحبونه من القول نزره أو جمه، ومن اللقاء منبسطه أو منقبضه، ومن القعود بمجالسهم مخففة أو مطولة، ومن التحيات المتهاداة بينهم ما صيغته وما موقعه، وهل هي السنن الدينية أو العوائد الملوكية، ولا يلقاه إلا بما يحبه، ولا يخاطبه إلا بما يسره. والكتاب قد نفذ إليه ولم يختم ليعلم ما خوطب به، والمقصود أن تقص القصص عليه، من أوّل وصولنا إلى مصر وما أزلنا من البدع بها، وعطلنا من الإلحاد فيها، ووضعنا من المظالم عنها، وإقامة الجمعة، وعقد الجماعة فيها، وغزواتنا التي تواصلت إلى بلاد الكفار

من مصر، فكانت مقدّمة لملك الشام الإسلامي باجتماع الكلمة علينا، ومقدّمة لملك الشام الفرنجي بانقياد المسلمين لنا، واتفاق الملوك المجاورين على طاعتنا، وتفصيل ما جرى لنا مع الفرنج من الغزوات المتقدّمة التي جسنا فيها خلال ديارهم، وجعلها الله تعالى مقدّمات لما سبق في علمه من أسباب دمارهم، وما أعقبها من كسرتنا لهم الكسرة الكبرى، وفتح البيت المقدّس وتلك على الإسلام منة الله العظمى، إلى غير ذلك من أخذ الثغور، وافتتاح البلاد، وإثخان القتل فيهم والأسر لهم، واستنجاد بقيتهم لفرنج المغرب، وخروج لجداتهم وكثرتها وقوتها ومنعتها وغناها وثروتها ومسارعتها ومبادرتها، وانه لا يمضي يوم إلا عن قوة تتجدّد، وميرة تصل، وأموال واسعة تخرج، ومعونات كثيرة تحمل وانّ ثغرنا حصره العدوّ، وحصرنا نحن العدوّ، فما تمكن من قتال الثغر، ولا تمكن من قتالنا. وخندق على نفسه عدة خنادق، فما تمكنا من قتاله، وقدّم إلى الثغر أبرجة أحرقها أهله. وخرج مرتين إلى عسكرنا فكسر العدوّ أقله، فإنه اغتنم أوقاتاً لم تكن العساكر فيها مجموعة، وارتاد ساعات لم تكن إلّا هب فيها مؤخوذة، وأقدم على غرّة استيقظت فيها نصرة الله لنا، وخذلانه لهم، فقتل الله العدوّ القتل الذريع، وأوقع به الفتك الشنيع. وانجلت إحدى الحركتين عن عشرين ألف قتيل من الكفار، خرجت أنفسها إلى مصارعها، وهمدت أجسامها في مضاجعها. والعدوّ وإن حصرّ الثغر فإنه محصور، ولو أبرز صفحته لكان بإذن الله هو المثبور المكسور. وتذكر ما دخل الثغر من أساطيلنا ثلاث مرات وإحراقها لمراكبهم وهي الأكثر، ودخولها بالميرة بحكم السيف الأظهر. وإنّ أمر العدوّ مع ذلك قد تطاول، وخطبه قد تمادى، ونجدته تتواصل. ومنها ملك الألمان في جموع جماهيرها مجمهرة، وأموال قناطيرها مقنطرة. وإنّ عساكرنا لو أدركته لما استدرك، ولولا سبقه لها بالدخول إلى أنطاكية لتلف وهلك. وتذكر إنّ الله قصم طاغية الألمان، وأخذه أخذة فرعونية بالإغراق في نهر الدنيا، الذي هو طريقه إلى الإحراق في نار الآخرة. وإنّ هذا العدوّ لو أرسل الله عليه أسطولاً قوياً مستعداً يقطع بحره ويمنع ملكه، لأخذنا العدوّ إما بالجوع والحصر، أو برز فأخذناه بيد الله تعالى التي بها النصر. فإن كانت الأساطيل بالجانب المغربي ميسره، والعدة منها متوفره، والرجال في اللقاء فارهه، وللمسير غير كارهه، فالبدار البدار. وأنت أيها الأمير فيها أوّل من استخار الله وسار، وإنْ كانت دون الأسطول موانع أمّا من قلة عدة، أوْ من شغل هناك بمهمة، أو بمباشرة عدوّ وما تحصن منه العورة، أو قد لاحت منه الفرصة فالمعونة ما طريقها واحدة، ولا سبيلها مسدودة، ولا أنواعها محصورة، تكون تارة بالرجال، وتارة بالمال، وما رأينا أهلاً لخطابنا، ولا كفؤاً لانجادنا، ولا محقوقاً بدعوتنا، ولا ملبياً بنصرتنا، إلّا ذلك الجناب، فلم ندعه إلا لواجب عليه وإلى ماهو مستقل به ومطيق له. فقد كانت تتوقع منه همة تقد في الغرب نارها، ويستطير في الشرق سناها، وتغرس في العدوة القصوى شجرتها فينال من في العدوة الدنيا جناها، فلا ترضى همته أن يعين الكفر الكفر، ولا يعين الإسلام الإسلام وما اختص بالاستعانة إلّا لأنّ العدوّ جاره، والجار أقدر على الجار، وأهل الجنة أولى بقتال أهل النار ولأنه بحر، والنجدة بحرية، ولا غرو أن يجيش البحار البحار» (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٧٠ — ١٧١).

٤ — صلاح الدين يطلب من أبنائه أن يكونوا قدوة للمسلمين (راجع ابن شداد: النوادر السلطانية ص ١٥٠).

٥ — «وصل في أثناء ذلك اليوم خمسة وأربعون نفراً من أسارى الفرنج، كانوا قد أخذوا في بيروت، وسُيّروا إليه — رحمه الله — فوصلوا في ذلك اليوم إلى ذلك المكان. ولقد شاهدتُ منه رقة قلب ورحمة في ذلك اليوم لم يُرَ أعظم منها — رحمه الله — وذلك أنه كان فيهم شيخ كبير طاعن في السن، لم يبق في فمه ضرس، ولم يبق له قوة إلّا مقدار

ما يتحرك بها لا غير، فقال للترجمان: «سله: ما الذي حملك على المجيء وأنت في هذا السن؟ وكم من ههنا إلى بلاده؟» فقال: «أما بلادي فبيني وبينها مسيرة عدة أشهر، وأما مجيئي فإنما كان للحج إلى القيامة». فرقّ له السلطان ــ قدس الله روحه ــ ومنّ عليه وأطلقه وأعاده راكباً على فرس إلى عسكر العدو».

٦ ــ «ولقد طلب أولاده الصغار أن يأذن لهم في قتل أسير، فلم يفعل، فسألته ــ رحمه الله ــ عن سبب المنع، وكنتُ حاجبهم فيما طلبوه، فقال: «لئلا يعتادوا من الصغر سفك الدماء ويهون عليهم ذلك، وهم الآن لا يفرقون بين المسلم والكافر» ولا يخفى ما في طي ذلك من الرأفة والرحمة للمسلمين ــ رأف الله به ورحمه ــ ولما أيس من خروج العدو عاد إلى المخيم في عشية ذلك اليوم، وهو الأحد عاشر ربيع الأول سنة سبع، فرحاً مسروراً». (٥، ٦ ــ ابن شداد: النوادر السلطانية ص١٥٦).

٧ ــ قصة الرضيع الذي أعاده صلاح الدين لوالدته:

وذلك أنه كان للمسلمين لصوص يدخلون إلى خيام العدو فيسرقون منهم حتى الرجال ويخرجون، وكان من قضيتهم أنهم أخذوا ذات ليلة طفلاً رضيعاً له ثلاثة أشهر، وساروا به حتى أتوا به إلى خيمة السلطان ــ رحمه الله ــ وعرضوه عليه، وكان كلُّ ما يأخذونه يعرضونه عليه، فيخلع عليهم ويعطيهم ما أخذوه. ولما فقدته أمه باتت مستغيثة بالويل والثبور في طول تلك الليلة حتى وصل خبرها إلى ملوكهم، فقالوا لها: «إنه رحيم القلب، وقد أذنا لك في الخروج إليه، فاخرجي واطلبيه منه، فإنه يرد عليك». فخرجت تستغيث إلى اليزك الإسلامي، فأخبرتهم بواقعتها بترجمان كان يترجم عنها، فأطلقوها وأنفذوها إلى السلطان، فأتته وهو راكب على تل الخروبة، وأنا في خدمته وفي خدمته خلق عظيم، فبكت بكاءً شديداً، ومرغت وجهها في التراب، فسأل عن قصتها، فأخبروه، فرقَّ لها، ودمعت عينه، وأمر بإحضار الرضيع، فمضوا فوجدوه قد بيع في السوق، فأمر بدفع ثمنه إلى المشتري، وأخذه منه، ولم يزل واقفاً ــ رحمة الله عليه ــ حتى أحضر الطفل، وسُلم إليها، فأخذته وبكت بكاءً شديداً وضمته إلى صدرها، والناس ينظرون إليها ويبكون، وأنا واقف في جملتهم، فأرضعته ساعة ثم أمر بها، فحُملت على فرس، وألحقت بعسكرهم مع طفلها. فانظر إلى هذه الرحمة الشاملة لجنس البشر، اللهم إنك خلقته رحيماً فارحمه رحمة واسعة من عندك، ياذا الجلال والإكرام، فانظر إلى شهادة الأعداء له بالرقة والكرم والرأفة والرحمة.

ومليحـــة شهـــدتْ لها ضرَّاتها   والحسن ليس لحقـــه من ناكـــر

(ابن شداد: النوادر السلطانية ص ١٥٨ ــ ١٥٩).

الفصـــل الثالـث والعشـــرون

فيليب أوغست وريكاردوس قلب الأسد
في مواجهة صلاح الدين

ريكاردوس قلب الأسد واستعداداته للحملة الصليبية الثالثة

لقد خلف ريكاردوس الأول الملقب «قلب الأسد» سواء لشجاعته أو لقسوته عام ١١٨٩ والده العجوز هنري الثاني على عرش انكلترا؛ لكن اتهمته ألسنة خبيثة مشبعة بدخان المواخير بالإسهام في وفاة أبيه الذي قضى نحبه وهو يلعنه. ومهما يكن من أمر هذا القيل والقال فقد تميزت السنوات الأولى لحكم ريكاردوس بعمليات السلب وبطوفان سخط الملك السريع الغضب، وتضاعفت في سائر أنحاء مملكة البلانتاجنية المحارق والمشانق وغدا ريكاردوس الأول سفّاح اليهود.

ولاحظ قبل أن يبحر إلى الأرض المقدسة أن خزانته الحربية قد بعثرت، فواردات العشر الصلاحديني المشهور الذي سبق لأبيه أن فرضه لدعم الجيش الانكليزي في الحملة الصليبية ضد صلاح الدين نفدت في الحرب التي شنها على انكلترا هنري الثاني ملك فرنسا؛ ولم تكن هذه الحرب سوى المقدمة لحرب المائة سنة. فأثقل ريكاردوس شعبه بالضرائب الباهظة، وباع كل ما يمكن أن يباع بوزنه ذهباً، أعني أنه باع الوظائف الأكثر تفاهة والألقاب والأملاك

العائدة إلى العرش، وكان مستعداً ــ كما كان يحب أن يقول ــ حتى لبيع مدينة لندن لو وجد لها شارياً طويل باع الثراء، وليس هذا فحسب بل لم يوفّر حتى أحبار مملكته فأجّرهم المناصب وحقوق السادة التي رغبوا في امتلاكها بمبالغ طائلة. وعلى سبيل المثال، فإن أسقف دَرْهَام، وهو أحد الراغبين في الإفادة من استعدادات سيده الطيبة قد توسل ــ رغم اشتهاره بنعت الشيخ البخيل ــ صدقات الفقراء المجموعة خلال ممارسته أعماله الأسقفية سبيله لشراء مقاطعة نورتمبرلاند، مما دفع ريكاردوس إلى الجهر بالقول إنه اجترح معجزة بجعله أسقفاً شيخاً كونتاً شاباً. وهكذا حاز ملك انكلترا بما طالته يده بالغش والجريمة والدناءة ماعمر به خزينته، كما استطاع أن يحصل من البابا على صكوك غفران لأولئك الذي نذروا الاشتراك في الحروب الصليبية، مقابل بدل يدفعونه حسب طبقتهم الاجتماعية؛ وتمكن بذلك أن يجهز أسطولاً قوامه مئتا مركب أسند قيادته لكبير الأساقفة جيرار، وبرنارد أسقف بايون. وعيّن للوصاية على العرش خلال فترة غيابه الملكة الأم إيليونور ومستشاره غيوم دي لونشان، ليبحر بعدها إلى فرنسا بهدف التنسيق مع فيليب أوغست ووضع خطط الاستعدادات الأخيرة لسفر الملكين إلى المشرق. وانكسرت عصا الحاج التي تلقّاها في تور؛ فاعتبر ذلك المؤمنون بالخرافات فألاً سيئاً، وسافر ريكاردوس إلى فيزلاي ليبارك عصاً أخرى بكل مظاهر التفخيم التي ترافق هذه المراسم. وبانتظار فيليب أوغست الذي سيلحق به في فيزلاي أمضى حياة صاخبة، بلغنا صداها عبر كتابات مؤرخي ذلك العهد، ولم يتردد أحدهم أن يكتب: «إن ملك انكلترا رغم كونه ذا مزاج قاسٍ، فظّ، غير مهادن؛ ورغم مالطخ به نفسه دونما وازع من ضمير بكل الجرائم، وانتهك في تعهّره قواعد الحياء، واحتقر الدين ورجاله، كان يفرض على نفسه كفّارات قاسية، وكثيراً ماذهب وسط فيض من خشوع التقوى، وقد أرخى ذيل قميصه ليرتمي على أقدام الكهنة، يعترف لهم بخطاياه. ولمّا لامه فولك كاهن نويي علناً على رذائله حين قال له: إن لديه ثلاث أخوات سَيَقُدْنَه إلى جهنم. أجابه ريكاردوس وهو ينتصب واقفاً: في هذه الحال سأعطي الهيكليين كبريائي، والرهبان بخلي، وأحبار مملكتي فُسقي. هكذا كان الرجل الذي سيواجهه صلاح الدين.

لقاء عاهلي فرنسا وانكلترا في فيزلاي

ولم يكن ملك فرنسا فيليب أوغست إلى جانب هذا الملك العنيد المستبد سوى مجرد

تلميذ لِسَاجِر رغم مؤامراته للاستيلاء على عرش انكلترا. ولم تكن المصائب العامة التي اعتبرته الغوغاء مسؤولاً عنها سوى هنات تافهة بجانب أعمال عنف البلانتاجيني الدموي. وهذا ما انتهى إليه رأي كاتب سيرة خليفة لويس السابع التي سجلها باللاتينية شعراً في قصائده ذات المقاطع الستة. وبعد أن تعاهد الملكان في فيزلاي على الإخلاص المتبادل في جميع الأحوال، بدا كأنهما لا يريدان الافتراق.

فريكاردوس قلب الأسد الحَذِق الذي ما انفكت طويته مشحونة على الدوام بسوء النوايا حصّن نفسه ضد كل ما لا يتفق مع تحالف سيكون فيه الكثير من المخدوعين، وفي طليعتهم ملك فرنسا. وبعد العناق ومراسم الاستقبال، بدأ التفكير في السفر إلى الديار المقدسة، وفي أولئك الذين يقاتلون قتال اليائسين على الشاطىء اللبناني، لإنقاذ ما يمكن انقاذه من مملكة القدس العاثرة الحظ. وتلقى فيليب أوغست في كنيسة سان دنيس قبيل السفر العصا والراية الحمراء، لون دير القديس دنيس. وأناب عنه في إدارة المملكة والدته أديل ابنة تيبو كونت شمبانية، وخاله غيوم أسقف رنس.

لقاء الحليفين اللدودين في صقلية

وفي ٤ تموز (يوليو) ١١٩٠ غادر فيليب فيزلاي برفقة ريكاردوس قلب الأسد، وافترق الحليفان في ليون، فسلك ملك فرنسا طريق جنوة، وسيد انكلترا سبيل مرسيلية، متواعدين على اللقاء في مسّينة. وحينما اجتمعا من جديد في صقلية استطابا ــ ولاشكّ ــ فيها المناخ، فأمضيا ستة أشهر أوشكا فيها أن يتقاتلا. ولما كان غيوم النورماندي ملك صقلية الذي احتل هذه الجزيرة قد توفي دونما وارث، اختار الصقليون تنكريد دي ليكسي سيداً لهم. ولما طالب بالعرش هنري السادس إمبراطور الجرمان، فزع تنكريد إلى ملك انكلترا يلتمس عونه، فطلب هذا بدوره مقابل مهمته كسمسار شريف أن تعاد إليه أخته حنّة أرملة ملك صقلية الراحل، والمهر الذي أصدقها إياه، وأسطولاً مؤلفاً من مائة سفينة، فأرسل إليه تنكريد المرأة ولكن بلا مال ولا سفن. فخف ريكاردوس قلب الأسد فاستولى ــ على سبيل الإنذار ــ على قلعتين وحاصر مسّينة، وأخذها عنوة، وعرض قسماً من سكانها على السيف غير آبه بفيليب

أوغست وبلاطه الذين كانوا يحيون حياة ترف في المدينة الفخمة العذبة ؛ ولعدم تكافؤ القوى انحنى تنكريد صاغراً أمام حاميه الغضوب.

ما الذي حدث حينذاك ؟ فالتاريخ ليس واضحاً هنا ، والآراء متضاربة . فقد اتهمت الحوليّات الانكليزية عاهل فرنسا بالتآمر مع ملك صقلية تنكريد اليكسي على تدمير الجيش الانكليزي والقضاء على ريكاردوس . أمّا وجهة النظر الفرنسية فيعرضها لنا ريفورد وغيره ... ومهما يكن من أمر ، فملكا فرنسا وانكلترا أوشكا أن يفضّا نزاعهما بقوة السلاح . ولم تكد العاصفة تنقشع حتى تراكمت غيوم جديدة في جو صقلية النقيّ . فنحن لم ننسَ بعد أنه قبل بضع سنوات ، أعلن ملك انكلترا خطوبته على أخت فيليب أوغست ، وأنه لم يعلن الحرب على أبيه إلّا لكونه يعتقل الخطيبة في أحد الأقبية الرطبة لسجن من سجون لندن .

ومنذ ذلك الحين ، كانت الفصول تتلو الفصول ولم ينس البلانتاجيني تلك التي كان يجب أن يتزوجها ، وساقت له الصدف وحدها في صقلية اسبانية حسناء هي بيرانجير دي نافار فطلب يدها للزواج . وبلغ النبأ السار مسامع ملك فرنسا فيليب أوغست ، فشعر بالإهانة اللاحقة بأخته ، واعتبرها إهانة يوجهها آل بلانتاجيني للتاج الفرنسي .. وهكذا توترت العلاقات كل التوتر بين القائدين الكبيرين للحملة الصليبية الثالثة .

وصول ملك فرنسا إلى عكا وانفجار الخلافات الصليبية من جديد

وغادر فيليب أوغست مسّينة في ٣٠ آذار (مارس) ١١٩١ . ووصل بعد خمسة عشر يوماً أمام عكا على رأس ست سفن . فاستقبل بكل حماسة . ولاحظ المسلمون خاصة أنه كان يحمل معه صقراً أبيض الريش من نوع نادر كثيراً ماكان يزينه ويدلله ، فأفلت منه ذات يوم ، وحط على سور عكا فأخذه المسلمون وقدموه للسلطان ، ورغب الفرنجة في استرداده لقاء ألف دينار فرفض السلطان ردّه (كتاب الروضتين)[1] .

وما إن حل فيليب أوغست بمقر قيادته في البرج الملعون ، أي المكان الأكثر تعرضاً للخطر حتى أمر بالإسراع في عمليات تشديد الحصار الذي مرّ عليه حتى الآن ، حولان كاملان . وكانت آلات الحرب ترمي المدينة بقذائفها ليل نهار ، وأخذت مواقعها مئات الكباش ذات الطوابق والسقوف وكذلك الأبراج المتحركة التي يبلغ علوّها أربعة أدوار ، مما أثار

ذعر المسلمين وهلعهم. ولكن غي دي لوزينيان ــ الذي ما فتىء يطالب جازماً بعرش القدس ــ أغضبه إعلان ملك فرنسا ــ الذي كان يعتمد على تأييده إياه ــ أنه إلى جانب كونراد دي مونفرَّا. فأيقظ هذا الخيار في الصف الفرنجي كامن أحقاد سبق أن هدأت. فرفض فريق من القوات التي مازالت متعلقة بقضية غي دي لوزينيان الاعتراف بفيليب أوغست قائداً للجيش الفرنجي أمام عكا. أما غي دي لوزينيان ــ الذي حالما رأى نفسه مجرداً من حقوقه ــ فثار على ملك فرنسا وأبحر إلى قبرص برفقة أخيه جوفروا، ورينو دي ساجيت الذي فقد قصر بوفور، وأنفروا الرابع دي تورون، والمعلم الأكبر لتنظيم الهيكليين ابن سيدة الكرك ايتينيت دي ميلي، وتبعه جمع غفير من البارونات الذين مازالوا على ولائهم له.. ذاك الرجل الذي خسر معركة حطين، وفتح أبواب القدس لصلاح الدين، وتناول الشراب المثلج والمعطر بالماورد، تحت خيمة المنتصر قبل أن يرى رأس رينو دي شاتيون البائس ــ الذي جندله صلاح الدين بضربة سيفه ــ يتدحرج أمامه فخان رفاقه في السلاح ووضع سيفه ودينه في خدمة ملك انكلترا. وماعتم هذا الأخير أن قوم الفائدة التي يمكن أن يجنيها من هذه العملية الممتازة، فقبل أن يتبنّى المزاعم السلالية لغي دي لوزينيان الذي أصبح مَحْميّه.

ملك فرنسا يسعى لمفاوضة صلاح الدين

لم يُبدِ ملك فرنسا قلقاً أكثر مما ينبغي لذهاب عامله، إذ تصور أنه سيستطيع الاستيلاء على عكا قبل ظهور سفن البلانتاجيني الأربعين، فيما هو يؤدي اللعبة على طريقته ضد شريكه؛ وسعى للتفاوض مع حامية عكا الإسلامية لكي تستسلم له صلحاً، ورجا صلاح الدين أن يرسل إليه أحد أمرائه لمعرفة كم ديناراً تساوي عكا؟ ولكن صلاح الدين أملى جوابه التالي على رسول ملك فرنسا: «قل لسيدك إنه إذا كان محتاجاً إليّ فليرسل أحد قوّاده، أمّا أنا فلا أطلب منه شيئاً، وليس لديّ أي مقترح لأقدمه له». وكان هذا يعني الرفض.

ريكاردوس يستولي على جزيرة قبرص الاستراتيجية

بعد أن احتفل ريكاردوس قلب الأسد بخطوبته في صقلية أبحر أخيراً إلى الديار المقدسة، ولكن ما إن أصبح على مرأى من سواحل المشرق حتى هبّت ريح معاكسة فبعثرت

أسطوله . وجنحت ثلاث من سفنه على متن إحداها خطيبته بيرانجير دي نافار وحاشيتها على شواطىء قبرص الخاضعة لحكم الروم ، وكان يحكمها رجل يدعى اسحق من أسرة آل كومين استقل فيها عن أباطرة بيزنطية المالكين الحقيقيين للجزيرة في عهد أندرونيك ، وظل مستقراً فيها إبان عهد اسحق آخر : هو اسحق لانج . وكان يكنّ للّاتين ككل رومي محترم حقداً عنيداً .. ولما جنح البحارة الانكليز على شواطىء جزيرته برفقة الاسبانية بيرانجير دي نافار قيّد النوتية ، وحاول أن يتجاهل صفة الغريقة الجميلة . ولم يستطع ملك انكلترا حيال هذه الإهانة أن يتمالك نفسه فسارع إلى إنزال العقاب بالقبرصيّ ، وهبط الجزيرة في ٢٣ أيار (مايو) ١١٩١ ، وقُرر مصير اسحق بسرعة ، فأديل عن عرشه ، وأعلن ريكاردوس قلب الأسد نفسه ملكاً على قبرص مكانه ؛ وبينما كان الشعب يحتفل بتغيير سيده ، انتهز ملك انكلترا هذا الحادث السّفَري ليتزوج بيرانجير دي نافار بحضور غي دي لوزينيان وأمير انطاكية وطرابلس والمعلم الأكبر للهيكليين ورينو دي ساجيت ، وشقيق ملك أرمينيا ، والنّبالة الفرنجية في سورية التي تبعت غي دي لوزينيان ، ونزلت لتوها في قبرص حينما علمت أن ملك انكلترا فيها .

وكان لاحتلال قبرص آثاره الإيجابية على مسيرة الحملة الصليبية الثالثة ، إذ لم يعد الفرنجة المعلقون على الشاطىء السوري أمام عكا يخشون أن يحتجز القبارصة الروم سفنهم ، كما حدث سابقاً ، فضلاً عما كان للجزيرة من مركز هام نظراً لموقعها الاستراتيجي الذي لن يغيب فيما يلي من القرون عن نظر الدبلوماسية البريطانية . وكان بمستطاع السفن الفرنجية أن تتوقف فيها وتتموّن . وبعد أن ترك ريكاردوس قلب الأسد حامية في قبرص التي تم احتلالها مُصَادَفة بفضل الرياح ، أبحر باتجاه عكا مع أربعين سفينة نقل . ومرّت الرحلة بلا حوادث .

وصول الأسطول الانكليزي إلى الشواطىء السورية

وصل الانكليز في مطلع حزيران (يونيو) ١١٩١ إلى الشواطىء السورية . ودمروا في مياه بيروت أكبر سفينة ـــ (بسطة) ـــ كان صلاح الدين قد جَهزّها ، وكانت تقل ستمائة وخمسين جندياً وأسلحة ومؤناً مخصصة لحامية عكا ـــ ولم يشأ البحّارة المسلمون التخلي عن سفينتهم للانكليز الذين استولوا على جسرها الأعلى ، وبعد أن أغرقوا إحدى سفنهم بناءً على أمر قائدهم يعقوب الحلبي ، فتحوا بالفؤوس جوانب السفن وتركوا المياه تغمرهم أحياء مع

أسلحتهم ومؤنهم. وكان تدمير هذه السفينة نجاحاً باهراً لريكاردوس قلب الأسد، لأنه لو وصلت إلى ميناء عكا لما آلت هذه القلعة الحصينة إلى ماآلت إليه. أمّا السلطان ــ كما يكتب مؤلف كتاب «الروضتين» ــ فقد تحمّل المصيبة بشجاعة مؤملاً أن يحتسبها له الله لأنه يدافع عن قضيته. مشيراً بذلك إلى الآية القرآنية: ﴿إن الله لا يضيع أجر المحسنين﴾ (١١٩/٩).

ابتهاج الصليبيين برسو الأسطول الانكليزي أمام عكا

وفي ٨ حزيران (يونيو) ١١٩١ أرسى الأسطول الانكليزي أمام عكا. وكان ذلك حدثاً ترددت أصداؤه في الشرق كله. ففي كل مكان ابتهج الصليبيون، واستعادوا شجاعتهم، وأوقد الجيش الفرنجي المشاعل أمام عكا، واستمرت الصلوات وزعيق الأبواق والكوسات حتى الفجر. ووزع الندامى الشراب في شوارع المعسكر على الكبار والصغار. ولم يشاهد في أي مكان آخر مثل هذا العدد من الشموع والأضواء، حتى خيِّل لمعسكر المسلمين ــ كما يروي امبرواز وبهاء الدين ــ أن الوادي قد اشتعل. كان الفرنجة يعتقدون أن وصول ملك انكلترا سيحقق لهم من فوره النصر.

استمرار النزاع بين ملكي فرنسا وانكلترا أمام عكا المحاصرة

وخلال الأيام الأولى من حياتهما المشتركة، ظهر ملكا فرنسا وانكلترا كما لو أنهما صديقان قديمان بالغا السرور للقائهما بعد طول غياب، كأنهما نسيا سابق مشاجراتهما وهمومهما السلاليّة، وسوء التفاهم المزعج بين البلاطين الذي كان يغذيه بدناءة عملاء ماهرون. ولم يكونا ليستطيعا اللقاء دونما تبادل العناق الملكي واللياقات المخملية. وكممثلين بارعين، كان كل منهما يحذر الآخر، ويبحث عن طريقة للإيقاع به. بينما كانا بحضور البارونات تحت خيمة الاحتفالات أو في المعسكر يظهران كملكي أعظم شعبين في الدنيا، ويتظاهران بالمحبة المتبادلة، إنما يحتاط كل منهما في سريرته للضربات التي يمكن أن يكيلها له ندُّه. ولقد باشر كلٌّ منهما قبل المبارزة الأخيرة عملاً شخصياً لا يمكن إنكار مرونته. إذ قدم فيليب أوغست ثلاث قطع من العملة الذهبية البيزنطية للصليبيين الذين يتطوعون للخدمة في جيشه، وأربى ريكاردوس قلب الأسد بوساطة رقباء التجنيد لديه، فقدم أربع قطع لكل من

يسجّل اسمه في جداول الجيش الانكليزي. ويجب ألّا يغرب عن بالنا أنّ كونراد دي مونفرًا الذي يدعمه ملك فرنسا، وغي دي لوزينيان محميّ ملك انكلترا كانا مستعدين لدخول الحلبة للدفاع عن حقوقهما في عرش القدس. وانفجرت المأساة: فقد طالب فيليب أوغست استناداً إلى معاهدة فيزلاي التي تنصّ فيما تنصه، على أن لكل من الشريكين الحق في نصف مايحرزه الشريك الآخر من مكاسب في الأرض المقدسة، فطالب رفيقه بنصف جزيرة قبرص التي وإن لم تكن في فلسطين فهي واقعة على طريقها. ورفض ريكاردوس التنازل عن شبر واحد من الأرض القبرصية، وتفادياً للمنازعات المستقبلية باع الجزيرة لأصدقائه الهيكليين بخمسة وعشرين ألف مارك من الفضة، وحقق الإنكليزي لنفسه صفقة ممتازة، أمّا تنظيم الهيكليين ــ رغم فقره الظاهر ــ فكان بمستطاعه أن يمنح نفسه مملكة قبرص رغم ما حُرمه أثر سقوط القدس، من أهم مصادر وارداته، ناهيك بما دفعه من فدية لعددٍ من الأسرى، وكذلك مرتبات الجند الذين كانوا يقاتلون تحت رايته.

ويجب أن نلاحظ أيضاً أن فرسان الهيكل كان لهم في قبرص المشاريع ذاتها التي سيحققها الاسبتاريون في رودس ومالطة ... وأصبح ملك انكلترا بعد بيعه قبرص وقبضه الثمن قادراً على استخدام خيّالة القديس جرجس (الليرات الانكليزية الذهبية)، فكان ــ بحكم المؤكد ــ أغنى صليبي على الإطلاق شوهد في أرض المشرق، وقد عرف كيف يستخدم لأغراضه الشخصية هذا الكنز الذي وضعه بين يديه محض مصادفة الرحلات البحرية. كان ملك فرنسا إزاءه، وهو الباحث الدائم عن الدوانق، أشبه بالخادم. فلم تكن خيمته ولا مائدته لتشبها خيمة البلانتاجني ومائدته، وكان قواده الذين أغراهم عرض أجر أفضل لا يترددون في عبور جسر الإنكليز الذهبي. أمّا الناس العاديون الذين كانوا يؤلفون قوة المشاة ففضلوا تسجيل أنفسهم في جداول ريكاردوس وطبيعي أن غي دي لوزينيان أدرك ارتفاع أسهم خصمه وتضاعفها إذ لعب ورقة ملك انكلترا، ولم يلبث حزبه أن تغلب على حزب خصمه جاذباً إليه المترددين والمؤمنين لتوّهم بقضيته مثل البيزيين والفلاماندين وكونت شمبانية والاسبتاريين، ولذا زايل دور لباقة السياسي ليتكشف عدوانياً مجاهراً بعدائه، واتهم ماركيز صور بالخيانة والمروق وطلبه للمبارزة، فأصيب دي مونفرًا بالفجيعة، فتخلى عن عكا، ولجأ مع أنصاره إلى صور. وكما لو أن هذا القدْر من بواعث الصراع لا يكفي لاستمراء المنازعات غير المجدية، فقد أصيب

كل من فيليب أوغست وريكاردوس قلب الأسد بالحمّى بآنٍ معاً، فاتهم كل منهما الآخر بدس السم له، فأثلجت هذه الأخبار صدر صلاح الدين الذي برهن مع ذلك على عظمة نفس مفاجئة، لم يكن أحد يتوقعها في الأوساط الفرنجية في عكا حيث كانت تختمر كل هذه الأحقاد، وتتصادم المصالح، وتحاك المؤمرات. فحينما علم صلاح الدين بأن عدوّيه: عدوي السلام والإسلام يرتعدان على سريريهما العسكريين من الحمّى، أمر بأن ترسل إليهما الفراريج والمرطبات، وبأن يزوّد يومياً بمعلومات عن تطور حالة الملكين الصحية ونقاهتهما؛ وأوقف الفرنجة عمليات الحصار خلال مرض ملكيهما مما أعاد بعض الأمل إلى حامية عكا الإسلامية المُحْبطة بسبب هدم آلات الحصار قسماً من الأسوار بقدر قامة الرجل، وكان الفرنجة يرسلون إلى السلطان بيانات صحية متعددة. ويزعم المؤرخون الشرقيون أن الفرنجة كانوا يسعون لكسب الوقت فكانت بالتالي بياناتهم قليلة الجديّة. ولذلك طلب ملك انكلترا رغم وضعه الأليم مقابلة صلاح الدين، وأهداه صقوراً فخمة حملها معه من وراء البحار. وحسب قول السفير الفرنجي فإن هذه الجوارح التي هي من نوع الصقور أثّر فيها مناخ عكا، فغدت هامدة النشاط فاقدة الحيوية لدرجة تثير الشفقة، فتساقط ريش حوصلاتها وهزلت من قلة الممارسة، ولهذا فإن ملك انكلترا الذي كان يريد تقديم هذه الجوارح إلى صلاح الدين كان يلتمس منه أن يرسل إليه اثنتي عشرّية من الفراخ لتسمين صقوره قبل أن يحملها إليه، وفهم المسلمون أن ريكاردوس قلب الأسد بطلبه هذه الفراخ كان يبغي أن يصنع منها حساءً مقوياً. هذا على الأقل ما يرويه المطّلع أبو شامة. ولم يكن ممكناً أن تستمر هذه الألاعيب إلى مالا نهاية. فبعد أن اتهم الانكليز فيليب أوغست بخيانته الصليبيين لقاء بضعة أكواب من ثلج لبنان، ردّ الفرنسيون بأن ريكاردوس قلب الأسد بقبوله فراخ صلاح الدين كان متفقاً معه على إثارة خلافات جديدة في المعسكر الفرنجي.

البحث عن صيغة اتفاق جديد بين الفرنجة

وكان لامندوحة من إيجاد حلٍ للنزاع الشاجر بين غي دي لوزينيان وكونراد دي مونفرّا فاجتمع الأساقفة الحاضرون وبحثوا عن صيغة اتفاق. فاقترحوا أن يحتفظ غي دي لوزينيان بلقبه كملك للقدس على ألّا يدع هذا اللقب لورثته، وعلى أن يصبح كونراد دي مونفرّا بعد وفاة غي دي لوزينيان وارثاً تاج القدس. وفضلاً عن ذلك تعهد ملكا فرنسا وانكلترا بتجديد

معاهدة التحالف بينهما علناً وباقتسام ما يحوزانه من المسلمين ؛ وأن يتعاونا في مقاتلة العدو المشترك كلما قضت الضرورة ، ووافق الملكان على قرارات الأساقفة ، لاعتقاد كل منهما أنّ الاتفاق جرى لصالحه. وهكذا ــ وبناء على رجاء ملك فرنسا ــ عاد كونراد دي مونفرًا ليحتل مكانه بين الصليبيين ، وفكروا أنه إذا كان أمام عكا ثلاثمائة ألف من الفرنجة فبهدف محاربة صلاح الدين لا غير.

الإمدادات الجديدة لمعسكري المسلمين والصليبيين

وأفاد صلاح الدين من خلافات العدو وتردده فأتته امدادات وفيرة ، إذ وصل مجاهد الدين برنقش مع قوات مجموعة مابين النهرين ، وقفّى على أثره علم الدين الكرجي وسيف الدين شكر مع جيش مصري ، وكذلك أمراء آخرون يقودون جيوشاً من حوران والموصل. وفي عكا كان قراقوش يحفر خنادق جديدة ويبني تحصينات مكان التي هدمت. وعاد الصيف أخيراً فأتاح نشاطاً أكبر للقوات المسلحة. فمنذ الأيام الأولى من شهر حزيران (يونيو) ١١٩٠ تضاعفت الهجمات والهجمات المضادّة. ووسط هذه المعارك المتواصلة كان من الممكن أن ترى التنظيمات دمار قوّاتها لولا الإمدادات المحشودة من الصليبيين التي تتدفق من أوربا ، إذ تطوع جمع غفير من الشبان في تنظيمات هيكل القديس يوحنا حين نزولهم على الساحل اللبناني ، وأمضوا مدة المستجدين تحت السلاح قبل أن يكرسوا أنفسهم للرهبانية. وهكذا غدا هيكلياً روبرت دي سابلي الذي قاد أسطول ريكاردوس قلب الأسد حال وصوله أمام عكا ، واعتبرت الأعمال الكبرى التي اجترحها في كل من اسبانيا وصقلية بديلاً عن فترة الاختبار. وما إن تم قبوله حتى أسندت إليه المسؤوليات الأولى ، وبعدها رفع إلى أعلى رتبة في التنظيم. إذ اختير لمنصب المعلم الأكبر الشاغر منذ ثمانية عشر شهراً.

احتدام المعارك بين الفرنجة والمسلمين

وكان يوم ٢ تموز (يوليو) ١١٩١ اليوم الأكثر دمويّة ، فقد استطاع الفرنسيون أن يدمروا جزءاً من البرج الملعون الذي يعد أفضل دفاعات المسلمين ، إذ نصب فيليب أوغست إزاءه قاذفة حجارة ضخمة تدعى « الجارة الفحلة » فكانت تقذف المدينة بصخور ضخمة ؛ ولكن المدافعين ردوا عليها بقذائف لا تقل عنها ضخامة وزهبة ؛ دعاها الفرنسيون المشهورون

بروج الدعابة «ابنة عم الفحلة» وإلى جانب «الجارة الفحلة» نصب فيليب أوغست آلات حصار أخرى، وما إن أحدثت الثغرة حتى شن الفرنسيون هجوماً شرساً، ولكن صلاح الدين كان بدوره يقظاً، فطفق يركض جواده من كتيبة إلى كتيبة مثيراً حماسة الجنود للجهاد مطلقاً صرخة التلاحم: «واإسلاماه!» وكلما تشوَّفت له عكا الظاهرة بعيداً بين أعمدة الدخان تصور ما يعانيه المحاصرون فيها من آلام، فينقضّ مهاجماً بصورة أشرس دافعاً بقوته أعنف فأعنف في خضم المعمعة، حتى هبوط الليل. فكان وهو في قلب المعركة لا يتناول سوى جرعة من دواء بناء على نصيحة طبيبه. ورغم شجاعة رجال فيليب أوغست كانت الغلبة للمسلمين، ففي يوم ٢ تموز (يوليو) ١١٩٠ المشهود تخلى الفرنجة عن أسوار عكا، وكان يمكن أن يتسلقوها لولا الخلاف الناشب بينهم في الوقت المناسب لانقاذ المحاصَرين. ففقد الصليبيون في ذلك اليوم آلاف الرجال وأحرقت أفضل آلات حصارهم.

استغاثة المسلمين المحاصرين بعكا بصلاح الدين

ولكن رغم الانتصار كان صلاح الدين يائساً فعشية يوم المعركة هذه وردته رسالة موجزة تقول: «لقد أنهكنا الحرمان حتى أننا سنكون مضطرين — إذا لم تفك عنّا الحصار غداً وتنقذنا من قبضة الفرنجة — إلى التسليم بلا شروط، إلّا شرطاً واحداً هو إبقاؤنا على قيد الحياة». ولم يتلقّ المسلمون قط نبأ بمثل هذا السوء. لأن عكا كانت تمتلك جميع وسائل الدفاع التي أتتها من الساحل والقدس ودمشق وحلب وحتى من مصر.

وحاول صلاح الدين منذ فجر الغد أن ينجد عكا، لكن محاولاته ذهبت بدداً لأن مشاة الفرنجة — كما يكتب بهاء الدين — كانوا خلف تحصيناتهم أصلب من حائط؛ وكان عددهم أمام عكا لا يقل عن خمسة آلاف فارس ومائة ألف راجل. لقد كانت كل الشعوب ممثلة في هذا التجمع الذي ينطبق عليه قول أبي الطيب المتنبي:

تجمّع فيه كل لَسْنٍ وأمّةٍ   فما تفهم الحدّاثَ إلّا التراجمُ[٣]

وكان الظمأُ أشد ما يعانيه المحاصرون، لأن الفرنجة تمكنوا من قطع مياه ساقية كانت تروي المدينة.

ملكا فرنسا وانكلترا يتباحثان سراً مع صلاح الدين

وعلم ملك انكلترا أن رسولاً مسلماً تحدّث سراً إلى ملك فرنسا فأزعجه ذلك غاية الإزعاج، ودون أن يدري ماذا دار بالضبط بين صلاح الدين وفيليب أوغست بعث رسولاً إلى صلاح الدين يستفسره عن نواياه..

ولم يكن صلاح الدين ليرفض المفاوضة لو وثق بصدق الملكين الفرنجيين الأكبرين، لكنه كان ينتظر بعض التطورات داخل عكا. وكان ملكانا شديدي الحيرة. ولأن الفرنجة فقدوا بدورهم الأمل في نهاية موفقة لهذه المعركة التي تدور بين عالمين لا تنضب مواردهما، فكل المعارك التي خاضوها انتهت حتى الآن بفشلٍ دامٍ. ورغم الجيوش التي وصلت بقيادة ملكي انكلترا وفرنسا لم يستطيعوا تحقيق أية نتيجة إيجابية، وقريباً سيكونون على أبواب شتاء آخر، الشتاء الرابع أمام عكا ولذا سعى كل من ملكي الفرنجة إلى التفاوض مع صلاح الدين، كل منهما في معزل عن الآخر ومن وراء ظهره.

كان ريكاردوس قلب الأسد راغباً بالصلح، وألحّ ووعد بأن يجيء لمقابلة السلطان. وأعدّ هذا الأخير خيمة استقبال فخمة، ولكن عبثاً لأن ملك الانكليز لم يحضر، رغم انتظار صلاح الدين إياه واعتذر له قائلاً: لا تظن أني غيرت رأيي في الصلح، ولكن حمّى خبيثة شفيت لتوي منها عاودتني فأعاقتني عن مغادرة خيمتي، ولن أتأخر عن القدوم لمقابلتك حالما أستعيد صحتي.. ماذا حدث بالفعل؟ هل علم فيليب أوغست، رغم بقاء المحادثة سرّية، بأن حليفه يُبيت له خيانات جديدة؟ هذا ممكن للغاية. وأرجئت المقابلة إلى أجلٍ غير مسمّى.

فشل محاولة الخروج من عكا

وفي عكا لم تبق حبة قمح واحدة؛ وأدرك صلاح الدين أنه فقد الأمل في إنجاد الحامية الإسلامية، وبعث إليها مع سبّاح ماهر الرسالة التالية: حاولوا أن تخدعوا يقظة أعدائنا، اتفقوا واخرجوا دفعة واحدة تحت جنح الظلام محاذين الشاطىء، وسيغتنم رجالنا فرصة الفوضى التي ستنجم عن ذلك في مخيم الفرنجة، فيهاجمونهم بسيف واحد أما المدينة فاتركوها بكل مافيها. واستعد المحاصَرون لمغادرة عكا ليلاً، ولكن كلاً منهم كان يريد أن يحمل أشياءَه، ويربك نفسه بالصناديق الصغيرة، وطلع النهار قبل أن يتمكن المحاصرون المسلمون من

الخروج ، ولم ينجحوا كذلك في الخروج الليلة التالية ، لأنَّ السر شاع في الأزقَّة وتجاوز الأسوار ويكتب عماد الدين قائلاً : « ولولا ذلك لتحقق الهدف ولسوء الحظ أدرك الفرنجة مايُدبر في الخفاء ، فأحكموا الحراسة على كل منافذ المدينة . لقد أيقظهم اثنان مارقان لجأا إلى مخيمهم وأطلعاهم على ما يدور . »[٤] وفضلاً عن هذا الفشل فإن خيبات كثيرة أخرى أحزنت صلاح الدين . فقد هرب قائد إحدى كتائب الحرس . ويكتب أمير أربيل : « لقد كان إيمان عدة أمراء ضعيفاً ، وقد أعماهم الكفر والفجور فهربوا خائنين المسلمين في النقاط التي كانوا يدافعون عنها . » وتسارعت الأحداث . « ففي ١١ تموز (يوليو) ١١٩١ حمل كل جيش الفرنجة السلاح ، وقام بتحركات جماعية » ـــ كما يقول ابن شداد[٥] ـــ وبدأ الانكليز ، بقيادة الكونت ليسستر ، واندريه دي شافيني وهوغ لوبران كونت المارش ، والأسقف ساليزبوري الذي كان يسانده فوج من البيزيين بدؤوا الهجوم على ثغرة البرج . وكادوا يستولون عليها عنوةً ؛ واستمرت المعارك عدة أيام بلا توقف ، واضطر المسلمون الذين كانوا يرفضون القتال ، إلى الدفاع عن أنفسهم .

صلاح الدين يرفض الموافقة على التسليم وسقوط عكا

ولم تعد عكا قادرة على الصمود . وأخبر حاكمها قراقوش صلاح الدين[٦] « بأنه يجد نفسه مضطراً إلى الاستسلام خشية أن يغضب الله العلي العظيم بتعريضه للهلاك بحد السيف هذا العدد الكبير من المسلمين الصالحين المحاصَرين في عكا . لأنني متضايق من شكاوى النساء والأطفال الذين يموتون جوعاً . لقد جاء فصل الربيع ، ولذا أراني مكرهاً على التفاوض مع الفرنجة شرط أن يسمح هؤلاء للمحاصَرين بمغادرة المدينة مع منقولاتهم وأغراضهم ، وأن يعيدوا لنا المدينة بكل مافيها مقابل أن تعيد إليهم صليب الصلبوت ، وأن تطلق لهم سراح ألف وخمسمائة أسير من جميع الممالك ، وأن تدفع لهم مائتي ألف دينار ذهباً فضلاً عن أربعة آلاف تدفع مباشرة إلى كونراد دي مونفَّرا الذي تولّى مفاوضات الصلح . »[٧] .

ورفض صلاح الدين الموافقة على مثل هذه المعاهدة التي من شأنها أن تقضي على عمله السياسي ، فجمع أمراءه ، وفيما هم يتشاورون شاهدوا الرايات الفرنجية الكبيرة ترفرف على أسوار عكا ، بينما كانت الرايات الإسلامية السوداء والصفراء تختفي عن أسوارها . ويروي

ابن شداد واصفاً ذلك اليوم يوم ١١ تموز (يوليو) ١١٩١ بأنه يشبه في التاريخ يوم حطين الذي سبق فتح القدس: «كان السلطان يناقش مع قواده وأعضاء مجلسه، الشروط التي يمكن أن تحقق مقابل تسليم عكا. كنّا في يوم الجمعة سابع عشر جمادى الثانية ظهراً. وفجأة ارتفعت ضوضاء صاخبة من جهة الفرنجة وتضاعف ألم المسلمين واكتفى أعقل الحاضرين بالقول: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾ وامتلأ الجميع رعباً، وضجّ المخيم بالصراخ والبكاء والعويل. وكان كل واحد يشارك في المصيبة الداهمة بقدر إيمانه. وكان مشهداً كريهاً عندما شوهد المركيز دي مونفرّا ــ لعنه الله ــ يدخل عكا حاملاً الرايات الأربع لملوك الفرنجة، فغرز إحداها ــ مكان الرايات الإسلامية ــ فوق القلعة والثانية فوق مئذنة الجامع الكبير، والثالثة فوق برج الهيكليين، والأخيرة فوق برج القتال، وكان بالغاً ألم صلاح الدين، فأُكثرت له من التعازي ورجوته أن يفكر في المستقبل، في مدن الساحل، في القدس، في الوضع الجديد، في التدابير التي يجب اتخاذها لإنقاذ المسلمين الأسرى في عكا، قائلاً له: إذا خسرنا مدينة فلم نخسر الإسلام»(٨). وإليكم مقطعاً من الرسالة التي وجهها الفاضل أخو صلاح الدين إلى شمس الدولة بن منقذ مندوب السلطان لدى بلاط المغرب: «لقد خسر الفرنجة أمام عكا خمسين ألف رجل. وفقدنا عكا، ولكننا، مع ذلك، لم نفقد شجاعتنا ولم نضعف بسبب المصيبة التي حلت بنا في سبيل الله. لن نتقهقر ولن نغادر. نحن ثابتون على جميع طرق العدو، وخيامنا قرب خيامهم، ولكن مايلزمنا قبل كل شيء مدد بحري، مدد أسطول مرّاكش. فبوساطته نستعيد كل مافقدناه ويستعيد جيشنا بأسه. وعلى الأمير حامل رسالتنا هذه، أن ينقل معلوماته عن الوضع القائم وعن الخطر الذي يهدد الإسلام. لينشرها في سائر أرجاء المغرب في الصلاة الجامعة يوم الجمعة. إن الإسلام يتوجه الآن بأنظاره نحو المغرب»(٩).

نصر الفرنجة الباهظ الثمن

ويعتبر يوم ١٢ تموز (يوليو) ١١٩١ يوم نصر للفرنجة بعد حصارٍ دام حوالي ثلاثة أعوام، ولكنه كان نصراً باهظ الثمن. فقد خسر الفرنجة مائة وعشرين ألف قتيل في الحملة الصليبية الثالثة هذه. فمن ١٢٠٠٠ إسكندنيافي غادروا بلادهم إلى الأرض المقدسة لم يبق إلّا مائة رجل قادرين على حمل السلاح. وهلك حوالى مائة ألف جرماني وإمبراطورهم وابن

إمبراطورهم في الطريق. وقد أصاب هذا الدم المراق أمام عكا أوربا بفقر الدم سنواتٍ عدة. كما أبيد قسمٌ من النّبالة الفرنسية. وما إن استقر الفرنجة في عكا حتى بدأ الصراع بينهم: فكان ملك الإنكليز يتصرف وكأنه السيّد الأوحد. وغرز رايته محل راية الجرمان، فشعر هؤلاء بالإهانة وردوا بأنهم سيذبحون الانكليز الذين سيصادفونهم في الأسواق.

عودة فيليب أوغست إلى بلاده

ولكن ريكاردوس لم يغير شيئاً من تصرفاته؛ وماكان ليعامل فيليب أوغست إلا كما يعامل تابعَه، وليس من شك في أن ملك فرنسا بصناديقه الخاوية وملابسه المهترئة كانت له كل مظاهر الغريب الفقير إلى جانب الانكليزي طويل باع الثراء، الذي كان بمقدوره أن يشتري بالذهب القبرصي قادة ونبلاء، ناهيك ببعض أمراء المسلمين الخونة. وفضّل فيليب أوغست المفجوع، الذي أرقدته نوبة جديدة من الحمّى، بله ما ورده من أنباء عن تطاير شرر الفوضى في فرنسا، فضّل أن يغادر عكا، فسافر إلى صور عند محميّه كونراد دي مونفرّا، الذي ما برح وفيّاً لصديقه المسكين المُحبط. وفي هذه المدينة جاءته بعثة علنية من صلاح الدين للاستفسار عن صحته وليهنئه بانتصاره عليه، وليقدم إليه هدايا تليق بعاهل عظيم. وبعد أن استراح بعض الوقت فكر فيليب أوغست بالأوبة إلى فرنسا. وترك في الأرض المقدسة ألفاً وخمسمائة رجل أوكل قيادتهم إلى دوق بورغونية هوغ الثالث. وتخلّى لمركيز صور عن الجزء الذي حازه من عكا باسم «حصة الشريك» وأوصى بأن تكون حصة فرنسا من الفتوحات المقبلة، حسب نصوص معاهدة فيزلاي وعكا، من حق كونراد دي مونفرّا الذي سيديرها لحساب ملك فرنسا. وبعد أن سوّى أموره على هذا النحو أبحر في ٢ آب (اغسطس) ١١٩١ إلى إيطاليا، فوصل أسطوله المؤلف من خمس عشرة سفينة نقل إلى برنديزي دونما حوادث. وتلقى، حسب العادة، سعفات الحجّ من يدي البابا سلستين الثالث. ولدى رجوعه إلى دياره أعاد تنظيم ماليته وفكر في الطريقة التي يمكنه بها الاستيلاء على الأراضي التي يملكها البلانتاجيني في فرنسا، متظاهراً بنسيان اليمين الذي أقسمه باحترامها وحمايتها من أيّ عدوان، ومنع أي عمل من الأعمال العدائية حتى رجوع ملك انكلترا.

تفرد ملك انكلترا بقيادة الفرنجة

وبسفر فيليب خلا الجو لريكاردس الذي غدا القائد الوحيد للحملة الصليبية الثالثة،

ولم يكن هذا مجرداً من المزايا العسكرية، ولكنّ صفاته كجنديّ باسل كان يعطلها قصر نظره السياسي. فقد حسب نفسه — قبل الأوان — في بلاد مفتتحة، ولم يدر في خلده أن الأسلحة — حتى المنتصرة منها — يجب أن تدعمها براعة رجل دولة، وهذا ماكان يفتقده تقريباً البلانتاجيني المتهور. لقد تشاجر مع كونراد دي مونفرًا الاختصاصي في قضايا المشرق، وكان يمكن أن يفيد من نصائحه، وذلك لأن كونراد رفض أن يعترف بسلطة ملك انكلترا على إمارته صور؛ فصادر هذا الأخير ماكان يملكه كونراد في عكا، والذي آل إليه من ملك فرنسا.

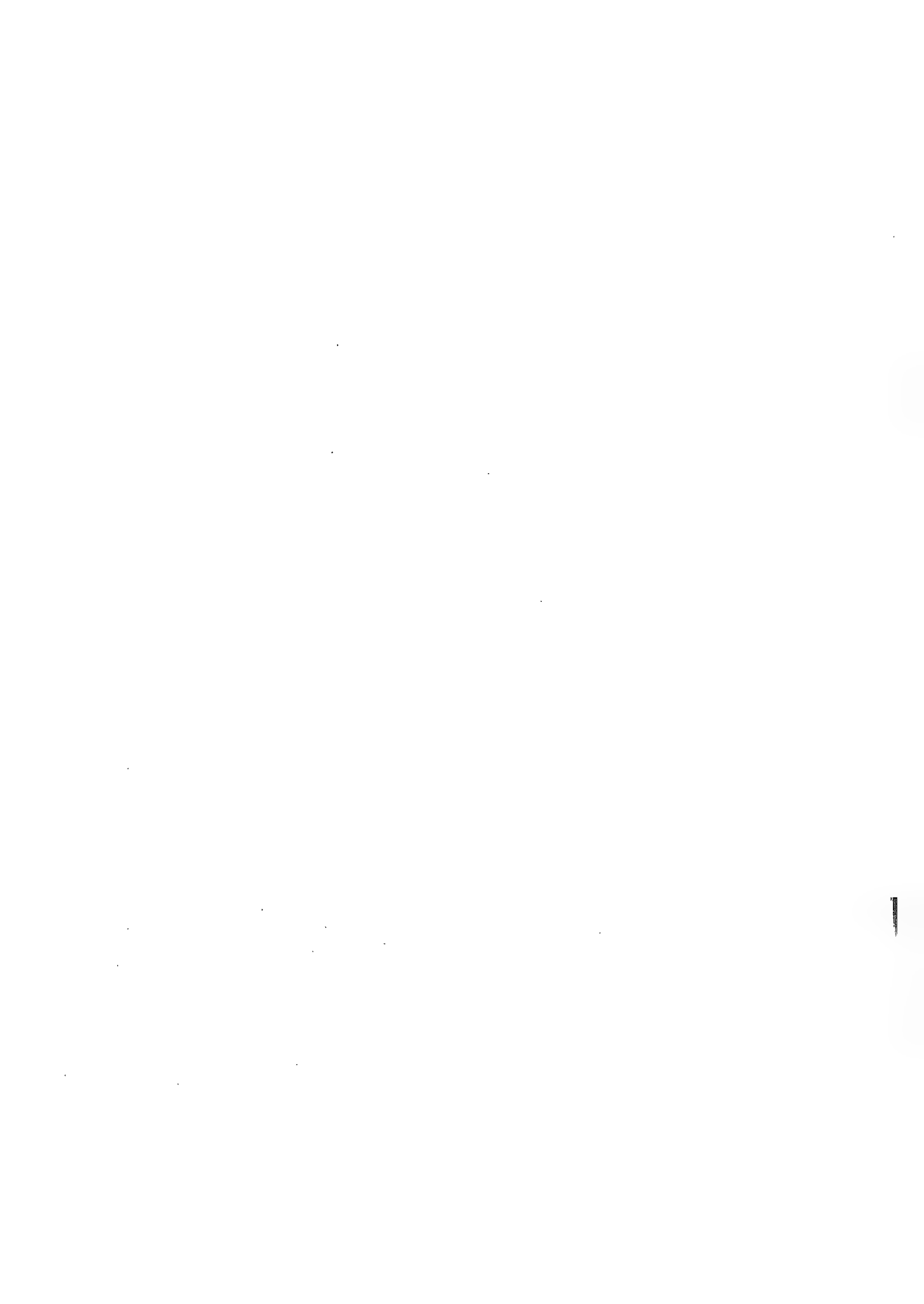
بربرية ريكاردوس ومجزرته الشنيعة

واقترف ريكاردوس خطيئة مميتة أخرى ستظل طويلاً تسبب الكراهية للانكليز في الشرق الأدنى، ذلك أنه كان لدى المسلمين — حسب اتفاق تسليم عكا — مهلة ثلاثة أشهر لتنفيذ الشروط(١٠). ولم يكن صلاح الدين قد وافق عليها، ولكنه انحنى أمام الأمر الواقع، وأصدر أوامره بدفع ثلث الفدية في الموعد المقرر، وأن تسلّم الأعتدة والأسلحة والسفن، وإطلاق سراح أسرى الفرنجة. وكان عليه أن يعيد صليب الصلبوت في أول يومٍ من الاستحقاق الأول. وفي الموعد المضروب، أرسل ريكاردوس قلب الأسد بعض قواده إلى معسكر صلاح الدين لتسلّم الصليب الذي استعاده المسلمون من بغداد، وتسلّم مائة ألف دينار ذهباً وستمائة أسير فرنجي. فأعلن صلاح الدين أنه بموجب المعاهدة يجب أن يتم بآن معاً تسليم الصليب والذهب والأسرى وإطلاق سراح قسم من سكان المدينة المسلمين المحصورين في حيّ واحد. فغضب ريكاردوس لأن صلاح الدين ذكّره بما عليه أن يفعله. فتصلب في رأيه واشترط أن يتم له الدفع أولاً، لكن صلاح الدين الذي ارتاب في موقفه هذا رفض أن يدفع الفدية قبل أن يرى جماعة من المسلمين على الأقل تغادر المدينة، وظل كل منهما على موقفه، عندها، وعلى سبيل الانتقام اقترف ملك الانكليز فعلة نكراء، إذ أخرج المسلمين رجالاً ونساءً عراة موثقين بالحبال، وعددهم ثلاثة آلاف وأمر — في ٢٠ آب (اغسطس) ١١٩١ في الساعة الرابعة بعد الظهر — مرتزقته الأفّاقين بأن يقتلوهم، ويلقوا جثثهم الممثّل بها في الآبار الواقعة تحت تل العياضة أمام عكا — وعلى مرأى من صلاح الدين المخيّم قرب تل كيسان(١١).

استنكار العالم الإسلامي جريمة عكا

وأثار هذا العمل الهمجي الذي لم يكن له ما يسوّغه استنكار العالم الإسلامي وكتب عماد الدين يقول: «لقد رأيت هؤلاء الشهداء، شهداء إيماننا، مجردين عراة في السهل المُحْرِق. ولكنني لا أشك في أن الله سربلهم بثوب السعادة ودعاهم إلى جنة الخلد والمجد الأبدي.»(١٢).

وعند ذاك تصرّف صلاح الدين في الفدية التي كان ينوي دفعها لقوّاد ملك انكلترا، فقسمها بين أمرائه وأعاد الأسرى المزمع إطلاق سراحهم إلى مالكيهم القدماء وسلك قسم كبير منهم طريق دمشق. أما صليب الصلبوت فقد وضعه صلاح الدين في خزانته ليس من قبيل الاحترام، بل بالعكس على سبيل الاحتقار وعدم الاعتبار، لأنّ امتلاك المسلمين إياه يُعد أكبر مصيبة يمكن أن تحلّ بالفرنجة. وعبثاً قدّم الروم ثم الجورجيون الكثير من الهدايا ووجهوا إلى صلاح الدين الرسل بعد الرسل الذين رفض استقبالهم.. وبقي صليب الصلبوت بين عفش السلطان.



حواشي الفصل الثالث والعشرون

١ ــ وصول ملك فرنسا وخبر الباز الذي اصطاده المسلمون.

«وكان قد شاع الخبر بأن ملوك الفرنج واصلون، وهم حاشدون حافلون. فوصل ملك الفرنسيس فليب في ست بطس عظام، مملوءة بفوارس ذوي إقدام، فقلنا ما حمل الماء إلّا أهل النار، وما أجلب للدوابر إلّا الدبار. وكان عظيماً عندهم من كبار ملوكهم ينقادون له بحيث إذا حضر حكم على الجميع، ومازالوا يتواعدونا به حتى قدم. وصحبه من بلاده باز عظيم عنده هائل الخلق أبيض اللون نادر الجنس. وكان يعزه ويحبه حباً عظيماً، فطار من يده.. حتى سقط على سور عكا فاصطاده أصحابنا وأنفذوه إلى السلطان وبذل الفرنج فيه ألف دينار فلم يجابوا. قال القاضي ابن شداد: ولقد رأيته وهو يضرب إلى البياض، مشرق اللون مارأيت بازياً أحسن منه. قال العماد: وكان مع هذا الملك باز أشهب، كأنه عند إرساله نار تتلهب. ففارقه يوم وصوله بحيث عجز عن حصوله.» (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٨٣ وانظر: ابن شداد ١٥٧).

٢ ــ عن حصار الفرنجة عكا ومضايقة المسلمين المحاصرين داخلها.

«وهدمت المنجنيقات من السور مقدار قامة الرجل، فكان في هذه الفترة للبلد بقاء رمق، وزوال فرق، وانتعاش عثرة، وانجبار كسرة.. ثم تكررت الرسائل من الفرنج إلى السلطان شغلاً للوقت بما لا طائل تحته، منها أنّ ملك (الانكلتيرة) طلب الاجتماع به ثم فتر بعده أياماً، ثم جاء رسوله يطلب الاستئذان في إهداء جوارح جاءت من البحر، ويذكر أنها قد ضعفت وتغيرت، وطلب أن يحمل لها دجاج وطير تاكله لتقوى ثم تهدى، ففهم أنه يحتاج إلى ذلك لنفسه لأنه حديث عهد بمرض. ثم نفذ أسيراً مغربياً عنده فأطلقه السلطان. ثم أرسل في طلب فاكهة وثلج فأرسل إليه ذلك. وكان غرضهم من ذلك تفتير العزمات وتضييع الأوقات على المسلمين، وهم مشتغلون بالحصر وموالاة الرمي والجدّ في الزحف، حتى تبدلت قوة البلد بالضعف، وتخلخل السور، وأنهك التعب والسهر أهل البلد لقلة عددهم وكثرة الأعمال عليهم، حتى إنّ جماعة منهم بقوا ليالي عدة لا ينامون أصلاً ليلاً ولا نهاراً والعدوّ عدد كثير يتناوبون على قتالهم. واشتد ذلك عليهم سابع جمادى الآخرة فركب السلطان بالعسكر الإسلامي ورغبهم ونخاهم، وزحف على خنادق القوم حتى دخل فيها العسكر، وجرى قتال عظيم، وهو كالوالدة الثكلى يحرك فرسه

من طلب إلى طلب ، ويحث الناس على الجهاد وينادي بنفسه يالإسلام ، وعيناه قد فارت بالدمع ، وكلما نظر إلى عكا وما حل بها من البلاء وما يجري على من بها من المصاب العظيم ، اشتد في الزحف والحث على القتال . ولم يطعم في ذلك اليوم طعاماً البتة وإنّما شرب شيئاً أشار به الطبيب ولما هجم الليل عاد إلى الخيم ، وقد أخذ منه التعب والكآبة والحزن ، ثم ركب سحراً وصبحوا على ما أمسوا عليه . وفي ذلك اليوم وصلت مطالعة من البلد يقولون فيها إنّا قد بلغ بنا العجز إلى غاية مابعدها إلّا التسليم ، ونحن في الغد إن لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان ، ونسلم ونشتري مجرد رقابنا وكان هذا أعظم خبر ورد على المسلمين وأنكاه في قلوبهم ، فإنّ عكا كانت قد احتوت على جميع سلاح الساحل والقدس ودمشق وحلب ومصر أيضاً . فرأى السلطان مهاجمة العدوّ فلم يساعده العسكر ، فإن الرجالة من الفرنج وقفوا كالسور المحكم البناء بالسلاح والزنبورك والنشاب من وراء أسوارهم . وهجم عليهم بعض الناس من بعض أطرافهم فثبتوا وذبوا غاية الذب . وحكى بعض من دخل عليهم أسوارهم أنه كان هناك واحد من الفرنج صعد سور خندقهم ، وجماعة يناولونه الحجارة وهو يرميها على المسلمين ، ووقع فيه زهاء خمسين سهماً وحجراً وهو يتلقاها ولم يمنعه ذلك عما هو بصدده من الذب ، حتى ضربه زراق بنفط فأحرقه . ورؤيت امرأة عليها ملوّطة خضراء ، فما زالت ترمي بقوس من خشب حتى جرحت جماعة ، ثم قتلت وحملت إلى السلطان فعجب من ذلك » . (ابن شداد : النوادر السلطانية ص ١٦٥ ـــ ١٦٧ ، أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٨٦) .

٣ ـــ وكانت الأوضاع تأخذ مساراً مأساوياً بالنسبة للمسلمين داخل عكا المحاصرة ومن كتاب فاضلي إلى الديوان جاء فيه نقلاً عن كتاب الروضتين :

« إنّ ما قطع الخادم الخدم إلا أنه قد أضجر وأسأم من المطالعة بخبر هذا العدوّ الذي قد استفحل أمره ، واستشر شره . فإن الناس ما سمعوا ولا رأوا عدوّاً حاصراً محصوراً ، غامراً مغموراً ، قد تحصن بخنادق يمنع الجائز من الجواز ، ويعوق الغرض عن الانتهاز . ولا تقصر عدّتهم عن خمسة آلاف فارس ومائة ألف راجل . وقد أفناهم القتل والأسر ، وأكلتهم الحرب ولقمهم النصر . وقد أمدّهم البحر بالبحار ، وأعان أهل النار . واجتمع في هذه الجموع من الجيوش الغربية والألسنة الأعجمية من لا يحصى معدوده ولا يصور في الدنيا وجوده ، فما أحقهم بقول أبي الطيب :

تجمـــع فيـــه كل لسن وأمـــــة ... فما يفهـم التحـديث إلا التراجـم

حتى انه إذا أسر الأسير واستأمن المستأمن ، احتيج في فهم لغته إلى عدّة تراجم ينقل واحد عن آخر ، ويقول ثان ما يقول أوّل وثالث ما يقول ثان . والأصحاب كلّوا وملّوا ، وصبروا إلى أن ضجروا ، وتجلدوا إلى أن تبلدوا . والعساكر التي تصل من المكان البعيد لا تصل إلا وقد كل ظهرها ، وقل وفرها ، وضاق بالبيكار صدرها . ولا تستفتح إلّا بطلب الدستور ، ويصير ضجرها مضراً بالسمعة عند العدّو المخذول . ولهم قاتلهم الله تنوع في المكائد ، فإنهم قاتلوا مرّة بالأبرجة ، وأخرى بالمنجنيقات ، ورادفة بالدبابات ، وتابعة بالكباش ، وآونة باللوالب ، ويوماً بالنقب ، وليلاً بالسرابات ، وطوراً بطم الخنادق ، وآناً بنصب السلالم ، ودفعة بالزحوف في الليل والنهار ، وحالة في البحر بالمراكب . ثم شرعوا فأقاموا في وسط خيامهم حائطاً مستطيلاً يشبه السور من التراب ، وتلالاً تشبه الأبرجة مدوّرة ورفعوها بالأخشاب . وعالوها بالحجارة ، فلما كملت أخذوا التراب من ورائها ، ورموه قدّامها ، وهم يتقدمون أوّل أوّل ، وترتفع حالاً بعد حال ، حتى صارت منه كنصف غلوة سهم . وقد كان الحجر والنار تؤثران في

أبرجة الخشب. وهذه أبراج وستائر للرجال والمنجنيقات من العطب، لا تؤثر فيها الحجارة الرامية، ولا تعمل فيها النار الحامية». (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٨٥ ـــ ١٨٦).

٤ ـــ فشل محاولة خروج المسلمين المحاصرين من عكا:

«قال العماد: وبات العسكر تلك الليلة على الخيل تحت الحديد منتظراً الأمل البعيد. ولما عرف السلطان أنه لا سلامة، وأن عكا عدمت الاستقامة. نفذ إلى جماعة عكا سراً. وقال لهم: خذوا من العدوّ حذراً، واتفقوا واخرجوا ليلاً من البلد يداً واحدة، وسيروا إلى جانب البحر، وصادموا العدوّ بالقهر. وخلوا البلد بما فيه، واتركوه بما يحويه. فشرعوا في ذلك، واشتغل كل منهم باستصحاب ما يملكه، ولم يعلم أنَّ التهاءه به يهلكه. فما تمكنوا من المراد حتى أسفر الصباح. ولم يصح ذلك في الليلة الثانية، لمصير السر إلى العلانية. قال: ولو صح ذلك لنجح المقصد. لكن الفرنج اطلعوا على هذا السرّ، فحرسوا الجوانب والأبواب. وكان سبب علمهم، اثنين من غلمان الهاربين، خرجا إلى الملاعين، وأخبراهم بجلية الحال وعزيمة الرجال». (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٨٧).

٥ ـــ عن تحركات الفرنجة الجماعية قبل سقوط عكا، راجع ابن شداد: النوادر السلطانية ص ١٦٩.

٦ ـــ رسائل أهل عكا المحاصرين إلى صلاح الدين لما ضاق بهم الحصار:

الرسالة الأولى:

«إنا بلغ منا العجز إلى غاية ما بعدها إلا التسليم. ونحن في الغد ـــ يعني يوم الأربعاء ثامن جمادى الآخرة ـــ إن لم تعملوا معنا شيئاً نطلب الأمان ونسلم البلد ونشتري مجرد رقابنا.» (النوادر السلطانية لابن شداد ١٦٧).

الرسالة الثانية:

«إنا قد تبايعنا على الموت. ونحن لا نزال نقاتل حتى نقتل، ولا نسلم هذا البلد ونحن أحياء، فأبصروا كيف تصنعون في شغل العدو عنا ودفعه عن قتالنا. فهذه عزائمنا، وإياكم أن تخضعوا لهذا العدو أو تلينوا له، فأما نحن، فقد فات أمرنا. (ابن شداد: النوادر السلطانية ص١٦٩ ـــ ١٧٠).

رسالة أهل عكا الأخيرة للسلطان:

ضايق الفرنج عكا كل المضايقة، ولم يتمكن السلطان صلاح الدين من إنقاذها أو التخفيف عن المحصورين، وحاول الاتفاق مع الفرنج فتعنتوا كل التعنت، وعلم أهل عكا تعنت الفرنج، فأرسلوا إلى السلطان يقولون قبيل سقوط البلد بيد الفرنج.

يامولانا: لا تخضع لهؤلاء الملاعين الذين قد أبوا عليك الإجابة إلى ما دعوتهم فينا، فإنا قد بايعنا الله على الجهاد حتى نقتل عن آخرنا، وبالله المستعان. (ابن كثير: البداية والنهاية ج ١٢ ـــ ٣٤٤).

٧ ـــ ذكر حديث مصالحة أهل البلد ومصانعتهم عن نفوسهم

ولما كان يوم الجمعة سابع عشر جمادى الآخرة خرج العوّام من الثغر، ونطقت كتبه أن أهل البلد ضاق

بهم الأمر وكثرت الثغر، وعجزوا عن الحفظ والدفع، ورأوا عين الهلاك، وتيقنوا أنه متى أخذ البلد عنوة ضربت أعناقهم عن آخرهم، وأخذ جميع ما فيه من العدد والأسلحة والمراكب وغير ذلك، فصالحوهم على أنهم يسلمون إليهم البلد وجميع ما فيه من الآلات والعدد والمراكب ومائتي ألف دينار، وألف وخمسمائة أسير مجاهيل الأحوال، ومائة أسير معينين من جانبهم، يختارونهم، وصليب الصلبوت، على أن يخرجوا بأنفسهم سالمين، وما معهم من الأموال والأقمشة المختصة بهم، وذراريهم ونسائهم، وضمنوا للمركيس الملعون — فإنه كان قد استرضى وعاد — عشرة آلاف دينار، لأنه كان واسطة، ولأصحابه أربعة آلاف دينار واستقرت القاعدة على ذلك بينهم وبين الفرنج. (ابن شداد: النوادر السلطانية ١٧٠ — ١٧١).

٨ — ذكر استيلاء العدو على عكا (يسّر الله فتحها):

ولما وقف السلطان — رحمة الله عليه — على كتبهم، وعلم مضمونها، أنكر ذلك إنكاراً عظيماً، وجمع أرباب المشورة من أرباب دولته وأكابرها، وعرّفهم ذلك وشاورهم فيما يصنع واضطربت به آراؤه، وتقسّم فكره، وتشوّش حاله، وعزم على أن يكتب في تلك الليلة مع العوّام، وينكر عليهم المصالحة على هذا الوجه، وهو في مثل هذا الحال، فما أحسّ المسلمون إلا وقد ارتفعت أعلام الكفر وشعاره وناره على أسوار البلد وذلك في ظهيرة نهار الجمعة سابع عشر جمادى الآخر سنة سبع وثمانين وخمسمائة وصاح الفرنج صيحة واحدة، وعظمت المصيبة على المسلمين، واشتد حزن الموحدين وانحصر كلام العقلاء في تلاوة: ﴿إنا لله وإنا إليه راجعون﴾. وغشي الناس بهتة عظيمة، وحيرة شديدة، ووقع في العسكر الصياح والعويل والبكاء والنحيب، وكان لكل قلب حظ في ذلك، على قدر إيمانه، ولكل إنسان نصيب هذا الحظ على قدر ديانته ونخوته، واقشعت الحال على أنه استقرت تلك القاعدة بين أهل البلد وبين الفرنج على الحال المتقدم، وأن المركيس الملعون دخل البلد ومعه أربعة أعلام للملوك، وأخذ عوضه محمد بن باريك — رحمه الله — وكان شجاعاً من شجعان الإسلام — رحمه الله — فنصب المركيس علماً على القلعة، وعلماً على مئذنة الجامع في يوم الجمعة، وعلماً على برج الداوية، وعلماً على برج القلعة عوضاً عن علم الإسلام، وحيز المسلمون إلى بعض أطراف البلد، وجرى على أهل الإسلام المشاهدين لذلك الحال ما كثر التعجب من الحياة معه. ومثلتُ بخدمة السلطان — رحمة الله عليه — وهو أشد من الوالدة الثكلى والولهة الحيرى، فسليته بما تيسر من التسلية، وأذكرته الفكر فيما قد استقبله من في معنى البلاد الساحلية والقدس الشريف، وكيفية الحال في ذلك، وإعمال الفكر في خلاص المسلمين المأسورين في البلد، وذلك في ليلة السبت الثامن عشر منه. وانفصل الحال على أن رأى التأخر عن تلك المنزلة مصلحةً فإنه لم يبقَ غرضٌ في المضايقة، فتقدم بنقل الأثقال ليلاً إلى المنزلة التي كان عليها أولاً بشفر عم، وأقام هو جريدة — رحمة الله عليه — في مكانه لينظر ماذا يكون من أمر العدو وحال أهل البلد، فانتقل الناس في تلك الليلة إلى الصباح، وأقام هو جريدةً راجياً من الله تعالى أنه ربما حملهم غرورهم وجهلهم بالخروج إليه، والهجوم عليه، فينال منهم غرضاً، ويلقي نفسه عليهم، ويعطي الله النصر لمن يشاء، فلم يفعل العدو شيئاً من ذلك، واشتغلوا بالاستيلاء على البلد، والتمكن منه» (ابن شداد: النوادر السلطانية ١٧١ — ١٧٢).

٩ — رسالة الفاضل إلى شمس الدولة بن منقذ، يخبره بها عن سقوط عكا: انظر (أبو شامة: كتاب الروضتين

ج ٢ ص ١٨٨ ــ ١٨٩ ، ابن واصل: مفرج الكروب ج ٢ ص ٣٦١ ، ابن الفرات في تاريخه ج ٤ ص ٢ ــ ٢٥).

١٠ ــ عن المفاوضات بين المسلمين والصليبيين حول أسرى عكا:

«ولم تزل الرسل تتردد بين الطائفتين حتى كان يوم الجمعة تاسع رجب.. وفي ذلك اليوم خرج حسام الدين حسين بن باريك المهراني، ومعه اثنان من أصحاب الانكتار، فأخبر أن ملك الفرنسيس سار إلى صور ــ يسَّر الله فتحها ــ وذكروا شيئاً من تحرير أمر الأسارى، وطلبوا أن يشاهدوا صليب الصلبوت، وأنه هل هو في العسكر أو حُمل إلى بغداد؟ فأحضر صليب الصلبوت، وشاهدوه وعظموه، ورموا نفوسهم إلى الأرض، ومرغوا وجوههم على التراب وخضعوا خضوعاً عظيماً لم يُرَ مثله، وذكروا أن الملوك قد أجابوا السلطان ــ رحمة الله عليه ــ إلى أن يكون ما وقع عليه القرار يدفع في تروم (أي نجوم) ثلاثة كل ترم شهر. ولم تزل الرسل تتواتر في تحرير القاعدة وتنجيزها حتى حصل لهم ما كانوا التمسوه من الأسارى والمال المختص بذلك الترم، وهو الصليب، ومائة ألف دينار، وألف وستمائة أسير، وأنفذوا ثقاتهم، وشاهدوا الجميع ما عدا الأسارى المعيتين من جانبهم، فإنهم لم يكونوا فرغوا من تعيينهم، ولم يكلموهم حتى يحصلوا، ولم يزالوا يطاولون ويقضون الزمان حتى انقضى الترم الأول فكان انقضاؤه في ثامن عشر رجب. ثم أنفذوا في ذلك اليوم يطلبون ذلك فقال لهم السلطان ــ رحمه الله ــ «إما أن تنفذوا إلينا أصحابنا، وتتسلموا الذي عين لكم في هذا الترم، ونعطيكم رهائن على الباقي، يصل إليكم في ترومكم الباقية، وإما أن تعطونا رهائن على ما نسلمه إليكم حتى تخرجوا إلينا أصحابنا». فقالوا: «لا نفعل شيئاً من ذلك، بل تسلمون ما يقتضيه هذا الترم، وتقتنعون بأماننا حتى نسلم إليكم أصحابكم». فأبى السلطان ــ رحمه الله ــ ذلك، لعلمه أنهم إن تسلموا المال والصليب والأسرى، وأصحابنا عندهم، لا يؤمن غدرهم.»

ولما رأوه ــ رحمة الله عليه ــ قد امتنع من ذلك، أخرجوا خيامهم إلى ظاهر خنادقهم مبرزين، وذلك في نهار الأربعاء الحادي والعشرين من رجب من شهور سنة سبع وثمانين وخمسمائة، وكان الذي برز ملك الانكتار ومعه خلق عظيم من الخيّالة والرجّالة والتركيل.

١١ ــ ذكر قتل المسلمين الذين بعكا:

ولما رأى الانكتار الملعون توقف السلطان ــ رحمة الله عليه ــ في بذل المال والأسارى والصليب غدر بأسارى المسلمين، وكان قد صالحهم وتسلم البلد منهم على أن يكونوا آمنين على نفوسهم على كل حال، وأنه إن دفع السلطان إليهم ما استقرّ أطلقهم بأموالهم وذراريهم ونسائهم، وإن امتنع من ذلك ضرب عليهم الرق، وأخذهم أسارى، فغدر بهم الملعون، وأظهر ما كان أبطن، وفعل ما أراد أن يفعله بعد أخذ المال والأسارى على ما أخبر به عنه أهل ملته فيما بعد، وركب هو وجميع عسكر الفرنجية راجلهم وفارسهم في وقت العصر من يوم الثلاثاء السابع والعشرين من رجب سنة سبع وثمانين وخمسمائة، وساروا حتى أتوا الآبار تحت تل العياضية، وقدموا خيامهم إليها، وساروا حتى توسطوا المرج بين تل كيسان والعياضية، وكان اليزك الإسلامي قد تأخر إلى تل كيسان لما قدموا خيامهم إلى تحت تل العياضية، ثم أحضروا من الأسارى المسلمين من كتب الله شهادته في ذلك، وكانوا زهاء ثلاثة آلاف مسلم في الحبال، وأوثقوهم في الحبال، وحملوا عليهم حملة الرجل الواحد، فقتلوهم صبراً طعناً وضرباً

بالسيف — رحمة الله عليهم — واليزك الإسلامي يشاهدهم، ولا يعلم ماذا يصنعون لبعدهم عنهم، وكان اليزك قد أنفذ إلى السلطان — رحمة الله عليه — وأعلمه بركوب القوم ووقوفهم، فأنفذ إلى اليزك مَنْ قوّاه، وبعد أن فرغوا حمل المسلمون عليهم، وجرت بينهم حرب عظيمة، جرى فيها قتل وجرح من الجانبين. ودام القتال إلى أن فصل الليل بين الطائفتين، وأصبح المسلمون يكشفون الحال، فوجدوا المسلمين الشهداء في مصارعهم، وعرفوا مَنْ عرفوه منهم، وغشي المسلمين بذلك حزنٌ عظيم وكآبة عظيمة، ولم يبقوا من المسلمين إلّا رجلاً معروفاً مقدماً أو قوياً أيداً، للعمل في عمائرهم. (ابن شداد: النوادر السلطانية ص١٧٣ — ١٧٤).

١٢ — قول العماد في شهداء عكا:

«فشاهدناهم مستشهدين بالعرا عرايا مجرّدين. ولا شك إنّ الله كساهم من سندس النعيم، ونقلهم إلى دار المقامة في العز المقيم. وتصرف السلطان حينئذ في المال، وفرّق مجموعه في رجاء الرجال. وأعاد الأسارى إلى أربابها، واحتوت عليها بدمشق أيدي أصحابها. وحفظ الصليب السليب وردّه إلى مكانه، وأعاده إلى صوانه، لا لعزه بل لهوانه. فإنّه لا مصاب عندهم أعظم من استيلائنا عليه، وامتداد أيدينا إليه، وقد بذل فيه الروم ثم الكرج بذولاً، وأنفذوا بعد رسول رسولاً، فما وجدوا قبولاً، ولا صادفوا سولاً.» (أبو شامة: كتاب الروضتين ص١٨٩ — ١٩٠).

الفصـــل الـرابـع والعشرون

ملك انكلترا يسعى لتنصيب أسرته في الأرض المقدّسة

أوضاع الصليبيين بعد سقوط عكا

وبعد مغادرة ملك فرنسا ، وتركه قيادة قواته لهو غ دي بورغونيه ، لم يعد ريكاردوس قلب الأسد يشارك أحداً بمقاليد السلطة ؛ إنه يملك وحده . وبعد عكا أصبح الانكليزي البطل غير المنازع للحملة الصليبية الثالثة . ففي عكا ــ بعد سنوات الحرمان ، وضراوة المعارك الأخيرة ــ غدا الفرنجة في رخاء . كانت المراكب القادمة من كل موانىء الغرب تُنزل في المدينة المحتلة أفّاقات جميلات وبناتٍ داعرات ، أصبحت تلك المدينة كما يقول الشاعر امبرواز انطاكية ثانيةً ، فالأخلاق فيها تفقد صرامتها شيئاً فشيئاً . ونسي المنتصرون بطريقة فاقدة الحياء أكثر مما ينبغي ما قاسوه ردحاً طويلاً من وطأة الحرمان الرهيبة . كان تدفق هذه الشبيبة البعيدة عن الروح الحربية من الكثرة ــ كما يقول امبرواز ــ بحيث لن ترافق النساء الجيوش مستقبلاً ، بل يبقين في المدينة باستثناء الخوادم والغسّالات اللائي ينظفن ثياب الجنود واللاتي يفلين رؤوسهم من البراغيث ، كما تفعل القرود .

الصليبيون يزحفون صوب مدن الساحل الفلسطيني

وبعد مضي يومين على مذبحة المسلمين الفظيعة، تلقت القوات الأمر بالزحف إذ عزم الصليبيون على استرداد أشهر مدن الساحل الفلسطيني: قيصرية، يافا، عسقلان تلك المدن التي يعتبر امتلاكها ضرورياً لتأمين مراكز انطلاق وطيدة تمهيداً لعملية في المستقبل ضد القدس. وتذكر هذه المسيرة على طول الساحل تحت شمس آب المحرقة، في منطقة مدمرة تدميراً منهجيّاً، تحت أقدام الصليبيين، تذكر بأكثر من ناحية بالمسيرة القدرية إلى حطين. كان غي دي لوزينيان ــ كعهده في تشرين الأول (اكتوبر) ١١٨٧ ــ يقود الطليعة وريكاردوس قلب الأسد يقود القلب ودوق بورغونيه المؤخرة. كان المشاة الموزعون على الجناحين يتقدمون بخطا الواثق بانتظام؛ وكل منهم مدجج سابغ التسليح، وكانت حمائل سيوفهم من الالتصاق ببعضها بعضاً حتى ليستحيل على سهام العدو أن تنفذ من بينها، وتسربل كل فرد بدرّاعة من الجوخ المبطّن بالقطن لا تخترقها أشد القذائف حدّة؛ حتى خامر قلب قاضي الجيش الإسلامي الذعر عندما رأى رجلاً مرتدياً مثل هذا اللباس، وقد انغرز اثنا عشر سهماً في ظهره وهو مايزال جاداً في مسيره على طول الساحل، وكأنَّ شيئاً لم يحدث.

كان ثقل الخيالة الصليبية يتقدم في القلب يحدق به سور حيّ من المشاة، ترفرف فوق الجيش آلاف الرايات، وكان الأسطول الفرنجي الذي يجري محاذياً الساحل يؤمن التموين. ولعدم تمكنه من الهجوم الشامل، كان صلاح الدين يتبع خطة استنزاف الفرنجة بمجموعات صغيرة سريعة الحركة من المماليك تنقض انقضاض البزاة مرخية الأعنّة على هذا المعسكر المتحرك محاولة أن تعمل سيوفها هنا وهناك ضاربة عدداً من الرجال ثم تعود بالسرعة ذاتها. كان يبدو على المسلمين أنهم يحاذون الفرنجة في مسيرتهم نحو الجنوب؛ لا تنقطع المناوشات بين الجيشين، وبعد ستة أيام من الزحف وصل الجيش الفرنجي أمام قيصرية المدينة المغرقة في القدم التي زينها هيرودس، والتي انقلبت فيما بعد مركزاً للحكام الرومانيين، وعندما اقترب منها جيش الفرنجة لاذ سكانها فراراً، ولم يتوقف فيها ريكاردوس قلب الأسد، فالحرب كما تبدو طويلة الأمد غير مؤكدة النتائج.

ملك انكلترا يسعى للتفاوض مع صلاح الدين

وبعد أن اتخذ ملك انكلترا موقفاً أمام أرسوف، أبولونية القديمة الواقعة قرب يافا سعى

إلى التفاوض مع صلاح الدين، ناسياً أن بينه وبين القائد العربي مذبحة ثلاثة آلاف من الأسرى المسلمين، ومن جانبه أعلن صلاح الدين أنه ليس ضد المفاوضات شريطة أن يكون هدفها تحقيق اتفاق دائم بين الفريقين وأوكل إلى أخيه مهمة التفاوض على الصلح.

وتمت المقابلة بين الملك العادل وريكاردوس قلب الأسد في ٥ ايلول (سبتمبر) ١١٩١ في أحراج أرسوف بحضور أونفروا دي تورون المكلّف بترجمة أقوال شقيق صلاح الدين.

انقطاع مباحثات الصلح والاحتكام كرة أخرى للسلاح

وحينما سأل الملك العادل عن شروط الصلح التي يقترحها ملك انكلترا، أجاب هذا الأخير بأن على المسلمين أن يعيدوا إليه مملكة القدس، وأن ترتد الجيوش الإسلامية إلى الحدود السورية القديمة[1]. فانقطعت المفاوضات من فورها وانسحب الملك العادل مُغضَباً، واحتكم الفريقان كرة أخرى للسلاح. ويوم السبت ٦ ايلول (سبتمبر) أعني بعد مضي أربع وعشرين ساعة فقط على لقاء العادل وريكاردوس، كان القتال يحتدم قرب نهر الأعوج بين أرسوف والرملة. وفدحت خسائر الجانبين، وفي الساعة التاسعة صباحاً كان ثلاثون ألفاً من الجيش الإسلامي صادقو العزيمة يحدقون بالجيش الفرنجي مطوقين إياه بتصميم، يتقدم الأمراء عازفو الأبواق وحملة الطبول، تليهم سرايا الخيالة السوداء وبدو الصحراء الهائجون، كان الهجوم برياً بحرياً معاً كما يكتب امبرواز ويوافقه بهاء الدين لكون الفرنجة مضطرين إلى حث الخطى ليبلغوا أرسوف حيث سيتوقفون، أخذ المسلمون بخناقهم، ملجئين إياهم لأسوأ موقف، ويفخر المسلمون بأنهم قضوا عليهم قضاءً سهلاً. تلك هي المرحلة الأولى من المعركة التي تستحضر للذاكرة معركة حطين، بيد أن القائد كان هذه المرة يعرف مهنته؛ فبعدما تمّ تجاوز المشاة منذ بدء القتال وقد أخذوا يتقهقرون على طول الجبهة ويُسحقون واخترق الجناحان، وتجندل قتيلاً جاك آفين ودب الذعر في صفوف جنده، عندها أطلق ملك انكلترا خيّالته الثقيلة القوية؛ وكان له من الجرأة في غمرة هزيمته ما جعله ينتقل إلى الهجوم وينتصر، وقتل أو جرح الكثير من جند الإسلام بينهم عدد من الأمراء.

لكن صلاح الدين أصرّ على الثبات في حومة المعركة؛ وأعاد الكثير من الهاربين إلى

القتال، ثم أمر بقرع الطبل وأمر خيالته ـــ باذلاً جهده الأخير ـــ فانقضّوا على الفرنجة المنعزلين عن خيالتهم وهكذا عاد ظافراً بعد أن أصبح على قاب قوسين من الهزيمة وفوت النصر على الفرنجة.

صلاح الدين يأمر بتدمير عسقلان

وانحدر الفرنجة نحو عسقلان التي أصبحت بعد ازدهارها القديم مدينة بحرية صغيرة محصّنة تشرف على الطرق الممتدة بين مصر وفلسطين. وكان ملك انكلترا يرمي من وراء احتلاله إياها أن يقطع كل اتصال بين البلدين العربيين لانتقال الرجال أو المؤن.

وكان صلاح الدين يريد أن يترك حامية في عسقلان، ولكن أمراءَه أقنعوه بالعدول عن ذلك مخافة أن يحل بها ما حلّ بحامية عكا، ونصحوه بمتابعة المعركة ومراقبة تحركات الأعداء وإنهاكهم بمعارك جانبية خاطفة تمهيداً لمعركة كبرى. وقالوا له: إن هدف الفرنجة هو بلوغ القدس، وقد أصبحوا منها على بضع مراحل ومن رأيهم أن تقوّى حامية القدس ما داموا لا يستطيعون بلا خسائر فادحة وقف زحف الفرنجة. وبما أن قواتهم لا تفي بترك حامية في كل مدينة، فالأجدى أن يُحْدِق الخراب بطريق الفرنجة؛ فأمر صلاح الدين بتدمير عسقلان وقلبها رأساً على عقب[٢]، كما دمرت قديماً نينوى أو بابل أو طيبة ذات المائة باب. وكان صلاح الدين قد تجوّل في أسواقها، وبعد دمارها غادرها وكتب إلى ابن أخته عماد الدين الزنكي صاحب سنجار. قائلاً: «إنني موقن بأني بهدمي عسقلان قد أمّنت حياة القدس وخلاصها»[٣].

وصول ريكاردوس قلب الأسد إلى يافا

وخلال ذلك كان ريكاردوس قلب الأسد يستقر في يافا، ولكن غدا جيش الفرنجة على درجة من الإنهاك لا يستطيع معها حتى التقاط أنفاسه وقد لزمه سبعة عشر يوماً لقطع المسافة بين عكا ويافا، بينما يستلزم قطع هذه المسافة في الأحوال العادية مسيرة يومين اثنين فقط.

ورمّم ريكاردوس قلب الأسد أسوار يافا؛ وحدث له آنذاك حادث تافه كاد أن يودي بحياته؛ فبينما كان في رحلة صيد بجوار الرملة حيث خيّم جيش صلاح الدين، وقد بلغ منه الإرهاق مبلغه من الحر، جلس معتمداً جذع شجرة ليستريح ونام، وفجأة أيقظه صراخ

مرافقيه من الفرسان ، فإذا فريق من المسلمين يضرب حوله الطوق . فقفز إلى صهوة جواده وقاوم المهاجمين بعض الوقت مع قوته الصغيرة ، وكاد أن يقتل لو لم يصرخ أحد رفاقه باللغة العربية وقد أرعبه الخطر المحدق بحياة سيده : «أنا الملك حافظوا على حياتي .» فلحق به المهاجمون وأسروه ، بينما أخذ ملك انكلترا طريقه إلى يافا .

وبقي الصليبيون شهرين في يافا قضاهما الجيش وسط مباهج تذكّره بأيام عكا ؛ خاصة وقد ضاقت النسوة ذرعاً بالبقاء وحدهنّ في عكا فسرْن إلى يافا ؛ وفيما هم غارقون في ابتهاجهم كان صلاح الدين يهدم الرملة واللّد ، فصار طريق القدس قاعاً صفصفاً .

كونراد دي مونفرّا يتآمر على ريكاردوس ويتصل سراً بصلاح الدين

هنا تتمحور مؤامرة كونراد دي مونفرّا الذي لم ينس أن ريكاردوس قلب الأسد جرّده ساعة مغادرة ملك فرنسا من جميع مناصبه التي سبق أن أسنده إليه فيليب أوغست ، وجرّده من ألقابه وحقوقه بعرش القدس . كما هدده بأن ينتزع منه صور وإمارتها ، وبأن يشنقه بلا محاكمة على أحد أبراج الميناء المصري القديم ، في المدينة التي ظلت ردحاً طويلاً ، خاضعة لحكم الفراعنة ؛ ولكي يتفادى هذا العار وجه كونراد دي مونفرّا رسالة صداقة إلى صلاح الدين عارضاً عليه تحالفه ضد الانكليزي . ولم يكن في هذا ــ بعد كل حساب ــ مايصدم ، لأنها ليست المرة الأولى التي نرى فيها أميراً فرنجياً كبيراً يسعى إلى محالفة أمير مسلم . وكان هذا المارق يطالب المسلمين ثمناً لخيانته بأن يسلّموه بيروت وصيدا ، ويتعهّد بأن يقاتل ملك انكلترا ، بل أن يباغت أصدقاءَه القدامى في عكا لكي يتمكن من إعادة هذه المدينة إلى صلاح الدين ، وبدت القضية لهذا الأخير أجمل ما ينبغي ، مما حمله على التفكير في أن مركيز صور ينصب له فخاً ، ولذا عمد إلى مطالبته بشروط مسبقة لأي اتفاق معه ، منها أن يباده كونراد دي مونفرّا ملك الانكليز بالحرب .

ريكاردوس يخادع كونراد ويفاوض سراً صلاح الدين

بيد أن ريكاردوس الذي كانت خيالته السرّية تجترح العجائب اطلع على مساعي المركيز ، وعَمِل ــ مؤجلاً الانتقام من هذا المغرور فوق العادة ــ على استقدام امدادات إلى عكا لحمايتها من أيّة مفاجأة . وبوصفه لاعباً ماهراً أرسل إلى كونراد دي مونفرّا يستفسره عن

أ.راضه العصبية، ويوقظ في سويدائه وحوش الطمع، ذاكراً له القدس التي أصبح هو منها على مسافة مائة كيلو متر فقط، جاعلاً تاجها يسطع باهراً أمام عيني المركيز العجوز، وترنّ في أذنيه ألقاب جذابة، واضعاً عقله موضع التعذيب.

وبعدما حار كونراد دي مونفرّا بين صلاح الدين وريكاردوس قلب الأسد لعب ورقة ملك الانكليز القريب الشأو من القدس، وذهب لمقابلته في مخيّمه بثياب احتفالية. وتصالح البطلان، وفيما كان الانكليزي يخادع الطامع بعرش القدس ويهدهد أحلامه بمملكة لم يكن ينوي فعلاً الاستيلاء عليها، كان يعرض الصلح مرة أخرى على صلاح الدين، وقابل أخاه الملك العادل عدة مرات. وكانت الشروط ما تزال هي هي: فريكاردوس قلب الأسد يطالب بالقدس وأراضي الضفة الغربية للأردن وصليب الصلبوت. وأجابه صلاح الدين: «إن البلاد التي تطالب بها لم تكن يوماً ملككم، ولم يشأ الله أن يجعلكم تضعون فيها حجراً واحداً. لقد أغرتم عليها وانتزعتموها منّا زمن ضعف المسلمين. فالقدس ليست أقلّ قدسية بالنسبة إلينا مما هي بالنسبة إليكم. فإلى القدس كان إسراء نبينا محمد؛ ولن يكون في مقدورنا أن نتخلى لكم عن هذه المدينة المشرفة دون أن يلحقنا العار إلى الأبد»(٤).

وكانت المفاوضات التي يتابعها الطرفان بشيء من الحماسة تطول وتطول، وانقضت الأيام والأسابيع والطرفان يتناقشان لوضع النقاط على الحروف وكلاهما يدرك أنَّ ما تعوزه هي الحجة الفيصل: القوة. حينذاك عرض ريكاردوس قلب الأسد على صلاح الدين بوساطة أخيه الملك العادل حلاً، وإن لم تؤيد نصه الأصلي أيّ من المصادر العربية أو الفرنجية، ويبدو لنا مجرد مزاح مؤرخ. لقد عَرَض أخته حنة أرملة غيوم ملك صقلية زوجةً لشقيق صلاح الدين على أن يكون مقدم صداقها الجزء الذي استولى عليه من الساحل مع عكا والرملة وأرسوف ويافا وخرائب عسقلان، أمّا الملك العادل صهره العتيد فيتلّقى مملكة القدس.

وهكذا تصبح شقيقة ملك انكلترا العظمى وشقيق سلطان مصر وسورية وما بين النهرين ونجد ملكة وملك القدس بنعمة صلاح الدين. ولم يستشر ريكاردوس قلب الأسد، كونراد دي مونفرّا أو غي دي لوزينيان مجرد استشارة؛ ويقال إن الملك العادل رأى في ذلك الزواج السياسي مصلحة للأيوبيين وللإسلام معاً. ولكن صلاح الدين الذي لم يكن من سجيته التحمس للمظاهر الخداعة، لم يُبدِ من الحماسة ما كان يرجوه ريكاردوس. وهيهات

أن ينسى ما وقر في سويدائه من تدين، لذا لم يكن ليغريه مثل هذا الحل للحرب المقدسة (الجهاد) التي سبق أن أعلنها خليفة بغداد. ومع ذلك لم يعارض هذا الزواج، وأصبحت زيارات الملك العادل لمخيَّم ريكاردوس قلب الأسد يوميّة. وكان الأخير يحتفي احتفاء بالغ الدقة بالشخص الذي شرع يعتبره علناً صهره؛ فنصب له قرب خيمته خيمة استقبال، ولم ينفك يغمره ترحاباً، ويقدم له الحلويات والأشياء الفنية النفيسة؛ وكان الملك العادل يصطحب معه بعض لاعبي القيثارة، ومغنية عربية ويضع مع ملك انكلترا مشاريع المستقبل(٥).

ورغم كل ذلك لم يقطع صلاح الدين الاتصال بكونراد دي مونفّرا، لأنه كان على بينة من العداء المستحكم بين ملك الانكليز ومركيز صور. ومن أغرب الأمور أن صلاح الدين رغم فشله في عكا يترضاه قطبا معسكر الفرنجة، وكان لديه متسع من الوقت يفكر فيه بهدوء كيلا يرتمي ارتماء أعمى بين ذراعي ريكاردوس قلب الأسد أو كونراد دي مونفّرا ويمكن القول: إن وضعه لم يكن في أيّة لحظة أفضل مما هو عليه الآن. فريكاردوس قلب الأسد ينشد ضم الأيوبي إلى أسرة البلانتاجيني، وكونراد يسعى إلى صداقة صلاح الدين، لكي يطرد الانكليزي من الأرض المقدسة. أجل! كان ملك انكلترا يناور لكي ينتزع مملكة القدس من المطالبين بها، ولم يكن ليتردد في أن يستند إلى تأييد صلاح الدين الذي طردهم منها؛ لكنّ الصحيح أن موقف ريكاردوس قلب الأسد لم يكن البتة واضحاً أمام نبلاء الفرنجة حتى تخلى عنه أفضل مؤيديه: دوق بورغونية، الهيكليون، الجرمان، الجنويون، واستقبلهم كونراد دي مونفّرا في مخيمه، ومنذ تلك اللحظة أصبح السؤال هو أي من الاثنين: ريكاردوس أو كونراد سيحصل أولاً على توقيع صلاح الدين. فأونفروا دي تورون كان يجهد سعياً لصالح البلانتاجيني — والأمير دي ساجيت كان بالغ التوق في أن يكون الوسيط الرسمي لمركيز صور لدى السلطان. ومن جهته كان صلاح الدين حريصاً على أن يظل هذا الخلاف شاجراً ما بين هذين الرجلين، ولذا طفق يبذل الوعود لكليهما معاً، وهو يعيد بناء أسوار القدس. وهكذا كانت نتيجة تلك المفاوضات البرق الخلب للفرنجة، وبهدف شَغْلِهِمْ عن واقعهم ذاك حملهم ريكاردوس على إعادة تشييد مدينة عسقلان، وكانت أعمال البناء هذه تزعج الكثير من سوادهم، لأنهم — كما كانوا يقولون — لم يأتوا إلى هنا لحفر الخنادق، وبناء الأسوار، ولكن لطرد المسلمين من القدس. وفرّ جمع غفير منهم، فبعضهم عبر البحر، ويمم بعضهم الآخر شطر صور. أمّا الذين لبثوا حيث هم فطالبوا بالقتال.

وقرر ريكاردوس أن يخيّم ليلة عيد الميلاد تحت أسوار المدينة المقدسة، عند ذاك تكشفت نتائج سياسته الرعناء. ففي اليوم التالي لمعركة عكا ١٣ تموز (يوليو) ١١٩١ كانت القدس المحرومة الموارد، الخالية من الجنود لحمايتها الخاوية من القمح لإطعام سكانها، المجردة من التحصينات تقريباً حتى لتكاد تكون في متناول يد ريكاردوس الذي لم يكن عليه إلّا مسيرة بضع ساعات لاستلابها من عدوٍ أضعفت معنوياته هزيمة عكا. أما الآن بعد أربعة أشهر فالزمن غدا متأخراً جداً. فصلاح الدين قد شحن المدينة بقوّات سابغة السلاح وافرة المؤن، وسهر بنفسه على تدعيم تحصيناتها بأسرع ما يستطاع، كما لم يغفل عن تدمير كل المنطقة المحدقة بها تدميراً منهجياً. فهذا الزحف الفرنجي على القدس كان عديم الجدوى. فبعد أن سحق ريكاردوس قلب الأسد في ٣٠ تشرين الأول (اكتوبر) ١١٩١ مفرزة في يازورهي على مسافة ثمانية أميال شمالي شرقي الرملة، قاد جيشه إلى اللد على طريق يافا ــ القدس حيث دهمته الأمطار في منطقة مستنقعات، فاضطر إلى التخييم ثلاثة أسابيع.

جيش الفرنجة ينكفىء عن القدس بعد أن غدا قاب قوسين منها

وفي منتصف شهر كانون الأول (ديسمبر) أصبح على مرأى من القدس؛ «وكان الطقس ــ كما كتب امبرواز ــ قارص البرد متلبد الغيوم، تجوده أمطار طوفانية؛ ونفقت حيواناتنا تحت وطأة الصواعق فيما كان يقوض خيامنا داهم المطر، ووقع تساقط البرد، وأفسدت المياه خبزنا، وأنتنت لحوم الخنزير، وصَدَئت آلاتنا وملابسنا الحديدية».. وهُرِع بدو المناطق المجاورة طمعاً في السلب فأنزلوا ضرباتهم الخاطفة بالجيش المبتلّ من المطر، المرتعد برْداً، والذي كان يتقدم بمتناهى البطء في الطرقات الموحلة، وتعود كرات العدو فيقطعون عنه قوافل تموينه مكرهين إياه على البقاء بحالة استنفار دائم. وأصبح الفرنجة على مرأى من القدس؛ ولكن هل كان جيشاً حقاً؟

«كان الأفراد مرضى منطوي البطون على الجوع ولكنهم ــ كما يتابع امبرواز ــ كانوا مبتهجين بأمل أن يستطيعوا أخيراً بلوغ القبر المقدس». وتوقف ريكاردوس قلب الأسد على مسافة عشرين كيلو متراً من القدس. وعقد اجتماعاً لمجلسه، وتردّد. كان فرنجة المغرب يودون متابعة الزحف نحو القدس، على حين كان فرنجة المشرق يبغون الرجوع إلى الساحل. كانوا

يتوجسون خوفاً من أن يصبحوا بين فكي كماشة : حماة القدس ، وجيش صلاح الدين المسيطر على الريف . كان هذا الخطر شبيهاً بذاك الذي سبق أن واجهوه تحت أسوار عكا ولكنه هذه المرة أخطر ، لأنهم بمنأى عن البحر وبعيدون عن حماية الأساطيل الفرنجية . وكان الصليبيون على شبه يقين بأن امداداتهم ومواصلاتهم مع الساحل يمكن أن يقطعها عليهم البدو ، كما ترامى إليهم أن جيشاً إسلامياً جديداً بقيادة أبي الهيجا (السمين) قد وصل من مصر . وفي ١٠ كانون الثاني انكفأ الجيش الفرنجي متقهقراً إلى الوراء بعد أن غدا على مرأى من القدس ، وارتد إلى الساحل ؛ ليستأنف من جديد مناوشاته وهو في منجاة من الخطر .



حواشي الفصل الرابع والعشرون

١ — جاء في كتاب الروضتين لأبي شامة عن طلب ملك الانكليز ريتشارد قلب الأسد الاجتماع بالملك العادل لعرض الصلح على المسلمين :

« وطلب ملك الانكيتار الاجتماع بالملك العادل خلوة فاجتمعا ، فأشار بالصلح ، وكان حاصل كلامه : إنه طال بيننا القتال ، ونحن جئنا في نصرة إفرنج الساحل ، فاصطلحوا أنتم وهم ، وكل منا يرجع إلى مكانه . فقال : على ماذا يكون الصلح . قال : على أن يسلم إلى أهل الساحل ما أخذ منهم من البلاد فأبى الملك العادل . وأخبره أن دون ذلك قتل كل فارس وراجل . فرجع مغضباً » . (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٩١ تاريخ ابن الفرات ج ٤ ص ٣٣) .

٢ — عن قرار صلاح الدين هدم عسقلان :

« قال العماد : ورحل السلطان ونزل بظاهر عسقلان بعد العصر وشرع فيما عزم عليه من الأمر ، وكان لما نزل بالرملة أحضر عنده أخاه العادل وأكابر الأمراء ، وشاور في أمر عسقلان ذوي الآراء فأشار علم الدين بن سليمان بن جندر بخرابها ، للعجز عن حفظها على مابها ، ووافقه الجماعة وقالوا قد ضاق عن صونها الاستطاعة . فإن هذه يافا قد نزلوا بها وسكنوا فيها . وهي مدينة بين القدس وعسقلان متوسطة ولا سبيل إلى حفظ المدينتين فاعمد إلى أشرف الموضعين فحصنه وحكمه . فاقتضت الآراء إقامة العادل بقرب يافا مع عشرة من الأمراء حتى إذا تحرك العدو كانوا منه على علم .

قال القاضي : أشار عليه بتخريب عسقلان خشية أن يستولي عليها الفرنج وهي عامرة فيتلفوا من بها من المسلمين ، ويأخذوا بها القدس الشريف ، ويقطعوا طريق مصر . وخشي السلطان من ذلك ، وعلم عجز المسلمين عن حفظها لقرب عهدهم من عكا وما جرى على من كان مقيماً بها . فسار حتى أتى عسقلان ، وقد ضربت خيمته شماليها ، فبات هناك مهموماً بسبب خراب عسقلان ، وما نام تلك الليلة إلا قليلاً ، ولقد دعاني إلى خدمته سحراً ، وكنت فارقته بعد مضي نصف الليل فحضرت وبدا بالحديث في معنى خرابها . وأحضر ولده الأفضل وشاوره في ذلك وطال الحديث . ولقد قال رحمه الله : « والله لأنْ أفقد أولادي بأسرهم أحب إليّ من أن أهدم منها

حجراً واحداً، ولكن إذا قضى الله بذلك وعينه لحفظ مصلحة المسلمين طريقاً فكيف أصنع». قال: ثم استخار الله تعالى فأوقع في نفسه أنّ المصلحة في خرابها، فاستحضر الوالي وأمره بذلك في تاسع عشر شعبان. ولقد رأيته وقد اجتاز بالسوق والوطاق بنفسه يستنفر الناس للخراب، وقسم السور على الناس وجعل لكل أمير وطائفة من العسكر بدنة معلومة وبرجاً معلوماً يخربونه. ودخل الناس إلى البلد، ووقع فيه الضجيج والبكاء. وكان بلداً نضراً خفيفاً على القلب محكم الأسوار عظيم البنا مرغوباً في سكناه، فلحق الناس عليه حزن عظيم وكان هو بنفسه وولده الأفضل يستعجلان الناس في الخراب، خشية أن يسمع العدوّ فيحضر ولا يمكن من خرابها. وأمر بحريق البلد فأضرمت النار فيه، والأخبار تتواتر من جانب العدوّ بعمارة يافا. وخرب من سوق عسقلان معظمه وكان عظيم البناء بحيث إنه كان في موضع تسع أذرع وفي موضع عشراً وذكر بعض الحجارين للسلطان وأنا حاضر، إنّ عرض البرج الذي ينقبون فيه مقدار رمح فلم يزل الخراب والحريق يعملان في البلد وأسواره إلى سلخ شعبان.» (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٩٢ — ١٩٣).

٣ — رسالة صلاح الدين إلى صاحب سنجار يعلمه أنه بهدمه عسقلان، قد أمنّ عصمة القدس:

«قد تقدم الإعلام بما جرى عند رحيل العدو على قصد عسقلان، وما تم عليه منا في طريقه من النكاية والخذلان، وأنه قطع في سبعة عشر يوماً مسافة يومين لما لابسه وغامره في الحين، وما صدق كيف وصل إلى يافا فأظهر بها الاستيطان وأقام بها يعمر المكان. وهذه مدينة يافا متوسطة بين القدس وعسقلان، ومنها إلى كل واحدة منهما مسافة نصف نهار، وكلتاهما من العدو على خوف وحذار، وكل واحد من الموضعين يحتاج في تحصينه إلى ثلاثين ألف مقاتل، وتعذر الجمع بين حفظ الثغرين وتحصين البلدين: وتعينت في تخريب عسقلان عمارة القدس وتحصينه وعصمته من العدو وتأمينه.» (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ١٩١).

٤ — لقد أرسل ملك الانكليز ريتشارد قلب الأسد رسالة موجهة إلى صلاح الدين عن طريق أخيه الملك العادل، جاء فيها:

إنك تسلم عليه وتقول له: إن المسلمين والفرنج قد هلكوا، وخربت البلاد وخرجت من يد الفريقين بالكلية، وقد تلفت الأموال والأرواح من الطائفتين، وقد أخذ هذا الأمر حقه، وليس هناك حديث سوى القدس والصليب والبلاد، والقدس فمتعبدنا ما ننزل عنه ولو لم يبق منا واحد، وأما البلاد فيعاد إلينا منها ما هو قاطع الأردن، وأما الصليب، فهو خشبة لا مقدار له عندكم وهو عندنا عظيم، فيمن به السلطان علينا ونصطلح ونستريح من هذا العناء الدائم.

وكان جواب صلاح الدين لريتشارد قلب الأسد على رسالته التي نقل القاضي ابن شداد فحواها، قوله:

القدس لنا كما هو لكم، وهو عندنا أعظم مما هو عندكم، فإنه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة، فلا يتصور أن ننزل عنه ولا نقدر على التلفظ بذلك بين المسلمين، وأما البلاد فهي أيضاً لنا في الأصل، واستيلاؤكم كان طارئاً عليها لضعف من كان بها من المسلمين في ذلك الوقت، وما أقدركم الله على عمارة حجر منها مادام الحرب قائماً، ومافي أيدينا نحن منها نأكل بحمد الله مغله وننتفع به، وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظمية، ولا يجوز أن نفرط فيها إلا لمصلحة راجعة إلى الإسلام هي أوفى منها. (ابن شداد: النوادر السلطانية ص ١٩٤).

٥ ـ لقد ذكرت المصادر العربية عرض ريتشارد قلب الأسد على صلاح الدين الصلح أن يتزوج أخوه الملك العادل شقيقة ريتشارد : ومما جاء في النوادر السلطانية لابن شداد : رسالة حول اقتسام الساحل الفلسطيني بين ريتشارد والملك العادل ، وفي رسالة أخرى عن مشروع الزواج الذي اقترحه ريتشارد وكاد أن يتم لولا معارضة البابا لذلك ، وعرض ملك الانكليز على صلاح الدين أن يزوجه ابنة أخته إنْ قبل ذلك ..
ـ رسالة أخرى من ملك الانكليز إلى صلاح الدين من أجل الصلح :

إني أحب صداقتك ومودتك ، وإنك ذكرت أنك أعطيت هذه البلاد الساحلية لأخيك فأريد أن تكون حكماً بيني وبينه ، ولا بد أن يكون لنا علقة بالقدس الشريف ، ومقصودي أن تقسم البلاد بحيث لا يكون عليه لوم من المسلمين ، وتقسم البلاد بيني وبينه ، ولا علي لوم من الإفرنجية .
ـ رسالة أخرى من ملك الانكليز إلى صلاح الدين حول الصلح وحول تزويج أخته من الملك العادل ، وهو مشروع الزواج الذي اقترحه ريتشارد قلب الأسد وكاد يتم لولا أن البابا عارض في ذلك :

إن معاشر دين النصرانية أنكروا عليَّ وضع أختي تحت مسلم دون مشورة البابا ، وهو كبير دين النصرانية ومقدمه . وها أنا ذا أسير إليه رسولاً يعود في ثلاثة أشهر ، فإن أذن فبها ونعمتْ ، وإلا زوجتك ابنة أختي وما أحتاج في إذنه في ذلك . (ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣) .



الفصـل الخـامـس والعشـرون

الصلح الصعب

البحث عن مخرج من المأزق

وعاد فصل الشتاء فسرح صلاح الدين جيشه لأنه لم يعد الآن يخشى شيئاً من جانب الفرنجة الذين ارتدوا في كانون الثاني ١١٩٢ إلى قواعدهم على الساحل ولكن قبل أن يفترق عن أمراء جيشه وقادته بعد تقويم النتائج من ربح وخسارة، عقد مجلسه الحربي ليعرف مع أي من الاثنين يجب أن يعقد الإسلام الصلح: كونراد دي مونفرّا، أو ريكاردوس قلب الأسد.

وخلال حياته التي أمضى سحابتها على صهوة جواده، وقّع صلاح الدين مع الفرنجة الكثير من المعاهدات، بحيث لم يكن يجهل شيئاً عن صدق هذه الوثائق وأمدها، ولكن ما حصل من تصدّع في معسكر أعدائه، شاهدٌ بين على أن الأمور، تجري لصالحه.

كان الجميع متعبين مرهقين من الحرب، حتى إن ملك انكلترا نفسه لم يخفِ رأيه هذا لدى اجتماعه بالملك العادل في يازور قبل زحف الصليبيين على القدس. فالمدن مدمرة في كل مكان، وغدت الامدادات بالرجال والمؤن معدومة لدى الفريقين. لطول ما راوح الجنود في مكانهم مكتفين بمناوشات خاطفة بين المواقع المتقدمة، ولكثرة ما دفنوا من الموتى،

وما شاهدوا من المدن المحترقة خفت لهب الحماسة في صدور الجميع، ودونه تصبح الجيوش كتلاً فاقدة الحركة، وخاصة جيوش تلك الأيام التي تفتقد وسائل التدمير الضخمة التي تمتلكها قيادات جيوش العصر الحاضر، ومنذ عدة أشهر كانوا يخبطون اندفاعاً في نفق دون أن يروا أي بصيص للأمل في آخره فالحماسة تحتاج إلى الحركة لتدوم، وكذلك إلى انتصارات، وإلّا فهي تصدأ حتى في أعمق أشجع القلوب.

كان على المسلمين والفرنجة معاً بعد تلك السنين الطويلة من متواصل المعارك المرهقة أن يقروا أن من الأفضل لكليهما معاً محاولة التفاهم بهدف الخروج من هذا المأزق الذي ولجوه.

حالة اللاحرب واللاسلم المديدة

مع الأسف كان الصلح تلك الأيام ــ كما هو في يومنا هذا ــ صعباً. ففي مطلع عام ١١٩٢ هدفَ صلاح الدين أن يطيل إلى مالا نهاية حالة اللا سلم واللا حرب المتأرجحة، بين المسلمين والفرنجة. إذ قال لأمرائه: «إن السلم الذي يريده أعداؤنا لن يحترموه، فإذا متّ فسيغزون فلسطين مرةً أخرى؛ وقواتهم الآن تدمر نفسها، وإذا ما عرفنا كيف نزيد نارهم حطباً قضى عليهم أوارها ــ عما قليل ــ ولن يكون في مستطاعهم بعد ذاك أن يثبتوا أمامنا. فلنصبر ونتيقظ. وسنستأنف المعارك حالما نلمح الأمارات المؤاتية لنصر الإسلام الحاسم».[١]

التوقيع على تسوية سياسية مع مركيز صور في القدس

ولما سُرّحت القوات المحتشدة، ذهب صلاح الدين إلى القدس حيث وقع تسوية مع مركيز صور تتضمن اتفاقاً على النقاط التالية: يحصل رينو دي ساجيت الوسيط بين الفريقين مقابل مهمته، على مدينة صيداء وما تبعها من أراض ويستعيد الهيكليون والاسبتاريون القلاع التي كانوا يملكونها فيما سبق ويكتفي كونراد دي مونفرا بالمدن والأراضي التي قد ينتزعها من الفرنجة، وإذا سانده المسلمون فسيكتفون بالغنائم، وتظل عسقلان على الحياد؛ لا تطالها يدا الفريقين. وأما التحصينات التي أقامها فيها ريكاردوس قلب الأسد بعد احتلالها فتدمر دكاً عن آخرها.[٢] وبموجب هذا الاتفاق كانت تنازلات صلاح الدين منحصرة في أدنى الحدود.

كان يعيد صيداء التي لم تكن لها أية قيمة استراتيجية؛ وبعض الأكواخ المحصنة للهيكليين والاسبتاريين، أما كونراد دي مونفّرا فعليه بدهياً أن يخدم نفسه على حساب الفرنجة وفي هذا السياق إلى الصلح كان مركيز صور هو الواصل الأوّل (المحلّق)؛ ولما وضع كونراد دي مونفّرا هذا الاتفاق في جيبه، فكر في الوسائل الآيلة إلى جني الامتيازات الفوريّة منها، وخدمه الحظ مرة أخرى في مهمته المغامرة كما تمنّى، ويتذكر قراؤنا أنّ الجنويين انحازوا إليه، بينما انحاز البيزيون إلى غي دي لوزينيان.

انقسام صف الفرنجة مرة أخرى

وكان الجنويون إضافة إلى كونهم بحّارة ماهرين تجاراً حاذقين، وأنّى لهم أن يجدوا على الساحل السوري أفضل من ميناء عكا لحماية أساطيلهم التجارية؟ والحال فإن عكا هي التي سعى مركيز صور جاهداً إلى استعادتها من الفرنجة. فاتفق في شهر شباط (فبراير) ١١٩٢ مع الجنويين الذين كانوا في المدينة وانفجرت المؤامرة، بفضل تراجع دوق بورغونيه القائم على رعاية مصالح فيليب أوغست الذي سبق أن تشاجر مع ملك انكلترا وانحاز دوق بورغونيه إلى مركيز صور، لأن الجنويين كانوا يؤيدونه، وكانت هذه القطعة الصغيرة من العملة التي جاءت في اللحظة الأخيرة، كالقشة التي قصمت ظهر البعير فتسارعت الأحداث. ولكن البيزيين كانوا بدورهم في عكا ومصممين على عدم مغادرتها فاحتدم قتال الفريقين في الشوارع، فخف كونراد من صور على رأس مجموعة من مؤيديه وحاصر عكا ثلاثة أيام دون أن يتمكن من التغلب على مقاومة البيزيين. ولما أدرك هؤلاء أنهم لن يستطيعوا الإفلات من قبضة الجنويين وحلفائهم، نشدوا مساعدة ملك انكلترا الذي كان في قيصرية، وفي ليلة واحدة صار أمام المدينة التي طالما أجهد نفسه لينتزعها من المسلمين. وغادر كونراد منسحباً إلى معقله لدى سماعه أول نبأ عن قدوم ريكاردوس. ومنذ اليوم التالي عمل الانكليزي على أن يقرّب ما بين البيزيين والجنويين، وإحباط مشاريع مركيز صور. وعبثاً حاول أصدقاء مشتركون التوفيق بين كونراد دي مونفّرا وريكاردوس قلب الأسد، لأن ملك انكلترا الصلف المغرور قد اقترف الكثير من الأخطاء السياسية التي ذهب ضحيتها نبلاء الفرنجة المقيمون منذ زمن بعيد في سورية، كما كان مسؤولاً عن الكثير من الغوايات التي أفقدته يوماً عن يوم المزيد من الصداقات ومساندات الدعم في صفوف الفرنجة السوريين المتمسكين بامتيازاتهم وأرباحهم المطردة

التزايد، لا لشيء إلا إشباعاً لمطامعه الشخصية، وهكذا انفضّوا من حوله، وبصورة ظاهرة أكثر من حول محميّه الذي كان يدعم مطالباته بعرش القدس: غي دي لوزينيان.

الفرنجة يقررون تتويج مركيز صور ملكاً على القدس

كان هاجس كارثة حطين يذكّر بالعجز العسكري لغي دي لوزينيان، وفي اجتماع عقده ريكاردوس قلب الأسد في عسقلان في شهر نيسان (ابريل) ١١٩٢ ضمّ أهم بارونات الفرنجة لمحاولة حل المسألة الشائكة: مسألة وراثة عرش القدس. فأجمعت الآراء على عدم اعتراف فرنجة سورية البتة بغي دي لوزينيان ملكاً للقدس، وأن كونراد دي مونفّرا هو الوحيد القادر على كسب موافقتهم، لأنه كان في نظرهم جميعاً الأقدر والأجدر بمملكة القدس. لم يكن البلانتاجيني يحب مركيز صور، ومع ذلك صالحه تحت ضغط البارونات السوريين، وأرسل ابن أخيه كونت شمبانية إلى صور ليأتي بملك القدس العتيد إلى عكا حيث كان سيُتوج.

واجتاح فرنجة المشرق فرح غامر، وكانت تلك المصالحة الواقعية، وإن لم تكن العاطفية بين ريكاردوس قلب الأسد وكونراد دي مونفّرا تتراءى لهم المقدمة لإعادة احتلال القدس. فكونراد دي مونفّرا يتمتع بصفات رجل الدولة، وقد برهن على ذلك أكثر من مَرّة، فهو بارع صقلته سلسلة طويلة من التجارب في المشرق، حتى كان يستطيع أن يلتزم دون أن يفتضح أمره، وأن يخون بأناقة؛ ويعرف كيف يحافظ على صداقات له أقامها بين الرجال المحيطين بصلاح الدين، وكان هذا الأخير يكن له الاحترام والتقدير.

اغتيال كونراد دي مونفّرا وتنصيب البلانتاجيني ملكاً للقدس

في ٢٨ نيسان (ابريل) ١١٩٢ طاف نبأ فاجع من مدينة إلى مدينة موقعاً الفرنجة في حالة قَصْم ظهر بالغة: لقد اغتيل كونراد دي مونفّرا، إذ وجد صريعاً في أحد شوارع صور وفي خاصرته خنجر. ففيما كانت زوجته تستحم خرج شاخصاً إلى فيليب دي درو كبير أساقفة بوفي ملبياً دعوته لتناول طعام الغداء، ولم يعرف البتة مدّبر هذا الاغتيال الذي أعاد مسألة وراثة عرش القدس إلى جدول الأعمال اليومي. وتذهب الشائعة العامة إلى أن ملك انكلترا... كان وراء عملية الاغتيال هذه، لأن موت كونراد دي مونفّرا حسّن وضع

ريكاردوس السياسي، إذ لم يعد لحزب مونفّرا بعدما فقد رأسه أي مسوّغ لوجوده، فانهار من تلقاء نفسه، وطبيعي أن ينضم أفراده إلى ملك انكلترا، وكان غي دي لوزينيان ما يزال هناك، ولكن لم يعد وجوده يؤبه له، وحاميه فيليب أوغست بعيد عنه، ولذا هبت رياح الخضوع تجتاح الفرنجة. فخفّ دوق بورغونية والنمسا والبارونات السوريون النشطون والهيكليون والجنويون والجرمان جميعاً إلى الانكليزي واضعين أنفسهم طوعاً تحت حمايته؛ ولم يتخلف عن هذا الركب حتى أونفروا دي تورون الذي طالما عمل لصالح مركيز صور، وكان لسانه المفاوض لدى صلاح الدين، وهاقد جاء ساعياً يعرض خدماته على البلانتاجيني. وهكذا لم تكد جثة كونراد دي مونفّرا تبرد حتى كان خلفه على عرش القدس قد وُجِد، وكانت أسرة البلانتاجيني عن طريق هنري دي شمبانية تحتفظ للمستقبل بحقوقها في فلسطين. وبغية تعويض غي دي لوزينيان، وبالتالي إبعاده عن الأرض المقدسة تنازل له ريكاردوس قلب الأسد عن مملكة قبرص مقابل مائة ألف دوقية ذهبية دون أن يدفع شيئاً للهيكليين الذين سبق أن باعهم هذه الجزيرة. وظلت أسرة دي لوزينيان البواتية تملك في هذه المملكة اللاتينية الصغيرة حتى عام ١٤٨٩ إذ باعتها لدوقة البندقية كاترين كورنارو وريثة أسرة لوزينيان، وهي بدورها من البندقية.

الفرنجة يستأنفون القتال ويزحفون نحو القدس

وفي الربيع، عادت القوات الفرنجية إلى الهجوم، ففي ٢٤ أيار (مايو) ١١٩٢ استولوا على حصن الداروم الواقع على مسافة ثلاثين كيلو متراً جنوب عسقلان على طريق مصر، وتقرر مجدداً الزحف على القدس رغم اعتراضات ريكاردوس قلب الأسد إذ تلقى رسائل مزعجة من انكلترا، حيث طاب لأخيه بتشجيع ملك فرنسا، أن يقوم بلعبة غير مأنوسة، فيجلس على عرش الغائب. ورغم الحرّ البالغ القسوة وندرة الماء، بدأ الزحف، وكان المسلمون قد سمّموا مياه الينابيع والآبار، وتوقف الفرنجة قرب جبال الخليل على بعد أربعة وعشرين ميلاً إلى الشمال الشرقي من الداروم. حيث جرى اشتباك خفيف مع الطليعة الأيوبية، ثم توقفوا في تل الصافي على مسافة سبعة أميال إلى الشمال الغربي من بيت جبرين. وفي ١٠ حزيران (يونيو) تمركز جيش الفرنجة إلى الشمال من النطرون في بيت نوبة، بانتظار قوافل التموين وآلات الحصار. هناك جَمَّد ريكاردوس قلب الأسد جيشه، وما يزال هذا القرار دونما تفسير.

العدول عن فكرة حصار القدس والانسحاب إلى الرملة

وأمام القدس التي لم يبق يفصل ريكاردوس عنها سوى مسيرة يوم واحد خارت عزيمته، وفي الواقع كان يعتقد بأن ما لديه من الخبراء ومن العتاد لا يكفي لمحاصرة المدينة المقدسة التي حسب أن المسلمين قد حصنوها أكثر مما قدر.

ويذكّرنا ابن الأثير بمشاغل ريكاردوس قلب الأسد، حينما يعلمنا بأن ملك الانكليز، بعدما اطلع على مخطط المدينة ودرس النقاط الهامة فيها قال لمن كانوا يطالبونه ببدء الهجوم: «لا يمكن مهاجمة مثل هذا الموقع الحصين ما دام صلاح الدين على قيد الحياة، وما دام المسلمون على اتفاق فيما بينهم، وليس بمستطاعنا بآنٍ معاً، أن نحاصر القدس ونواجه في الأرياف قوات السلطان التي تنهكنا كما فعلت أمام عكا. ليس لدينا هنا البحر عن يميننا، ولا مراكب البندقية لحمايتنا»، ويُلاحَظ أن ملك انكلترا لم يكن يريد أن يتحمل مسؤولية حطين ثانية، وأنه يفضل الاحتفاظ بالمواقع المحتلة على الساحل، بصعوبة بالغة، سليمةً بدلاً من خسارة كل شيء في معركة يذكر ريكاردوس قلب الأسد بذعر نتائجها، إذا لم يحرز فيها غير النصر، وكان بالتالي قلقاً متردداً، لا يجرؤ على تخيّل ما ستسفر عنه هذه الحملة الصليبية الثالثة. ورغم رأي مستشاريه عدل عن حصار المدينة المقدسة، وفكر في عدة مشاريع يمكن أن ينشط فيها جيشه المجمّد. فكّر في العودة إلى الرملة لإقامة مخيّمه الشتوي، وفكّر في الصعود شمالاً حيث سيكون بمأمن أكثر في كونتية طرابلس. لتسوية عدد من المسائل العائلية، أو يتوجه إلى مصر لضرب سلطة صلاح الدين فيها. وراقت البلانتاجيني هذه الفكرة؛ فاشترى آلافاً من الجمال، وكان من الجنون المطبق أن يقوم بمثل هذه المسيرة عبر رمال سيناء المحرقة في حرّ تموز... واكتفى بأن ينسحب إلى الرملة...

ريكاردوس قلب الأسد يقترح على المسلمين عقد معاهدة سلم دائم

وفي تموز (يوليو) ١١٩٢ عاد الحديث عن الصلح وجاءت العروض الأولى من ريكاردوس قلب الأسد. لقد كان قلقاً، ويود العودة لبلاده بأسرع وقت مستطاع، حيث كان جان سانتير يسعى جاهداً يؤيده في مسعاه فيليب أوغست إلى تجريده من ممالكه. فأبلغ صلاح الدين بوساطة أخيه الملك العادل الذي كرسّه فارساً أنه مستعد بهدف تحقيق سلم

دائم بين الأمم الإسلامية وأمم الغرب، للقبول بتنازلات، فتخلى عن مطالبته بعرش القدس مكتفياً بالشريط الساحلي بين يافا وإمارة انطاكية. واقترح بأن تعود القدس مسيحيّة تحت حماية المسلمين، ويتعهد بعدم محاولته إعادة الاستيلاء على شبر واحد من أرض الجليل، وأن يعيش بتفاهم وحسن جوار مع صلاح الدين إذا تعهد هذا الأخير مقابل هذه التنازلات بأن يسمح بالممارسة الحرّة للدين المسيحي في كنائس المدينة المقدسة، ويسمح كذلك للحجّاج بزيارة القدس والأماكن المقدسة، دون أن يدفعوا الجزية للخزانة الأيوبية، وأن يقبل بوجود الرهبان والقسس في كنيسة القيامة، وإقامة عشرين جندياً انكليزياً في قلعة القدس.

انقطاع المفاوضات بين الفرنجة والمسلمين

وتظاهر صلاح الدين بالتأثر بنوايا عدوه السلمية، وأبدى فعلاً نية طيبة، وتبادل رسائل عاطفية مع ريكاردوس قلب الأسد، مؤكداً له أن ابن أخيه كونت شمبانية سيكون في نظره أعزّ أولاده، ولوّح باتفاق سياسي انكليزي أيوبي، وهذا ما كان يحبه ريكاردوس قلب الأسد بعد أن فشل في تزويج إحدى شقيقاته من أخي صلاح الدين، وبعد تبادلٍ للرسائل الأكاديمية، وإثر عدة مقابلات قلبية بين أونفروا دي تورون الاختصاصي بالمفاوضات، والقاضي الحاج يوسف الذي سبق أن سمع أن السلطان صلاح الدين يظهر شيئاً من الليونة إذ كان يريد أن يدع الساحل للفرنجة حسب طلبهم، ولكن شرط أن يتعهدوا بهدم أهمّ القلاع، التي أعاد ملك انكلترا بناءها بجهد جهيد، أعني غزة، والداروم وعسقلان، وأن تخطط مستقبلاً الحدود، بحيث يُترك للمسلمين حرية التصرف في القلاع التي أقامها الصليبيون داخل لبنان، ولكي يعوّض ملك انكلترا عن الإنشاءات التي أقامها في عسقلان يدع له الضياع المحيطة بها. ورفض ريكاردوس أن يهدم أسوار عسقلان فانقطعت المفاوضات(٣).

مهاجمة صلاح الدين يافا

وفيما كانت هذه المفاوضات تطول، تلقى صلاح الدين قوات جديدة من الموصل وسورية فهاجم في ٢٦ تموز (يوليو) يافا التي كانت في قبضة حامية فرنجية ضعيفة، ودخلها بعد ثلاثة أيام من الهجمات العنيفة ولما رأى الفرنجة أنفسهم مطوقين داخل الحي الذي كانوا فيه، أوفدوا بطريركهم ومدير قصرهم إلى صلاح الدين بطلب الأمان، فمنحهم السلطان

استبسلاماً مشرّفاً، وتقرر أن يتمّ التسليم في الغد. ولكن في الغد، وبناء على نصيحة بطريرك القدس الذي أنبأهم بأن ريكاردوس قلب الأسد قادم لمساعدتهم على رأس خمسين سفينة منها خمس عشرة ناقلة كبيرة مسلحة في بيروت، رفض الصليبيون فتح الأبواب للمسلمين، فقام هؤلاء بهجوم جديد، وقلبوا أحد الأبراج، وعبر ثغرة أحدثها رجال هندستهم دخلوا المدينة، ولكن صدهم جدار من النار إذ عمد الصليبيون لحرق القش والعشب اليابس لحجب رؤية العدو. ولما تبددت سحب الدخان ألفى المسلمون أنفسهم تجاه جدار آخر من رؤوس الحراب والسيوف. فكان الصليبيون المرفق على المرفق، - كما يقول بهاء الدين - يتحفزون متربصين بالمسلمين، وقد أقاموا من أجسادهم جداراً مكان الجدار المهدّم سادّين الثغرة بحيث يستحيل حتى على النظر أن يخترقها[٤].. ولكن النجدة الموعودة لم تصل، فاضطر الفرنجة يملأ نفوسهم هاجس الموت إلى طلب الاستسلام مرةً أخرى، فطلب صلاح الدين أن يفتدي الفارس بالفارس والراجل بالراجل، وفرض فوق ذلك على المحاصَرين في يافا غرامة حربية. ووافق المحاصَرون على هذه الشروط، فطلبوا من صلاح الدين وقف القتال، فأجابهم بأنه غير قادر على احتواء جنوده، فإذا كانوا حقاً يريدون البقاء أحياءً فعليهم أن يجتمعوا جميعاً في القلعة، وإلّا فلا يمكنني أن أتحمل مسؤولية حياتكم. وبالواقع كان المماليك يجهلون أمر التسليم، ولذا انتشروا في المدينة قاتلين كل من يضعه سوء الطالع في طريقهم، ولكي يحمي الفرنجة من الموت بادر صلاح الدين، وفاءً بوعده، إلى إرسال عدد من أعوانه الموثوق فيهم لحماية الصليبيين من جنده أنفسهم.

وفي هذه الأثناء كان ريكاردوس قلب الأسد يظهر مع سفنه أمام ميناء يافا، ولكن حينما شاهد الرايات الإسلامية ترفرف على الأسوار اعتقد أن المدينة قد سقطت، وفيما كان يتأهب للعودة على أعقابه مع أسطوله، تمكن أحد الفرنجة مخادعاً المسلمين أن يتسلل سباحةً حتى بلغ سفن ريكاردوس، وأعلمه أن جموعاً غفيرة من الفرنجة ما زالوا في القلعة يحمون مدخل الميناء، وقد أخفى عليه عمداً كونهم في القلعة بأمر من صلاح الدين وتحت حمايته.

الفرنجة يستعيدون يافا ويستأنفون مفاوضات الصلح

ورفع ملك انكلترا أشرعته باتجاه ميناء يافا، فبلغه ونزل إلى البر، عند ذاك قام

المحاصَرون في القلعة بقتل حراسهم، واحتلّ الفرنجة يافا من جديد. وأرسل ريكاردوس عدداً من المماليك الأسرى إلى صلاح الدين قائلاً لهم: «قولوا للسلطان على لساني لقد طالت هذه الحرب أكثر مما يجب، لقد قام كل منّا بمهمته التاريخية وقوانا منهكة، وينبغي لنا الآن أن نصون دماء رعايانا. واسألوه بالله الذي يعبد أن يمنحني شروطاً مشرفة لكي يعيش في سلام واحدنا مع الآخر.» فأجابه صلاح الدين بأنه ما يزال موافقاً على الشروط الأساسية، وأن المسائل الوحيدة الباقية هي عسقلان ويافا والداروم، واقترح أن تُقسم الإجاصة نصفين، فيحتفظ الفرنجة بيافا التي احتلوها مؤخراً، ويأخذ هو عسقلان[٥].

وبعد معركة يافا بشهر واحد، وخلال اشتباك ضارٍ بين المسلمين والفرنجة.. أصيب ملك الانكليز في هذا الصيف بالبرداء وألزمه المرض فراشه، وكان من الخطورة بمكان حيث أخذ المحيطون به ينتظرون سماع أنفاسه الأخيرة.

صلاح الدين يملي على الفرنجة معاهدة الصلح إملاء المنتصر

مرةً أخرى أعلن صلاح الدين هدنة عامة تشمل البرّ والبحر، وأحس ملك الإنكليز برغبة ملحة في الأجاص والدرّاق، فأمر صلاح الدين بأن ترسل إليه هذه الفواكه يوماً فيوماً مصحوبة بشراب لذيذ مبرّد بثلج لبنان. فعززت هذه الروحات والجيئات المحادثات، وكان الوقت آخر آب والجيش الفرنسي يستعد عن آخره لمغادرة سورية التي مني بها بالهزائم أكثر مما حاز من الانتصارات.

وكان ريكاردوس الأول بدوره يبغي العودة إلى انكلترا قبل موسم الأمطار. كانت النقطة التي ما تزال موضع خلاف هي عسقلان، إذ كان يريد أن يعوّضه صلاح الدين عن الأعمال التحصينية التي أجراها فيها، وأصرّ صلاح الدين على عدم التخلي عن هذا الموقع للفرنجة، فتراجع ريكاردوس. ومن تنازل إلى تنازل تخلّى تقريباً عن كل مطاليبه، لتأمين هذا السلم البالغ الصعوبة، دافعاً إياه حثيثاً في اللحظة الأخيرة، لأن قلقه أخذ يتزايد باستمرار لما يحدث في بلاده، ولأنه خشي أن يداهمه الشتاء. وهكذا أملى صلاح الدين معاهدة الصلح إملاء المنتصر رغم هزائم عكا وعسقلان ويافا[٦].

معاهدة الصلح تكرس عجز الفرنجة ومجد صلاح الدين

وفي يوم الأربعاء ٢٢ شعبان، ٤ ايلول (سبتمبر) ١١٩٢ وقع هنري دي شمبانية ابن أخت ملك انكلترا وخليفته على مملكة الساحل، وباليان الثاني ديبلين وأونفروا الرابع دي تورون والملك الأفضل والملك الظاهر، وقعوا باسم ملك انكلترا، وصلاح الدين سلطان سورية ومصر وما بين النهرين واليمن وثيقة ليست هي سلماً أبدياً، بل هدنة مدتها ثلاث سنين وثلاثة أشهر وثلاثة أيام. وبقي الساحل الممتد من يافا إلى عكا تحت سلطة الفرنجة، وبقيت عسقلان محايدة وقسمت منطقة الرملة ــ اللد قسمين أحدهما بيد الفرنجة، والثاني بيد المسلمين. وبموجبها كان المسيحيون يستطيعون الحج بحرية إلى الديار المقدسة، وكان مأذوناً لبعض التنظيمات الدينية أن تقيم في الأديرة التي أنشأتها وتدير شؤونها، وقرر أيضاً مصير الناس العاديين. لكن حادثاً تافهاً واحداً كاد يُفشل العملية. فقد رفض ملك انكلترا أن يؤدي القسم بحجة أن الملوك لا يحلفون، فاكتفى منه بالمصافحة علامة الالتزام (رواية ابن شداد).

وبعد ثلاثة أسابيع كان بوهيموند الثالث أمير أنطاكية يوقّع مع صلاح الدين معاهدة بيروت، واعترف له صلاح الدين بالسلطة على السهل الغني الممتد بين انطاكية وحارم. وحصل باليان الثاني على اقطاعية واقعة في الجنوب من حيفا، وكان نصيب رينو دي ساجيت مكافأة له على خيانته السياسية نحو صلاح الدين، وعلى معارفه الفقهية والنحوية العربية نصف أراضي صيداء، وحتى شيخ الجبل سنان المعلم الأكبر للحشاشين لم يقبل بأن يخرج بلا فائدة، وأبى إلّا أن يضع توقيعه في ذيل الرقّ الذي كرّس هذا الصلح العام[٧].

وأعلن النبأ السار على الفور في المعسكرات وفي أسواق المدن السورية، وفي جميع المناطق الخاضعة لحكم صلاح الدين أذاع الرسل أنه «باسم الله الرحمن الرحيم وبأمر من صلاح الدين، صلاح الدنيا والدين، تمّ الصلح بين الفرنجة والمسلمين. وصار مسموحاً لشعوب الفريقين أن تعيش بتفاهم، وأن تسافر وتتاجر بحرّية في أراضي الفريقين»[٨]. وأنقذ هذا الصلح الإسلام فصلاح الدين كان يوشك أن يموت. والحال أنه لو توفي خلال الحرب ــ كما يكتب القاضي ابن شدّاد ــ «لكان الإسلام في خطر»[٩].

تلك كانت نهاية هذا التحالف الضخم للشعوب، الذي عرف باسم الحملة الصليبية الثالثة. وكرست هذه النهاية مجد صلاح الدين وعبقريته، كما كرست عجز الفرنجة المنقسمين سعياً وراء قضايا مصلحية قذرة، أمام الإسلام الذي كان ظله يتعاظم، وشمل قارّات أخرى...

حواشي الفصل الخامس والعشرون

١ ــ من دراسة المصادر التاريخية لعهد صلاح الدين، نجد أنه كان يعتقد أن الفرنجة لن يحترموا السلم المعقود مع المسلمين مستقبلاً، وأن على المسلمين أن يقاتلوا الفرنجة حتى ينتزعوا النصر، ويحققوا القضاء على الممالك اللاتينية في المشرق العربي. (راجع ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٢٣٥).

٢ ــ عن التسوية التي توصل إليها صلاح الدين الأيوبي مع مركيز صور (راجع كتاب ابن شداد: النوادر السلطانية ص ١٩٠ ــ ١٩٩، ٢٠٠ ــ ٢٠٣).

٣ ــ الرسائل المتبادلة مابين صلاح الدين وريكاردوس قلب الأسد بحثاً عن معاهدة سلم دائم؛ انطلاقاً من مبدأ «مقاسمة البلاد»..

ــ رسالة ملك الانكليز ريكاردوس قلب الأسد إلى صلاح الدين:

إنّا قد وافقنا على مقاسمة البلاد وإن كل من في يده شيء فهو له فإن كان مافي أيدينا زائداً، أخذتم في مقابلته مايقابل الزيادة مما يخصنا، وإن كان مافي أيديكم أكثر فعلنا كذلك، ويكون القدس لنا، ولكم فيه الصخرة. (النوادر السلطانية: ابن شداد ص ٢٠٥).

ــ رسالة أخرى من ملك الانكليز إلى صلاح الدين أرسلها له شفهية مع رسول خاص:

تقول لصاحبك بأنا قد هلكنا نحن وأنتم، والأصلح حقن الدماء، ولا ينبغي أن تعتقد أن ذلك عن ضعف مني، بل للمصلحة، ويكون هو الواسطة بيننا وبين السلطان، ولا تغتر بتأخري عن منزلي، فالكبش يتأخر لينطح.

ــ رسالة أخرى من ملك الانكليز إلى صلاح الدين حول الموضوع نفسه أرسلها له مع رسول آخر:

تقول له: إنه راغب في مودتك وصداقتك، وإنه لا يريد أن يكون فرعون يملك الأرض، ولا يظن ذلك فيك،

ولا يجوز لك أن تهلك المسلمين كلهم ، ولا يجوز لي أن أهلك الفرنج كلهم ، وهذا ابن أختي الكندهري قد ملكته هذه الديار وسلمته إليك يكون هو وعسكره بحكمك ، ولو استدعيتهم إلى الشرق سمعوا وأطاعوا .
ويقول :

إن جماعة من الرهبان والمنقطعين قد طلبوا منك كنائس فما بخلت عليهم بها ، وأنا أطلب منك كنيسة ، وتلك الأمور التي كانت تضيق صدرك بما كان تجري المراسلة مع الملك العادل قد قلت بتركها وأعرضت عنها ، ولو أعطيتني مقرعة أو قرية لقبلتها وقبلتها .

ـ جواب صلاح الدين لملك الانكليز عن الرسالة السابقة :

إنك إذا دخلت معنا هذا الدخول فما جزاء الإحسان إلا الإحسان ابن أختك يكون عندي كبعض أولادي ، وسيبلغك ما أفعل في حقه من الخير ، وأنا أعطيك أكبر الكنائس وهي القمامة ، وبقية البلاد نقسمها ، فالساحلية التي بيدك تكون بيدك ، والتي بأيدينا من القلاع الجبلية تكون لنا . ومابين العملين تكون مناصفة ، وعسقلان وما وراءها تكون خراباً لا لنا ولا لكم ، وإن أردتم قراها تكون لكم ، والذي كنت أكرهه حديث عسقلان . (ابن شداد : النوادر السلطانية ص٢١٨ ـ ٢١٩) .

ـ رسالة من ملك الانكليز إلى صلاح الدين حول الصلح والقدس :

الذي أطلبه منك أن يكون لنا في قلعة القدس عشرون نفراً ، وأن من سكن من النصارى والفرنج في البلد لا يتعرض لهم . وأما بقية البلاد فلنا منها الساحليات والوطاة ، والبلاد الجبلية لكم .

ـ جواب صلاح الدين لملك الانكليز عن الرسالة السابقة :

إن القدس ليس لكم فيه حديث سوى الزيارة ، وأما البلاد فعسقلان وما وراءها فلابد من خرابه . (ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٢٠) .

ـ رسالة أخرى من ملك الانكليز إلى صلاح الدين حول الصلح :

إن الملك يسألك ويخضع لك في أن تترك له هذه الأماكن الثلاثة عامرة ، وأي قدر لها عند ملكك وعظمتك ؟ وما سبب إصراره عليها إلا أن الفرنج لم يسمحوا بها . وهو قد ترك القدس بالكلية ، لا يطلب أن يكون فيه رهبان ولا قسوس إلا في القيامة وحدها ، فتترك له أنت هذه البلاد ويكون الصلح عاماً ، فيكون لهم كل مافي أيديهم من الداروم إلى أنطاكية ، ويسلم مافي أيديكم ، وينتظم الحال ويروح ، وإن لم ينتظم الصلح فإن الفرنج لا يمكنونه من الرواح ولا يمكنه مخالفتهم .

ـ جواب صلاح الدين لملك الانكليز على رسالته السابقة :

إن أهل أنطاكية لنا معهم حديث ورسلنا عندهم ، فإن عادوا بما نريد أدخلناهم في الصلح ، وإلا فلا . وأما البلاد التي يسألها فلا يوافق المسلمون على دفعها إليه ، وإلا فلا قدر لها ، وأما سور عسقلان فيأخذ في مقابله ما خسر عليه لدا في الوطاة .

ـــ جواب ملك الانكليز إلى صلاح الدين عن الرسالة السابقة :

لا يمكننا أن نخرب من عسقلان حجراً واحداً ، ولا يسمع عنا في البلاد مثل ذلك وأما البلاد فحدودها معروفة لا مناكرة فيها . (ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٢١) .

٤ ـــ وصف حصار صلاح الدين مدينة يافا ، وقتال المسلمين والفرنجة ؛ عن بهاء الدين ابن شداد .
« وأشرف على يافا ثم نزل عليها من الغد ورتب عسكره ، في الميمنة ولده الظاهر ، وفي الميسرة أخوه العادل . وركب المنجنيقات ، وزحف عليها . فأرسل العدو رسولين نصرانياً وفرنجياً يطلبان الصلح . فطلب منهم قاعدة القدس وقطيعته . فأجابوا إلى ذلك ، واشترطوا أن ينظروا إلى يوم السبت تاسع عشر رجب ، فإنْ جاءتهم نجدة ، وإلا تمت القاعدة على ما استقر . فأبى السلطان الإنظار ، وأمر بالنقب فحشي وأحرق فوقع بعض البدنة . فوضع العدوّ أخشاباً عظيمة خلف النقب فالتهب ، فمنع من الدخول في الثلمة . وقاتلت خارج الأبواب إلى الليل ، فلما أصبحوا ، وقعت البدنة فعلا غبار مع الدخان ، فأظلم الأفق ، وما تجاسر أحد على الولوج خوفاً من اقتحام النار . فلما انكشفت الغبرة ، ظهرت أسنة قد نابت مناب الأسوار ، ورماح قد سدّت الثلمة ، حتى عن نفوذ الأبصار . ورأى الناس هولاً عظيماً من صبر القوم وثباتهم . ولقد رأيت رجلين على ممشى السور يمنعان المتسلق فيه من جهة الثلمة ، وقد أتى أحدهما حجر المنجنيق فأخذه ونزل إلى داخل ، فقام رفيقه في مقامه ، متصد بالمثل ما لحقه أسرع من لمح البصر ، بحيث لم يفرق بينهما إلّا نافذ بصير . ولما رأى العدوّ وما قد آل الأمر إليه سيروا يطلبون الأمان . فقال رحمه الله : الفارس بفارس ، والتركيلي بمثله ، والراجل بالراجل ، والعاجز فعلى قطيعة القدس . فنظر الرسول ، ورأى القتال على الثلمة أشدّ من إضرام النار ، فسأل السلطان أن يبطل القتال إلى أن يعود ، فقال : ما أقدر على منع المسلمين من هذا الأمر ، ولكن ادخل إلى أصحابك ، فقل لهم ينحازون إلى القلعة ، ويتركون الناس يشتغلون بالبلد . فما بقي دونه مانع . ففعلوا وانحازوا إلى قلعة يافا ، بعد أنْ قتل منهم جماعة . ودخل الناس البلد عنوة ، ونهبوا منه أقمشة عظيمة وغلالاً كثيرة وأثاثاً وبقايا قماش ما نهب من القافلة المصرية . واستقرت القاعدة على الوجه الذي قرره السلطان . وكان قايماز النجمي في طرف الغور لحمايته من عسكر العدوّ الذي لعكا . » (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٠٠ ـــ ٢٠١) .

٥ ـــ رسائل متبادلة بين صلاح الدين وريكاردوس قلب الأسد :

ـــ رسالة من ريتشارد قلب الأسد إلى صلاح الدين ، بعد استرداد يافا أرسلها مع رسول له يطلب فيها الصلح ، ويقول فيها :

بالله عليك أجب سؤالي في الصلح ، فهذا أمر لا بد له من آخر ، قد هلكت بلادي وراء البحر ، وما دام هذا مصلحة لا لنا ولا لكم .

ـــ جواب صلاح الدين إلى ملك الانكليز على الرسالة السابقة :

إنك كنت طلبت الصلح أولاً على قاعدة ، وكان الحديث في يافا وعسقلان . والآن قد خربت هذه يافا ، فيكون لك من قيسارية إلى صور .

ــ جواب ملك الانكليز إلى صلاح الدين عن الرسالة السابقة :
يقول الملك :

إن قاعدة الفرنج أنه إذا أعطى واحد لواحد بلداً صار تبعه وغلامه . وأنا أطلب منك هذين البلدين يافا وعسقلان ويكون عساكرهما في خدمتك دائماً ، وإذا احتجت إليّ وصلت إليك في أسرع وقت وخدمتك كما تعلم خدمتي .

ــ جواب صلاح الدين لملك الانكليز :

حيث دخلت هذا المدخل فأنا أجيبك إلى أن تجعل هذين البلدين قسمين : أحدهما لك وهو يافا وما وراءها ، والثاني لي وهو عسقلان وما وراءها .

ــ جواب ملك الانكليز لصلاح الدين مع رسول بلغه للسلطان :

يشكر الملك ويقول : إنه إن وقع الصلح في هذه الأيام الستة سار إلى بلاده ، وإلا احتاج أن يشتي هنا .

ــ جواب صلاح الدين لملك الانكليز :

أما النزول عن عسقلان فلا سبيل إليه . وأما تشتيته في هذه البلاد فلابد منها ، لأنه قد استولى على هذه البلاد ويعلم أنه متى غاب عنها أخذت بالضرورة ، وإذا أقام أيضاً إن شاء الله تعالى . وإذا سهل عليه أن يشتي ههنا ويبعد عن أهله ووطنه مسيرة شهرين وهو شاب في عنفوان شبابه ووقت اقتناص لذاته ، ما يسهل عليَّ أن أشتي وأصيف وأشتي وأصيف ، وأنا في وسط بلادي وعند أولادي وأهلي ، ويأتي إليَّ ما أريده ومن أريده . وأنا رجل شيخ قد كرهت لذات الدنيا وشبعت منها ورفضتها عني . والعسكر الذي يكون عندي في الشتاء غير العسكر الذي عندي في الصيف . وأنا أعتقد أني في أعظم العبادات ، ولا أزال كذلك حتى يعطي الله النصر لمن يشاء . (ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٢٨) .

ــ جواب ملك الانكليز لصلاح الدين عن الرسالة السابقة :

لكم أطرح نفسي على السلطان وهو لا يقبلني ، وأنا كنت أحرص حتى أعود إلى بلادي ، والآن فقد هجم الشتاء وتغيرت الأنواء وما بقي بيننا حديث . (تاريخ ابن الفرات ج ٤ ، ق ٢ ــ ص ٨١ ، نقلاً عن الوثائق الحروب الصليبية د . محمد ماهر حمادة ص ٢٣٦) .

٦ ــ رسالة ملك الانكليز إلى الملك العادل حول الصلح

مرض ملك الانكليز فأرسل له صلاح الدين فاكهة وثلجاً ، فأرسل ملك الانكليز إلى الملك العادل مع رسول يقول له :

قل لأخي ــ يعني الملك العادل ــ يبصر كيف يتوصل إلى السلطان في معنى الصلح ويستوهب لي منه عسقلان وأمضي ويبقى هو هاهنا مع هذه الشرذمة اليسيرة ويأخذ البلاد منهم ، فليس غرضي إلا إقامة جاهي بين الفرنجية ، وإن لم ينزل السلطان عن عسقلان فليأخذ لي عوضاً عن خسارتي على عمارة سورها .

ـــ رسالة صلاح الدين إلى أخيه الملك العادل حول عرض ملك الانكليز الأخير

إن نزلوا عن عسقلان فصالحهم ، فإن العسكر قد ضجروا من ملازمة البيكار والنفقات قد نفدت . (تاريخ ابن الفرات ج ٤ ، ق ٢ ص٨٣ـــ٨٤) .

٧ ـــ الاتفاقية مابين صلاح الدين وريكاردوس قلب الأسد .

« ثم إنّ الانكلتيري نزل عن عسقلان وعن العوض عنها ، واستوثق منه على ذلك . فأحضر السلطان الديوان يوم السبت ثامن عشر شعبان . وذكر يافا وعملها وأخرج الرملة منها واللد ومجدل يابا ، ثم ذكر قيسرية وأعمالها ، وأرسوف وعملها ، وحيفا وعملها ، وعكا وعملها ، وأخرج منها الناصرة وصفورية ، وأثبت الجميع في ورقة وقال للرسول : هذه حدود البلاد التي تبقى في أيديكم فإن صالحتم على ذلك فمبارك وقد أعطيتكم يدي ، فينفذ الملك من يحلف في بكرة غد . وإلّا فنعلم أنّ هذا تدفيع ومماطلة . وكان من القاعدة أن تكون عسقلان خراباً وأن يتفق أصحابنا وأصحابهم على خرابها . واشترط دخول بلاد الإسماعيلية . واشترطوا هم دخول صاحب أنطاكية وطرابلس في الصلح . وشرط أن تكون الرملة واللد بين المسلمين وبينهم مناصفة . واستقرت القاعدة على أنهم يحلفون يوم الأربعاء الثاني والعشرين من شعبان ورضي الإسبتارية والداوية وسائر مقدمي الإفرنجية بذلك . ولم يحلف الانكلتيري بل أخذوا يده وعاهدوه واعتذر بأن الملوك لا يحلفون . وقنع من السلطان بمثل ذلك . ثم حلف الجماعة فحلف الكندهري ابن أخته المتخلف عنه في الساحل وباليان بن بارزان ابن صاحبة طبرية ووصل ابن الهنفري وابن بارزان وجماعة من مقدميهم إلى السلطان فأخذوا يده على الصلح . واقترحوا حلف جماعة العادل والأفضل والظاهر والمنصور وسيف الدين المشطوب ودلدرم وابن المقدم وصاحب شيزر وكل مجاور لبلادهم ؛ وحلف صاحب أنطاكية وطرابلس وعلق اليمين بشرط حلفهم للمسلمين . قال : ووصل رسول سيف الدين بكتمر صاحب خلاط يبدي الطاعة والموافقة وتسيير العسكر ، وحضر رسول الكرج ، وذكر فصلاً في معنى الديارات التي لهم في القدس وعمارتها وشكوا من أنها أخذت من أيديهم ويسأل ردها إلى أيدي نوابهم . وورد رسول صاحب أرض الروم يبذل الطاعة . قال العماد : وعقدت هدنة عامة في البر والبحر ، والسهل والوعر . وجعل لهم من يافا إلى قيسارية إلى عكا إلى صور وأدخلوا في الصلح طرابلس وأنطاكية . ووقعت المصالحة مدة ثلاث سنين وثلاثة أشهر . أولها مبتدأ ايلول الموافق للحادي والعشرين من شعبان . » (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص٢٠٣ـــ٢٠٤) .

٨ ـــ اعلان الصلح :

قال القاضي ابن شداد : « أمرَ السلطان أن ينادى في الوطاقات والأسواق ألا إن الصلح قد انتظم . فمن شاء من بلادهم يدخل بلادنا فليفعل ، ومن شاء من بلادنا يدخل إلى بلادهم فليفعل . وأشاع ـــ رحمه الله ـــ أن طريق الحج قد فتح من الشام . ووقع له عزم الحج في ذلك المجلس ، وكنت حاضر ذلك جميعه . وأمر أن يسير مائة نقاب لتخريب سور عسقلان معهم أمير كبير ، ولإخراج الفرنج منها . ويكون معهم جماعة من الفرنج إلى حين وقوع الخراب في السور خشية من استيفائه عامراً . ففعل ذلك وخربت . وكان يوم الصلح يوماً مشهوداً غشي الناس من الطائفتين من الفرح والسرور ما لا يعلمه إلّا الله تعالى » . (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٠٤) .

٩ ــ موقف صلاح الدين من معاهدة الصلح ورأي القاضي بهاء الدين بن شداد بها، على أنها أنقذت الإسلام، يقول ابن شداد:

«والله العليم أن الصلح لم يكن من إيثاره ــ أي من إيثار صلاح الدين ــ فإنه قال لي ــ رحمه الله ــ في بعض محاوراته في الصلح: «أخاف أن أصالح وما أدري أي شيء يكون مني، فيقوى هذا العدو، وقد بقي لهم هذه البلاد، فيخرجوا لاستعادة بقية بلادهم، وترى كل واحد من هؤلاء الجماعة قد قعد في رأس تله ــ يعني حصنه ــ». وقال: «لا أنزل، ويهلك المسلمون». فهذا كلامه وكان كما قال، لكنه رأى المصلحة في الصلح لسآمة العسكر، ومظاهرتهم بالمخالفة، وكان مصلحة في علم الله تعالى، فإنه اتفقت وفاتُه بعيد الصلح، فلو كان اتفق ذلك في أثناء الوقعات لكان الإسلام على خطر، فما كان الصلح إلا توفيقاً وسعادة له، رحمة الله عليه.» (ابن شداد ــ النوادر السلطانية ص ٢٣٥).

الفصـــل الســـادس والعشـــرون

العودة إلى دمشق

مغادرة ريكاردوس الديار المقدسة وحظوظه العاثرة

في ١٠ تشرين الأول (اكتوبر) ١١٩٢ غادر ريكاردوس قلب الأسد الديار المقدسة، وهو أشد قلقاً من يوم مجيئه في حزيران ١١٩١، إذ لم يكن الصلح الذي وقعه مع صلاح الدين ذلك الذي كان يتمنّاه؛ كما لم يعد احتلال القدس، وفشل في الربط بين أسرته والأسرة الأيّوبية، بل دمرته هذه الحملة تدميراً، فعاد مخذولاً، إذ ردّته المعارك والحميّات عجوزاً، متراجعاً دون مملكة القدس التي كم غدت بعيدة نائية المطرَّح بعد أن شاهد عاصمتها من أقرب مكان ممكن. فأيّ أمل كان سيستبقيه على هذا الساحل الذي طفق يغيب عن عينيه، وهو الآن يمخر العباب نحو الغرب. وأيّة تجارب كانت تنتظره لدى عودته؟ كان فيليب أوغست وأخوه هو يعملان معاً على هلاكه؛ وصار على مثل اليقين بأن غبار البشر — ولو ملوكاً كانوا — يتناثر أمام نفحةٍ ربانية واحدة، وتجهمت السماء بوجه ذلك الابن الملعون؛ فدفعت الريح سفينة ريكاردوس في خليج البندقية طارحة إياها حطاماً قرب إكيلية. واضطر ملك انكلترا لعبور قسم من أوربا لأن يقوم بحركة التفاف واسعة لاجتناب مملكة فرنسا وجواسيس فيليب أوغست وكمائنه الخفيّة، فصعد من البندقية شمالاً، ودخل متخفياً أراضي

دوق النمسا الذي لطخ رايته بالوحل غداة الاستيلاء على عكا، وقد سُرّ هذا الأخير حينما علم أن ريكاردوس قلب الأسد تائه الآن فوق أرضه متنكراً بزيّ فلاح، وكان ما يزال متأثراً بالإهانة التي لحقت به، فأمر بمطاردة ملك انكلترا الذي لم يلبث أن عُرف فأُوقف وسُجن، وقد عامله ليوبولد دوق النمسا دونما احترام وأبقاه راسفاً في قيوده مدة ثلاث سنوات قبل أن يسلمه إلى هنري السادس إمبراطور جرمانيا الذي كان بدوره يضغن عليه ضغينة لا انطفاء لأوار لظاها لتلك الطريقة غير اللائقة التي تصرّف بها في صقلية؛ وفي مقابلة لم تغب عنها قوارص الكَلِم اتهم كل من الملكين الآخر بالفظاظة والاحتيال والاغتيال. بيد أنّ صَدَى المنازعات، ووصف سوء المعاملة التي لقيها ريكاردوس سببت استياء بعض الانكليز والنورمانديين والبابا نفسه، ولكن الجرمان ظلوا يرفضون إطلاق سراح الملك إلّا بعد محاكمته ليس بوصفه ملكاً بل كرجل عادي، فلجأ الملك إلى برلمان سبير، وهدد البابا، وأمام عدم تراجع هنري السادس رمي بالحِرْم أولئك الذين كانوا يأسرون ملك انكلترا. ورغم صواعق روما ظل قائد الصليبية الثالثة سجين الامبراطور سنة أخرى، ولم يستعد حريته إلّا لقاء مائة وخمسين ألف مارك فضة، منها مائة ألف تدفع نقداً؛ ولكن ما إن استطاع العودة إلى وطنه ووطئت قدماه الأرض حتى علم بأن أخاه كان ينتظره على رأس ثائريه...

أريحية صلاح الدين وعظمة نفسه

أمّا صلاح الدين، فما إن علم بأن آخر المراكب الانكليزية توارت وراء الأفق الغربي حتى سرح قوات سنجار والموصل. وقال موصياً ابنه الملك الأفضل الذي كان يتجه إلى حلب[1]:

«أوصيك بتقوى الله تعالى فإنها رأس كل خير، وآمرك بما أمر الله به فإنه سبب نجاتك، وأحذرك من الدماء والدخول فيها والتقلد بها فإن الدم لا ينام، وأوصيك بحفظ قلوب الأمراء وأرباب الدولة والأكابر فما بلغتُ ما بلغت إلّا بمداراة الناس، ولا تحقد على أحد فإن الموت لا يبقي على أحد، واحذر ما بينك وبين الناس فإنه لا يغفر إلّا برضاهم، وما بينك وبين الله يغفره الله بتوبتك فإنه كريم».

هذه الكلمات وحدها تبين ما كان عليه من أريحيةِ ذلك الرجل... صلاح الدين الذي كان أعداؤه أنفسهم يعترفون له بعظمة النفس.

أعمال صلاح الدين الإصلاحية

وأمضى السلطان عيد الفطر في القدس، وانتهز هذه الفرصة للقيام ببعض الأعمال الهادئة، فأوكل إدارة المدرسة التي بناها إلى أمين سره الخاص بهاء الدين رفيق السلاح الوفي في كثير من معاركه. وكتب العماد «أنه أمر بإعلاء أسوار القدس وتدعيمها وتزيين أبنيتها وتأمين طرقها، وأضاف إلى وقف المدرسة سوقاً بدكاكاينها وبناءً محاطاً بالبساتين وحسّن وضع الصوفيَّة ومنحهم وقفاً مهماً. وحوّل الكنيسة القائمة في حي القيامة إلى مستشفى جهزّه بالأطباء من جميع الاختصاصات، وجعل السور يمر فوق قبة صهيون فضمها بذلك إلى القدس، وأحاط المدينة بالخنادق»(٢).

أمّا الآن وقد عمّ السلم الشرق كله فقد أراد صلاح الدين أن يؤدي فريضة الحج، ويسجد أمام الكعبة شكراً لله على نعمه التي غمر بها مُلكه؛ وأعلن عن رغبته تلك، وأمر الديوان بتسجيل اسم كل من أراد من أفراد الجيش أداء فريضته لإحصاء عدد الذين سيسلكون طريق الحج، ولإعداد ما يلزم من نفقات خلع ومؤونة. وكلف سيف الإسلام حاكم اليمن بتأمين سلامة قافلة الحجيج. وكان كل شيء جاهزاً للسفر إلى الديار المقدسة حينما تلقى صلاح الدين أنباء مزعجة من أخيه الملك العادل الذي كان حينذاك في قلعة الكرك. كان الخليفة العباسي يتذمر من سلوك بعض اقطاعيي ما بين النهرين المتمتعين بشيء من حماية السلطان. لأن بغداد لا تقبل بتدخله السرّي في شؤون الخلافة في العراق أو خراسان، على حين كان شيوخ البدو في سورية يظهرون بمظاهر السادة بعد عودتهم من حرب فلسطين الظافرة التي أبلوا فيها بلاءً حسناً بحيث صاروا يتصرفون وكأنهم مساوون لأمراء أمير المؤمنين، ومسألة أمراء ما بين النهرين هذه لم تسوّ على الإطلاق تسوية ترضي الجميع. فأرسل صلاح الدين قاضي دمشق إلى بغداد لشرح وجهة نظره. وقبل أن يتوجه إلى مصر لتفقد أحوالها رغب صلاح الدين في قضاء بضعة أشهر في دمشق؛ فغادر القدس يوم الثلاثاء في ١٥ تشرين الأول (اكتوبر) ١١٩٢، وفتش الحصون البحرية على الساحل، وسلك طريق بانياس؛ وتوقف في نابلس ليطلع على شؤونها لأن الأهالي كانوا يتذمرون من تصرفات حاكم المدينة المشطوب لما أشيع عنه من قسوة. واتجه بعدها نحو السامرة، وفي قلعة كوكب استقبل

بهاء الدين قراقوش القادم في موكب مهيب لتقديم احترامه وتأكيد ولائه، مفتشاً حيثما مرّ الإنشاءات العسكرية تفتيشاً دقيقاً.

أمير انطاكية يطلب حماية صلاح الدين

وأمر صلاح الدين بأعمال إصلاحية في كثير من المواقع الحصينة على الساحل. وجهزها بالفرسان والمشاة؛ وأوجد مراكز عسكرية جديدة خوفاً من عودة مفاجئة للفرنجة. وفي ٣٠ تشرين الأول (اكتوبر) دخل بيروت حيث استقبله حاكمها عز الدين سماح استقبالاً تكريمياً حافلاً. وكان يتأهب لمغادرتها حينما وصل أمير انطاكية بوهيموند، وعدد من حكام إمارته لتقديم الاحترام لصلاح الدين وطلب حمايته، فشرّفه صلاح الدين باستقباله إياه مع مرافقيه البارونات الأربعة عشر وغمرهم بالهدايا، وأظهر لهم الكثير من أمارات المودة وخصص لبوهيموند دخلاً مقداره عشرون ألف دينار تؤخذ من بيت المال[٣].

العودة الظافرة إلى دمشق

ووصل صلاح الدين أخيراً إلى دمشق في ٤ تشرين الثاني (نوفمبر) ١١٩٢ بعد غياب دام أربع سنوات، فاستقبله جمهور بالغ الحماسة. وخلال عدة أسابيع كانت المهرجانات تتلو المهرجانات؛ وشاركت المدينة كلها في هذه المباهج المقامة تكريماً للبطل الأنقى في الإسلام.

صلاح الدين سيف ملحمة الإسلام المنتصر

ومطلقاً لم يبلغ أحد من البشر ما بلغه صلاح الدين من ألَقِ المجد بعد انقضاء عهد الرسول (ﷺ) وقادة الفتح الأولين، إذ أحرز أكبر نصر للإسلام على الفرنجة ــ حطين. وأزاح ستار الظلام القائم بين الشرق والغرب، لقد بكى الناس فقدان القدس في أكثر الأكواخ تواضعاً في فرنسا، ولكن هنا في دمشق، أصبح صلاح الدين في حياته وسيبقى أبداً على مر الأجيال سيف الإسلام. وأضحى رمز الإسلام. وغدا اسمه وحده يجعل يقظة الإسلام تهزّ رهبة أعماق أقصى الولايات في الغرب، وقدم دمشق لتحيّته الأمراء وشيوخ القبائل، وقوّام المقام والقضاة والعلماء وتغنى الشعراء بأعجب ملحمة قام بها خيّالة الرحمن، تحت السماء

المرصّعة بالنجوم في العربية السعيدة على جميع طرق القوافل الممتدة نحو بحر الخزر أو المتغلغلة في قلب القارة الآسيوية الحافلة بالأسرار، في كل مكان تحت الخيام المنسوجة من وبر الجمال أو تحت أروقة الخانات أو في أبهاء أصفهان، في كل مكان في دوارات البربر أو مخيمات المغول حتى عتبة التيبت وهضاب اثيوبيا العالية تغنى الشعراء بقصة الأبطال، ورووا أسطورة «صلاح الدين البطل الأنقى في الإسلام».

مرض صلاح الدين ودنو أجله

إلّا أنه منذ الأسابيع الأولى للعام الهجري ٥٨٩ (١١٩٣) ساءت صحة صلاح الدين، وأغلق الخِصْيَّة بابه في وجوه الزائرين الساعين إلى دمشق لزيارته وتهنئته. وألزمه أطباؤه عدم مغادرة حجرته. ولكن صلاح الدين أراد أن يستقبل في أيام شباط (فبراير) ١١٩٣ قافلة حجاج هامّة عائدة من مكة، وسار إلى ملاقاتها بهذا الطقس البارد في وادي بردى المؤدي إلى دمشق، فأحس بألم ممض، وهو على صهوة جواده وصرعته الحمّى، فعاد إلى دمشق مرهقاً لا يكاد يستقر على سرج حصانه. فلزم الفراش نهائياً.. وتفاقم مرضه بالحمّى التيفية.

يمين الولاء لصلاح الدين ولابنه الأفضل من بعده

ويوم السبت ٢١ شباط (فبراير) قدم بهاء الدين يستفسر عن حاله، مع ولديه الفاضل والملك الأفضل فوجدوه في أسوأ حال. ولمّا غلبت الغيبوبة صلاح الدين تسربلت المدينة حلل الحداد، وأغلق التجار المذعورون دكاكينهم في الأسواق خشية الاضطرابات التي قد تنجم عن اغتياد سيف الإسلام. شعر الملك الأفضل بدنوّ أجل والده وسط عويل النساء، فاستدعى إلى القلعة حاكم دمشق وكل من فيها من الأمراء الأتابكة ليقسموا له يمين الولاء قبل أن يتمكن من الجلوس في الإيوان وترؤّس المأدبة، وكان القضاة قد وضعوا نص اليمين على الشكل التالي: «منذ الآن أقسم أن أكون وفيّاً ومطيعاً لصلاح الدين ما دام حياً وأن أؤيد أبداً حكمه مكرّساً لخدمته حياتي، وأموالي، وسيفي ورجالي. ومن بعده سأظل على هذا الولاء لابنه الأفضل وورثته وأشهد الله على أنني سأطيعه وأؤيّد حكمه مكرّساً لخدمته حياتي وأموالي وسيفي ورجالي، وأن تطابق أفعالي أقوالي والله على ما أقول شهيد. وإذا نسيت قسمي هذا فلتكن زوجاتي طوالق وليعتق عبيدي، وعليّ أن أحج حافياً إلى البيت الحرام»[٤].

خاتمة الملحمة والحداد العام في ديار الإسلام

وفي يوم الأربعاء ٤ آذار (مارس) ١١٩٣ وبعد صلاة الفجر أسلم صلاح الدين الروح وهو في الخامسة والستين من عمره، بينما كان أبو جعفر أمام القلعة يتلو عليه آي الذكر الحكيم، وقد كتب العماد: «وحلت الظلمات محل النور حينما غاب هذا الكوكب ليل السابع والعشرين من صَفَر. وغابت معه ينابيع النور، وأظلمت الدنيا وماتت معه آمال الناس وتوارت الأريحية وانتشر العداء»(٥). وقال محمد بن القادسي: «وفي يوم السبت ثالث عشر ربيع الأول ــ ١٩ آذار (مارس) ــ شاعت الأخبار ــ يعني ببغداد ــ بوفاة صلاح الدين بن يوسف بن أيوب، وذكر أنه دفن معه سيفه الذي كان معه في الجهاد، وكان ذلك برأي الفاضل، وقيل عنه: هذا يتوكأ عليه إلى الجنة.»(٦)، ورفع جثمان والده وواراه الثرى يعاونه خطيب دمشق. وبفقد الإسلام حاميه الناصر ظل يبكيه كما تبكي الأم وحيدها. ولم يبق شخص إلّا صعقه النبأ وأحسّ بأنه أصيب في قلبه وعقله».

لقد مات البطل الأنقى في الإسلام في حالة فقر مدقع غير مخلّف سوى سبعة وأربعين درهماً وقطعة ذهبية صورية.

واضطر المقربون منه إلى اقتراض نفقات الجنازة، وقدّم القاضي الثياب الاحتفالية والكفن رغم أن الفرصة واتته مرتين ليكون أحد أثرى أثرياء زمانه، الأولى عند وفاة الخليفة الفاطمي العاضد، والثانية عند وفاة الأتابك نور الدين ولكنه وزّع على جنده وأنصاره كنوز الخليفة الذي حكم مصر، وربأ بنفسه أن يحوز أية قطعة نقدية من ثروة نور الدين الضخمة واضعاً إياها بين يدي ولده (ولد نور الدين). كان الحِداد عاماً ــ لأنه، كما يقول بهاء الدين، منذ رحيل الخلفاء الراشدين الأربعة لم يصب الإسلام بطعنه كهذه. وأقيمت الصلوات على روحه في جوامع مكة والمدينة، وهو تكريم لم يجر إلّا للخلفاء وحدهم دون سواهم(٧). وقبيل صلاة العصر نقل الجثمان إلى حدائق قصر الصيف، وبعد بضع سنوات خصص له في المدرسة العزيزية قرب الجامع الأموي الكبير المدفن النهائي، حيث ما تزال روحه الطاهرة تنعم بالسلام في هذه المدينة المقدسة: دمشق وسط أنوار مجد يتعاظم من جيل إلى جيل.

زهد صلاح الدين

إن سيد مصر وسورية الجنوبية وسورية الشمالية وفلسطين وحوران، وشرقي الأردن والجزيرة وما بين النهرين واليمن، قاهر الأسر الأرتقية الكثيرة الحركة في ماردين وزنكيي الموصل والأرمن... هذا الذي أنهى الخلافة الفاطمية في مصر لصالح خلافة بغداد، والذي نظّم شؤون الأتابكة السوريين، واستعاد القدس من الفرنجة، وخاض معهم حرباً لا هوادة فيها على امتداد عشرين سنة... نعم! إنّ الرجل الذي حقق كل ذلك لم يخلف لأولاده السبعة عشر ـــ عدا المملكة ـــ سوى سبعة وأربعين درهماً وقطعة ذهبية صغيرة. وأكثر من مرة كان يعوزه ما يقيم به أوَده، ولم تكن وظيفة الخازن عنده مجزية كما لم يكن أمام أولاده الذين لم يصيبوا ملكاً لحداثة سنهم بعد وفاة أبيهم، إلا أن يعملوا لكسب قوتهم لدى إخوتهم وأعمامهم أو أبناء إخوتهم الذين شرعوا يتصارعون كالذئاب حوالي الإرث السياسي لصلاح الدين.

صلاح الدين الصورة الأنقى إسلامياً وعالمياً

وسيبقى صلاح الدين في التاريخ الإسلامي إحدى أعظم صُوَره؛ وحينما كانت أوربا تتعافى من الصدمة السيكولوجية الرهيبة التي اعترتها زمن الفتوحات الإسلامية، وحينما كانت بيزنطة المرهوبة الجانب، نصف الآسيوية ونصف الفرنجية تدع جيوش الحملات الصليبية الأولى تباد في آسيا الصغرى، حاطمةً بذلك حماسة الصليبيين، ظهر صلاح الدين روح الإسلام الأصولي بشبابه المعافى، الكثير الحركة، على مسرح التاريخ؛ فزاد من قوته في هذه اللحظة المؤاتية وخاصة لقيادته الحرب ضد الفرنجة الذين كانوا أقل حماسةً مما كانوا عليه قبل قرنٍ مضى، ومؤكد أن المثل الأعلى الدينيّ كان إلى جانب صلاح الدين في هذا الصراع لطرد الفرنجة نهائياً من سورية وفلسطين، ومن إقطاعاتهم الثانوية فيما بين النهرين، والتي كانت تهدد مركز الخلافة: بغداد، ذلك كان همّ الملك الذي لم يكن سوى سلسلة متلاحقة من المعارك، واستئناف مغامرة الرومان لصالح الإسلام. تلك المغامرة التي كانت تشمل البحر المتوسط والأراضي التي يحدق به، ذلك كان هدف صلاح الدين. كانت مصر الأيوبية وأسطولها مقابل القوة البيزنطية التي فشلت أساطيلها أمام الاسكندرية وتجاه دمياط. وبعد انتصاره الباهر في حطين الذي مهد له فتح القدس وفلسطين، تبدّى جلياً أن الوجود الفرنجي في المشرق أوشك أن يصبح غير قابل للبقاء.

سيد العواصم العربية الثلاث ومعهد وحدة سورية

حينذاك حدث حادث له أهميته؛ فصلاح الدين الذي غدا سيد كل الساحل تقريباً وقف ثاني يوم النصر الذي هزّ أوربا القلقة هزّة مؤلمة أمام قلة مقاتلة مخندقة وراء صخرة صور الصراع، فتقرر على ما يظهر حظ صلاح الدين السياسي. كانت الأمور الكبيرة قد أنجزت، وقوة صلاح الدين ما زالت تتنامى، فأعاد الوحدة السورية، كما ترسخت من النيل إلى دجلة أركان الإمبراطورية الأيوبية سنةً بعد سنة، فامتلك صلاح الدين ثلاث عواصم: القاهرة ودمشق وحلب. وتملقته بغداد تملق الموجس خوفاً، واعتُرِف في الموصل ــ بؤرة الفتن التقليدية ضد السوريين ــ بسلطته. ولكن بعد صور، وإثر حادث عكا العاثرة الحظ والتي لم يستطع صلاح الدين إنقاذ حاميتها، انتهت حياته السياسية. وقد رأى عليه ضربة لازب مساومة ملك انكلترا المحتال، الذي جاء في آخر لحظة بلا نصر حاسم باهر، والذي تمكن مع ذلك أن يتعاقد تعاقد النِّدّ للنِّدّ مع صلاح الدين الذي لم ينتصر عليه في ساحة القتال، ولكن عرف كيف يستنزفه وهو يجره من مفاوضة إلى مفاوضة حتى هذا الصلح الشهير صيف ١١٩٢ الذي استقبله الجميع بحماسة. ويلاحظ أن الغيرة الدينية لدى صلاح الدين لم تكن أبداً ــ منذ صور ــ أقوى مما هي عليه الآن، كانت تتملكه حماسة دينية. لقد قرأ هو نفسه لأولاده المعاهدة التي كتبها له خصِّيص قطب الدين النيسابوري. وحينما لم يكن يستطيع المشاركة في صلاة الجمعة كان يستدعي الإمام، إن كان مريضاً، ويكره نفسه على الوقوف لأداء الصلاة. كان يحصي إحصاءً دقيقاً أيام صومه، وحينما يمضي الليل في خيمته الحربية، كان يأمر حارسه بأن يتلو عليه آياً من الذكر الحكيم؛ وفيما كان الفرنجة يتلقون امدادات جديدة في عكا، وبينما شرع ملكان يتوجهان إلى الأرض المقدسة التي كان صلاح الدين أعاد فتحها، وأيان كان يتردد في المشرق شائعة مفادها أن البابا نفسه سيشترك في الحملة الصليبية ضد صلاح الدين، كان هذا الرجل يزداد يقيناً وثباتاً أمام كل هذه الأخطار ويتضرع إلى الله قائلاً: «إلهي إني أكل أمري إليك، وأرضى بما تبتليني وتبتلي أصحابي إذا كان في ذلك مرضاتك»(٧).

الحاكم العادل والقائد الإنسان

وكمدّبر في تصريف الأمور، يصفه لنا أحسن مؤرخي سيرته بهاء الدين بأنه سلطان

كثير التدقيق فلم يكن يدع لأحد سواه أن يوقّع الشكاوى التي ترفع إليه، وكان يصرف الوقت اللازم لدراسة المذكرات التي كانت ترده من جميع أنحاء المملكة. ورغم حاجته إلى المال لتمويل الحروب وجد سبيلاً إلى خفض الضرائب. وكان محباً للعلوم الفقهية، حامياً للعلماء؛ وفوق كل ذلك بنى قلعة القاهرة الشهيرة، ورمّم الكثير من الأبنية في القدس. وظلت طريقته في تحقيق العدالة سائدة في المشرق. فحينما كانت أعماله تسمح له بذلك يعقد بنفسه ديوانه يومي الاثنين والخميس، يعاونه قضاته سواء في المدينة أو في المعسكر. وكان يقبل المتقاضين المسيحيين أسوةً بالمسلمين. وأمام صلاح الدين كان للفقراء الحقوق ذاتها التي للأغنياء. وكان من الرحمة والشفقة بحيث لم يلبث أن حامت حوله إشاعة الضعف. فكان خدمه يسرقونه بوقاحة، وكان خازنوه ينهبون وارداته دونما اكتراث. فكان صلاح الدين يغضي عن ذلك أو يرى أنها أمور لا تستحق الاهتمام.

هذا القائد، هذا المنتصر في هذا العدد من المعارك(٩) الذي لم يكن يستطيع رؤية الدم المراق إلّا وهو يشعر بامتعاض حقيقي، كان يخشى جانب أمرائه فلا يريد أن يتذكر إساءاتهم، مفضلاً الاحتفاظ بصداقتهم بلطفه وأريحيته، وحينما ثار عليه علناً عدد من الأمراء خلال حصار عكا لم يشأ خلافاً لما كان متوقعاً أن يجعلهم عبرةً لمن يعتبر، والأعجب أنه استطاع أن يثبّت نفسه بلا عنف ولا قوانين استثنائية، ومن دون استعمال السيف أو السم على رأس مملكة إسلامية أوجدها ودعّم أسسها بسنين قليلة. ولم يفكر أحد من أمرائه أو أولاده أو أصدقائه أو خدمه أو مماليكه أن يعترض على ألقابه أو حقوقه، أو أن يفكر في التخلص منه لمناسبة إحدى المآدب الشرقية التي لا نهاية لها، والتي تختتم دائماً بالحلويات اللزجة المتبّلة والأشربة المثلجة التي طالما غُيّب فيها أمراء وأبطال في الإسلام(١٠)...

حواشي الفصل السادس والعشرون

١ ـ جاء في كتاب القاضي بهاء الدين بن شداد مؤرخ سيرة صلاح الدين عن وصيته لابنه الملك الظاهر، قبيل توجهه إلى حلب وليس لابنه الأفضل كما ذكر شاندور.. (راجع ابن شداد: النوادر السلطانية ص ٢٣٨).

٢ ـ أعمال صلاح الدين الإصلاحية في مدينة القدس:

«قال العماد: عاد السلطان بعد السلم إلى القدس، لتفقد أحواله، وعرض رجاله. واشتغل بتشييد أسواره وتحصينها، وتخليد آثاره وتحسينها. وتعميق خنادقه، وتوثيق طرائقه. وزاد في وقف المدرسة سوقاً بدكاكينها، وأرضاً ببساتينها. وكذلك رتب أحوال الصوفية في رعايتها، والوقف الكافل بكفايتها. وغير الكنيسة التي في شارع قمامة بالبيمارستان، ونقل إليه العقاقير والأدوية من جميع الأنواع والألوان. وأدار سور القدس على قبة صهيون، وأضافها إلى المدينة. وأمر بإدارة الخنادق على الجميع، وصمم العزم على الحج فلم يوافقه القدر، وتأسف على فواته، بعد أن قدّم مقدّماته. وأقام شهر رمضان وأفاض الإحسان. وفوّض ولاية القدس وأعمالها إلى عز الدين جرديك حين استعفى منها حسام الدين سياروخ، وولّى مملوكه علم الدين قيصر مادون القدس كعمل الخليل وغزة والداروم وعسقلان..

قلت ولم يزل البيت المقدس شرّفه الله تعالى ملحوظاً بالعمارة والتحصين من عهد السلطان رحمه الله إلى سنة ست عشرة وستمائة فإنّه خرب في المحرم منها بسبب خروج الفرنج وانتشارهم في البلاد فخيف من استيلائهم عليه وفي السنة التي قبلها توفي الملك العادل أبو بكر بن أيوب أخو السلطان وتشتت الناس بعد خرابه ورغبوا عن السكنى به» (أبو شامة: كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢٠٥).

٣ ـ عن استقبال صلاح الدين بوهيموند أمير أنطاكية في مدينة بيروت:

قال العماد الأصفهاني: «ودخل يوم الخميس بيروت وبها واليها عز الدين سامة، فاهتم له بالكرامة. ولما أراد عن بيروت الانفصال، في الحادي والعشرين من شوّال؛ قيل له: إن الإبرنس الأنطاكي بيمند مع عصابة من الوفد قد وصل إلى الخدمة، مستمسكاً بحبل العصمة. فثنى عنانه ونزل وأقام وما ارتحل. وأذن للإبرنس في الدخول، وشرفه في حضرته بالمثول. وقرّبه وآنسه، ورفع مجلسه. وكان معه من مقدّمي فرسانه أربعة عشر بارونياً،

فوهب كلاً منهم تشريفاً سرياً : وأجزل له ولهم العطاء ، وأبدى بهم الاعتناء . وكتب له من مناصفات أنطاكية معيشة بمبلغ عشرين ألف دينار ، وخص أصحابه بمبار . وأعجبه استرساله إليه ، ودخوله بغير أمان عليه . فلا جرم تلقاه بالإحسان ووافقه ، وودّعه يوم الأحد وفارقه . » (نقلاً عن كتاب الروضتين لأبي شامة ج ٢ ص ٢٠٧) .

٤ ــ عن نصّ يمين الطاعة لصلاح الدين وابنه الملك الأفضل من بعده .. جاء في النوادر السلطانية :

ولما رأى الملك الأفضل ما حلَّ بوالده ، وتحقق اليأس منه ، شرع في تحليف الناس ، وجلس في دار رضوان المعرفة بسكنه ، واستحضر القضاة ، وعمل له نسخة يمين مختصرة مُحَصّلة للمقاصد ، تتضمن الحلف للسلطان مدة حياته ، وله بعد وفاته ، واعتذر للناس بأن المرض قد اشتد ، وما نعلم مايكون ومانفعل هذا إلّا احتياطاً على جاري عادة الملوك . فأول من استحضر للحلف سعد الدين مسعود أخو بدر الدين مودود ــ الشحنة ــ فبادر إلى اليمين من غير تشرط . ثم استحضر ناصر الدين ــ صاحب صهيون ــ فحلف ، وزاد أن الحصن الذي في يده له . وحضر سابق الدين ــ صاحب شيزر ــ فحلف ، ولم يذكر الطلاق ، واعتذر بأنه ماحلف به . ثم حضر خشترين الهكّاري ، وحلف . وحضر نوشروان الزرزاري وحلف ، واشترط أن يكون له خبزٌ يرضيه : عَلّكان ومنكلان وحلفا . ثم مدَّ الخوان ، وحضر الجماعة وأكلوا . ولما كان العصر أعيد مجلس التحليف ، وأحضر ميمون القصري وشمس الدين سنقر الكبير وقالا : « نحن نحلف بشرط ألا نسلّ في وجه أحد من أخوتك سيفاً ، لكن رأسي دون بلادك » ــ هذا قول ميمون ــ وأما سُنْقر ، فإنه امتنع ساعة ، ثم قال : « كنت حلفتني على النطرون يميناً ، وأنا عليها » . وحضر سامة ، وقال : ليس لي خبز ، فعلى أي شيء : أحلف ؟ . فروجع فحلف ، وعلّق يمينه بشرط أن يُعطى خبزاً يرضيه . وحضر سنقر المشطوب ، وحلف ، واشترط أن يُرضَى . وحضر اليكي الفارسي ، وحلف . وحضر أيبك الأفطس وحلف وَاشترط رضاه ، ولم يحلف بالطلاق . وحضر أخو سيَاروخ وحلف واشترط رضاه . وحضر حسام الدين بشارة وحلف ــ وكان مقدماً على هؤلاء ــ ولم يحضر أحد من الأمراء المصريين ، ولم يتعرض لهم ، بل حلف هؤلاء النفر ، وربما شذَّ منهم غير معروف : ونسخة اليمين المحلوف بها وفصولها : الفصل الأول : إنني من وقتي هذا قد أصفيت نيتي ، وأخلصت طويتي للملك الناصر مدة حياته ، وإنني لا أزال باذلاً جهدي في الذبِّ عن دولته بنفسي ومالي وسيفي ورجالي ، ممتثلاً أمره ، واقفاً عند مَرَاضيه ، ثم من بعده لولده الملك الأفضل عليّ : ووالله إنني في طاعته ، وأذبُّ عن دولته وبلاده بنفسي ومالي وسيفي ورجالي وأمتثل أمره ونهيه ، وباطني وظاهري في ذلك سواء ، والله على ما أقول وَكيل . هذه نسخة اليمين المحلوف بها ، أعني مقاصدها . (ابن شداد : النوادر السلطانية ص ٢٤٤ ــ ٢٤٥) .

٥ ، ٦ ــ وفاة صلاح الدين :

« وكانت وفاته رحمة الله عليه بعد صلاة الصبح من يوم الأربعاء السابع والعشرين من صفر سنة تسع وثمانين وخمسمائة . وبادر القاضي الفاضل بعد طلوع الصبح فحضر وفاته . ووصلت أنا وقد مات وانتقل إلى رضوان الله ومحل كرامته . ولقد حكى لي أنه لما بلغ الشيخ أبو جعفر إلى قوله تعالى لا إله إلا هو ، عليه توكلت ، تبسم وتهلل وجهه وسلمها إلى ربه . وكان يوماً لم يصب الإسلام والمسلمون بمثله منذ فقد الخلفاء الراشدون . وغشي القلعة والبلد والدنيا من الوحشة مالا يعلمه إلّا الله تعالى ، وتالله لقد كنت أسمع من بعض الناس أنهم يتمنون فداء من يعز عليهم

بنفوسهم . فكنت أحمل ذلك على ضرب من التجوّز والترخص إلى ذلك اليوم . فإني علمت من نفسي ومن غيري أنه لو قبل الفداء لفداء بالنفس . وكان يوماً عظيماً قد شغل كل إنسان ماعنده من الحزن والأسف والبكاء والاستغاثة عن أن ينظر إلى غيره » (أبو شامة : كتاب الروضتين : ج ٢ ص٢١٣).

وقال العماد الأصفهاني :

« ودخلنا إليه ليلة الأحد للعيادة ، ومرضه في الزيّادة ، وفي كل يوم تضعف القلوب ، وتتضاعف الكروب . وانتقل من دار الفناء ، إلى دار البقاء ، في سحرة يوم الأربعاء ، ونابت الظلماء عن الضياء . ودخل قمره ليلة السابع والعشرين في السرار ، ودجت مطالع الأنوار ، ومات بموته رجاء الرجال ، وأظلم بغروب شمسه فضاء الأفضال ، وغاصت الأيادي ، وفاضت الأعادي . » (أبو شامة : كتاب الروضتين ج٢ ص ٢١٣).

٧ ــ « قال محمد بن القادسي وفي يوم السبت ثالث عشر ربيع الأول شاعت الأخبار يعني ببغداد بوفاة صلاح الدين يوسف بن أيوب » (أبو شامة : كتاب الروضتين ج ٢ ص ٢١٤).

٨ ــ دعاء صلاح الدين : انظر النوادر السلطانية لابن شداد ص ١٠ ــ ١٢ .

٩ ــ وجاء في كتاب النوادر السلطانية لابن شداد في ذكر المدن والحصو التي يسَّر الله فتحها على يدي صلاح الدين ــ رحمة الله عليه ــ من ديار الفرنج ــ من سنة ثلاث وثمانين إلى سنة ست وثمانين :

طبرية على بحر الأردن بالسيف . عكا على البحر الكبير بالأمان . حيفا على البحر بالأمان . الناصرة التي تنسب إليها النصارى . الرملة . قيسارية بالسيف . أرسوف بالأمان . يافا بالسيف « مدينتُها » . عسقلان بالأمان . غزة بالأمان . الداروم . صيدا على البحر . بيروت بالأمان . جُبيل . هونين . جَبْلية . تبنين . أنطرطوس « دون أخذ برجها » بالسيف . جبلة « مدينتها بالسيف ، وقلعتها بالأمان » اللاذقيَة مدينتها بالسيف وقلعتها بالأمان . مدينة القدس الشريف خلّصه الله تعالى . نابلس . البيرة بأرض القدس . صفوريَّة . الطُور . حصن دُبُّورية . الفُولة . حصن عقربلا . حصن جينين . سفسطية . كوكب . حصن عفرى « شمالي القدس » . بيت لحم . حصن العازرية بأرض القدس . البرج الأحمر « قريباً منه » . حصن الخليل « عليه السلام » بيت جبرين . تل الصافية . حصن مجدل يابا . قلعة الجيب الفوقاني . « الجيب » . التحتاني . النطرون . الحصن الأحمر . لُدّ بأرض الرملة . قَلَنْوسة « قريباً منها » . يُبنى . القاقون والقيمون . قلعة الكرك « بعد حصار سنة ونصف » . قلعة الشوبك « بعد حصار سنتين » . قلعة السَّلع . الوعيرة . قلعة الجمع . قلعة الطفيلة . قلعة الهرمز . جميع ذلك في وادي موسى والسراة . قلعة صَفَد . حصن يازور . شقيف أرنون . حصن اسكندرونة « بين صور وعكا » . قلعة أبي الحسن « بأرض صيدا » . صيدا أيضاً حصن . بَلَدة بالساحل الأعلى . المرقية « على البحر » . حصن يحمور بأرض عكا . بلنياس بين جبلة والمرقب . صهيون . بلاطنس . حصن الجماهرية . قلعة العيذد . بكّاس . الشُغْر . بكسرائيل . السّرمانية . قلعة بُرْزَية . دَرْبساك . بُغْراس « قريباً من أنطاكية » الدانور بأرض بيروت . السوفند قريباً من صيدا . (ابن شداد النوادر السلطانية ص٢٤٨).

١٠ ــ صلاح الدين في مرآة التاريخ :

آ ـــ صلاح الدين في مرآة مؤرخي عصره :

ويتحدث ابن الأثير عن طرف من مناقب صلاح الدين :

«وكان ، رحمه الله ، كريماً ، حليماً ، حسن الأخلاق ، متواضعاً ، صبوراً على ما يكره ، كثير التغافل عن ذنوب أصحابه ، يسمع من أحدهم ما يكره ولا يُعلمه بذلك ولا يتغيّر عليه .

وبلغني أنّه كان يوماً جالساً وعنده جماعة ، فرمى بعض المماليك بعضاً بسرموز فأخطأته ووصلت إلى صلاح الدين فأخطأته ، ووقعت بالقرب منه ، فالتفت إلى الجهة الأخرى يكلّم جليسه ليتغافل عنها .

وطلب مرّة الماء فلم يحضر ، وعاود الطلب في مجلس واحد خمس مرّات فلم يحضر ، فقال : ياأصحابنا ، والله قد قتلني العطش ! فأُحضر الماء ، فشربه ولم ينكر التواني في إحضاره .

وكان مرّة قد مرض مرضاً شديداً أرجف عليه بالموت ، فلمّا برىء منه وأُدخل الحمّام كان الماء حاراً ، فطلب ماء بارداً ، فأحضره الذي يخدمه ، فسقط من الماء شيء على الأرض ، فناله منه شيء ، فتألّم له لضعفه ، ثمّ طلب البارد أيضاً فأُحضر ، فلمّا قاربه سقطت الطاسة على الأرض ، فوقع الماء جميعه عليه ، فكاد يهلك ، فلم يزد على أن قال للغلام : إن كنتَ تريد قتلي فعرّفني ! فاعتذر إليه ، فسكت عنه .

وأما كرمه ، فإنّه كان كثير البذل لا يقف في شيء يخرجه ، ويكفي دليلاً على كرمه أنّه لمّا مات لم يخلّف في خزائنه غير دينار واحد صوريّ ، وأربعين درهماً ناصرية ، وبلغني أنه أخرج في مدّة مقامه على عكّا قبالة الفرنج ثمانية عشر ألف دابّة من فرس وبغل سوى الجمال ، وأمّا العين والثياب والسلاح فإنّه لا يدخل تحت الحصر ، ولما انقرضت الدولة العلويّة بمصر أخذ من ذخائرهم من سائر الأنواع ما يفوت الإحصاء ففرّقه جميعه .

وأما تواضعه ، فإنّه كان ظاهراً لم يتكبّر على أحد من أصحابه ، وكان يعيب الملوك المتكبرين بذلك ، وكان يحضر عنده الفقراء والصوفيّة ، ويعمل لهم السماع ، فإذا قام أحدهم لرقص أو سماع يقوم له فلا يقعد حتّى يفرغ الفقير .

ولم يلبس شيئاً ممّا ينكره الشرع ، وكان عنده علم ومعرفة ، وسمع الحديث وأسمعه ، وبالجملة كان نادراً في عصره ، كثير المحاسن والأفعال الجميلة ، عظيم الجهاد في الكفّار ، وفتوحه تدلّ على ذلك ، وخلّف سبعة عشر ولداً ذكراً . (ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج ١٢ ص ٩٦ ـــ ٩٧) .

ويتحدث ابن جبير في رحلته عن «حسن سيرة السلطان» فيقول :

وقد تقدّم الذكر أيضاً في غير موضع من هذا الكتاب عن حسن سيرة السلطان بهذه الجهات : صلاح الدين أبي المظفّر يوسف بن أيوب ، وماله من المآثر المأثورة في الدنيا والدين ، ومثابرته على جهاد أعداء الله ، لأنّه ليس أمام هذه البلدة بلدة للإسلام ، والشام أكثره بيد الإفرنج ، فسبّب الله هذا السلطان رحمة للمسلمين بهذه الجهات ، فهو لا يأوي لراحة ، ولا يخلد إلى دَعَة ، ولا يزال سَرجُه مجلسَه ؛ إنّا بهذه البلدة نازلون منذ شهرين اثنين وحللناها وقد خرج لمنازلة حصن الكَرَك ، وقد تقدّم الذكر أيضاً له ، وهو عليه مُحاصِر حتى الآن ، والله تعالى يعينه على فتحه . وسمعنا أحدَ فقهاء هذه البلدة وزعمائها المسلمين بسُدّة هذا السلطان والحاضرين مجلسه يذكر عنه

في حَضْرَة مَحْفِل علماء البلد وفقهائه ثلاث مناقب في ثلاث كلمات حكاها عنه رأينا إثباتها هنا: إحداها أن الحلم من سجاياه، فقال، وقد صفح عن جريرة أحد الجُناة عليه: أما أنا فلأنْ أُخطيء في العَفْوِ أحَبّ إليّ من أن أُصيب في العقوبة. وهذا في الحلم مَنْزَع أحْنَفي (الأحنفي: نسبة إلى الأحنف بن قيس، الذي اشتهر بالحلم).

وقال أيضاً، وقد تُنُوشِدَت بحضرته الأشعار وجرى ذكر من سلف من أكارم الملوك وأجوادهم: والله لو وهبتُ الدنيا للقاصد الآمل لما كنتُ أستكثرُها له، ولو استفرغتُ له جميع ما في خزانتي لما كان عِوَضاً مما أراقه من حُرّ ماء وجهه في استمناحه إياي. وهذا في الكرم مذهب رَشيديّ أو جعفريّ (رشيديّ: نسبة إلى هارون الرشيد. جعفري: نسبة إلى جعفر المتوكل أو إلى جعفر البرمكي).

وحضره أحد مماليكه المتميّزين لديه بالحظوة والأثرة مستعدياً على جمّال ذكر أنّه باعه جملاً مَعيباً أو صرف عليه جملاً بعيب لم يكن فيه، فقال السلطان له: ما عسى أن أصنع لك، وللمسلمين قاضٍ يحكم بينهم، والحقّ الشرعيّ مبسوط للخاصة والعامة، وأوامره ونواهيه مُمْتَثَلة، وإنّما أنا عبد الشرع وشِحْنَته، والشِّحنة عندهم صاحب الشرطة، فالحقّ يقضي لك أو عليك. وهذا في العقد مقصد عُمَريّ (عمريّ: نسبة إلى عمر بن الخطاب).

وهذه كلمات كفى بها لهذا السلطان فخراً، والله يمتّع ببقائه الإسلام والمسلمين بمنّه (رحلة ابن جبير ص ٢٧٠ — ٢٧١).

أما القاضي ابن شداد صاحب سيرة صلاح الدين، فقد قسم كتابه المعروف باسم النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية إلى قسمين، أفرد القسم الأول منه لدراسة أخلاق صلاح الدين وفضائله، بينما بحث في القسم الثاني سيرته العسكرية حتى وفاته..

ومما جاء في القسم الأول ذكر مواظبته على القواعد الدينية وملاحظته للأمور الشرعية: «فهو قد أخذ عقيدته عن الدليل بواسطة البحث مع أهل العلم وأكابر الفقهاء، فتحصل من ذلك سلامة عقيدته..» (ص ٧).

وحين يتطرق ابن شداد لبحث مسألة التزام صلاح الدين بفريضة الزكاة، يقول:
«فإنه مات — رحمه الله تعالى — ولم يحفظ ما وجبت عليه به الزكاة.

وأما صدقة النفل فإنها استنفدت جميع ماملكه من الأموال، فإنه ملك ما ملك ومات، ولم يخلف في خزانته من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية، وجرماً واحداً ذهباً صورياً، ولم يخلّف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً ولا بستاناً، ولا قرية ولا شيئاً من أنواع الأملاك». (ص ٨).

ويتحدث ابن شداد عن عدله؛ فيقول:

«ولقد كان — رحمه الله — عادلاً رؤوفاً، رحيماً، ناصراً للضعيف على القوي.
وكان يجلس للعدل في كل يوم اثنين وخميس في مجلس عام، يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كلّ أحد، من كبير وصغير، وعجوز هرمة، وشيخ كبير، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً.

على أنه كان في جميع أزمانه قابلاً لجميع ما يعرض عليه من القصص كاشفاً لما ينتهي إليه من المظالم ، وكان يجمع القصص في كل يوم ، ويفتح باب العدل ، ولم يردّ قاصداً للحوادث والحكومات ، وكان يجلس مع الكاتب ساعةً ، إما في الليل أو في النهار ، ويوقّع على كل قصة بما يطلق الله على قلبه ، ولم يردّ قاصداً أبداً ولا منتحلاً ولا طالب حاجة .. لقد كان رؤوفاً بالرعية .. فما استغاث إليه أحدٌ إلّا وقف وسمع قضيته ، وكشف ظلامته ، وأخذ بقصته » (ص ١٣ ـــ ١٤) .

« ويروي القاضي ابن شداد كيف أن صلاح الدين جلس بين يديه إلى جانب خصمه التاجر الذي رفع عليه دعوى ، « بعد أن نزل عن طراحته وساواه » على بساط الشرع وبعد أن ربح صلاح الدين الدعوى بالبيّنة القاطعة بحضور شهود عدل ، لم يردّ خصمه خائباً وأمر له بخلعة ونفقة بالغة » (ص ١٥ ـــ ١٦) .

ويتحدث ابن شداد عن كرمه ، بقوله : « وكرمه ـــ قدس الله روحه ـــ كان أظهر من أن يسطر .. وكان يعطي في وقت الضيق كما يعطي في حال السعة » . « ويعطي فوق ما يؤمل الطالب » .. « ويكرم أكثر مما يعطي » .. « وأما تعداد عطاياه وتعداد صنوفها فلا تطمع فيها حقيقة أصلاً . » (ص ١٧ ـــ ١٨) .

أما في ذكر شجاعته ، فيقول :

« ولقد كان ـــ رحمه الله تعالى ـــ من عظماء الشجعان ، قويَّ النفس ، شديد البأس ، عظيم الثبات ، ولا يهوله أمر ، ولقد رأيته ـــ رحمه الله ـــ مرابطاً في مقابلة عدة عظيمة من الفرنج ، ونُجُدُهم تتواصل ، وعساكرهم تتواتر ، وهو لا يزداد إلّا قوة نفس وصبر ، ولقد وصل في ليلةٍ واحدةٍ منهم نيّف وسبعون مركباً على عكا ، وأنا أعدها من بعد صلاة العصر إلى غروب الشمس وهو لا يزداد إلّا قوة نفس ، ولقد كان ـــ رحمه الله ـــ يعطي دستوراً في أوائل الشتاء ، ويبقى في شرذمة يسيرة في مقابلة عدتهم الكثيرة » .

« وكان ـــ رحمه الله تعالى ـــ إذا اشتد الحرب يطوف بين الصفين ومعه صبي واحد وعلى يده جنيب ، ويخرق العساكر من الميمنة إلى الميسرة ، ويرتب الأطلاب ، ويأمرهم بالتقدم والوقوف في مواضع يراها ، وكان يشارف العدو ويجاوره » .

« وما رأيته استكثر العدو أصلاً ، ولا استعظم أمرهم قط ، وكان مع ذلك في حال الفكر والتدبير ، تذكر بين يديه الأقسام كلها ، ويُرتب على كل قسم بمقتضاه من غير حِدَّةٍ ولا غضب يعتريه رحمه الله .

ولقد انهزم المسلمون في يوم المصافّ الأكبر بمرج عكا حتى القلب ورجاله ، ووقع الكوس والعلم وهو ـــ رضي الله عنه ـــ ثابت القدم في نفر يسير ، قد انحاز إلى الجبل يجمع الناس ويردهم ، ويخجّلهم حتى يرجعوا ، ولم يزل كذلك حتى نُصر عسكر المسلمين على العدو في ذلك اليوم .. » .

« وكان ـــ رحمه الله ـــ يمرض ويصح ، وتعتريه أحوال مهولة وهو مصابر مرابط ، وتتراءى الناران ، ونسمع منهم صوت الناقوس ، ويسمعون منا صوت الأذان ، إلى أن انقضت الوقعة على أحسن حال وأيسره » (ص ١٩ ـــ ٢٠) .

أما عن اهتمامه بأمر الجهاد ، فيقول :

«ولقد كان رحمه الله شديد المواظبة عليه، عظيم الاهتمام به، ولو حلف حالف أنه ما أنفق بعد خروجه إلى الجهاد ديناراً ولا درهماً إلا في الجهاد أو في الإرفاد، لصدق وبرَّ في يمينه.

ولقد كان الجهاد وحبه والشغف به قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاءً عظيماً، بحيث ما كان له حديث إلّا فيه، ولا نظر إلّا في آلته، ولا كان له اهتمام إلا برجاله، ولا ميل إلّا إلى من يذكره ويحثُّ عليه، ولقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده ووطنه وسكنه وسائر ملاذه وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمنة ويسرة، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريّحة على مرج عكا، فلو لم يكن في البرج وإلا قتلته، ولا يزيده ذلك إلّا رغبة ومصابرة واهتماماً.».

وكان يعتبر أن الموت في سبيل الله أشرف الميتات، ويقول عن نفسه «غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات» (ص ٢٢ ــ ٢٣).

ويذكر ابن شداد طرفاً من صبره واحتسابه:

فصلاح الدين لم يتوقف أبداً عن الجهاد مهما اعترته الأمراض، وكان «يرتب العسكر للقاء الفرنجة يوم التعبية للحرب»، ويلاقي العدو بنفسه دون أن تلين قناته، رغم مرضه عند الخروبة في حصار عكا:

«وكلما سار العدو يطلب رأس النهر سار هو مستديراً إلى ورائهم، حتى يقطع بينهم وبين خيامهم، وهو يسير ساعة ثم ينزل يستريح، ويتظلل بمنديل على رأسه من شدة وقع الشمس، ولا ينصب له خيمة حتى لا يرى العدو ضعفاً.

ولم يزل كذلك حتى نزل العدو برأس النهر، ونزل هو قبالتهم على تل مطلّ عليهم إلى أن دخل الليل، ثم أمر العساكر المنصورة أن عادت إلى مجال المصابرة، وأن يبيتوا تحت، وتأخّر هو، ونحن في خدمته، إلى قمة الجبل، فضُربت له خيمة لطيفة، وبتُّ تلك الليلة أجمع أنا والطبيب نمرضه ونشاغله، وهو ينام تارة ويستيقظ أخرى، حتى لاح الصباح، ثم ضُرب البوق، وركب هو، وركبت العساكر، وأحدقت بالعدو، ورحل العدو عائداً إلى خيامهم من الجانب الغربي من النهر، وضايقهم المسلمون في ذلك اليوم مضايقة شنيعة.

ولقد رأيته ــ رحمه الله ــ بمرج عكا، وهو على غاية من مرض اعتراه بسبب كثرة دماميل، كانت ظهرت عليه من وسطه إلى ركبتيه، بحيث لا يستطيع الجلوس، وإنما يكون متكئاً على جانبه إن كان بالخيمة، وامتنع من مدِّ الطعام بين يديه لعجزه عن الجلوس، وكان يأمر أن يفرَّق على الناس، وكان مع ذلك قد نزل بخيمة الحرب قريباً من العدو، وقد رتَّب الناس ميمنة وميسرة وقلباً تعبية القتال، وكان مع ذلك كله يركب من بكرة النهار إلى صلاة الظهر يطوف على الأطلاب، ومن العصر إلى صلاة المغرب وهو صابر على شدة الألم وقوة ضربان الدمامل، وأنا أتعجب من ذلك، فيقول: إذا ركِبتُ يزول عني ألمها حتى أنزل، وهذه عنايةٌ ربانية.» (ص ٢٤ ــ ٢٥).

وكان صلاح الدين «حليماً متجاوزاً قليل الغضب» يحافظ على أسباب المروءة «نديّ اليد، كثير الحياء،

مبسوط الوجه لمن يرد عليه من الضيوف، لا يرى أن يفارقه الضيف حتى يطعم عنده، ولا يخاطبه بشيء إلّا وينجزه.. وكان يكرم الوافد عليه وإن كان كافراً». (ص ٣٠ — ٣١).

«وكان حسن العشرة، حسن الأخلاق.. طاهر المجلس، طاهر السمع طاهر اللسان، حسن العهد والوفاء».

ويختتم ابن شداد القسم الأول من كتابه النوادر السلطانية، بقوله:

فهذه نبذ من محاسن أخلاقه ومكارم شيمه، اقتصرت عليها خوف الإطالة والإسآم، وما سطرتُ إلا ما شاهدتُه، أو أخبرني الثقة به وحققتُه؛ وهذا بعض ما اطلعت عليه في زمان خدمتي له، وهو يسيرٌ مما اطلع عليه غيري ممن طالت صحبته، وقدمت خدمته، ولكن هذا القدر يكفي الأريب في الاستدلال على طهارة تلك الأخلاق والخلال. (ص ٣٤).

ب ـ صلاح الدين في مرآة العصر

هذه هي صورة صلاح الدين التي نقلها لنا مؤرخو عصره بروح من الموضوعية، من المشاهد العيانية المباشرة أو نقلاً عن ثقة.. فلا عجب أبداً أن تكون الصورة زاهية بالنسبة للمؤرخين المعاصرين عرباً وغربيين.. ومن هنا كان عنوان كتابنا هذا: «صلاح الدين.. البطل الأنقى في الإسلام» لشاندور الذي أعطاه حقه.. ولقد تناول كارل بروكلمان مجملاً عدداً من صفاته وما امتاز به، بقوله:

«وليس من شك في أن قلة ضئيلة من أمراء الإسلام كانت تضارعه من حيث تجرده عن أيما نزعة إلى الكسب الشخصي، ومن حيث انصرافه إلى خدمة دولته ورعاياها ليس غير، ولم يستطع أعداؤه أنفسهم إلا الإقرار له بالشهامة والنبل في معاملة الخصم المغلوب. ليس هذا فحسب، فقد كان صلاح الدين بالإضافة إلى ذلك كله نصيراً للعلم» (تاريخ الشعوب الإسلامية ص ٢٣٢).

ويقول الباحث الأستاذ قدري قلعجي:

«والواقع إنّ سر عظمة صلاح الدين ودعامة مجده، هي الأخلاق التي امتاز بها في وقت تفسخت فيه الأخلاق وانهارت القيم. وقد استعاض بقوة هذه الأخلاق الكريمة عن العبقرية العسكرية والدهاء السياسي. وكانت هذه الأخلاق تظهره أحياناً بمظهر البساطة والسذاجة، فيحاول الكثيرون استغلالها، ولكنها كانت تتغلب في النتيجة على الخديعة والمكر، وتتحطم تلك المحاولات على صخرة منيعة من الصفاء والوفاء ونبل الغاية والوسيلة معاً.».

وقد أعطى صلاح الدين الغرب، بعدله ورحمته وتسامحه، صورة جديدة للإسلام، فزالت تلك الروح العدائية القديمة التي حملت الصليبيين إلى الشرق سنة ١٠٩٦، حتى غدا ملك الانكليز يقترح كما رأينا زفّ شقيقته إلى أحد أمراء المسلمين.

ويلاحظ الأستاذ نقولا زيادة أنّ الصليبيين كانوا في السنين الأولى من القرن الثاني عشر قد عللوا عظمة عماد

الدين زنكي بأن جعلوه ابن الكونتيس ايفا التي اشتركت في الحملة الأولى ، وفي زمن الحملة الثانية اعتقدوا أنّ قلج أرسلان من نسل جرماني شريف ، ولكن بعد أن ذاعت شهرة صلاح الدين ظهرت أسطورة تعلل عظمة توماس بكت أحد مشاهيرهم بجعله ابناً لأم عربية .

ومن جهتنا نقول : ولا عجب ، أن تحاول الصهيونية العالمية اليوم وربيبتها إسرائيل أن تدعي ، كما ادعى صليبيو الأمس ، أن صلاح الدين ينتمي إلى القبائل اليهودية ، وتسعى لإلباسه الطاقية الصهيونية ؛ فهي رغم خشيتها من ظهور صلاح الدين جديد ، يقود ملحمة حطين عربية فاصلة معاصرة ، لا تملك إلّا أن تعجب بعظمة هذا الإنسان الكبير ، فتسعى لتزوير التاريخ ، لتجعل منه بطلاً من أبطالها ..

ويخلص الباحث قدري قلعجي إلى القول :
وهكذا تثبت سيرة صلاح الدين الأيوبي أنّ القوة لا تصنع البطولة إذا لم تقترن بالمروءة ومكارم الأخلاق .

فيا سيرة صلاح الدين علمينا مناقب الأبطال ! (قدري قلعجي : صلاح الدين الأيوبي ص ٤٥٢ ــ ٤٥٣) .

جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٨	١٧	يتضخ	يتضح
٢٩	١٠	فردريك	فريدريك
٣٤	٢٠	بأيدهم	بأيديهم
٣٧	٦	منسكناً	مسكناً
٤٠	٤	تشجع	تشجيع
٤١	١٤	كلابِهُ	كلابَهُ
٤١	١٦	المقربون	المقربين
٤٤	الأخير	أو	و
٥٤	١٧	المسملون	المسلمون
٦١	٩	دي مولاي	دي موليبه
٨١	٤ ــ أسفل	ألا يعزب	ألا يغرب
٨٩	٧	أبا لخدعة	بالخدعة
١١٥	٩	عرش مصر	عرش دمشق
٢٤٧	٨ ــ أسفل	من السور	عن السور
٢٩٠	٥	وررمانية	وررومانية
٣٤٥	١٠	أسنده	أسندها
٣٤٨	٤ ــ أسفل	منطوي	طاويّ
٣٧٩	٤ ــ أسفل	يحدق	تحدق

الفهرس

الفصل الأول

التمخضات الكبرى في العالم الإسلامي

عشية الحروب الصليبية

الفصل الثاني

سورية الفرنجية

الفصل الثالث

الحملة الصليبية الثانية

ويقظة الإسلام السوري

الفصل الرابع

صراع الفرنجة والمسلمين

على وادي النيل

الفصل الخامس

صلاح الدين يحل في القاهرة محل الفاطميين ويؤسس السلالة الأيوبية

الفصل السادس

القاهرة

الفصل السابع

نور الدين ضد صلاح الدين

الفصل الثامن

فتح سورية

الفصل التاسع

كارثة الأيوبيين في سهل عسقلان

الفصل العاشر

من ضفاف الفرات إلى ضفاف الأردن

الفصل الحادي عشر

سيد الكرك

الفصل الثاني عشر

مسألة الموصل

الفصل الثالث عشر

النقطة الحاسمة
في الحروب الصليبية

الفصل الرابع عشر

حطين..

النصر الأعظم للمسلمين على الفرنجة

الفصل الخامس عشر

تحرير القدس

الفصل السادس عشر

كونراد دي مونفرًا..
الخصم الند لصلاح الدين

الفصل السابع عشر

صلاح الدين يعمل على إلقاء فرنجة المشرق في البحر

الفصل الثامن عشر

تحالف أوربا المسيحية ضد الإسلام

الفصل التاسع عشر

رينو دي ساجيت وصلاح الدين

الفصل العشرون

ملحمة عكا

الفصل الحادي والعشرون

مصائب الإمبراطور

فريدريك باربروس في آسيا الصغرى

الفصل الثالث والعشرون

فيليب أوغست وريكاردوس قلب الأسد في مواجهة صلاح الدين

الفصل الثاني والعشرون

صراع الشرق والغرب
أمام أسوار عكا

الفصل الرابع والعشرون

ملك انكلترا يسعى لتنصيب أسرته في الأرض المقدسة

الفصل الخامس والعشرون

الصلح الصعب

الفصل السادس والعشرون

العودة إلى دمشق

صلاح الدين الأيوبي البطل الأنقى في الإسلام/تأليف البير شاندور؛ ترجمة سعيد أبو الحسن؛ تحقيق نديم مرعشلي.ـ ط. ١.ـ [دمشق]: دار طلاس، ١٩٨٨.ـ ٤١٠ ص.؛ ٢٥ سم.

١ـ ٩٥٦٫٠٥٥٩١ ش ا ن ص ٢ـ ٩٥٦٫٠٥٤٥ ش ا ن ص ٣ـ العنوان ٤ـ شاندور ٥ـ أبو الحسن ٦ـ مرعشلي

مكتبة الأسد

رقم الإيداع ـ ١٩٨٨/٨/٩٤٤

رقم الاصدار ٣٥٧

